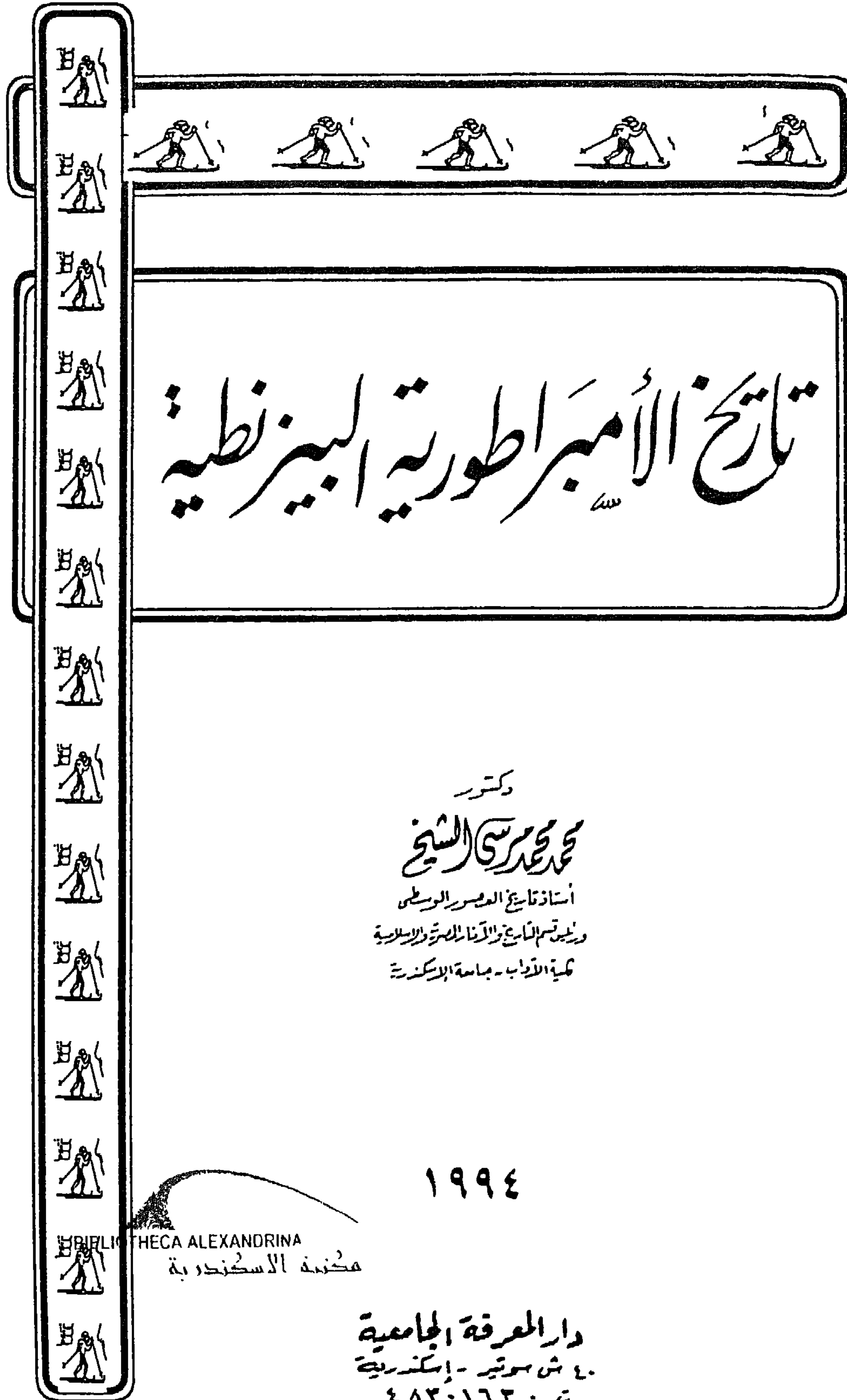
تاريخ الامبراطورية البيزنطية

دكتور
محمد محمد مرسي الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٤

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣



تاريخ الامبراطورية البيزنطية

دكتور
محمد محمد مرسي الشيخ
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٤

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

تقديم

عاشت الامبراطورية الرومانية أزهى عصورها قديماً، وبلغت أوج عظمتها فى القرنين الأول والثانى الميلاديين، أثرت فيهما أوربا وملحقاتها فى الشرق ثراء عظيما فى كافة الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية، قبل أن تضعف فى القرن الثالث الميلادى وتتكالب عليها المحن، وتتعرض لما عرف بأزمة القرن الثالث، وتصبح بحاجة لمن يقيلها من عثرتها، ويرم التصدع الذى بدا فى جسدها وهو مافعله الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٥م) قرب أواخر ذلك القرن فأطال عمر الامبراطورية فى الغرب نحو قرنين من الزمان، ومنحها فترة أخرى من التماسك إلى مستهل الربع الأخير من القرن الخامس الميلادى.

وإذا كان الشق الغربى من الامبراطورية الرومانية قد ذوى وأضمحل، واجتاحه الجرمان فى النهاية واستولوا على روما سنة ٤٧٦م، وطمسوا معالم الغرب الأوربى، وهيمنوا على مقدراته منذ مطلع العصور الوسطى، وتحكموا فى ذلك الشق من الامبراطورية الرومانية بأقطاره وأقاليمه الهامة: إيطاليا وغاله (فرنسا) وأسبانيا وشمال افريقيا والجزر البريطانية وجزءً كبيرا من المانيا الحالية، فإن الشق الشرقى من تلك الامبراطورية ظل صامدا أمام المحن قويا فى مواجهة البرابرة يعلو فوق التداعى ويسمو فوق السقوط، واستمر قائما بعد سقوط روما مدة تقرب من ألف عام، عرف خلالها بالامبراطورية البيزنطية، وظل يدعى أنه وحده وارث الامبراطورية الرومانية بل ويتشبث أحيانا بالتسمية القديمة لتلك الامبراطورية.

وهكذا شكلت الامبراطورية البيزنطية أو الامبراطورية الرومانية الشرقية الشق الشرقى من الامبراطورية القديمة، وظلت تتمسك بهذا الشق طوال العصور الوسطى، وتحاول الحفاظ على كيانها فى البلقان وآسيا الصغرى

وأطراف العراق وبلاد الشام ومصر، حتى نجح المسلمون فى اقتطاع ملحقات هذه الإمبراطورية فى الشرق فاستولوا منها على أطراف العراق وبلاد الشام ومصر وشمال إفريقيا، فقنعت الامبراطورية بعد ذلك بما بقى لها فى آسيا وشرق أوربا من أملاك، وواصلت تاريخها إلى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا، حين سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م، وانتهى عصر هذه الامبراطورية، وأفل نجمها نهائيا وورث العثمانيون معظم أملاكها فى أوربا وآسيا.

جرى التاريخ الوسيط فى أوربا اذن فى اتجاهين مختلفين، هيمنت القبائل الجرمانية على الغرب الأوربى، وأقامت الممالك الجرمانية فى إيطاليا وغالة وأسبانيا وشمال إفريقيا والجزر البريطانية وجزءً كبيرا من ألمانيا الحالية، وعاشت هذه الممالك فترات متفاوته فى التاريخ الأوربى الوسيط، فى الوقت الذى ظلت فيه الإمبراطورية الشرقية أو ماعرف بالإمبراطورية البيزنطية قائمة حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، وظلت هذه الامبراطورية تتشبث بتراث روما وسماتها حتى استولى المسلمون على ملحقاتها فى الشرق فى القرن السابع الميلادى، فتبلورت شخصيتها منذ ذلك الحين فيما بقى لها من أملاك فى شرق أوربا فى البلقان وبلاد اليونان فضلا عن آسيا الصغرى.

امتد عصر الامبراطورية البيزنطية إذن أكثر من ألف عام حتى سقوط القسطنطنية فى أيدى العثمانيين سنة ١٤٥٣م، على الرغم من أن بعض المؤرخين يعتقد أن سقوط مدينة القسطنطينية فى أيدى الصليبيين فى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى (سنة ١٢٠٤م) فيما عرف بالحملة الصليبية الرابعة، إنما يمثل نهاية التاريخ البيزنطى، وأن الفترة التى تلت استرداد القسطنطينية سنة ١٢٦١م من أيدى الصليبيين وحتى سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م، لا تمثل تاريخا بيزنطيا نقيا، نظرا

بيزنطيا نقيا، نظرا لما أصاب تاريخ بيزنطة في هذه الفترة المتأخرة من تغيرات فقد خلالها سماته ومقوماته وخصائصه المعروفة، وأن هذه الفترة وهي نحو قرنين من الزمان لا تمثل جزءاً من تاريخ بيزنطة الذى انتهى فعلا فى رأى هذا الفريق سنة ١٢٠٤م حين استولى الصليبيون على القسطنطينية وجعلوها إمارة لاتينية فى الشرق.

وعلى هذا فتاريخ الامبراطورية البيزنطية – فى رأى فريق من المؤرخين – يمتد إلى القرن الخامس عشر الميلادى، أى أكثر من ألف عام، وفى رأى فريق آخر، يمتد هذا التاريخ إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى فقط، أى إلى مجىء الصليبيين فى الحملة الصليبية الرابعة التى استولت على القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، أى نحو تسعة قرون من الزمان.

ومهما يكن من أمر فالمعروف أن تلك الامبراطورية عاشت فترة هامة فى التاريخ، تبلورت فيها شخصيتها تبلورا ملحوظا منذ عهد الإمبراطور هرقل فى أوائل القرن السابع الميلادى، ولعبت خلالها دورا بارزا وهاما فى التاريخ الوسيط، وحمت أوربا من هجمات البرابرة والشعوب الطامعة، وظلت تحرس المدخل الشرقى لأوربا هذه الفترة الطويلة التى تقترب من ألف عام، كانت القسطنطينية خلالها قلعة صامدة وحصنا قويا فى مواجهة غزوات شرسة لو نجحت فى اقتحامها لربما تغير وجه التاريخ الأوربى كله تغيرا كبيرا، ولربما ضاعت الحضارة وتراث روما وتقاليدها التى حرصت عليها فترة طويلة من الزمان.

ولقد اتسم تاريخ الامبراطورية البيزنطية بسمات خاصة وخصائص معينة، اختلف بها عن تاريخ الغرب الأوربى الذى مرح فيه الجرمان وهيمنوا على أقداره شطرا هاما من تاريخ العصور الوسطى، ذلك أنه توالى على حكم بيزنطة منذ عهد قنسطنطين الكبير اسرات بيزنطية حاكمة، تعاقبت على

حكم الامبراطورية، وتفاوتت عهودها بين القوة والضعف وبين الطول والقصر، وتفاوت عطاؤها لتلك الامبراطورية بين العظمة والاضمحلال، لكن عهود هذه الأسرات البيزنطية شكلت سمة هامة فى تاريخ تلك الامبراطورية، وظلت تمثل خصائصه المميزة طوال العصور الوسطى، على الرغم من أنه تخلل عهود هذه الأسرات أحيانا فترات ضعف واضمحلال وعدم استقرار، كانت تنتهى فى الغالب بظهور أسرات جديدة يطول أمدها أو يقصر بحسب الأحوال وبقدر مايتاح لها من أباطرة يمنحونها القوة والاستقرار أو يعجلون احيانا بضعفها واضمحلالها فتخلى المكان لعهد جديد، وهكذا طوال عصر هذه الامبراطورية الطويل.

فقد تعاقب على حكم هذه الامبراطورية عدد وافر من الأسرات البيزنطية الحاكمة منذ عهد قنسطنطين الكبير بانى القسطنطينية بدأتها أسرة قنسطنطين وأسرة ثيودسيوس وأسرة ليو وأسرة جستنيان وأسرة هرقل والأسرة الأيسورية والأسرة العمورية، والأسرة المقدونية وأسرة دوقاس والأسرة الكومنينية وأسرة أنجيليوس إلى سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤م، تخلل عهود هذه الأسرات فى كثير من الأحيان فترات انتقال، كانت تنتهى فى أغلب الأحيان بظهور أسرة جديدة تتربع على عرش الإمبراطورية وتمنحها ماكانت تفقده من إستقرار خلال فترة الانتقال وتعطيها أمنا وأمانا لتستمر فى الحكم ماحرص الأباطرة على استمراره. وهكذا تعاقبت الأسرات الحاكمة على عرش بيزنطة طوال عهدها حتى سنة ١٢٠٤م.

وإذا كنت قد قدمت فى دراسات سابقة شطرا من تاريخ الغرب الأوربى فى العصور الوسطى فى كتب أعتبرها فى الواقع إسهاما متواضعا فى عرض معالم هذا التاريخ واجلاء غوامضه، بدأتها بكتاب «المماليك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى» الذى صدر سنة ١٩٧٥، ثم بكتاب «دولة الفرنجة

وعلاقاتها بالمسلمين فى الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادى» الذى صدر سنة ١٩٨٠م، ثم أخيرا كتاب «تاريخ اوربا فى العصور الوسطى» الذى صدر منذ سنوات قليلة سنة ١٩٩٠، فإننى فى هذا الكتاب اكمل تاريخ القارة الأوربية فى العصور الوسطى بتناول تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وشرق أوربا حتى يكتمل هذا التاريخ غربا وشرقا وتظهر معالمه وأبرز ملامحه فى تلك الفترة الهامة؛ مؤملا أن يكون هذا الكتاب أيضا إسهاما متواضعا فى إبراز ملامح الشطر الشرقى من القارة الأوربية فى الحقبة الوسيطة، وعملا أيضا يبتغى به وجه الله ووجه الحقيقة، مركزا بصفة خاصة على العلاقات البيزنطية الإسلامية منذ ظهور الإسلام، وبدء الفتوحات الاسلامية حتى يسهل على طلاب التاريخ تتبع هذه العلاقات على مدى التاريخ البيزنطى كله، كما أرجو أن يجد فيه القارىء مايؤمل، وأن يأخذ هذا الكتاب مكانه فى المكتبة العربية كمرجع من مراجع تاريخ هذه الامبراطورية.

والله أسأل أن يوفقنا ويلهمنا الصواب والرشاد.

أنه نعم المولى ونعم البصير

محمد محمد مرسى الشيخ

شهر رمضان المبارك سنة ١٤١٣هـ

الموافق شهر مارس سنة ١٩٩٣م

الفصل الاول

فجر التاريخ البيزنطي

من قسطنطين الكبير إلي جستنيان

الواقع أن بدايات التاريخ البيزنطى إنما ترجع إلى الزمن الذى خرجت فيه الامبراطورية الرومانية من أزمة القرن الثالث الميلادى[١]، وهو القرن الذى اشتدت فيه الفوضى وعم الاضطراب أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وتحكمت الفرق العسكرية فى الدولة، وصار الجند يولون ويعزلون الأباطرة الرومان، وطغى سلطان الجيش على سلطان الحكومة، ولهذا اضطر الامبراطور دقلديانوس الذى تولى سنة ٢٨٤م إلى اتخاذ نظام استبدادى فى الحكم يحمى به السلطة المدنية من خطر الجند[٢]، بل أنه محا طقوس العصر الرومانى وأوضاعه ومهد بما استحدثه فى الحكم والادارة للعصر البيزنطى وما اشتهر به من طقوس وأوضاع، حتى ليعد دقلديانوس الممهد الحقيقى لظهور العصر البيزنطى دون جدال[٣].

لم تكن الدولة البيزنطية اذن إلا امتدادا للامبراطورية الرومانية، كما أن التاريخ البيزنطي ليس إلا مرحلة جديدة من التاريخ الرومانى. ولقد اعتبر الامبراطور البيزنطى نفسه حاكما رومانيا وخليفة القياصرة الرومان ووريثهم فى ملكهم، وحرصت الدولة البيزنطية على صلتها بروما القديمة، وازداد تعلقها بالتراث الرومانى[٤]. وعلى الرغم من ذلك فقد أخذت بيزنطة تبتعد

(١) السيد الباز العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢١،

Ostrogorsky: Hist. of the Byzantine State, p.27.

(2) Camb. Med. Hist. V. I, P. 26.

(٣) محمد الشيخ: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ص٥٠.

(4) Ostrogorsky: op.cit., p.27.

رويدا رويدا وبمضى الزمن عما كان للعالم الرومانى من خصائص ومميزات، إذ غلبت عليها الحضارة واللغة اليونانية، وازداد تأثير الكنسية اليونانية فى الحياة البيزنطية، وأصبح هذا القسم من العالم الرومانى (وهو القسم الشرقى) يونانيا شرقيا فى لغته وثقافته وكنيسته، بينما كان القسم الآخر من العالم الرومانى لاتينيا غربيا فى لغته وحضارته وكنيسته(٥).

والحقيقة أن إصلاحات دقلديانوس كان لها أثر عظيم فى تاريخ الامبراطورية لاسيما إصلاحاته فى نظم الحكم والإدارة، وما ابتدعه من تقسيم للامبراطورية جرى بمقتضاه رسم هيكل عام لقسمين كبيرين أحدهما شرقى والآخر غربى، كما كان نقله العاصمة من روما إلى نيقوميديا فى الشرق إيذانا ببداية حقبة جديدة فى التاريخ(٦)، وإذا كان مسلك دقلديانوس تجاه المسيحية قد اتسم بشىء كبير من العنف والقسوة، فإن ذلك قد أدى من جهة أخرى إلى انقلاب خطير فى الحياة الدينية للامبراطورية وضعها على أعتاب مرحلة جديدة على عهد خليفته «قنسطنطين الكبير»(٧).

أسرة قنسطنطين الكبير (٣٠٦ – ٣٧٨م):

وكان عهد قنسطنطين أبعد أثرا فى تاريخ الامبراطورية، فقد اعترف قنسطنطين رسميا بالمسيحية وجعلها إحدى الديانات المصرح باعتناقها فى الامبراطورية، ونقل عاصمة الامبراطورية من روما القديمة إلى مدينة بناها

---

(5) Diehl: La formation de l'Impire Oriental.

فى كتاب نورمان بينز: الامبراطورية البيزنطية، ص ٣٢١، وانظر ايضا:

Katz: The Decline of Rome , p.5.

(6) Hussey: The Byzantine World. pp. 13-14.

(7) Chadwick: The early Church, p.116.

على شاطىء البسفور فى الشرق سماها القنسطنطينية، ومن أجل ذلك اعتبره المؤرخون محقق الانتقال من العالم القديم إلى عالم العصور الوسطى(٨).

ولقد كثر النقاش حول الأسباب التى دفعت قنسطنطين لبناء القنسطنطينية فمن قائل بأن السبب الرئيسى وراء ذلك هو رغبته فى جعل المدينة الجديدة عاصمة مسيحية، سيما وأن المسيحية سادت الجزء الشرقى من الامبراطورية، وكان لها اليد العليا بين سكانه(٩)، ومن قائل بأنه ربما يكمن الهدف الحربى وراء اتخاذ هذه الخطوة، سيما وأن قنسطنطين كان من أبناء البلقان وأدرك كما أدرك غيره من قبل ومن بعد أن الخطر الرئيسى بالنسبة لإمبراطوريته يأتى من جهة القبائل المتبربرة الضاربة فيما وراء نهر الدانوب من ناحية الدول الشرقية الواقعة فيما وراء نهر الفرات أيضا، فإذا تمكن من اختيار موضع صالح للدفاع عن بلاد البلقان فسوف يصبح قادرا على إنقاذ الامبراطورية من أشد الأخطار المحدقة بها(١٠)، هذا فضلا عما يمكنه ذلك الموقع الممتاز من الاستفادة من تجنيد أبناء ايلليريا الأشداء، كما لايخلو الأمر من أسباب شخصية أيضا إذا رأى قنسطنطين أن يشيد للامبراطورية عاصمة جديدة على غرار مافعل رميلوس منشىء روما والاسكندر المقدونى منشىء الاسكندرية(١١).

ومهما كانت الأسباب فى اتخاذ هذه الخطوة، فقد وقع اختيار قنسطنطين على موقع مدينة بيزنطة القديمة ذات الموقع الحصين والمناعة

---

(8) Baynes: The Byzntine Empire, p.3.
(9) Ostrogorsky: op.cit., p.42.
(10) Lot: The end of the Ancient World, pp. 36-7.
(١١) فشر: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى، ق١ ص٩.

الطبيعية والصلاحية لإقامة الحصون والقلاع وبناء السفن والأساطيل، فقد كانت بيزنطة قائمة على رأس ناتىء فى البحر ممتدة نحو عشرة كيلومترات فى ساحل البسفور الأوربى، وهذه الرأس هى المعروفة بالقرن الذهبى(١٢)، وهو النتوء الذى يتخذ شكل مثلث يواجه رأسه قارة آسيا ويطل جانباه على القرن الذهبى وبحر مرمرة، بينما يقوم سور قوى بحماية جانبه الثالث حيث لا تتحكم فى ذلك السور مرتفعات مجاورة. وهكذا احاط البحر بهذه المدينة من جميع النواحى إلا ناحية واحدة وكفل لها جانبا كبيرا من الآمان(١٣).

أقيمت القنسطنطينية اذن عند مدخل البسفور، فأصبحت تتحكم فى الانتقال من أوربا إلى آسيا، ومن البحر الأسود إلى البحر المتوسط، واتخذت موقعا استراتيجيا بالجانب الشرقى من الامبراطورية(١٤)، فغدت قاعدة ناشطة تعبأ فيها الجيوش المرسلة إلى جبهة الدانوب وإلى فارس وترسل منها الأساطيل التى تجوب شرق البحر المتوسط وتسيطر على جانبه الشرقى، وصممت بحيث تصمد للحصارات الطويلة البرية منها والبحرية، الأمر الذى جعلها تصمد لنحو ألف عام قبل أن تسقط نهائيا سنة ١٤٥٣م(١٥).

وكانت مدينة بيزنطة القديمة Byzantium التى أقيمت على موقعها المدينة الجديدة قد أصابها الذبول وتوالت عليها الكوارث الطبيعية

(12) Maclagan: The City of Constantinople. p.13.
Rice: Byzntium, pp. 13-14.
Ostrogorsky: op.cit., p.41.
(13) Hussey: op.cit., p.11.
Katz: op.cit., p.111.
(14) Ostrogorsky: op.cit., PP. 59-60,
العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية ص٣٠..
(15) Rice: op.cit., p.31.

والبشرية(١٦)، فذوت مكانتها فى النهاية واضمحلت ثم تعرضت للتدمير على يد الامبراطور سبتميوس سفروس فجاء ذ لك فصل الختام فى عظمة تلك المدينة القديمة، ولم تعد فى أوائل القرن الرابع سوى قرية صغيرة اتخذها الصيادون قاعدة لهم(١٧).

وضع قنسطنطين نفسه تصميم مدينته الجديدة سنة ٣٢٤م، واستخدم فى بنائها نحو أربعين ألفا من الرجال القوط الأصدقاء أو المحالفين Foederati، وأهتم بجلب النفائس لها من تحف المعابد الوثنية والبنايات القديمة، وأمعن فى البحث لها عن بدائع العمارة والفنون فى أنحاء البلاد ليزينها،(١٨) وبنى بها القصور والدور والسقائف والمحاكم والحمامات. وهكذا ظهرت العاصمة الجديدة فى سماء البسفور بعد نحو ست سنوات من بدء العمل فى تشييدها وجرى افتتاحها فى حفل بهيج فى مايو سنة ٣٣٠م كمدينة عظيمة تنافس روما وتعلو عليها منزلة وشأنا(١٩).

والواقع أن بناء القنسطنطينية جاء متوجا لأعمال هذا الامبراطور العظيم فبفضل بصيرته النافذة وحسن اختياره قامت روما الجديدة حصنا قويا يحمى الامبراطورية ويذود عنها، ودلت الأحداث بعدئذ على أن هذه القلعة المنيعة

---

(١٦) كانت مدينة بيزنطة القديمة مستعمرة يونانية أنشأها الميجاريون سنة ٦٥٢ ق.م. ليمارسوا منها تجارة الحبوب مع جنوب روسيا والمعادن مع أقطار حوض البحر المتوسط، وليستغلوا كذلك مصايد البسفور، أنظر: العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص٧٦.
Ostrogorsky: op.cit, p.41.

(17) Burckhardt: The Age of Constantine The great, p.344.
Maclagan: op.cit., p.16.

(18) Lot: op.cit., p. 39.

(١٩) جيبون: اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ج١. ص٥٠٥.
Baynes, Moss: Byznatium, p.53.

كان لها فضل فى حماية شرق أوربا بأسره من غزو شعوب كثيرة ومن هجمات البرابرة(٢٠)، فحفظت للامبراطورية تراثها وحمته من الضياع، وظلت صامدة نحو ألف عام، كما جاء قيامها تعبيرا عما اكتنف المجتمع الأوربى فى ذلك الوقت من تغيرات دينية وحضارية وسياسية واستجابة لحاجة فريق كبير من رعايا الامبراطورية، فقد أريد لها أن تكون مدينة مسيحية منذ البداية، كما أريد لها أن تتحول إلى عاصمة مسيحية للإمبراطورية الرومانية(٢١)، بعد أن ثبت أن روما القديمة كانت لاتزال معقل الوثنية. وكان لايزال أمامها بعض الوقت كى تلفظ وثنيتها وتتطهر من أرجاس المذاهب الفلسفية القديمة والمعبودات الوثنية الكاذبة(٢٢). وهكذا أراد قنسطنطين أن يكون اعترافه بالمسيحية مقرونا بإقامة حصن لها ومركز جديد لأشياعها لم تدنسه من قبل تيارات الوثنية القديمة أو تلوث أرضه عبادة الآلهة المزيفة، وبإنشاء عاصمة جديدة على البسفور تأكد انتصار الأثر الشرقى فى الحضارة البيزنطية(٢٣).

أما عن موقف قنسطنطين من المسيحية فقد ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لأوربا والعالم الغربى بصفة عامة، وبالنسبة للامبراطورية فى الشرق بصفة خاصة، وكان قنسطنطين قد تجول فى صدر حياته فى أقاليم الامبراطورية فى الشرق، وزار مصر والأقاليم الآسيوية بصحبة دقلديانوس، ووقف دون شك على أحوال المسيحيين ومدى انتشار عقيدتهم فى تلك

(20) Rice: op.cit., P. 13, p.31.
(21) Runciman: Byzantine civilization, p.109.
Maclagan: op.cit., p. 23.

(٢٢) فشر: المرجع السابق ق ١ ص١٠.
(٢٣) العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية ص٣١.

Ostrogorsky: op.cit., p.42.

الجهات(٢٤)، كما كان تعصب جاليريوس - أحد الأباطرة الأربعة على عهد دقلديانوس - ضد المسيحيين واضطهاده لهم قد ترك فى نفس قنسطنطين أثرا سيئا، سيما وأن جاليريوس مالبث أن نازع قسطنطيوس - والد قنسطنطين - السلطة وأظهر شعورا غير ودى نحو قنسطنطين(٢٥)، ولما توفى جاليريوس سنة ٣١١م أثر مرض طويل، واعتبر ذلك جزاء له على موقفه من المسيحية، اقتنع قنسطنطين بقوة إله المسيحيين على الأرض، وبدأ يفكر جديا فى تغيير سياسته تجاه إتباع تلك العقيدة الجديدة(٢٦)، على الرغم من أنه تعلق منذ البداية بعبادة إله الشمس، واعتبره الإلة الذى يحمى الامبراطورية ويرعاه هو شخصيا(٢٧).

بدأ قنسطنطين سياسته الجديدة بأن حرم اضطهاد المسيحيين فى الشطر الغربى من الامبراطورية، فأعطى مسيحى ذلك الجزء قدرا من الأمان، وفى نفس الوقت ترك أمام نفسه فسحة من الوقت يقرر فيها الخطوة التالية(٢٨)، إذا تأكد بصفة قاطعة من قدرة إله المسيحيين على منحه النصر على أعدائه وخصمه ماكسنتيوس، فقد تعلق قنسطنطين برؤيات اقتنع أنه بفضلها سوف ينتصر على خصمة فى ظل شعار المسيح(٢٩)، وتحت لوائه، وحين حملته انتصاراته إلى قلب الامبراطورية وتغلب على خصمه ماكسنتيوس عند جسر مليفيان، إنتهز المسيحيون الفرصة لإعلان أن ذلك كان بفضل إلههم الذى سبق أن وعده بالنصر(٣٠)، ولاشك أن هذه الأمور كان لها نصيب فى زلزلة

(24) Contor: Medieval History, p.44.
(25) Camb. Med. Hist. Vol.1, p.3.

(٢٦) جيبون: المرجع السابق، جـ ١ ص ٤٦٢ - ٤٦٣.

(٢٧) العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ٦٩ - ٧٠.

(28) Chadwick: op.cit., p. 122.
(29) Rice: op.cit., p.16.
(30) Chadwick: op.cit., p. 125.

بعض قواعد الوثنية فى نفس قنسطنطين وجعله أكثر تفهما لقوة العقيدة الجديدة[٣١].

وإذ غدا الامبراطور يعتقد فى إله المسيحيين، فإنه كان يؤمن أيضا بإله الشمس القهار، لهذا حبا المسيحيين بكثير من التسامح فى الوقت الذى احتفظ فيه لنفسه بمنصب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus، وهو المنصب الامبراطورى فى الديانة الرومانية الوثنية، كما أن العملة التى سكها حملت على وجه منها علامة الصليب، وعلى الوجه الآخر شعار عبادة الشمس[٣٢]، على أن قنسطنطين مالبث أن أصدر أوامر صريحة إلى عماله وكبار رجال دولته بوقف اضطهاد المسيحيين ورفع الغبن عنهم، وأرسل إلى عامله بإفريقيا يأمره بإعادة كل أملاك الكنيسة المسيحية التى جرى مصادرتها من قبل، وإعفاء رجال الدين المسيحى من كافة أعباء السخرة.[٣٣] على أن أهم عمل قام به قنسطنطين فى ذلك هو إصداره مرسوم ميلان سنة ٣١٣م الذى اعترف فيه بالمسيحية كاحدى الديانات المصرح باعتناقها وممارسة شعائرها فى الامبراطورية مثلها فى ذلك مثل الوثنية واليهودية، وكفل هذا المرسوم للمسيحيين التمتع بكافة الحقوق التى يتمتع بها غيرهم من أتباع الديانات والشرائع الأخرى[٣٤]، وفى تبرير هذا العمل جاء فى صلب مرسوم ميلان: « ...... لابد لنا أن نبذل للمسيحيين وسائر الناس حريتهم فى أن يتبع كل منهم ما شاء من الديانة .... إما ديانة المسيحيين وإما مايختاره لنفسة من ديانة، معتقداً أنها خير ما يلائمه، حتى ينعم الله الأكبر علينا فى كل

---

(31) Camb. Med. Hist. Vol. I, p.5.

(٣٢) قشر: المرجع السابق ق ١ ص ٧..

(33) Burckhardt: op.cit., p.125.
Camb. Med. Hist. Vo. I., pp.10-11.

(34) Chadwick: op.cit., P. 122.

الأمور بفضله وعطفه ... واننا منحنا أيضا حرية دينية تامة مماثلة لغير المسيحيين اذ أن هذه المنحة بالغة الأهمية للسلام فى أيامنا .... »[٣٥].

وتضمن المرسوم أيضا أوامر برد كل أماكن العبادة والكنائس للمسيحيين من التى سبق مصادرتها دون أن يدفع المسيحيون أثماناً لها، أو يتحملون عنها أية أعباء[٣٦]، على أن السنوات التالية شهدت إصدار عدة تشريعات كانت فى صالح المسيحيين دون شك، فمنح الأساقفة سلطات قضائية استثنائية، وجاز لهم النظر فيما يرفع لهم من مظالم، كما جاز للمواطنين أن يهبوا الأملاك للكنيسة، كما أعفى المسيحيون من تقديم القرابين فى الاحتفالات والأعياد الوثنية، وجرى الاعتراف بما كانت تقوم به الكنيسة من عتق الرقيق[٣٧].

وقد راج حول مرسوم ميلان، وما استتبعه من تشريعات أقوال كثيرة، وقيل أن قسطنطين كان مسيحيا صادق العقيدة وأن ما فعله من أجل المسيحية لايصدر إلا عن مسيحى راسخ الايمان، بينما قيل أيضا أن المصالح السياسية هى التى أملت عليه اتخاذ هذه الخطوه، وأن ما فعله لايعدو أن يكون إسلوباً لتحقيق أهدافه السياسية[٣٨]، وأنه لم يكن قط مسيحياً.

ومهما يكن من أمر فإن هدف قسطنطين بميله نحو المسيحية ظل غير واضح الأسباب الى نهاية حياته، فلعله كان مسيحياً حقاً ولم يعلن عقيدته منذ البداية لظروف بلاده، وعظم الأرستقراطية الوثنية فى الإدارة والجيش وقله المسيحيين الذين لم يتجاوز عددهم حينئذ خمس سكان

(35) The Edict of Milan" in the Med. World by Contor. pp. 24-25. Lot: op.cit., pp. 28-29.
(36) Cantor: The Med. World. p.25.
(37) Eusebuis: "The life of Constantine" in Med. World, pp. 6-7.
(38) Camb. Med. Hist. V. I, pp. 10-11.

الامبراطورية[٣٩]، ولهذا قدم قنسطنطين ما قدمه من أجل المسيحية متظاهرا بأنه رائد التسامح الدينى فى عصر كان يطفح بالتعصب والاضطهاد والهمجية، ولعله لم يكن مسيحياً أيضا نظراً لاحتفاظه بلقب الكاهن الأعظم لإله الشمس وسماحة للوثنية بممارسة شعائرها جنبا إلى جنب مع المسيحية، فضلا عن أنه أتى فى حياته من الأفعال مايتنافى مع كونه مسيحيا ومن ذلك قتله لزوجته وولده، وعدم تعميده إلا وهو على فراش الموت[٤٠].

وكيفما كان الأمر فإن قنسطنطين كان كريما مع الوثنية وكريما أيضا مع المسيحية، وربما أضطر لمسايرة الأمور واتخاذ ذلك الموقف المائع. اذ تشير الدلائل إلى أن الوثنيين وكانوا يمثلون غالبية سكان الإمبراطورية ويمثلون الأرستقراطية الإدارية والعسكرية، قد حملتهم ثقتهم فى كثرتهم العددية ووزنهم فى الدولة على إفساح مكان بين آلهتهم المتعددة لإلة الأقلية المسيحية، وهو أمر يمكن قبوله مادامو يتجهون بولائهم الدينى لجوبتر وإله الشمس ومنيرفاويونو وغيرها من الآلهة الوثنية[٤١]، ومن ثم لم تعد هناك كراهية شديدة لهذا الإله الجديد ولم تعد ثمة هوة سحيقة تفصلهم عن الجانب الآخر، لكن الكراهية الحقيقية جاءت من جهة المسيحيين أنفسهم الذين نظروا إلى تلك الآلهة الوثنية نظرة الاستياء والازدراء والكراهية[٤٢]، ولم يعتبروا تلك الآلهة سوى شياطين ملوّها الخبث والضر وأنها آلهة كاذبة والولاء لها يعد اثما عظيما، ومعنى ذلك أن عقيدة الوثنية اتسعت لتشمل

---

(39) Bury: History of the Later Roman Empire 1, p. 366.

فشر: المرجع السابق ق ١ ص٦.

(40) Lot: op.cit., p.35 .
Maclagan: op.cit., p.21.
Rice: op.cit., p. 15.

(41) Katz: op.cit., p. 55.

(42) Chadwick: op.cit. pp.121-3.

إلهاً جديدا، لكن أتباع هذا الإله الجديد ضاقت بهم حظيرة الايمان عن استيعاب الآلهة الأخرى.

وفى ظل هذا الفهم يمكن تصور مشاعر قسطنطين الذى حمله إفساح صدره وإتساع تسامحه على إظهار الميل للدين الجديد، بجانب ولائه لدينه القديم وشمول أشياع المسيحية بعطفه ورعايته، مع التمسك بالواجهة الدينية القديمة، وإذا أضفنا إلى ذلك ماحدث من اقتناعه بضرورة إظهار الامتنان لإله المسيحيين الذى منحه النصر على أعدائه ورفعه مقاما عليها فى الامبراطورية(٤٣)، جاز لنا فهم ميله الأكثر إلى أتباع هذه العقيدة، وإن لم يمح ذلك ماعداه من عقائد فى نفسه أو يلفظ رواسب الدين القديم، وشيئا فشيئا كانت المسيحية تتغلغل فى نفسه لتزعزع جذور الوثنية الكامنة، فبعد مجمع نيقية المسكونى اختفى من العملة شعار عبادة إله الشمس وحل محله رسم للمسيح ولكن مع ذلك لم يتقرر هدم معابد الوثنية وإنما أكتفى بمنع إقامة الأصنام فيها،(٤٤) وزاد الاهتمام بتشييد الكنائس فى سائر أنحاد الامبراطورية لاسيما فى أرض المسيحية الأولى وموطنها الأول فى بيت لحم وجبل الزيتون حيث اكتشف الصليب الأعظم أو الصليب المقدسThe Holy Cross ، فضلا عن أنطاكية ونيقوميديا(٤٥)

وطبقا لهذا اعتبر قسطنطين نفسه راعيا للكنيسة مسئولاعن وحدتها(٤٦)، فقد جعل الوحدة شعارا وهدفا واعتبر تفرق الكنيسة وتشعبها أمرا لايفيد الدولة إن لم يضر بها، فنصب نفسه رئيسا فخريا للمجامع الدينية، وفيصلا

---

(43) Eusebius: op.cit - in Med. World, p.5.
(44) Ostrogorsky: op.cit. p.43.
(45) Lot: op.cit.p.34.
(46) Hussey: op.cit. p.12.

فى المنازعات الدينية وحكما مطاعا فى تقرير عقائد الكنيسة(٤٧)، إذ لم تكد تمضى شهور على اصدار مرسوم ميلان حتى تفجرت مشكلة الدوناتيين الذين أثاروا خلافا مذهبيا فى جوف الكنيسة، واتخذوا من تعاليم زغيمهم دوناتس Donatus محورا لإثارة الانشقاق المذهبى وأعلنوا وجوب تقديس الشهداء ولعن المرتدين عن المسيحية فى عهد الاضطهاد الدينى(٤٨)، وحاول قنسطنطين أن يكبح جماح هذه الحركة ويعيدها إلى حظيرة الكنيسة من خلال مجمع دينى عقد فى مدينة أرل بجنوب فرنسا سنة ٣١٤م، إلا أنه لم ينجح فى ذلك، وعندئذ لم يتردد فى مصادرة كنائسهم ونفى زعمائهم، إلا أن هذه الطائفة ظلت تناوئ الكنيسة فى عهد جستنيان(٤٩).

على أن الأخطر من ذلك ماشهدته الكنيسة من نزاع مذهبى يمس جوهر العقيدة نفسها، ويتناول ألوهية المسيح، ذلك النزاع الذى ظهر فى مشكلة الأريوسية والاثناسيوسية، والذى تناول أساس العقيدة المسيحية وفجر صراعا طويلا بين أتباع المسيحية(٥٠)، ويدور محور هذا الخلاف حول ما أعلنه اثنان من قساوسة الاسكندرية أحدهما أريوس Arius الذى أنكر ألوهية المسيح وقال إنه مادام المسيح هو ابن الله فلابد وأن يكون أقل منه شأنا وأدنى منزلة، وإذا كان الخلود هو صفة الله الذى لا أول له ولا آخر فإن المسيح

---

(٤٧) فشر : المرجع السابق ق ١ ص٨.

(48) Burckhardt: op.cit., pp. 306-7.
Maclagan: op.cit., pp. 20-27.

(49) Gautier: La Passé L'Afrique du Nord, P. 260.

انظر أيضا : موس ميلاد العصور الوسطى ص ٥٦ (حاشية ٢)،
Camb. Med. Hist. V.I, p.12.

(50) Chadwick: op.cit., p. 125.

لايعد خالدا لأن له بداية؛ ولهذا فليس المسيح إلها[٥١]. فى حين قال أثناسيوس Athanasius بأن الإبن مساو تماما للإله الأب فى المكانة والمنزلة والقدرة بحكم أنهما من عنصر واحد، وأن فكرة الثالوث المقدس: الأب والأبن والروح القدس تدعو إلى إعتبار المسيح إلها لايقل شأنا عن الإله الأب، وتحتم على قسطنطين أن يواجه هذا الموقف الجديد إذاكان له أن يعيد الوحدة الدينية إلى الكنيسة ويرم صدعها[٥٢].

والواقع أن قسطنطين كان شديد الإقتناع بأنه من السهل أن يؤدى الشقاق الدينى إلى اضطراب داخلى، بل ربما يؤدى إلى وقوع الحرب ذاتها، فضلا عما أحدثه انفجار تلك المشكلة من بلبلة فى جوف الكنيسة[٥٣]، وشغل كنائس الشرق والغرب على حد سواء وإحداث تشاحن دينى وصراع مذهبى بين رعايا الدولة، ولهذا دعا قسطنطين نفسه إلى عقد مجمع دينى عام فى نيقية سنة ٣٢٥م لينظر هذه المشكلة[٥٤]، فحضر هذا المجمع نحو ٣١٨ أسقفا عن مختلف أنحاء الامبراطورية ورأسه قسطنطين نفسه على الرغم من أنه لم يكن معمدا، لكنه أظهر مسحة كبيرة من التواضع حين رفض أن يجلس فى مكان الصدارة من هذا المجمع إلا بعد أن سمح له الأساقفة الحاضرون بذلك[٥٥].

ولقد وفق هذا المجمع المسكونى الأول فى صيغة مقبولة؛ اعتبرت المسيح إلها مساويا للأب فى المكانة والمنزلة والقدرة وماعدا ذلك غير مقبول،

---

(51) Ostrogorsky: op.cit. p.44.
(52) Eusebius: "Contantine Pronouncements on the church" - in- Med. World. by Cantor, p.8.
(53) Chadwick: op.cit. p.125.
(54) Burchardt; op.cit. p.309.
Ostrogorsky: op.cit. p.44
Hussey: op.cit. p.12.
(55) Maclagan: op.cit., p.21.

فالمسيح: «......إله من إله ونور من نور وإله حق من إله حق ومولود غير مخلوق». وأدان المجمع أريوس وحرم تداول آرائه وكتاباته، بل تقرر نفى أريوس نفسه، وخاصة حين لم يرفض قرارات هذا المجمع سوى اسقفين فقط من الحاضرين[٥٦].

ولكن على الرغم من ذلك رفض الأريوسيون الذين تركز الجانب الأكبر منهم فى المناطق الشرقية من الإمبراطورية، قرارات هذا المجمع وتشبثوا بآرائهم ولم يحيدوا عنها، بل إنهم أجبروا الإمبراطور قسطنين فى النهاية على العفو عن أريوس[٥٧]، ورفع الاضطهاد عن اتباعه ورفع الحظر عن أقواله وكتاباته، فعفا عنه الامبراطور وإن لم يهنأ أريوس بهذا العفو كثيرا فقد توفى فجأة سنة ٣٣٦م، ولحق به قسطنطين فى العام التالى[٥٨]، بعد أن عمد وهو على فراش الموت على المبادىء الأريوسية الأمر الذى يؤكد أن قسطنطين لم يكن يهتم كثيرا بمذهب أو عقيدة واحدة طالما لم يكن فى ذلك خطر على دولته، وأن جذور الوثنية فى نفسه اختلطت بغيرها من مبادىء العقيدة الجديدة[٥٩].

وإلى جانب قيامه ببناء القسطنطينية، وموقفه من المسيحية، قام قسطنطين أيضا بإصلاحات كثيرة فى كافة الميادين، فاهتم كسلفه دقلديانوس بفخامة بلاطه وأحاط نفسه بهالة من العظمة والقدسية، فاتخذ التاج الامبراطورى الذى استعاره من الرسوم الفارسية، وأحاط نفسه برجال البلاط وبهيئة كبيرة من الخدم والحشم وعدد من الحاشية، الذين بدأ

---

(56) Camb. Med. Hist. V.I, pp. 122-25.

(57) Chadwick: op.cit. p.130.

(٥٨) جيبون: المرجع السابق، ج ١ ص ٥٤٧،

Burckhardt: op.cit. p.317

(59) Lot: op.cit. p.45.

نفوذهم يقوى فى الامبراطورية(٦٠).

كما حاول أن يسير فى نفس الإتجاه الذى بدأه دقلديانوس باتمام الاصلاحات الإدارية والمدنية، وإكمال التنظيم الإدارى، ووفق فى ذلك إلى حد بعيد وبطريقة أكثر فاعلية، فقد اهتم بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية، وغدا حاكم الولاية مسئولا عن شئونها الإدارية والمدنية، فى حين أصبحت شئون الولاية العسكرية فى يد القائد العسكرى الذى ربما اتسعت مسئولياته لتشمل أكثر من ولاية(٦١). وطبقا لهذا النظام حرم الولاة الأربعة الكبار فى غالة وإيطاليا وإيلليريا والشرق من سلطاتهم العسكرية، واقتصرت اختصاصاتهم على السلطة المدنية، لكن هذه السلطة المدنية اتسعت وتشعبت فصار الوالى نائبا للإمبراطور بولايته، وعدت أحكامه القضائية نهائية، وغدا من حقه الإشراف على الهيئات والنقابات وخطط التعليم ومراقبة الأسعار والإشراف على البريد الامبراطورى واقامة المنشآت العامة، وتجنيد الجند وامداد الجيش. لكن برغم ذلك ظل هؤلاء الولاة حريصين على كسب رضاء الإمبراطور صاحب الحق فى أمر تعيينهم وعزلهم(٦٢).

أما بالنسبة لولاية العرش، فيبدو أن قنسطنطين أحس بعدم جدوى النظام الذى ابتدعه دقلديانوس، طالما افتقرت البلاد للاستقرار السياسى، ولم تتخلص من نزعات الثورة وأطماع القادة للفوز بالعرش، ولهذا أدخل قنسطنطين مبدأ الحكم الوراثى فى الامبراطورية وانتقال العرش وراثيا فى أسرته مستندة إلى دعامة قوية من تأييد الجيش من ناحية وتعضيد أنصار المسيحية من ناحية أخرى(٦٣).

---

(60) Ostrogorsky: op.cit. p39.
(61) Hussey: op.cit. p.13.
Burckhardt: op.cit. p.342.
(62) Katz: op.cit. pp. 46-7.

(٦٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ٤١ (ط٤).

أما فيما يختص بالجيش فقد اهتم قنسطنطين باعداد جيش قائم بنفسه للقتال واهتم بتطوير فرق الخيالة، وفصلها عن المشاه فضلا عن فرق الحرس الامبراطوري وقد ضمت فرق الخيالة كثيرا من المتبربرين والجند والجرمان والغاليين، وجعل للخيالة قائدا وللمشاة قائدا آخر، وترتب على استقرار الأحوال نسبيا عن الفترة السابقة أن تناقص عدد الفرق العسكرية زمن قنسطنطين، لكنه استمر في قبول المتبربرين والجرمان بين صفوف الجيش[٦٤]، وكون بعض الفرق الاضافية، لأقاليم الحدود. وإن قلت أعدادها وتناقصت عن ذى قبل، واهتم كثيرا بجبهة الدانوب فشيد نظام الدفاع فيها، وأقام الحصون والقلاع والأسوار والجسور التى سهلت رد المغيرين من الجرمان في تلك النواحى[٦٥].

وفى مجال الإصلاحات الاقتصادية والمالية، اهتم قنسطنطين بإصلاح نظام النقد وتثبيت العملة، فأحل عملة جديدة مكان ثلاثة أنواع منها سكها دقلديانوس واحتاط لانخفاض قيمتها بأن وفر مقادير هائلة من المعادن النفيسة لاسيما من أرمينيا التى دخلت فى حوزة الامبراطورية على عهد دقلديانوس، فضلا عما استولى عليه من التحف والحلى الذهبية من المعابد الوثنية بعد إغلاقها، ولهذا نال «نقد» قنسطنطين سمعة ممتازة وحظى باحترام الأوساط المختلفة، وتداوله التجار فى حرية تامة[٦٦].

غير أن قنسطنطين أضطر لزيادة عبء الضرائب لمواجهة ازدياد أعباء الحكومة ونفقات الإمبراطور، فضلا عن توفير الرواتب والمنح للجيش، وضاعف من الضرائب النقدية والضرائب النوعية والخدمات الإجبارية التى

(64) Ostrogorsky: op.cit., p.40.
Lot: op.cit. p.92.
(65) Hussey: op.cit. p.13.
Burckhardt: op.cit.p. 347.
(66) Ostrogorsky: op.cit. p.38.
Katz: op.cit. p.4 .

تنطوى على نوع من السخرة للقيام بأعمال عامة كإصلاح الجسور وإقامة الطرق وصيانتها والخدمات البلدية وفرض ضريبة نوعية على أصحاب الحرف[٦٧]، تؤدى بالنقد الذهبى كل خمس سنوات وتعسف ولاته فى جبايتها الأمر الذى أدى بكثير من أرباب الحرف والصناعات إلى الهرب من عسف الضرائب وثقلها، ولهذا أصدر قسطنطين قرارا يقضى بجعل الحرف والصناعات وراثية فى الأبناء[٦٨]، حتى لايهرب أصحابها إلى أعمال أخرى وفرض عقوبات صارمة على من يخالف هذا الأمر، بل إن مبدأ الوراثة اتسع ليشمل أيضا الخدمة العسكرية إذ تحتم على الأبناء أن يرثوا مهنة الآباء. وهكذا نظر كثير من الرعايا إلى هذه الأمور نظرة ملؤها الاستياء والكراهية، وأصبحت الحياة فى نظرهم تافهة بعد أن سلبتهم الدولة ثمرة جهودهم وقضت على طموحهم وتطلعاتهم[٦٩].

كما غدت التجارة أيضا مقيدة بمختلف القيود، وتحولت النقابات التجارية الحرة إلى منظمات طوائف مغلقة على أصحابها إلا من أبناء الأعضاء الأصليين، وجرى فرض إلتزامات مالية عليها وخدمات عامة أثقلت كاهلها وبددت جهودها[٧٠]. بل أن ما استنه قسطنطين من قوانين تحتم ارتباط الفلاحين بالأرض بصفة دائمة كان أثره سيئا بالنسبة لطبقة هى السواد الأعظم من الشعب فعجل بتحويلهم إلى طبقة من الرقيق الفعليين، وترتب على ذلك القرار أيضا أن تحول صغار الأحرار إلى أقنان فى ظل

---

(67) Lot: op.cit. pp. 94-95.

(٦٨) موس : المرجع السابق ص ٥٨،

Cantor: Med. Hist. p.29

(69) Burckhardt: op.cit.p.340.

Ostrogorsky: op.cit. pp. 37-40.

(70) Canotr: op.cit. pp. 27-9.

الضرائب الجائرة وحظر انتقالهم إلى الضياع الأخرى(٧١).

وهكذا فقد غالبية السكان حريتهم الشخصية، ونزلوا إلى رتب العبودية والرق، بل وقع قسطنطين فى نفس الخطأ الذى وقع فيه دقلديانوس من قبل حين غض الطرف عن الثروات الكبيرة أو فرض ضرائب زهيدة عليها، بينما أثقلت الثروات الصغرى بباهظ الضرائب، وجرى جباية معظم الضرائب غلة لا نقدا بسبب تذبذب الأحوال المالية، وتدهور الأسعار الأمر الذى قلل كثيرا من نجاح قسطنطين فى إصلاح الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى الامبراطورية نجاحا كاملا(٧٢)

خلفاء قسطنطين:

توفى قسطنطين الكبير سنة ٣٣٧م بعد أن ترك أثرا بعيدا فى التاريخ الأوربى وعبر عن إدراكه لقوة المسيحية وأهمية منحها الفرصة لتمسك بزمام التيار الحضارى والمدنى فى الامبراطورية ، وتعبر بها إلى عالم العصور الوسطى، وبعد أن آمن بضرورة كفالة وحدة الكنسية الكاثوليكية لتؤدى دورها فى وفاق مع الدولة(٧٣)، وفى خدمتها وبعد أن أدرك أيضا أهمية تشييد عاصمة مسيحية جديدة تصبح معقلا للعقيدة الجديدة وحصنا قويا لها(٧٤). ونظرا لكل هذه الأعمال الجليلة اتخذ قسطنطين مكانته بين عظماء التاريخ وخلدت الأجيال ذكراه، واستحق اللقب الذى اقترن باسمه

---

(٧١) موس: المرجع السابق ص ٥٥.

(72) Ostrogorsky: op.cit. p.37.

(٧٣) العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص١٠.

(74) Cantor: op.cit. p.52.

وذاع شهرته به بين كبار الأباطرة وهو «قسطنطين الكبير Constantine" The Great.

خلف قسطنطين فى الحكم أبناؤه الثلاثة، فتنازعوا فيما بينهم واستشرت الفتن فى البيت الحاكم فى الوقت الذى أطلت الأخطار الخارجية برأسها تهدد الدولة تهديدا خطيرا، وأخذت القبائل الجرمانية تضغط ضغطا شديدا فى جبهتى الراين والدانوب وتزايد الخطر الفارسى فى القطاع الآسيوى والشرقى واصبحت الامبراطورية فى وضع خطير(٧٥). ووسط هذه الفوضى تمكن جوليان Julian وهو من بيت قسطنطين من الوصول إلى العرش، بعد أن نجح فى القضاء على غزو جرمانى كان يهدد الدولة فنودى به إمبراطورا سنة ٣٦١م، وظل فى الحكم قرابة عامين حتى سنة ٣٦٣م(٧٦).

ولقد اشتهر جوليان باسم جوليان المرتد(٧٧). لارتداده إلى الوثنية ومحاولته القضاء على المسيحية، فقد وقع جوليان تحت تأثير العالم الوثنى وتعلق بفنونه وحضارته وعلومه ونجح فى إخفاء ذلك قبل توليه العرش، وما كاد يلي السلطة حتى شرع فى تحقيق أمله بإعادة الوثنية(٧٨). وإذ رأى جوليان أنه من المستحيل أن تعود الوثنية فى صورتها الأولى، وأنه لابد من أن

---

(75) Camb. Med. Hist. V. 1, p.85.
Ostrogorsky: op.cit. p.47.

واسد رستم: الروم ج١ ص ٧٦.

(76) Ostrogorsky: op.cit. p.47.

(٧٧) كانتور: التاريخ الوسيط ص ٩١ (ترجمة د.ق قاسم عبده قاسم)

وانظر ايضا رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة ج٢، ص ٤٠٧.

(78) Ostrogorsky: op.cit. p.46.

يجرى بها من الإصلاح مايجعل منها نظاما يستطيع مناهضة الكنيسة المسيحية[٧٩]، فقد جرى تنظيم المعابد الوثنية على نسق الكنائس المسيحية، فصار يتلى بها أسرار الحكمة اليونانية، وأدخل جوليان الترانيم فى الشعائر الوثنية، وعلى الرغم من أن الوثنيين كانوا لايزالون من الوجهة العددية قوة لها حسابها لاسيما فى الشطر الغربى من الامبراطورية، وعلى الأخص فى روما، فإن جوليان لم ينجح فى مقاومة المسيحيين، وتحطمت فى النهاية جهوده، خاصة وقد بدأ يلتفت للخطر الفارسى[٨٠].

فالمعروف أن العداء كان مستحكما من قديم الزمن بين الدولتين الفارسية والرومانية بسبب التنازع على الحدود وأهمية أرمينيا لكلتا الدولتين، ونهضت الدولة الفارسية فى القرن الرابع الميلادى فاستولت على آمد (دياربكر) وسنجار وجزيرة ابن عمر وصار للفرس اليد العليا والنفوذ الأقوى فى إقليم الجزيرة[٨١]، وعندئذ خرج جوليان يقود جيشا ضخما فى سنة ٣٦٣م فعبر الفرات ثم اتجه شرقا نحو دجلة وأنزل بالفرس هزيمة ساحقة أغرته بالزحف إلى عاصمة الفرس، غير أنه تعرض لمقاومة شديدة من قبل الفرس، وأصابه سهم طائش فى ذراعه أدى إلى وفاته فى نفس العام[٨٢].

تولى العرش بعد جوليان الامبراطور جوفيان Jovian (٣٦٣ -٣٦٤م) فاضطر إلى عقد صلح مهين مع فارس، تنازل بمقتضاه لفارس عن أقاليم عديدة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، كما تنازل ايضا عن نصيبين

(79) Bury: op.cit. V.I, p. 367.
(80) Ostrogorsky: op.cit. 46.
(81) Ibid. p.47,

وأسد رستم: الروم ج١ ص ٧٦.

(82) Camb. Med. Hist. V.I, p.85.

وسنجار، وتخلى عن مزاعمه فى امتلاك أرمينيا[٨٣] هذا فى الوقت الذى تزايد فيه خطر الجرمان جهة الشمال والغرب، فكان على بيزنطة أن تحارب باستمرار، منذ ذلك الحين، فى جبهتين: فى الجبهة الشرقية ضد دولة فارس وفى جبهة الشمال والغرب ضد البرابرة، وظل هذا النضال مستمرا طوال زمن الامبراطورية البيزنطية[٨٤].

وكان القوط قد تحولوا فى تلك الأثناء إلى المسيحية على المذهب الأريوسى، الأمر الذى جعل الإمبراطور فالنز Valenz (٣٦٤ - ٣٧٨م)، وهو آخر أباطرة أسرة قنسطنطين يسمح لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار فى جوف الامبراطورية بصفة مؤقتة، إلا أن ذلك أطمع القوط الغربيين وأغراهم بالزحف على القسطنطينية[٨٥]، فأسرع الامبراطور فالنز لمحاولة وقف تقدمهم وتوجه فورا إلى أدرنه إلا أنه تعرض لهزيمة ساحقة، ولقى حتفه فى تلك الموقعة سنة ٣٧٨م[٨٦]، وأضحت منذ ذلك الحين هجرات الجرمان والبرابرة مشكلة خطيرة تهدد كيان الدولة، وتحتم على القسم الشرقى من الامبراطورية أن يناضل فى سبيل الدفاع عن كيانه، فى حين إستسلم القسم الغربى للمغيرين من الجرمان وغير الجرمان، وهوى فى النهاية تحت ضرباتهم[٨٧].

---

(83) Vasiliev: The Byzantine Empire. p.67..
العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية ص٣٨.

(٨٤) العرينى : نفسه ص ٣٨، Ostrogorsky: op.cit. p.47.

(85) Jordanes: "The Visigothic Conquest". Trans. by. Microw, pp. 89 - 96 in Med. World, by Cantor,p.71.

(86) Lemerle: Histore de Byzance, p.43.
Ostrogorsky: op.cit. p. 48.

(٨٧) العرينى: المرجع السابق ص ٣٩.
Keen : A history of Medieval Europe, P. 6.

أسرة ثيودسيوس (٣٧٩ - ٤٥٧م):

انتهت بوفاة فالنز أسرة قنسطنطين، وبدأت أسرة ثيودوسيوس وكان أول أباطرة الأسرة الجديدة ثيودسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥م)، الذى اتبع خطة جديدة فى تعامله مع القوط[٨٨]. فقد أدرك أنه أصبح من المستحيل هزيمة القوط بقوة السلاح وحده، وأنه فى الإمكان مصالحة هذا العنصر ومحالفته والافادة منه، فعرض على القوط النزول فى أراضى الامبراطورية والاستقرار بها، وعقد معهم اتفاقا اعترف فيه لهم باستقلالهم الذاتى وأعفاهم من دفع الضرائب، ورتب لهم عطاء مجزيا مقابل تأديتهم الخدمة العسكرية[٨٩]، فدخلت أعداد هائلة منهم فى خدمة الامبراطورية وصاروا ركنا ركينا فى الجيش الامبراطورى، وبمرور الوقت أصبح كبار قادة الجيش من الجرمان[٩٠].

وفى نفس الوقت نجح ثيودسيوس فى عقد معاهدة جديدة مع فارس ضمنت له الأمن والسكينة من هذه الجهة لفترة غير قصيرة، كما اشتد ثيودسيوس فى معاملة الهراطقة والوثنيين، وأنزل بهم صارم ضرباته وعقابه، كما حرص على أن يسود الوفاق والسلام فى الكنيسة، فدعا إلى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية سنة ٣٨١م وهو المجمع المسكونى الثانى فاتخذت العقيدة المسيحية زمن هذا الامبراطور صورتها النهائية[٩١]، التى تتمثل فى مذهب نيقية، فأصبحت الديانة الرسمية للدولة، ولم يعد للديانات الأخرى ما تستند اليه فى وجودها.

---

(٨٨) فشر: المرجع السابق ق١ ص٢٢.

(89) Katz: op.cit. p.39.
(90) Ostrogorsky: op.cit. p.48.
(91) Ibid. p.49.
Vasiliev: op.cit. p.80.

ويعين لنا حكم ثيودسيوس الكبير بداية مرحلة جديدة فى تاريخ الامبراطورية ذلك أنه على الرغم من حرص ثيودوسيوس على وحدة الامبراطورية، إلا أنه اضطر فى سنة ٣٩٥م، وهو على فراش الموت، إلى تقسيم الامبراطورية إلى قسمين منفصلين فجعل أبنه الأكبر أركاديوس Arcadius إمبراطورا فى القسم الشرقى، إدراكا منه بأهمية الشرق، بينما خص ابنه الآخر هونوريوس Honorius بالقسم الغربى[٩٢]، وتعين منذ ذلك الحين الحد الفاصل بين الشرق البيزنطى والغرب الرومانى. وظلت الامبراطورية منذ ذلك الوقت على هذا التقسيم، وجرت الأحداث فى الغرب والشرق فى طريقين واتجاهين مختلفين ، ولم يكن بين الحكومتين الشرقية والغربية فى كثير من الأحيان من عوامل الود مايجمع بينهما[٩٣]. وظل أركاديوس يحكم فى القسطنطينية حتى سنة ٤٠٨م، ثم تلاه ثيودسيوس الثانى (٤٠٨-٤٥٠م)، الذى لم يهتم بشئون الحكم، وكان ضعيفا سيء الحظ، وقع تحت تأثير جماعة هيمنوا على مصائر الامبراطورية وتحكموا فيها، ولم يعد للامبراطور من الأمر شيء[٩٤]، فانصرف إلى حياة العزلة والتقوى والورع وتحصيل العلم وغير ذلك من الأمور التى أفرغ فيها حماسته وشعوره باليأس، ولعل شغفه بالعلم كان له دخل فى إنشاء جامعة القسطنطينية أولا[٩٥]، وفيما صدر فى عصره من قوانين ثانيا، عرفت بقوانين ثيودسيوس سنة ٤٣٨م وهى التى عالجت شئون الحكم وبعض النواحى العامة كالشئون الحربية والدينية والدواوين وغيرها

---

(92) Ostrogorsky: op.cit. p.50.
Lot: op.cit. p.201,

ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ١٧ - ١٨.

(٩٣) العرينى : الدولة البيزنطية ص٩٤.

(94) Vasiliev: op.cit. p.97
(95) Hussey: op.cit. p.15.

وعكست أثر المسيحية فى القانون[٩٦]، وما أحدثته العقيدة الجديدة فى القوانين من تهذيب، ومثلت قوانين ثيودسيوس الثانى سابقة هامة للاهتمام بالقوانين فى بيزنطة الأمر الذى برز فى العصور التالية لاسيما فى عصر جستنيان، فضلا عما حدث فى عهد ثيودسيوس الثانى من اتساع للقسطنطينية وبناء بعض أسوارها وتحصيناتها القوية التى ظلت تمثل رمز القوة والعظمة لهذا العصر حتى غدت هذه العاصمة تضاهى روما[٩٧]. ثم اعتلى العرش بعد وفاة ثيودسيوس الثانى الامبراطور مارقيان (٤٥٠ - ٤٥٧م)، وكان جنديا ماهرا وقائدا عسكريا مميزا، وصل إلى العرش بزواجه من أخت الامبراطور الراحل[٩٨]، وهو آخر أمبراطور فى أسرة ثيودسيوس التى انتهى عصرها سنة ٤٥٧م ليبزغ عصر الأسرة الثالثة فى التاريخ البيزنطى. وإذا لم يكن مارقيان قد ترك أثرا كبيرا فى تاريخ الامبراطورية إلا أنه أظهر شجاعة مع الهون وقائدهم ذائع الصيت أتيلا الجبار، حين بادر مارقيان بقطع الإتاوة التى كانت تدفعها بيزنطة صاغرة للهون، الأمر الذى دفع اتيلا إلى قيادة جيشه لمحاربة الامبراطورية الغربية[٩٩]، معتقداً أنها أضعف من الامبراطورية الشرقية، إلا أن أتيلا لقى هزيمة قاسية فى سهل مورياك قرب شالون فى غالة ضاعت على أثرها هيبة الهون وانسحبوا إلى بانونيا فى حالة سيئة بعد عروجهم على ايطاليا، ثم توفى اتيلا وتفككت دولة الهون تماما وتحررت القبائل الخاضعة لها[١٠٠].

(96) Ostrogorsky: op.cit. pp.51-2.
(97) Hussey: op.cit. p.15.
(98) Ostrogorsky: op.cit. p.55.
(99) Ibid. p.55.
(100) Camb. Med. Hist. V.I, p.266, Rice: op.cit. p.26
Lot: op.cit. p. 208.

أسرة ليو (٤٥٧ - ٥١٨)

نهضت الأسرة الثالثة فى تاريخ بيزنطة (٤٥٧ - ٥١٨م) بولاية الامبراطور ليو الأول العرش (٤٥٧ - ٤٧٤م) وتلاه ليو الثانى الذى لم يعمر فى الحكم إلا شهورا ثم اغتصب الحكم الامبراطور زينون Zeno (٤٧٤ - ٤٩١) فأظهر هذا الامبراطور حماسة كبيرة لصرف الغزاه الجرمان إلى الغرب وإغرائهم بالإتجاه غربا(١٠١)، فسقط فى عهده الجزء الغربى من الامبراطورية سنة ٤٧٦م وانتهى عصر الامبراطورية فى الغرب، وبزغ العصر الجرمانى فى إيطاليا(١٠٢). وكان الامبراطور انستاسيوس الأول (٤٩١ - ٥١٨م) آخر أباطرة هذه الأسرة وبنهاية عهده انتهت الأسرة الثالثة فى بيزنطة وبزغت حقبة جديدة ونهضت أسرة جستنيان التى مثلت الأسرة الرابعة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية وانتهى فجر التاريخ البيزنطى.

وفى هذا العهد أيضا اشتدت هجمات البرابرة على غرب أوربا، ولم تسلم الامبراطورية الشرقية من أذاهم، فنهض القوط الغربيون تحت زعامة ألاريك الجسور، فعاثوا فسادا فى البلقان وامتدت غاراتهم حتى أسوار القسطنطينية(١٠٣)، إلا أن الامبراطورية الشرقية، نجحت فى التخلص من ألاريك الذى انسحب بجيشه إلى ايطاليا، فاستولى على روما سنة ٤١٠م(١٠٤)، وأضاف إلى إضمحلال وضعف امبراطورية الغرب كثيرا، قبل أن يزحف القوط تجاه الغرب إلى غالة وإسبانيا، ومنذ بداية القرن

---

(101) Vasileiv: op.cit. p. 107.
(102) Bury: op.cit. V.I, p. 406, Katz: op.cit. p.73.
(103) Lot: op.cit. PP.203-4.
(104) Jordanes: op.cit. pp. 89 - 96 - in Med. World, p. 71.
Bury: op.cit. V.I, p. 180,

جيبون : المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٦.

الخامس بدأ الشرق يعيش فترة هدوء وسلام من جهة الجرمان فى الوقت الذى تدهورت فيه أحوال الغرب وبدأت الإمبراطورية هناك تترنح توشك أن تتداعى[١٠٥] وفى بداية الربع الأخير من القرن الخامس قضى الجرمان نهائيا على الامبراطورية الغربية سنة ٤٧٦م، وتقدم أدواكر Odoacer فعزل آخر أباطرتها روميلوس أوغسطولوس Ramulus Augustulus وبذل ولاءه للامبراطورية الشرقية[١٠٦]، وارتبط بالتبعية لها، وطلب من امبراطور الشرق زينون تفويضا بحكم ايطاليا فى ظل التبعية للقسطنطينية، فرحب بذلك زينون[١٠٧]، فجاء ذلك نهاية أليمة لأمجاد روما وعهدها السالف، وبقى غرب أوربا بدون إمبراطور حتى توج شارلمان سنة ٨٠٠م[١٠٨].

وإذا كانت الامبراطورية الشرقية قد نجت من هجمات البرابرة باستثناء هجمات القوط والهون فى أوائل القرن الخامس الميلادى، فإنها قد تعرضت لمتاعب شديدة من قبل المنازعات الدينية التى كان لها تأثير كبير على مجرى الأحداث في بيزنطة. فقد كانت تلك الفترة فترة هامة فى تاريخ تطور المسيحية الشرقية، حين اشتد الجدل حول العلاقة بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية فى المسيح[١٠٩]، واشتدت المنافسة بين الكراسى الدينية فى الاسكندرية، وأنطاكية والقسطنطينية. فالمعروف أن بطريرقية الاسكندرية أخذت منذ زمن أثناسيوس الكبير تعمل على توطيد مركزها وتدعيم مكانتها، وبلغت أوج قوتها زمن البطريرق كيرلس الذى توفى سنة ٤٤٤م، غير أنها لقيت منافسة شديدة من بطريرقية أنطاكية التى ظهر فيها فى أواخر القرن

---

(105) Ostrogorsky: op.cit. p.51.
(106) Hearder and Waley. A Hist. of Italy, p.29.
Bury op.cit. V I. p. 406, Vasiliev, op.cit. p.107.
(107) Vasiliev. op.cit. p.107.
(108) Katz: op.cit. p. 73,
ديفر شارلمان ص ١٧٨ – ١٧٩ (ترجمة العرينى)
(١٠٩) العرينى: المرجع السابق ص ٢٠

الرابع وأوائل القرن الخامس مذهب يشير إلى أن للمسيح طبيعة بشرية مكتملة، ورفض أصحاب هذا المذهب تسمية العذراء بأم الإله، لأنها لم تلد إلها وانما ولدت إنسانا،[١١٠] وقوى هذا المذهب حين تولى بطريرقية القسطنطينية نسطوريوس، وكان سورى الموطن متعصبا لمذهب أنطاكية فأنكر الطبيعة الإلهية فى المسيح، وفرض مذهبه على الكنيسة، فأدى ذلك إلى نوع من الاضطراب فى الكنيسة[١١١]، وبرزت المعارضة لهذا المذهب من قبل كيرلس بطريرق الاسكندرية، وقام مذهب الاسكندرية على أساس أن المسيح إنسانا اتحدت فيه الطبيعتان البشرية والإلهية[١١٢]، ونوقشت القضية فى مجمع إفسوس الذى انعقد سنة ٤٣١م، وعلى الرغم من أن الامبراطور كان يؤيد نسطوريوس إلا أن ذلك لم يمنع هذا المجمع المسكونى الثالث من الحكم على نسطوريوس بالزندقة والإلحاد ويقرر نفيه إلى مصر؛ حيث قضى بها بقية حياته[١١٣]، فأحرزت الاسكندرية بذلك نصرا مؤزرا على بطريرق القسطنطينية وعلى حكومة الامبراطور التى تظاهره وتؤيده.

تطورت الأمور بعد ذلك حين أعلن اثنين من أخلص أتباع كيرلس وأشد المتعلقين بمذهب الاسكندرية، أن طبيعتى المسيح الإلهية والبشرية أصبحتا عند التجسد طبيعة واحدة، إذ ذابت الطبيعة البشرية فى الطبيعة

---

(١١٠) اسد رستم، الروم ج ١، ص ١٢٣.

(111) Vasiliev: op.cit. p. 98.

(112) Ostrogorsky: op.cit. p. 54,

العرينى :نفسه ص ٥١

(113) Vasiliev, op.cit. p.98.

الإلهية[١١٤]، وترتب على ذلك ظهور المذهب المونوفيزيتي الذى يجعل للمسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية، فلقى هذا المذهب معارضة شديدة، لاسيما من بطريرق القسطنطينية وبابا روما (ليو الأول). وعقد من أجل ذلك مجمع مسكونى جديد فى خلقدونيا بآسيا الصغرى سنة ٤٥١م، فاعتبر كلا من الطبيعتين كاملة مستقلة عن الأخرى، وأنكر نحلة المونوفيزيتية والنسطورية، أى أن مذهب خلقدونيا جاء وسطا بين المونوفيزيتية والنسطورية، فالمسيح فى مذهب خلقدونيا إلها كاملا وإنسانا كاملا[١١٥]. وهكذا ترتب على قرارات مجمع خلقدونيا ازدياد الخلاف بين كنيسة القسطنطينية والكنائس الواقعة فى الجهات الشرقية من الدولة البيزنطية، وأصبح ذلك النزاع المشكلة التى أقلقت السلطات فى أوائل عهد الدولة البيزنطية، فالمونوفيزيتية ليست إلا تعبيرا عما كان بمصر والشام من ميول سياسية انفعالية، وكانت الأداة التى اتخذها المسيحيون فى هذه الجهات لمناهضة الحكم البيزنطى[١١٦].

وشهد القرن الخامس أيضا نمو واتساع مدينة القسطنطينية، فقد تسابق الشعب على ترك مساكنهم والاستقرار فى القسطنطينية حتى امتدت المدينة مساحة هائلة فيما وراء الأسوار القديمة، وتطلب الأمر إقامة أسوار جديدة تضم المساحة المضافة إلى المدينة. وفى سنة ٤٣٩ شيدت أسوار بحرية تتصل

---

(114) Ostrogorsky: op.cit. p.54.
Vasiliev: op.cit. p.99.
(115) VAsiliev: op.cit. p. 105, Ostrogorsky: op.cit. p. 56.
العرينى : الدولة البيزنطية ص ٥٣.
(116) Vasiliev: op.cit. p. 105,
العرينى : نفسه ص ٥٤.

بالأسوار البرية الجديدة، وجرى إصلاح القلاع والاستحكامات، وفى القرن السادس الميلادى وصل سكانها إلى مايربو على نصف مليون[١١٧]، وقد ساعد على نمو واتساع المدينة أنها تحولت منذ عهد قنسطنطين إلى متحف حقيقى حافل بالروائع اليونانية بعد أن سلبت من العالم الرومانى كنوزه الغنية، واقيمت بها الحمامات والكنائس والقاعات والميادين، وجملت بصفة مستمرة[١١٨]، وأبرز ماضمته تلك العاصمة قصرها العظيم الذى ضم مجموعة معقدة من الأبنية التى كان يضيف إليها الأباطرة على التعاقب، وشارعها الرئيسى الذى كان يمتد من سانت صوفيا غربا إلى بوابة مدخل القصر، وشوارعها الجانبية الضيقة وكنائس سانت صوفيا والرسل الأثنا عشر وغيرها من المعالم المعمارية والعمرانية الهامة[١١٩].

ولعل أبرز سمات هذه العاصمة الجديدة هو نظام دفاعها واستحكاماتها، وهى التى مكنتها من الصمود أمام هجمات البرابرة والقبائل الجافية والشعوب الطامعة أكثر من الف عام، فقد تعرضت الامبراطورية البيزنطية لهجمات كثيرة منذ قيامها من قبل القوط والهون والبلغار والآفار والصقالبة والمسلمين والاتراك[١٢٠]، وظلت القسطنطنية صامدة، بل بدت الحكومة البيزنطية فى الشرق ثابتة البنيان بفضل جهازها الإدارى وموظفيها وجيوشها المأجورة، وبقيت القسطنطنية وماحولها من الأقاليم مدينة مستقرة الدعائم تحدوها مسحة من الرياء والاستعلاء فضلا عن غطرسة السلوك والمكابرة، وتكفلت حصانتها الطبيعية بمنحها قدرا كبيرا من الحماية والأمان[١٢١].

---

(117) Baynes, Moss: Byzantium, p. 58.
Bréhier: Le Civilization Byzntine, p.81.

(١١٨) فشر: المرجع السابق ق ١ ص١٠.

(119) Stewart; Byzantine Legacy, p.96.
(120) Ibid. p.95

(١٢١) فشر: المرجع السابق ق ١ ، ص٤٤،
Hussey : Op. Cit. P. 15.

الفصل الثاني

اسرة جستنيان [٥١٨ - ٦١٠م]

اذا كانت إمبراطورية الغرب قد سقطت فى مستهل الربع الأخير من القرن الخامس الميلادى وبرزت ممالك جرمانية على أنقاضها بغرب أوربا[١]، فإن القسم الشرقى من الإمبراطورية وعاصمته القسطنطينية ظل قائما لم يسقط - كما رأينا - بل بدت الحكومة البيزنطية - راسخة البنيان[٢] بفضل جهازها الإدارى وجيوشها المأجورة وبعدها النسبى عن مركز الصراع فى قلب أوربا. حقيقة غرق البلاط البيزنطى فى فترات كثيرة فى الفساد والدسيسة، وانتشرت الرشوة احيانا بين الموظفين وتشبثت الكنيسة بعنادها لمقاومة أى إصلاح، واعتلى العرش فى كثير من الأحيان أباطرة ضعاف استمدوا سلطتهم من المؤامرات وشغب الجند وصخب الدهماء[٣]؛ إلا أن الامبراطورية البيزنطية ظلت شامخة تعلو فوق الانهيار وتسمو فوق التداعى، ولعل ذلك راجع فى أغلبه إلى أن القسطنطينية ظلت بمنأى عن خطط الغزو الجرمانى، وتكفلت حصانتها الطبيعية بمنحها قدرا كبيرا من الحماية والأمان، فضلا عما درج عليه أباطرتها من إغراء المغيرين بالاتجاه غربا[٤]، كل ذلك كان له ضلع فى بقاء الامبراطورية البيزنطية واستمرارها فى عصر كان يطفح بالفوضى ويغص بأعمال العنف ويثرى بالغزو والاحتلال[٥].

---

(١) كانتور: التاريخ الوسيط ص ١٩٢ - ١٩٤ (ترجمة د. قاسم عبده قاسم)

Ostrogorsky: op.cit. p. 63.

(٢) وسام عبد العزيز فرج: دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية ص ٥ - ٧.

(٣) فشر: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق١ ص ٤٤.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: المرجع السابق ج١ ص ١١٠

(5) Pirenne: Mohamed and Charlemagne, p. 63.

جستين الأول (٥١٨ -٥٢٧م):

وإذا كان القرن الخامس قد شهد تداعى إمبراطورية الغرب، وبزوغ الممالك الجرمانية، فإن القرن التالى لتلك الأحداث شهد محاولة جدية، لإعادة وحدة الامبراطورية واسترداد أقاليمها الضائعة، واقتلاع جذور ممالك المتبربرين منها واعادة البحر المتوسط بحيرة رومانية كما كان من قبل[٦]. ففى الوقت الذى انهارت فيه امبراطورية الغرب كان يحكم بيزنطة الامبراطور زينون Zeno (٤٧٤ -٤٩١م)، تلاه فى الحكم الامبراطور أنستاسيوس (٤٩١ – ٥١٨م)، وترتب على وفاة الامبراطور الأخير أن حدثت بعض الفتن والثورات انتهت باعتلاء جستين الأول العرش بعد حياة عسكرية مظفرة[٧].

وينتسب جستين الأول (٥١٨ – ٥٢٧م) لإقليم إيلليريا بالبلقان وكان رجلا أميا لايدرى من القراءة أو الكتابة شيئا، وصل إلى العرش وهو شيخ مسن ولم يكن له عقب، ولهذا تبنى ابن أخت له من إقليم إيلليريا أيضا عنى بتربيته وتعليمه وأعده اعدادا طيبا ليكون وريثا له وهو الذى عرف بعد ذلك باسم جستنيان[٨]. وكان إقليم إيلليريا هو الإقليم الوحيد من أقاليم البلقان الذى بقيت اللاتينية فيه لغة التخاطب بين الناس فقد كان جستين الأول وابن اخته جستنيان على دراية تامة باللاتينية[٩]، ولهذا عد جستنيان آخر الأباطرة اللاتين، وآخر من صاغ سياسته وفقا للمصالح اللاتينية لا اليونانية، فصرف همته لاسترداد كل البلاد التى كان يحكمها

---

(6) Vasiliev: op.cit. p. 64.
Ostrogorsky: op.cit. pp. 63 - 4

وانظر أيضا وسام فرج: نفس المرجع ص ٧٩.

(7) Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 2 - 3.
(8) Oman: The Dark Ages, p. 58, p. 65.
(9) Rice: op.cit. p. 27.
Lot. op.cit. p. 255, p. 273

الرومان القدامى وإحياء الامبراطورية بكل ما كان لها من مجد وسناء، وذلك لاعتقاده أن أشد ما يتهدد الامبراطورية من خطر يأتى من ناحية الجرمان فى الغرب، لا من ناحية فارس فى الشرق، وتلك فعلا نظرة تتمشى مع سياسة لاتينية ومصالح رومانية ولاتنم عن اهتمام بمصالح يونانية إقليمية[١٠].

جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م)

وعلى الرغم من أن جستنيان كان ريفى النشأة، إلا أنه مالبث أن دل على استفادة تامة بجهود خاله فى تربيته وتعليمه، وأظهر مقدرة فائقة ودأبا شديدا فى كل أعماله وغدا الحاكم الفعلى فى الدولة، حينما أشركه جستين فى الحكم، وعند وفاة هذا الأخير سنة ٥٢٧م اعتلى جستنيان العرش وهو فى الخامسة والأربعين من عمره، واشتهر بأنه الامبراطور الذى لاينام[١١]، فقد كان فائق الصحة متورد الوجه، وافر النشاط وقورا متزنا طلق المحيا، وفوق ذلك حنكته تجارب الحكم، وصهرته الخبرة بالناس، وأدى به العبث قبل اعتلائه العرش إلى معرفة امرأة عاهرة تزوجها ورفعها إلى أسمى الدرجات، وهى الامبراطورة ثيودورا[١٢]، التى دلت على أنها كانت امرأة نادرة حقا وجوهرة ثمينة، فقد كانت ابنة رجل قبرصى يعمل مروضا للدببة فى سيرك القسطنطينية، ثم عملت بعد وفاة والدها بالتمثيل على مسرح العاصمة، فكانت مصدر إثارة وتسلية لسكانها، إلا أنها برهنت على تمتعها بذكاء فائق وشجاعة نادرة ونبل عظيم، فضلا عن جمالها الذى أطراه الناس كثيرا وكان مبعث إعجابهم بها[١٣].

---

(١٠) العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ١٢٩.

(11) Hussey: op.cit. p. 19.

(12) Vasiliev: op.cit. p. 132.
Katz: op.cit. p. 113

(١٣) جيبون: المرجع السابق ج٢ ص ٤٠١ - ٤٠٢،
Cantor: Med. Hist. p. 157.

أثبتت ثيودورا جدارتها بالمكانة الرفيعة التى وصلت إليها، إذ أصبحت امبراطورة للدولة البيزنطية، وظلت زوجة وفية وازداد اهتمامها بشئون الإدارة والحكم واشتهرت ببصيرتها النافذة وشدة تأثيرها على جستنيان فى كل أموره، ولعل أكبر دليل على شجاعتها وقوة بأسها، ماحدث إبان ثورة نيقا سنة ٥٣٢م، حين وقعت القسطنطينية فى أيدى الثوار وأضرمت النار فى جانب كبير منها، واغتصب الحكم أحد الثوار، وأوشك جستنيان على الفرار من العاصمة[١٤]، فقد تقدمت منه ثيودورا قائلة «أيها الامبراطور.. أرجو أن تذكر إذا فزت بالهرب، ولذت بالمنفى أن سوف تقول طوال حياتك ياليتنى مت قبل هذا، أما أنا فلن أحيد عن المثل القديم الذى يقول، بأن العباءة الامبراطورية هى خير الاكفان»[١٥]. وكان لهذا الموقف دور هام فى ثبات جستنيان واستعادته زمام الأمر فى العاصمة بمساعدة قائده وصديقه بلزاريوس Belisarius[١٦].

سياسة جستنيان الخارجية:

كان جستنيان من أعظم الأباطرة الذين حكموا بيزنطة، نظرا لفتوحاته وعظمة مشروعاته، وطموحه الذى فاق طموح من قبله من الأباطرة. فلقد اتجه جستنيان فى سياسته الخارجية وجهة غربية، وأكد بصدق أنه كان إمبراطور لاتينيا فكرا وعملا، ورمانيا متحمسا فقد عول على استعادة أملاك الامبراطورية الرومانية كلها والقضاء على دويلات الجرمان داخل

---

(١٤) فشر: المرجع السابق ج١ ص ٤٦، Rice: op.cit. pp. 36 - 37.

(١٥) فشر: نفسه ج١ ص ٤٦ – ٤٧، Lemerle: op.cit. p. 47.

(١٦) بينز: الإمبراطورية البيزنطية ص ٣١ (ترجمة حسين مؤنس ومحمود زايد).

حدودها، وإعادة البحر المتوسط شبه بحيرة رومانية[١٧]، فأحرز جستنيان انتصارات باهرة على الوندال والقوط الشرقيين وإلى حد ما على القوط الغربيين، وأجبر الأقاليم التى استعادها على الخضوع للامبراطور البيزنطى وصار اسمه يرد فى المرسومات على أنه امبراطور الفرنجة والجرمان واللان والافريقيين[١٨].

أيقن جستنيان أن الجرمان هم عدوه الرئيسى، وأن واجبه الأساسى هو استعادة أملاك الدولة من المتبربرين، وتخليص السكان الوطنيين من ظلم الجرمان الأريوسيين، ولهذا فقد ظهرت من جديد فى الإمبراطورية البيزنطية المشكلة الجرمانية أثناء القرن السادس، وساعد على ظهور هذه المشكلة ماحدث من قيام ملوك الجرمان باضطهاد السكان الوطنيين وسلب الأراضى وانتهاك الحريات[١٩].

ولقد وفق جستنيان إلى حد كبير فى تحقيق أهدافه، وساعده على ذلك نجاحه فى جعل الامبراطورية قوية مهابة، ووضع السلطة كلها فى يد الامبراطور ليصبح مطلق الحكم والتصرف فيها، وبيده الحل والعقد فى أمورها[٢٠]، واهتمامه أيضا بتكوين جيش قوى يمكنه تنفيذ المهام الجسيمة المراد تحقيقها، فتألف جيشه من المشاه والفرسان المسلحين بالرماح والقسى وتكون من مختلف الأجناس، فضم العناصر الجرمانية، وفرق من العرب من

---

(17) Pirenne: op.cit. p. 68.
(18) Vasiliev: op.cit. p. 135,

العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية ص ٦٧.

(19) Vasiliev: op.cit. p. 134.
Bury: op.cit. V. II, p. 126.
(20) Camb. Med. Hist. V. I, p. 27.
Ostrogorsky: op.cit. p. 28.

آسيا الصغرى، بالإضافة إلى ماضمه من أبناء الامبراطورية نفسها[٢١].

وفى سبيل تحقيق أهدافه فى الغرب، اضطر جستنيان إلى عقد صلح مهين مع الفرس تعهد بموجبه بدفع جزية سنوية لكسرى (أنو شروان)، مقدارها أحد عشر الف قطعة من الذهب حتى يتفرغ لمشروعاته فى الغرب. ولكن على الرغم من هذه الجزية الكبيرة إلا أنها لم تمنحه سلاما دائما، بل لم يزد أمدها عن ثمانى سنوات[٢٢]، إذ نقض كسرى شروط هذا الصلح، وبدأ العداء السافر مع الامبراطورية البيزنطية، ولم يتيسر لجستنيان أن يفوز بعقد هدنة لمدة خمس سنوات، إلا بعد أن تعهد بدفع مبلغ كبير من المال[٢٣].

كانت هناك أربع دول جرمانية فى الغرب هى: دولة الوندال بإفريقيا، ثم دولة القوط الشرقيين بإيطاليا، ودولة القوط الغربيين بإسبانيا وجزء من غالة، ثم دولة الفرنجة فى شمال غالة وغر بها[٢٤]. وكانت الأحوال قد تدهورت فى شمال إفريقيا بسبب تعصب الوندال لأريوسيتهم واضطهادهم رجال الدين الكاثوليك وحين قدم إلى القسطنطينية بعض اللاجئين والمنفيين منهم، والتمسوا من جستينان أن يوجه حمله لقتال الوندال، وأوضحوا له مدى استياء السكان الوطنيين وإزماعهم القيام بالثورة، فضلا عن انقسام الوندال أنفسهم واندلاع المنازعات الداخلية بينهم[٢٥].

---

(21) Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 11 - 12.
(22) Oman: op.cit. p. 69.
Bury: The Later Roman Empire, II, pp. 79 - 123.
(23) Vasiliev: op.cit. p. 139,
العرينى: المرجع السابق، ص ٧٦.
(٢٤) محمد الشيخ: الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى ص ٦٥، ص ١١٥، ص ١٦١، ص ١٨٧.
(25) Bury: op.cit. V. II, p. 126.
Oman: op.cit. pp. 8 - 9

عزم جستنيان على القيام بحرب ضد الوندال وبدأ حروبه ضدهم سنة ٥٣٣م، بعد فراغه مباشرة من الحرب الفارسية التى انتهت بعقد الصلح سنة ٥٣٢م، ولم يكن هذا المشروع هينا، لما يتطلبه من نقل جيش ضخم عن طريق البحر إلى إفريقيا فى الوقت الذى يملك فيه الوندال اسطولا قويا، فضلا عما اشتهروا به من قوة حربية وخبرة بحرية خطيرة(٢٦)، كما لابد من حساب مايمكن أن تتعرض له القسطنطينية من هجوم من قبل الفرس من الشرق. وكيفما كان الأمر فقد أرسل جستنيان أسطولا ضخما إلى إفريقيا قوامه خمسمائة حاملة للجنود، فضلا عن نحو مائة سفينة حراسة، تحمل نحو خمسة عشر ألف جندى منهم خمسة آلاف راكب وعشرة آلاف راجل يقودهم بلزاريوس أكفأ قادة جستنيان، وأكثرهم ولاء وإخلاصا للامبراطور(٢٧).

ويبدو أن الوندال لم يكونوا حينذاك أخطر أعداء الامبراطورية، كما كانوا فى الأيام السالفة، فقد فقدوا جانبا كبيرا من نشاطهم وقوتهم وما اشتهروا به من الحماسة والإقدام بسبب ضيقهم بمناخ الجنوب، فضلا عن تأثرهم بالحضارة الرومانية(٢٨) بالإضافة لما تعرضوا له من كره السكان لاعتناقهم المذهب الأريوسى، وقيامهم باضطهاد رجال الدين الكاثوليك، يضاف إلى ذلك قيام البربر بالثورات المستمرة التى أسهمت إلى حد كبير فى اضعاف دولة الوندال(٢٩).

---

(26) Ostrogorsky: op.cit. p. 57.
Camb. Med. Hist. V. I, pp. 306 - 8.
Cantor: Med. Hist. p. 65,

محمد الشيخ : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ٩٧، ص ١٤٨.

(27) Lot: op.cit. p. 258 ,
Rice: op.cit. p. 28.

(٢٨) العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية ص ٧٠.

(29) Oman: op.cit. pp. 8 - 9.

وعلى الرغم من كل ذلك، وعلى الرغم أيضا من عظم الجيش الذى أرسله جستنيان إلى إفريقيا، إلا أنه لم يكن يكفى لاستعادة ولاية إفريقيا من الوندال لولا ما صادفه من حسن التوقيت ومن حظ موات، فقد أفاد جستنيان دون شك من الشقاق الذى وقع بين صفوف الوندال[٣٠]، واغتصاب جليمار السلطة من ابن عمه هلدريك، واستطاع بمهارة أن يزيد الشقاق الداخلى فى دولة الوندال، فضلا عن أن مغتصب السلطة كان قد أرسل أسطوله الكبير لإخضاع ثورة فى جزيرة سردينيا التابعة له، فأعطى بلزاريوس فرصة ذهبية للنزول إلى الشاطىء الافريقى فى سلام وأمان[٣١]، وأسهم بلزاريوس فى زيادة الشقاق بين الوندال حين أعلن أنه ماجاء إلا لنصرة الملك المخلوع وإعادته إلى السلطة[٣٢]، وإذا أضفنا إلى كل ذلك ترحيب السكان ورجال الدين الكاثوليكى بمقدم الجيش الامبراطورى، تأكدنا من إمكان نجاح هذا الجيش فى تنفيذ مهمته[٣٣].

وماكاد بلزاريوس ينزل على الساحل الإفريقى، حتى زحف فورا إلى قرطاجة وأحرز انتصارات باهرة على الوندال، واستطاع أن يحطم قوة الوندال سنتى ٥٣٣م، ٥٣٤م وأجبر ملكهم المغتصب جليمار على الاستسلام حيث حمل هو وكبار أعوانه أسرى إلى القسطنطينية، وجرى استرقاق أعداد كبيرة من عساكر الوندال وزوجاتهم، وأعيدت الأراضى إلى أصحابها، وجرى إضفاء الحماية على الكنيسة، ورجال الدين الكاثيوليك[٣٤]، وبلغت تلك الانتصارات من الروعة أن جعلت جستنيان يعلن فى زهو المنتصر : «إن

---

(30) Lemerle: op.cit. p. 50.
(31) Lot: op.cit. P. 258.

(٣٢) محمد الشيخ: الممالك الجرمانية ص ١٣٠.

(33) Hussey: op.cit. p. 18.
(34) Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 12 - 13.

الله جلت قدرته تداركنا برحمته فلم يرجع لنا فحسب إفريقيا وأقاليمها، بل أعاد إلينا أيضا عباءتنا الامبراطورية التى أخذها الوندال حينما استولوا على روما[٣٥]. وقدم بلزاريوس إلى القسطنطينية فدخلها مظفرا مصطحبا ملك الوندال.

حقيقة ظل البربر شوكة فى ظهر الإدارة البيزنطية فى إفريقيا مدة طويلة بسبب ثوراتهم المستمرة، وقيامهم بشن حروب عصابات ضد العساكر البيزنطية إلا أن جستنيان بذل جهودا كبيرة فى محاولة اخضاعهم، ونجح فى ذلك إلى حد بعيد، بعد عدة سنوات من استرداده الولاية[٣٦]. وكان هؤلاء البربر يمثلون عنصر الشغب فى الولاية، ويرفعون راية العصيان ضد الإدارة البيزنطية حتى قبل قدوم الوندال، وتميزت الأقاليم الداخلية بصفة خاصة فى موريتانيا وشمال مراكش بالثورات الدائمة. والواقع أن جستنيان لم يستطع أن يقضى على روح التذمر والثورة فى نفوس هذا العنصر من السكان قضاء تاما[٣٧].

تطلع جستنيان بعد ذلك إلى إيطاليا لاستردادها من القوط الشرقيين، وكانوا قد أقاموا بها مملكة جرمانية منذ عهد ثيودريك العظيم، ودفع جستنيان إلى التفكير، فى هذا المشروع ماحدث من نزاع داخلى بين حكامها، ومقتل ملكتها أما لسونثا ابنة ثيودريك على يد زوجها ثيودات[٣٨]. فعهد

---

(35) Vasiliev: op.cit. p. 136,

العرينى: المرجع السابق ص ٧١.

(36) Bury: The later Roman Empire, 11, p. 147.
Ostrogosky: op.cit. p. 64.
Pirenne: op.cit. p. 65.

(٣٧) فشر. المرجع السابق ق١ ص ٤٧، موس: ميلاد العصور الوسطى ص ٢٥٤.
Lot: op.cit. p. 259.

جستنيان إلى بلزاريوس باسترداد إيطاليا سنة ٥٣٥م، وساعده على المضى فى مشروعه ماحدث من تقاعس الممالك الجرمانية الأخرى – أريوسية المذهب – فى غالة وأسبانيا عن مساعدة أريوسى إيطاليا(٣٩)

نزل بلزاريوس فى صقلية فى سبتمبر سنة ٥٣٥م فى جيش صغير قوامه سبعة آلاف وخمسمائة جندى، فلقى ترحيبا شديدا من أهلها، وأعلن البابا سروره بمقدم القوات الإمبراطورية، كما خذل الإيطاليون حكامهم القوط بسبب أجنبيتهم من ناحية وأريوسيتهم من ناحية أخرى(٤٠)، ولما انتقل هذا الجيش إلى إيطاليا لم يجد صعوبة كبيرة، فقد شق بلزاريوس طريقة فى شبه الجزيرة الإيطالية، فاستولى بفضل مهارته الحربية على نابلى وروما، فضلا عن صقلية ثم ألجأته هجمات القوط الشديدة إلى روما، حيث ظل صامدا بها أكثر من عام أظهر خلاله براعة عسكرية فائقة وحسن استخدام لقواته الثقيلة المزردة ورماته الراكبة وسيطرته على البحر(٤١)، ولكنه وجد صعوبة كبيرة فى اختراق الحصار والزحف شمالا، ونجح فى النهاية فى ذلك وأنزل بالقوط هزائم متوالية ودخل رافنا عاصمة القوط الشرقيين سنة ٥٤٠م، وبسط سلطانه على أقاليم ايطاليا الوسطى والجنوبية(٤٢)، وأذعن وتيجيس Witiges – ملك القوط الشرقيين وأعلن الخضوع لبلزاريوس، فأرسله هذا إلى القسطنطينية، واعتقد جستنيان أن إيطاليا قد خضعت للامبراطورية، وأنه قد حقق هدفه بإزالة دولة القوط الشرقيين منها(٤٣).

غير أن الأحداث مالبثت أن أثبتت أن جستنيان كان مسرفا فى التفاؤل،

---

(39) Oman: op cit. pp. 80 - 81.
(40) [illegible]antor: Med. Hist. p. 161.
Lot: op.cit p. 260.

(٤١) العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ١٣٣.

(42) Ostrogorsky: op cit. p. 65.
(43) Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 12 - 13.
Vasiliev: [illegible] pp. 136 - 7.

وأنه مطالب ببذل جهد جديد لتحقيق مآربه فى تلك البلاد، فقد ثار القوط من جديد فى إيطاليا، واكتشفوا بين صفوفهم زعيما جديدا جسورا، وقائدا موهوبا يدعى توتيلا Totita فاختاروه ملكا عليهم سنة ٥٤١م[٤٤]، وكان توتيلا ألمع قادة هذه الفترة، فقد جمع بين الإنسانية والكرم، وكان محاربا فذا ورجل دولة عظيم، فقد امتنع عن سفك دماء النساء والأطفال، وإحداث المذابح البشرية الرهيبة والهجوم على المدن والأقاليم الريفية، وكان بحق النموذج المثالى للفارس فى ذلك العصر الذى طفح بالخداع والخيانة وغص بأعمال العنف وسفك دماء الأبرياء[٤٥].

ولقد نجح القوط الشرقيون بفضل شجاعة هذا الملك ومهارته العسكرية فى استرداد كل إيطاليا باستثناء رافنا، وإنزال هزائم متوالية بالحاميات البيزنطية هناك، فتقرر استدعاء بلزاريوس إلى القسطنطينية، وتقدم توتيلا بعروض سخية إلى جستنيان، يطلب الصلح ويعرض أن يحكم إيطاليا كتابع للامبراطور، ويبدى استعداده لدفع جزية سنوية، غير أن جستنيان لم ينصت لهذا النداء، بل ظل القتال دائرا فى ايطاليا مدة طويلة تناوب الفريقان خلالها النصر، أصاب إيطاليا إبانها الخراب والدمار، وزاد من تعاسة أهل البلاد قيام جستنيان بإرسال لجنة لإعادة تنظيم الإدارة المالية فى إيطاليا سنة ٥٤٠م، كان على رأسها اسكندر الذى استعمل كل وسائل العنف والقسوة فى تقدير وجباية الضرائب، فأدت هذه القسوة إلى تحول مشاعر الكثير من السكان بعيدا عن الامبراطورية[٤٧].

---

(٤٤) فشر: المرجع السابق ق١ ص ٤٨،

Pirenne: op.cit. p. 60.

(45) Lot: op.cit. p. 261.

(٤٦) فشر: نفسه ق ١ ص ٤٨.

(٤٧) انظر وسام عبد العزيز فرج: دراسات ١ ص ٧٨.

وأخيرا بعث جستنيان بقائده الشهير نارسيس Narses ليحل محل بلزاريوس، وكان نارسيس خصيا أرمينيا اشتهر بالمقدرة الحربية والكفاية السياسية، فضلا عن مرونة فائقة فى معالجة الأمور(٤٨)، فقاد نارسيس جيشا قوامه نحو خمسة وثلاثين ألف جندى، واستطاع أن يلحق الهزيمة بتوتيلا عند قرية تادينو بإقليم أمبريا، وبتعقب فلول القوط حيث خر توتيلا صريعا وهو يحاول الهرب، وذلك سنة ٥٥٢م، واستسلم القوط الشرقيون نهائيا سنة ٥٥٣م، وخبت آخر جمرة من جمرات المقاومة(٤٩)، وبعث القوط إلى نارسيس يطلبون السماح لهم بمغادرة إيطاليا، فوافق نارسيس على الفور وسمح لهم بالانسحاب من إيطاليا، وانتهت دولة القوط الشرقيين فى إيطاليا نهائيا(٥٠).

غير أن القضاء على القوط الشرقيين فى إيطاليا أدى إلى كارثة مروعة بالنسبة لهذه البلاد، فقد أفسحت الامبراطورية المجال أمام قبائل أكثر همجية لتعيث فسادا فى إيطاليا، لاسيما الألمانى والفرنجة الذين كونوا حلفا فى العام التالى، وانسابوا إلى إيطاليا مخربين ومدمرين ولم يوقفهم سوى تفشى الأمراض بينهم، فضلا عن تصدى البيزنطيين لهم(٥١). وكان أنفع للامبراطورية حقا أن تصادق القوط وتقبل منهم رسوم سلطة شكلية لتدرأ بهم شر عناصر أكثر منهم بربرية تضرب فيما وراء جبال الألب، بل إن القوط الشرقيين كانوا أكثر الشعوب المتبربرة حفاظا على الحضارة والنظم

---

(48) Oman: op.cit. pp. 102 - 3.
Ostrogorsky: op.cit. p. 65.

(٤٩) ديفز: أوربا فى العصور الوسطى ص ٣٨،
العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ١٣٤.

(50) Camb. Med. Hist. V. 2, p. 18.
Lot: op.cit. p. 263.

(51) Lot: op.cit. p. 263.

الرومانية، وأكثر تفهما لدورهم فى تلك البلاد، مع استعدادهم للتوائم مع الامبراطورية الشرقية[٥٢]. ولقد عبر عن ذلك أحد القادة القوط فى حديثه لبلزاريوس حين قال: «دأبنا نحن القوط على مراعاة القوانين الامبراطورية وتقاليدها فى إخلاص لايقل عن إخلاص الأباطرة السابقين، فلم يصدر الملك ثيودريك أو أحد ممن جاء بعده من الملوك قانونا جديدا واحترمنا المعتقدات الرومانية كل احترام، واحتفظنا بكل الوظائف للايطاليين[٥٣]».

والواقع أنه لم تكد تمضى إلا سنوات قليلة حتى تعرضت إيطاليا لغزوات الألمانى والفرنجة وفلول البرجنديين، وتحملت إيطاليا إبان ذلك الصراع الطويل بين القوط والبيزنطيين أولا ثم بين الحاميات البيزنطية والمتبربرين من الألمانى والفرنجة والبرجنديين ثانيا[٥٤]، وهو الصراع الذى امتد أكثر من ثمانية وعشرين عاما، تحملت ألوانا من العذاب وتعرضت للتخريب والقتل والأسر، ولربما أحدثت جيوش بلزاريوس ونارسيس من الدمار والخراب مالم تحدثه جيوش المتبربرين، ثم توالت غارات الجرمان بعد ذلك، فراح ضحيتها أعداد هائلة من السكان وجرى إحداث مذابح بشرية رهيبة، وخربت البلاد وانتشرت الأوبئة وتناقص عدد السكان وتفرقت الأسرات الكبيرة[٥٥]، وانتشرت اللصوصية وتعرضت القرى والمدن لهجمات الذئاب، وفر إلى خلجان بحر الأدرياتى سكان الجهات القريبة هربا من الفقر والوباء، وخوف القتل أو الأسر، وتعرضت روما والبندقية خلال هذه المحن لآلام الحصار مرات كثيرة[٥٦]، فخربت أحياء روما وتهدمت مبانيها واختفت كمدينة

(52) Oman: op.cit. p. 105.

(٥٣) فشر: المرجع السابق ق١ ص ٥٠.

(54) Pirenne: op.cit. p. 68.

(٥٥) جيبون: إضمحلال الإمبراطورية ج٢ ص ٤٧٢،

Vasiliev: op.cit. p. 137.

(56) Pirenne: op.cit. p. 68.

صاخبة، واندثر ما بها من حمامات، وصمت ما بها من ملاهى شعبية «وحل محل ذلك كله مدينة حزينة كئيبة ليس بها من أهلها سوى فئات معظمها من رجال الدين، تعلوها غبرة من شدة مانزل بها من الفقر ولم يبق من ملعب السباق إلا آثاره من العمد والأحجار، وانتهت أيام المواكب الحربية والاحتفالات بمقدم المنتصرين»(٥٧).

والحقيقية أن اندثار دولة القوط الشرقيين بإيطاليا أدى إلي نتائج بالغة الأهمية، إذ لم تقم لجستنيان حكومة قوية فى إيطاليا، بل وقعت البلاد فى فتن مستمرة وحروب طاحنة، ولو ترك القوط بها وشأنهم لما عزاها بعد ذلك اللمبارديون، ولما انبثقت بها دولة البابوية القوية، ولما أعيد بعث الامبراطورية الرومانية فى الغرب، بل لربما حقق القوط الوحدة السياسية الإيطالية فى القرن الثامن الميلادى(٥٨).

أما جستنيان فلم يزده نجاحه فى إفريقيا وإيطاليا إلا رغبة فى زيادة الفتح وطمعا فى النصر، فلم يكد يحصل على نصر نهائى فى إيطاليا سنة ٥٥٣م حتى اتجه نحو إسبانيا لاستردادها من القوط الغربيين(٥٩)، إحياء لمشروعه القديم بجعل البحر المتوسط بحيرة لاتينية. غير أن تحقيق تلك الأطماع الواسعة لم يكن فى طاقة جستنيان، أو طاقة الوسائل التى تحت يده. حقيقة نجحت قواته فى الاستيلاء على بعض الموانى الاسبانية فى الجنوب الشرقى بين شبه الجزيرة الأيبيرية سنة ٥٥٤م وجزر البليار لتأمين الملاحة فى الجزء الغربى من البحر المتوسط ومحاولة اتمام السيطرة البحرية على شواطئ ذلك

---

(٥٧) فشر: المرجع السابق ق١ ص ٤٩.

(٥٨) فشر نفسه ق١ ص ٥٠ – ٥١،

Oman: op.cit. pp. 105 - 6.

(59) Lemerle: op.cit. p. 51.

البحر[٦٠]، لكن طبيعة البلاد الإسبانية حمت القوط الغربيين من السقوط، فضلا عما حدث بينهم من تماسك على أثر غزو قوات الامبراطورية، وقصور الإمكانات الامبراطورية عن الاستمرار فى فتح تلك البلاد الوعرة والقضاء على مقاومة القوط الغربيين المتشبثين بها[٦١].

كما اضطر جستنيان إلى الحرب فى شبه جزيرة البلقان، فقد تعرضت البلقان فى عهد جستنيان للإغارة على يد البلغاريين والصقالبة، إذ دأبت جموعهم على عبور نهر الدانوب كل عام تقريبا والتوغل فى الأقاليم البيزنطية، حيث يعيثون فسادا فيها ويحرقون ويقتلون كل من يصادفهم، وتغلغلوا أحيانا حتى وصلوا إلى أرباض القسطنطينية وبلغوا الدردنيل، كما نفذوا أحيانا داخل بلاد اليونان حتى وصلوا كورنثه وسواحل بحر الأدرياتى غربا[٦٢]، وفى عهد جستنيان هدد الصقالبة مدينة سالونيك فى طريقهم نحو بحر إيجة. وعلى الرغم مما بذله جستنيان من جهود لرد الصقالبة وطردهم إلى ماوراء الدانوب، فإن فريقا منهم استقر فى تلك الجهات، فقد صارت مدينة سالونيك ومايجاورها بعد ذلك من أهم مواطن الصقالبة فى شبه جزيرة البلقان[٦٣].

وتعرضت البلقان أيضا لهجمات قبائل أخرى غير الصقالبة مثل الجبيد اى من الجرمان، وبعض قبائل الهون، حيث أنزلتَ هذه القبائل المتبربرة أشد الضربات بها، ومضوا فى طريقهم إلى القسطنطينية، فنشروا

---

(60) Bury: op.cit. 11, pp. 287 - 8.
Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 163 - 4.
(61) Ostrogorsky: op.cit. p. 65.
(62) Vasiliev: op.cit. p. 140.
Ostrogorsky: op.cit. p. 66,
العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية ص ٧٧.
(63) Ostrogorsky: op.cit. p. 66,
بشر: المرجع السابق ق١ ص ٥١.

الذعر فى العاصمة، وعلى الرغم من رد هؤلاء المغيرين فإن كثيرا من أقاليم البلقان قد تأثرت بهذه الإغارات من الناحية الاقتصادية مثل تراقيا ومقدونيا وتساليا(٦٤)، ولم تمنع خطوط الدفاع والاستحكامات التى أقامها جستنيان عند الدانوب هذه القبائل المتبربرة من تهديد الأقاليم البيزنطية خاصة وقد لجأ جستنيان مرارا إلى نقل عدد كبير من الجند المرابطين هناك إلى جهات أخرى(٦٥).

والواقع أن همة جستنيان ارتقت لاسترداد كل الأقاليم الرومانية القديمة واستعادتها من أيدى المتبربرين، وإعادة الامبراطورية إلى حدودها القديمة، وأكبر دليل على ذلك ما أثر عنه من قول: «إن الله هيأ لنا أن نعاهد الفرس على الصلح وأن نخضع القوط والوندال والألمانى والمغاربة (البربر)، وأن نسترد جميع إيطاليا وصقلية، وليس لنا إلا أن نستعين بالله ليهبنا بقية الامبراطورية التى مدها الرومان فى سالف العصور إلى أطراف البحار، ولم يذهبها عنهم سوى البلادة والخمول»(٦٦).

غير أن إمكاناته كانت تقصر حتما عن تحقيق كل تلك لأطماع، فالاحتفاظ بإفريقيا وإيطاليا وأسبانيا فضلا عن القيام باستعادة غالة وبريطانيا لم يكن بوسع هذا الامبراطور أو فى طاقة ما أتيح له من وسائل(٦٧). حقيقة نجحت نظمه العسكرية وما استحدثه من وسائل جديدة فى فنون الحرب، مثل الخيالة الثقيلة المزردة والمسلحة بالسيوف والسهام والحراب والدروع

---

(64) Vasiliev: op.cit. p. 140.
Bury: op.cit 11, pp. 310 - 12.
(65) Ostrogorsky: op.cit. p. 66,

العرينى: المرجع السابق ص ٧٧.

(٦٦) فشر: المرجع السابق ق١ ص ٥٠،

Cantor: Med. Hist. p. 159.
(67) Lemerle: op.cit. pp. 52 - 3.

الحديدية الثقيلة فى إحداث ثورة فى النظم الحربية فى أوربا فى ذلك الوقت[٦٨]، إلا أن ذلك كله لم يكن يكفى لاقتلاع ممالك جرمانية رسخت لفترة طويلة فى أجزاء أوربا، واتخذت من الوسائل ماكان كفيلا بجعلها ندا قويا وخصما عنيدا لجيوش قادمة من مسافات بعيدة[٦٩]، فضلا عن أن سكان تلك الممالك الأصليين لم ينظروا لجيوش جستنيان إلا على أنها جيوش أجنبية أيضا ربما أكثر أجنبية من تلك الجيوش المتبربرة التى ألفوها فترة وأنسوا بها زمنا طويلا[٧٠].

وعلى الرغم من النجاح الذى أحرزه جستنيان فى الغرب، إلا أنه لم يصادف توفيقا فى سياسته فى الشرق، فلم يستطع الصلح الذى عقده مع الفرس سنة ٥٣٢م أن يمنحه سلاما دائما فى تلك المنطقة من العالم، لأن كسرى الأول مالبث أن نقض ذلك الصلح بعد أقل من ثمانى سنوات وتقدم بجيوشه نحو بلاد الشام، واستولى على مدينة أنطاكية العريقة سنة ٥٤٠م، وأجبر جستنيان على شراء صلح جديد سنة ٥٤٥م، تعهد بموجبه جستنيان بدفع جزية سنوية[٧١]، وتكررت إغارات الفرس على أطراف الامبراطورية فى الشرق، مما دفع جستنيان إلى عقد صلح ثالث معهم سنة ٥٦٢م قبل وفاته بسنوات قليلة، وقد أسهب المؤرخ بروكوبيوس Procopius سكرتير بلزاريوس فى وصف الحروب والعلاقات بين البيزنطيين والفرس[٧٢] وكيف عول جستنيان على المفاوضات والدبلوماسية لشراء مسالمة أولئك

---

(68) Camb. Med. Hist. V. 2, pp. 11 - 12.

(٦٩) محمد الشيخ: الممالك الجرمانية ص ٤٩ – ٥٠،
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ١٥٧.

(70) Cantor: op.cit. p. 161.

(71) Oman: op.cit. pp. 92 - 4.

(72) Procpius: Bello Persico, 11, pp. 8 - 11.

وانظر أيضا: اسمت غنيم: امبراطورية جستنيان ص ٥١.

الفرس لينهض بأعباء مشروعاته فى الغرب من ناحية ولحماية حدود الامبراطورية فى الشرق من ناحية أخرى(٧٣).

سياسة جستنيان الداخلية:

أما فيما يختص بسياسة جستنيان الداخلية، فالواقع أن هذا الامبراطور أكد بسياسته الداخلية وأعماله السلمية روح الأباطرة الرومان حقا، ودل على أنه كان آخر الأباطرة اللاتين المتحمسين، إذ رأى أن يتوج أعماله باستعادة الامبراطورية القديمة بمحاولة بعث روح تلك الامبراطورية، وإضفاء سمة من العظمة عليها(٧٤). ولعل أصدق دليل على ذلك أنه اتجه فى الناحيتين فى وقت واحد، فبينما شرع فى إعداد نفسه لاسترداد أملاك الإمبراطورية القديمة، بدأ فى محاولة بعث روح تلك الإمبراطورية من جديد(٧٥).

وإذ يمثل القانون الرومانى صورة حية لتطور الفكر والتراث القديم ويعطى واجهة حقيقية لعهد الإمبراطورية القديمة، فقد اتجه جستنيان لمحاولة جمع وتنظيم القوانين الرومانية وتبويبها، فكلف لجنة من كبار رجال القانون على رأسهم وزيره تريبونيان ومن بينهم ثيوفيلوس Theophilus أستاذ القانون بجامعة القسطنطينية والقانونى ذائع الصيت(٧٦)، بجمع القوانين الرومانية وتبويبها سنة ٥٢٧م، فقامت هذه اللجنة بترتيب وتنظيم كل ما صدر عن الأباطرة منذ هادريان حتى جستنيان من القانون المدون(٧٧)، وجعلته فى

(73) Hussey: op.cit. p. 19.
Ostrogorsky: op.cit. p. 60.
Bury: op.cit. 11, pp. 120 - 3.
(74) Lemerle: op.cit. pp. 56 - 7.
(75) Pirenne: op.cit. 69.
(76) Bury: op.cit. 11, p. 396.

(٧٧) إسمت غنيم: المرجع السابق ص ٧٧.

مجلد واحد نسب إلى جستنيان وعرف بمدونة جستنيان Codex Justinianus وصدرت هذه المدونة سنة ٥٢٩م، ثم ما لبثت هذه اللجنة أن عكفت على فحص كتابات وشروح الفقهاء للقانون المدون، وأعدت بعد نحو أربع سنوات أخرى مجلدا آخر عرف باسم الموسوعة Digesta(٧٨)، وهى التى تحوى كتابات الفقهاء والمشرعين الرومان، والتى غدت منذ ذلك الوقت الشرح الوحيد المعترف به فى الدولة.

وفى نفس العام أيضا (٥٣٤م) صدر كتاب موجز يضم أصول القانون الرومانى المدون والمبادئ الأساسية للتشريع الرومانى بغية تسهيل الإطلاع والإفادة من القانون الرومانى على طلبة الجامعات والدارسين، وهذا الموجز هو الذى عرف باسم النظم Institutes. وماصدر من تشريعات جستنيان بعد ذلك عرف باسم المتجددات Novella Leges(٧٩)، وتألفت من مدونة جستنيان والموسوعة والنظم والمتجددات ماعرف باسم مجموعة القانون المدنى الرومانى Corpus Juris Civilis، وهى المجموعة التى خلدت إسم جستنيان وجعلته من عمالقة التاريخ الأوربى الوسيط(٨٠)، كما عد قانون جستنيان أكبر انجاز قانونى للحضارة الغربية، وجرى اتخاذه بعد ذلك أساسا لكل المبادئ أو النظم القانونية فى القارة الأوربية كلها(٨١).

والواقع أن عظمة هذا العمل إنما تكمن فيما انطوى عليه من أثر فى

---

(78) Ostrogorsky: op.cit. p. 69.
Oman : op.cit. pp. 109 - 10.
Katz: op.cit. p. 129.

(79) Savigny: The Hist. of Roman Law during the middle Ages. (trans. by Cathcart). V, 1, pp. 10 - 15 - in Cantor op. cit. p. 85.

(80) Hussey: op.cit. pp. 20 - 21.
Camb. Med. Hist. V. 2, p. 60.
Ostrogorsky: op.cit. p. 69.

(81) Cantor: The Med. World 300 - 1300, p. 83.

حفظ تراث روما وعبقرية فقهائها فى مجال التشريع، ونقله إلى الأجيال اللاحقة، فضلا عن، إبراز ماكان للمسيحية من آثار تهذيبية فى القانون الرومانى زمن جستنيان[٨٢]، فضلا عن أن هذه المجموعة غدت بعد ذلك أساسا لما جرى من تطور للقانون فى غرب أوربا واستمد منه بعض ملوك غرب أوربا نظرية الحق المطلق فى الحكم، واقتفت الكنيسة الغربية أثره بإصدار مجموعة القانون الكنسى التى عرفت باسم Corpus Juris Canonici[٨٣] وأهم ما امتاز به تشريع جستنيان هو اصراره على ما للامبراطور من سلطات، إذ صارت مجموعة القوانين المدنية سندا شرعيا لسلطة الامبراطور، وكان لها تأثير دائم على تطور الفكر السياسى فى الغرب الأوربى وفى بيزنطة، وظل القانون الرومانى فى الامبراطورية البيزنطية أساس التطور التشريعى طوال تاريخها[٨٤].

وفى زمن جستنيان ازدهرت ثلاث مدارس للقانون منها مدرسة القسطنطينية وأخرى بروما والثالثة فى بيروت، وجرى إغلاق المدارس الأخرى حتى لاتتخذ قواعد للوثنية، ثم انتقلت مدرسة بيروت سنة ٥٥١م إلى صيدا بسبب ما أصاب بيروت من تدمير نتيجة حدوث زلزال، غير أنها مالبثت أن فقدت ما كان لها من أهمية[٨٥].

وقد ترتب على حروب جستنيان، وجزيل كرمه، فى دفع الإتاوات السنوية لأعدائه وإتحافهم بالهدايا الغالية أن أفلست خزائن الدولة، وزادت نفقاتها وتضاعفت رواتب الجند المرتزقة، وكلفت الدولة نفقات طائلة فى

---

(82) Ostrogorsky: op.cit. p. 70.
(83) Ibid. p. 70
Vasiliev: op.cit. pp. 145 - 6.
(84) Ostrogorsky: op. cit. p. 70.
(85) Vasiliev: op. cit. p. 147.

الوقت الذى لم يتبع فيه جستنيان سياسة فرض ضرائب جديدة[٨٦]، يسد بها تلك النفقات المتزايدة، بل اكتفى بتنفيذ النظم الضريبية السابقة، وإن أظهر عماله قسوة فى جباية الضرائب، كما لجأت الدولة إلي ضم الضياع الإمبراطورية بالوسائل المشروعة وغير المشروعة، ولكن ذلك لم يحل دون تفاقم الأزمة الاقتصادية الحادة التى تسببت فيها سياسة جستنيان الخارجية[٨٧].

والواقع أن جستنيان اشتد فى جباية ضرائب الأرض بصفة خاصة الأمر الذى دفع كثيرا من أصحاب الأراضى للهرب وهجر أراضيهم، إلا أن ذلك لم يمنعه من المضى فى سياسته، بل ألقى عبء الضرائب على الأراضى المهجورة على أصحاب الأراضى المجاورة، فأضحى العبء ثقيلا على صغار الملاك[٨٨]، وخاصة وقد اشتدت الحروب وطال أمدها، وانتشرت الأوبئة سنة ٥٤٢م، وراح ضحيتها فى إفريقيا وإيطاليا فقط على حد قول المؤرخ بروكبيوس نحو عشرة ملايين من الأنفس، وخسرت الإمبراطورية بسببها نحو ثلث عدد سكانها[٨٩].

وعلى الرغم من ذلك فقد ظل جستنيان يعتبر كبار الملاك أشد خصوم الحكومة بسبب ماحرصوا عليه من اتخاذ الحرس والأتباع المسلحين، واحتوائهم لكثير من ضياع الدولة وأملاكها، وعدم اكترائهم بنظم الدولة ورسومها، وتشير كثير من قوانين جستنيان المتأخرة إلى هذه الخصومة وإلى

---

(86) Lemerle: op.cit. pp. 60 - 1,

العرينى: تاريخ أوربا ص ١٤٠.

(87) Vasiliev: op.cit. p. 142.

(٨٨) العرينى: المرجع السابق ص ١٤١.

(89) Vasiliev: op. cit. p. 162,

فشر: المرجع السابق ق١ ص ٥٢ - ٥٣.

محاولة جستيان وضع حد لجشع هذه الفئة من السكان[٩٠]، فألزم كل منهم بعرض مستندات ملكياتهم ولم يتردد فى مصادرة كل أرض عجز القائم على إدارتها عن إثبات ملكيته لها، ووضع إصبعه فى كثير من مسائل الوراثة، لاسيما ميراث الأراضى الشاسعة وحاول حرمان الكنيسة من كثير من أملاكها، وصرف جانبا كبيرا من الجهد لتحطيم الملكيات الكبيرة، وإن لم يستطع أن يقضى عليها نهائيا[٩١].

ومن الغريب أن خزانة الدولة لم تثر بهذه الضرائب الباهظة، ولم تشبع هذه الأموال نهم الحكومة لسد النفقات الطائلة، وذلك بسبب ماتردى فيه عمال الحكومة وجباتها الماليين من فساد، وماغرقوا فيه من انحلال، إذ كانوا زمرة من المختلسين وحفنة من اللصوص، فلم يكن يصل إلى خزانة الدولة مما يجمعونه سوى الثلث فى حين يصل الباقى إلى جيوبهم[٩٢]، وحاول جستنيان علاج هذا الفساد بمختلف القوانين دون جدوى، وفشلت فى النهاية جهوده فى وضع حد لهذه الفوضى[٩٣].

وثمة ناحية أخرى ابتلعت جانبا من إيراد الدولة وأموالها وأسهمت إلى حد فيما حدث من مشكلات مالية؛ ذلك أن جستنيان أظهر اهتماما بالحركة العمرانية، فعبد الطرق وبنى الجسور والحمامات والمسارح والقصور والمستشفيات، ولازالت كنيسة أيا صوفيا Hogia Suphia أو كنيسة الحكمة المقدسة[٩٤]، ذائعة الصيت بقبتها السامقة فى سماء القسطنطينية بحجمها

---

(٩٠) العرينى: المرجع السابق ص ١٤١، Lemerle: op.cit. p. 61.

(91) Vasilicv: op.cit. p. 159.

(٩٢) فشر: المرجع السابق ق١ ص ٥٣.

بينز: الامبراطورية البيزنطية ص ٥٠.

(93) Vasiliev: op.cit. p. 159.

(٩٤) كانتور. التاريخ الوسيط ص ٢٢٠ (مترجم).

وطراز عمارتها نموذجا فريدا للفن والهندسة فى العصور الوسطى، ولم يقم بناء يضاهيها روعة وجمالا أو يماثلها فى الحجم وتناسق العمارة[٩٥]، وتشهد حوائط الفسيفساء الشهيرة بمدينة راڤنا على عظمة هذا الامبراطور الكبير وجهوده فى جانب العمران[٩٦]، وصرفه الأموال الطائلة لتحقيق أهدافه الكبيرة، حتى لتذهب بعض الروايات إلى أن تكاليف كنيسة أيا صوفيا وأثاثها قد بلغ رقما لايصدقه عقل، وهو ١٤ مليونا من الجنيهات[٩٧].

أما فيما يتعلق بالنظام الإدارى، فالملاحظ أن جستنيان حاول إصلاحه ليتمكن أيضا من سد الثغرات فى إدارة البلاد وتحديد واجبات موظفى الحكومة لمنعهم من الرشوة والفساد وإلزامهم بالعمل على زيادة دخل الحكومة[٩٨]. أما النظام الإدارى فى الأقاليم فالمعروف أن دقلديانوس وقنسطيطين أمعنا فى زيادة الأقسام الإقليمية، وإقامة طبقة كبيرة من الموظفين، وعملا على الفصل بين السلطتين المدنية - والحربية[٩٩]، ولكن جستنيان رأى فى بعض الحالات أن يعود إلى النظام السابق على عصر دقلديانوس فجمع الأقاليم الصغيرة لاسيما فى الشرق، وجعل منها وحدات كبيرة، ونظراً لما ساد من المنازعات بين السلطتين جعلها فى يد موظف واحد، أى أنه رأى من الأوفق قيام نظام إدارى مركزى يلزم الموظفين بالطاعة والاستقامة لسلطات الدولة[١٠٠]. غير أن مابذله جستنيان من محاولات

---

(٩٥) بناها جستنيان فى عام ٥٣٢ فى القسطنطينية تحت إشراف ازيدور الملطى وانثميوس الترللى.
انظر اسمت غنيم: امبراطورية جستنيان ص ٧٢.

(٩٦) فنشر: المرجع السابق ق١ ص ٥٤.

(٩٧) برايس: من مقال له بكتاب تاريخ العالم - المجلد الرابع ص ج٢٥ ٣
جيبون: إضمحلال الامبراطورية الرومانية ج٢ ص ٤٣٧.

(98) Vasiliev: op.cit. p. 159.

(99) Ostrogorsky: op.cit. p. 31.
Hussey: op.cit. p. 342.

لجمع الأقاليم وتركيز السلطة فى الولايات لم يكن هو السائد أثناء حكمه، إذ أبقى جستنيان على الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية فى الغرب لاسيما فى الأقاليم التى فتحها حديثا فى شمال إفريقيا وإيطاليا[(١٠١)].

أما بالنسبة لسياسته الدينية، فقد اعتقد جستنيان أن بوسعه أن يعيد الوحدة الدينية إلى المسيحيين مثلما أعاد لهم الوحدة السياسية، فأظهر حرصا صادقا على حماية العقيدة من كل مايتهددها لاسيما من قبل المهرطقين[(١٠٢)]، ومعتنقى المذاهب الفلسفية، فأمر بإغلاق مدارس أثينا الفلسفية سنة ٥٢٩م وجرى إبعاد كل من تثور الشكوك فى صدق عقيدته كما أبعد اليهود عن المناصب الهامة فى الدولة، وتعرضوا فى عهده لاضطهاد عنيف[(١٠٣)]. لكن على الرغم من كل ذلك فقد عزت الوحدة الدينية على التحقيق لأن جستنيان تجاهل مابين الشرق والغرب من اختلاف مذهبى[(١٠٤)]. حقيقة بنى جستنيان آراءه وأفكاره على مبدأ السلطة الاستبدادية وافترض أن كل شئ فى الدولة يخضع لسلطة الإمبراطور، وأنه يصح للحكومة أن تستخدم الكنيسة وتتخذ منها سلاحا قويا، ولذلك بذل كل ما فى وسعه من جهد لإخضاع الكنيسة لسلطانه، إلا أنه مع ذلك لم يستطع أن يهب الامبراطورية الوحدة الدينية التى كان ينشدها ويرغب فى تحقيقها[(١٠٥)].

---

(101) Vasiliev: op. cit. p. 160,

العرينى: تاريخ الدولة البيزنطية ص ٨٥.

(١٠٢) بينز: المرجع السابق ص ١٠٧ - ١٠٨.

(103) Vasiliev: op.cit. p. 150.
Katz: op.cit. p. 115.
Ostrogorsky: op.cit. p. 71.

(104) Chadwick: op.cit. pp. 208 - 9.

(105) Rice: op.cit. p. 48.
Chadwick: op. cit. pp. 208 - 9.

ذلك أنه بينما تحمست الأقاليم الشرقية من الامبراطورية، لاسيما مصر والشام وفلسطين للمنوفيزيتية (مذهب الطبيعة الواحدة) تمسك الغرب الأوربى بمذهب الطبيعتين وأمعن فى تسفيه المنوفيزيتية[١٠٦]، ولقد أخذ جستنيان فى بداية عهده وتحمس لهذا المذهب الذى اعتنقه الغرب الأوربى، وتحمست له البابوية، نظرا لحاجته الماسة لمساندة البابا أثناء حروبه مع القوط الشرقيين فى إيطاليا[١٠٧]، إلا أن عاملا جديدا ما لبث أن أدخل تعديلا جوهريا على سياسة جستنيان الدينية، فقد كانت زوجته الامبراطورة ثيودورا تعتنق المنوفيزيتية وتساند أتباعها[١٠٨]، ولهذا دفعت جستنيان إلى التحول إلى مناصرة هذا المذهب وأتباعه، وحين أعلن البابا معارضته لهذه السياسة تعرض لنقمة جستنيان الذى جد فى فرض سياسته الدينية باستخدام القوة حينا والتشريع الامبراطورى والمجامع الدينية أحيانا أخرى[١٠٩]، وترتب على مساندته للمنوفيزيتية وصلابة موقفه من أعدائها أن قامت كنيسة منفصلة باسم كنيسة اليعاقبة نسبة إلى مؤسسها يعقوب أسقف الرها فى القرن السادس الميلادى[١١٠].

وهكذا باءت محاولات جستنيان للتوفيق بين أتباع المذهبين وإحداث وحدة دينية بالفشل الذريع، وحتى المنوفيزيتيون لم يقنعوا بما حصلوا عليه من امتيازات، وبذلك لم يحقق الامبراطور هدفه فلم يقم كنيسة وحدة وظلت النحل المختلفة من المانوية واليهودية والوثنية قائمة ولم تتحقق الوحدة الدينية[١١١]. وأدى إمعان جستنيان فى تنفيذ سياسته الدينية بما لم تنله من

(106) Ostrogorsky: op. cit. p. 71.
(107) Ibid. p. 71.
(108) Lemerle: op. cit. p. 59.
(109) Cantor: Med. Hist. p. 160.
Ostrogorsky: op.cit. p. 71.

(١١٠) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى ج١ ص ١٢١ ط ٤.

(١١١) العرينى: الدولة البيزنطية ص ١٠١.

قبول في الغرب إلى إضعاف مركز الامبراطورية في إيطاليا بصفة خاصة وتقوية نفوذ البابوية فيها وأسهمت بنصيب فيما حدث من شقاق ديني بين الشرق والغرب[١١٢]، لاسيما وأن تحمس الإمبراطورية البيزنطية لذلك المذهب كان تحمسا وقتيا ولأسباب بدت هينة وليس عن اقتناع عميق، فضلا عن التردد بين المناهضة أو التأييد لفترة من الزمن[١١٣].

ومهما يكن من أمر فلعل جستنيان يبدو من أكثر الشخصيات إثارةللحيرة، فبينما الامبراطورية أشد ماتكون حاجة إلى سياسة حازمة تجنبها شر الفرس والصقالبة والآفار والبلغار، نجده يولع بمشروعات غربية ربما لم تكن الدولة في أي حاجة إلى إتمامها، بل جلبت عليها الكوارث المروعة واستنزفت كثيرا من طاقتها ومواردها ولم تؤد في النهاية إلا إلى إضعافها[١١٤]، وبينما يولع بمحاولة إضفاء الصفة الرومانية من جديد على ربوع أوربا وملحقاتها ويحاول بعث روح العالم الروماني من جديد بما وضعه من قوانين وما أنشأه من مباني ومنشئات معمارية فذة، نجده يترك الامبراطورية وهي أقل رومانية مما كانت حين تسلمها قبل ثمانية وثلاثين عاما، وبينما يتخذ من الأساليب المالية ماكان كفيلا بإثراء خزانة الدولة ويرفع شأنها ويمنحها استقراراً اقتصاديا تاما، نجده يغض الطرف عن فساد جهازه الإداري والمالي أحيانا وعن غرق عماله وموظفيه في اللصوصية والاختلاس[١١٥]، ولا يظهر إلا جهدا ضئيلا في محاولة إصلاح ذلك الخلل الذي ابتلع أموال الدولة وأفلس خزائنها[١١٦].

(112) Chadwick: op. cit. pp. 209 - 10.
(113) Camb: Med. Hist. V. 2, p. 48.
Vasiliev: op.cit. p. 132.
(114) Ostrogorsky: op.cit. p. 72.
(115) Vasiliev: op. cit. p. 161.
العريني: تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ١٤٣.
(116) Katz: op. cit. p. 117.

على أية حال توفى جستنيان سنة ٥٦٥م عن ثلاثة وثمانين عاما وترك الامبراطورية أفقر مما كانت حين تولاها، وأشد ماتكون قربا من التدهور والانهيار وأقل رومانية مما كانت عليه، بل إن إيطاليا التى أجهد نفسه فى انتزاعها من القوط الشرقيين ما لبثت أن وقعت فريسة سهلة فى يد اللمبارديين(١١٧)، وقويت فيها شوكة البابوية وترنحت فيها دعائم السيطرة البيزنطية لتؤكد الفشل الذريع لسياسة هذا الامبراطور العسكرية والدينية فى إيطاليا قلب العالم الرومانى ومركز الثقل فيه(١١٨).

خلفاء جستنيان:

لم يكد جستنيان يتوارى من مسرح الأحداث الأوربية سنة ٥٦٥م حتى بزغت مرحلة جديدة فى تاريخ أوربا، أكدت أن ذلك الامبراطور كان بحق آخر الأباطرة الرومان وآخر حاكم صرف همته للسيطرة على ماكان للإمبراطورية الرومانية من أملاك فى الشطر الغربى من أوربا(١١٩) ؛ لأن خلفاء جستنيان لم يظهروا إلا اهتماما ضئيلا بالشطر الغربى من الامبراطورية، ولم يحفلوا بسياسة جستنيان اللاتينية. وتعتبر الفترة الواقعة بين سنتى ٥٦٥ و ٦١٠م من أسوأ فترات التاريخ البيزنطى لما استشرى خلالها فى أوساط الامبراطورية من الفوضى والإضمحلال وما اجتاحها من الفقر والأوبئة وسوء الأحوال(١٢٠).

فقد خلف جستنيان فى تلك الفترة أربعة من الأباطرة هم: جستين

(117) Oman: op.cit. pp. 186 - 7.
Hussey: op. cit. pp. 21 - 2.
Pirenne: op. cit. p. 69.
Hearder, Waley: op.cit. p.'30.
(118) Cantor: op.cit. p. 164.
(119) Lot: op.cit. p. 265.

(١٢٠) العرينى: الدولة البزنطية ص ١٠٢.

الثانى (٥٦٥ – ٥٧٨م)، وطيبريوس (٥٧٨ – ٥٨٢م)، وموريس (٥٨٢ – ٦٠٢م)، وفوقاس (٦٠٢ – ٦١٠م)، ميز سياستهم أثناء تلك الفترة اتجاههم الواضح نحو سياسة شرقية بيزنطية دون اهتمام كبير بما كان يجرى فى الشطر الغربى من أوربا[١٢١]، كما أن أهم ماجرى من الحوادث خلالها من الناحية الخارجية، الحرب ضد الفرس والنضال ضد الصقالبة والآفار فى شبه جزيرة البلقان، وماحدث من استيلاء اللمبارديين على إيطاليا[١٢٢].

وإذ اعتقد جستين الثانى أن بإمكانه المضى فى بعث الامبراطورية ومواصلة سياسة جستنيان فى إعلاء شأنها، فقد نقض شروط الهدنة مع الفرس ورفض استمرار دفع ماهو مقرر عليه من الجزية[١٢٣]، بالإضافة إلى أنه حاول التحالف مع الترك الذين كانوا قد ظهروا قبيل هذه الفترة فى غربى اسيا وعلى سواحل بحر قزوين واعتبروا الفرس عدوا لهم.

وترتب على هذه الأمور أن نشبت الحرب بين البيزنطيين والفرس بسبب النزاع على أرمينيا نظرا لأهميتها الاستراتيجية والاقتصادية فضلا عن الأسباب الأخرى المشار إليها آنفا[١٢٤]. ولم يقدر لبيزنطة أن تحرز نصرا على الفرس زمن جستين الثانى، إذ لم يلبث هذا الامبراطور أن رفع الحصار عن نصيبين، كما سقطت دارا – وهى من أهم المواقع الحصينة على الحدود الفارسية البيزنطية – فى أيدى الفرس[١٢٥]، بعد أن استمر حصارها ستة أشهر. ويبدو أن سقوط دارا كان وقعه سيئا على جستين لأنه أصيب بالجنون على أثر

(121) Bury: Later Roman Empire. 11, p. 67.
Lemerle: op. cit. p. 63.
(122) Vasiliev: op.cit p 170.

العرينى: المرجع السابق ص ١٠٣.

(123) Ostrogorsky: op.cit. p. 73.
(124) Ibid. p. 73.
(125) Bury: op. cit. 11, pp. 95 - 101.

سماع هذا النبأ ولم تظفر بيزنطة بالهدنة سنة ٥٧٤م، إلا بعد أن دفعت جزية كبيرة قوامها خمس وأربعون ألف قطعة ذهبية[١٢٦].

وفى زمن جستين الثانى أيضا نزل اللمبارديون بشمال إيطاليا واستولوا على المنطقة التى عرفت بعد ذلك بسهل لمبارديا، ثم مالبثوا أن انتشروا فوق ربوع شبه الجزيرة الإيطالية، وامتد زحفهم ناحية الجنوب حتى بنفنتو[١٢٧]، ثم أرسوا دعائم مملكة جرمانية شاسعة فى إيطاليا[١٢٨]، وإن عجزوا عن الاستيلاء على روما التى صمدت لهذا الغزو، وبرز البابا فيها مدافعا عن تراث الامبراطورية وشاء القدر أن يهبها فى أواخر القرن السادس واحدا من أشهر البابوات وهو جريجورى الأول أو الكبير، وإن لم يحل كل ذلك دون انفصال إيطاليا عن الامبراطورية البيزنطية بالتدريج وإضعاف ما للإمبراطورية من سلطة سياسية فى إيطاليا[١٢٩].

وعلى عهد طيبريوس اشتدت الحرب من جديد مع الفرس، إلا أن بيزنطة أصابها بعض التوفيق حينئذ، وعلى عهد موريس أيضا الذى اشتهر بمهارته العسكرية والقيادية فى الحرب ولما حدث من النزاع الداخلى فى فارس حول ولاية العرش. فقد استغل موريس هذا الظرف وتدخل فى النزاع فى فارس وساعد كسرى الثانى على الوصول إلى العرش، حتى يحصل على مكاسب للامبراطورية البيزنطية[١٣٠]. وبفضل هذه المساعدة والتأييد تربع كسرى الثانى على عرش فارس وبادر بعقد معاهدة جديدة مع بيزنطة سنة

(126) Ibid. pp. 95 - 101.
(127) Oman: op.cit. p. 186, Pirenne: op.cit. p. 69.
(128) Hearder, Waley: op.cit. p. 30,

فشر: المرجع السابق ق١ ص ٥١، ديفز: المرجع السابق ص ٣٩.

(129) Vasiliev: op. cit. p. 174,

العرينى: المرجع السابق ص ١٠٧.

(١٣٠) العرينى: نفسه ص ١٠٤ - ١٠٥.

٥٩١م تنازل بموجبها عن أرمينيا للامبراطورية البيزنطية كما تنازل عن الجزء الشرقى من إقليم الجزيرة، بما فى ذلك مدينة دارا، كما أعفى بيزنطة من دفع الجزية السنوية التى كانت تمثل أمرا مهيناً لها(١٣١).

وبعقد هذه المعاهدة هدأت الأمور فى الجبهة الشرقية لبعض الوقت، وتركت يد موريس حرة فى الغرب ليدافع عن سلطة الامبراطورية فى البلقان ضد الصقالبة والآفار(١٣٢) – الذين استقروا هناك وأقاموا ممالك صقلبية مستقلة فى تلك الأراضى التابعة لبيزنطة (١٣٣)- ولقد نجح موريس فى إحراز انتصارات متتالية عليهم، وإن لم تؤد إلى تغيير كبير فى الأوضاع فى تلك الجهات وهكذا ترتب على سياسة جستنيان أن ضعفت الامبراطورية وقصرت همة خلفائه عن حفظ مكاسبها وتداعى ما كان للحكومة من هيبة وكرامة(١٣٤). فقد استعاد السناتو جانبا من أهميته السياسية، وأصاب الجيش انهياراً خطيراً فى نظامه وتدريبه، وترتب على ذلك تذمر الجند وسخطهم خاصة وقد خفضت أجورهم بسبب سوء الأحوال المالية واستمرار الحروب(١٣٥)، ولهذا نهضوا بثورة عارمة سنة ٦٠٢م أطاحت بموريس وأوصلت فوقاس إلى السلطة، وهو قائد صغير تجرى فى عروقه بعض دماء المتبربرين(١٣٦). واشتهر هذا الرجل بالطغيان والارهاب فأدى ذلك إلى تداعى واضمحلال الامبراطورية فى عهده (٦٠٢ – ٦١٠م)، لاسيما وقد اشتدت الكراهية له فى الأقاليم الشرقية لما لجأ إليه من اضطهاد المنوفيزيتيين واليهود وانتشرت الفوضى فى أنحاء البلاد، واندلعت الحروب الأهلية فى

(131) Ostrogorsky: op. cit. pp. 77 - 8.
(132) Vasiliev: op. cit. p. 171.
(133) Ostrogorsky: op. cit. p. 76.
(134) Vasiliev: op. cit. 162.
(135) Ostrogotsky: op. cit. p. 75,

العريني: نفسه ص ١٠٥ – ١٠٦.

(136) Ostrogorsky: op.cit. p. 76.

سائر أنحاء الإمبراطورية[١٣٧].

وعلى عهد فوقاس تجددت الحرب مع فارس وإن لم يحصل هذا الامبراطور الضعيف على مكاسب للامبراطورية، وانتكست سياسته فى الداخل والخارج، وكان فوقاس طاغية أحمق وصل إلى العرش - كما ذكرنا - بعد ثورة نشبت فى القسطنطينية ضد موريس[١٣٨]، وما لبث أن زج بنفسه فى عداء مع السلطات الدينية فى القسطنطينية ترضية لبابا روما، فقد قامت علاقته بالبابا على أساس مامنحه لهذا البابا من امتيازات على حساب منزلة البطريرق فى القسطنطينية[١٣٩].

وزاد فى الفوضى على عهد هذا الامبراطور أن كسرى الثانى نهض للانتقام لمقتل موريس منتهزا فرصة الفوضى الداخلية فى بيزنطة واندلاع الحروب الأهلية فاخترق خطوط الدفاع البيزنطية واستولى سنة ٦٠٥م على دارا [١٤٠]، ونفذ فى آسيا الصغرى فاستولى على قيصرية. وفى نفس الوقت اجتاح الصقالبة والآفار البلقان، وتعرضت جيوش الامبراطورية للهزائم المتوالية[١٤١]، ولم ينقذ الموقف سوى خروج هرقل حاكم إفريقية على حكم فوقاس بعد أن انحازت إليه مصر، فبعث بأسطول إلى القسطنطينية تحت قيادة ابنه ويدعى هرقل أيضا، فدخل القسطنطينية سنة ٦١٠م، وتلقى هرقل التاج من يد البطريرق، ثم أمر بإعدام فوقاس، وانتهت بذلك حقبة هامة من تاريخ الامبراطورية البيزنطية[١٤٢]، وقامت أسرة جديدة فى حكم

(137) Vasiliev: op.cit. p. 174.
(138) Ostrogorsky: op.cit. p. 67.
(139) Vasiliev: op.cit. p. 174.
(140) Ostrogorsky: op.cit. p. 78.
(141) Ibid. p. 78.

العرينى: المرجع السابق ص ١١٣.

(142) Hussey: op. cit. pp. 22 - 3.

بيزنطة هى أسرة هرقل (٦١٠ – ٧١٧م) التى تمثل بداية التاريخ البيزنطى الصحيح فى رأى فريق المؤرخين[١٤٣].

(143) Ostrogorsky: op. cit. p. 78
Hussey: op. cit. pp. 22 - 23.

الفصل الثالث

اسرة هرقل [٦١٠ - ٧١٧م]

تبلور الشخصية البيزنطية

رأينا كيف أن نقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية سنة ٣٣٠م لم يقض على كيان الإمبراطورية أو يزعزع من مكانتها، إذ غدت روما الجديدة مقرا للإمبراطور والحرس الإمبراطورى ومجلس السناتو[١]، واستمرت الامبراطورية تمارس دورها فى حكم العالم الرومانى، وجرى اعتبار هذه الخطوة ليست سوى إحساسا بأهمية الأقاليم الشرقية فى الامبراطورية وثقلها فى الدولة، وتمشيا مع ما اكتنف أوربا من أحداث فى ذلك الوقت[٢].

وحين انقسمت الامبراطورية الرومانية إلى قسمين فى أواخر القرن الرابع (٣٩٥م) على أثر وفاة الإمبراطور ثيودسيوس العظيم، ظل كل قسم يحمل اسم الامبراطورية الرومانية ويحرص على أن يستمد سلطته وكيانه من الانتساب لها[٣]، على الرغم من دعوى أباطرة القسطنطينية بأنهم وحدهم وارثوا الدولة الرومانية القديمة، وحافظوا تراثها وحضارتها، لاسيما وأن عددا منهم أظهر طموحا فائقا للهيمنة على شئون أوربا، كما أظهر شيئا ليس تافها من المقدرة والكفاية[٤].

غير أن دعوى القسطنطينية فى ارث العالم الرومانى وفى أملاك الإمبراطورية الرومانية زادت بعد سقوط القسم الغربى سنة ٤٧٦م[٥]، وان لم ترق همة أباطرتها قبل جستنيان إلى استعادة تلك الأملاك من المبربرين،

(1) Lot: op.cit. p. 38.
(2) Camb. Med. Hist. V. I, p. 205.
(3) Ostrogorsky: op. cit. 26.
(4) Vasiliev: op. cit. p. 194.

(٥) العرينى: تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ١٨٨ .

وإعادة الوحدة السياسية إلى ربوع أوربا، فلما تولى جستنيان الحكم تضافرت عوامل مختلفة فى إخراج هذه الدعوى إلى حيز التحقيق[٦]، ومحاولة إضفاء مسحة رومانية على الإمبراطورية وتشبث بأهداف مجدها السالف، على الرغم من أن ذلك جاء أمرا صوريا إلى حد بعيد، ولم ينجح فى إخفاء الوجه البيزنطى للامبراطورية أو الوجه الشرقى لتلك الدولة فى ذلك الوقت[٧].

على أن خلفاء جستنيان لم يظهروا إلا اهتماما قليلا بالشطر الغربى من الامبراطورية، ولم يحفلوا بسياسة جستنيان اللاتينية[٨]، فساهموا فى كشف الغطاء عن وجه الامبراطورية البيزنطية، وأماطوا اللثام عن صبغتها الهللينية، وصرفوا همتهم لإدارة الشرق اليونانى، واتخذوا لقب الأباطرة البيزنطيين، وغدت دولتهم تعرف بالإمبراطورية البيزنطية، وانفصل الغرب عن الامبراطورية ولم يعد يمدها بعائد مالى أو بالجنود[٩]، واخذ العنصر الهلينى يرقى إلى مقام الصدارة فى الدولة يوما بعد يوم، واختفت اللغة اللاتينية أمام اليونانية، وأخذ الأدب يستلهم أفكاره ونماذجه من الأساليب الجديدة، وكذلك اصطبغت العادات التى كان الناس يتبعونها فى حياتهم بصبغة يونانية[١٠]، ولم تكن ثمة مكابرة تجدى أمام حقائق العصر، فالقسطنطينية كانت مدينة يونانية فكرا ولغة وحضارة والشرق كله شرقا يونانيا هلنستيا، واليونانية لغة التخاطب بين سكانه أما اللاتينية فلم تكن سوى لغة البلاط والحكومة والقانون، وحتى هذا القانون جرى نشر جانب منه باليونانية فى نفس العام الذى توفى فيه جستنيان[١١].

---

(6) Oman: op. cit. p. 74.
(7) Ostrogorsky: op. cit. P. 27.
(8) Lemerle: op. cit. p. 63.
(9) Lot: op. cit. p. 257, p. 286.

(١٠) من فصل لشارل ديل Diehl بعنوان:

La Farmation de L'Empire Oriental

في كتاب نورمان بينز: الامبراطورية البيرنطية ص ٣٢١ اوانظر أيضا

Katz: op. cit. pp.111-12.

(11) Lot: op. cit. pp. 272 [illegible]

مايعنينا من ذلك كله أن ثمة تبلور للشخصية البيزنطية بدأ يفرض نفسه ابتداء من أواخر القرن السادس الميلادى، فى الوقت الذى أخذت فيه أوربا الغربية تدلف إلى أعتاب مرحلة اكتمال نموها وتطورها، واستغرق هذا التحول فى الشرق معظم القرون الأربعة التالية حتى نهاية القرن العاشر، فاتخذ الامبراطور البيزنطى لقب ملك (باسيليوس) الروم، وغدت اللغة اليونانية هى اللغة الرسمية للامبراطورية[١٢]، فى الوقت الذى اتخذت فيه أوربا الغربية طابعا جديدا فى تطورها، حيث نمت النظم الإقطاعية فى إيطاليا وغالة، وامتدت السلطة البابوية إلى أبعد من روما، وانطلقت البعثات التبشيرية إلى جهات مختلفة من بينها بريطانيا، وجرى تكييف التاريخ الأوربى فى الغرب على أساس مفهوم جديد[١٣].

والواقع أن جيران بيزنطة وجدوا بجوارهم دولة جديدة بهذه التسمية لها حكومة مركزية وجهاز إدارى وجيش ثابت ومدارس ومستشفيات، التزم إمبراطورها باحترام القوانين وآل على نفسه استطلاع رغبات الرعايا بقدر ما يستطيع، على الرغم من أن سلطة هذا الامبراطور لم تتأثر إلا قليلا بهذه الرغبات[١٤]، وخاصة وأن الكنيسة فى بيزنطة لم تجسر على منازعته سلطاته الموروثة، بعكس ماحدث فى الغرب حيث جعل البابا من نفسه سلطة دينية وزمنية ونازع الحكام العلمانيين سلطاتهم[١٥].

---

(12) Rice: op. cit. p. 20,

العرينى: أوربا ص ١٨٩.

(13) Ostrogorsky: op. cit. p. 129.
Vasiliev: op. cit. p. 197,

سعيد عاشور: أوربا ج١، ص٩٦ - ٩٧.

(14) Lemerle: op. cit. p. 67.

(١٥) موس: ميلاد العصور الوسطى ص ٥٠.

هرقل (٦١٠-٦٤١):

ولقد ألف هرقل ومن جاء بعده مباشرة من الأباطرة أسرة حكمت الامبراطورية البيزنطية أكثر من قرن من الزمان، وعد عهدها بداية التاريخ البيزنطى الصحيح فى رأى فريق من كبار المؤرخين، أى التاريخ اليونانى الحقيقى الذى تبلورت معه شخصية بيزنطة الحقيقية المرتكزة على أسس التاريخ اليونانى والحضارة الهللينية فى الشرق[١٦]، وترجع أصول هذه الأسرة فى أغلب الظن إلى أرمينيا. ويعتبر هرقل من أعظم الأباطرة فى التاريخ البيزنطى فعلى حد قول أحد المؤرخين هو الذى خلق بيزنطة العصور الوسطى، والذى احتذى فى حكمه حذو أباطرة روما، واتخذ اللغة والثقافة اليونانية ودان بالمسيحية دينا ومذهبا[١٧].

إعتلى هرقل عرش الامبراطورية وقد ساءت أحوال البلاد الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وتداعت الإدارة الحكومية، وفسدت أنظمة الدولة. فقد أفلست الخزانة وتعرضت أقاليم الامبراطورية لغارات العدو، واضطربت أحوال البلاد الاقتصادية واشتدت الضائقة المالية وتذمر الناس، ووقعت الفوضى وعمت أرجاء الدولة[١٨]. ولم يعد بوسع الامبراطورية الإعتماد على الجند المأجورين بعد أن خوت الخزانة واضطربت أحوال البلاد المالية، وأغار الصقالبة والآفار على البلقان وصار الفرس يوطدون مراكزهم فى قلب آسيا الصغرى[١٩]، وبلغت الامبراطورية من الضعف وشدة الفقر ماجعلها تقف عاجزة إزاء ضربات الأعداء.

---

(16) Ostrogorsky: op. cit. p. 78.
(17) Vasiliev: op. cit. p. 194,

العرينى: الدولة البيزنطية ص ١١٥ - ١١٦.

(18) Ostrogorsky: op. cit. p. 75 - 8.

(١٩) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٠١

فلقد تفاقم خطر الصقالبة والآفار فى البلقان[٢٠]، حتى أن الصقالبة نجحوا فى احتلال كل مقدونيا، وأنزلوا الخراب والدمار بتراقيا، وامتدت آثار هجماتهم حتى أسوار القسطنطينية، كما خربوا دالماشيا ونفذوا إلى معظم المدن الداخلية مثل بلغراد ونيش، ولم يبق فى أيدى البيزنطيين سوى قلة من المدن مثل سالونيك وبعض المدن الواقعة على ساحل بحر الأدرياتى، وأصبح الجانب الأكبر من شبه جزيرة البلقان لاسيما داخلها إقليما صقلبيا خالصا[٢١].

على أن الخطر الأكبر جاء من قبل الفرس الذين أخذوا فى التهام الأقاليم الشرقية واحدا تلوا الآخر منذ سنة ٦١١م، أى بعد ولاية هرقل بسنة واحدة؛ إذ استولى الفرس على أنطاكية بما لها من أهمية كبرى فى الأقاليم الشرقية، ثم استولوا على دمشق ونفذوا إلى قيليقية، فدان لهم حصن طرسوس العريق، وطردوا البيزنطيين من أرمينيا غير أن استيلاء الفرس على بيت المقدس سنة ٦١٤م[٢٢]، جاء صدمة كبيرة للمسيحيين فى كافة الأنحاء بعد أن تعرضت المدينة لحصارهم ثلاث أسابيع حيث جعلوها طعمة للنيران، وأنزلوا بأهلها مذبحة بشرية رهيبة، وأتى الحريق على كنيسة القيامة (القبر المقدس) التى شيدها قنسطنطين الكبير، واستولوا على الصليب الأعظم The Holy Cross، بعد أن روعوا العالم المسيحى بقتل أكثر من تسعين ألفا من سكان المدينة المقدسة، واستولوا على نفائس وتحف الكنيسة، واشترك اليهود مع الفرس فى إحداث المذابح والسلب والنهب، وحملوا معهم إلى فارس بطريرق بيت المقدس[٢٣].

(20) Vasiliev: op. cit. pp. 172 - 4.

(٢١) العرينى: المرجع السابق ص ١١٨،

Ostrogorsky: op. cit. p. 85.

(22) Oman: op. cit. p. 205.

(23) Vasiliev: op. cit. p. 195
Ostrogorsky: op. cit. p. 85.
Oman: op. cit. p. 205.

ويعلل بعض المؤرخين السهولة التى تقدم بها الفرس فى تلك البلاد بماساد الشام وفلسطين من فوضى فى الشئون الدينية؛ إذا لم يعتنق معظم السكان بالشام المذهب الأرثوذكسى الذى ترعاه الحكومة البيزنطية، وتعرض النساطرة والمتوفيزيتيين فى بلاد الشام وفلسطين للاضطهاد العنيف من قبل السلطات البيزنطية، ولهذا فقد رحب السكان بالخضوع للفرس عبدة النار، لاسيما وقد أظهر الفرس تسامحا جما مع النساطرة فى بلادهم(٢٤).

ولم يقنع الفرس بما حققوه من انتصارات فى بلاد الشام وآسيا الصغرى، وإنما زحفوا إلى مصر فدخلوا الإسكندرية سنة ٦١٩م، ولم تلبث مصر بأسرها أن وقعت فى أيديهم، وأدى ذلك إلى إنقطاع القمح عن القسطنطينية، فزاد ذلك من سوء الأحوال الاقتصادية فى العاصمة(٢٥)، وفى نفس الوقت توغل الفرس فى آسيا الصغرى حتى قاربوا القسطنطينية على حين اجتاح الآفار البلقان وعاثوا فيها فسادا، وضغطت جموع السلاف على دفعات فى البلقان، واستشرت الفوضى فى أنحاء الامبراطورية(٢٦).

أيقن هرقل أن نجاحه فى حرب الأعداء رهن بإصلاح الأحوال فى الامبراطورية وإعدادها لتحمل أعباء حروب ضارية، ولهذا فقد شرع منذ البداية فى القيام بإصلاحات بالغة الأهمية أعطت الامبراطورية قوة جديدة. فقد بدأ بإعادة تنظيم أقاليم الدولة التى لم يمسها الأعداء بأى سوء، فقسمها إلى أقاليم عسكرية كبيرة عرفت بالأجناد Themes أو الثغور(٢٧)، يتولى كل منها قائد عسكرى، وترتب على ذلك التخلص من أسس النظام

(24) Vasiliev: op. cit. p. 196,
العرينى: الدولة البيزنطية ص ١١٩.

(25) Ostrogorsky: op. cit. p. 85.
Vasiliev: op. cit. p. 196.
العرينى: نفس المرجع، ص ١١٩،

(26) Cantor: op. cit. p. 163.

(٢٧) العرينى . نفسه ص ١٢٠.

الإدارى الذى وضعه دقلديانوس وقسطنطين، فأصبحت بذلك التنظيمات الإدارية الجديدة تتخذ الطابع العسكرى الخالص لتتناسب مع الأوضاع الجديدة التى تمر بها الامبراطورية(٢٨).

وحيث أن الدولة قد أصبحت تفتقر إلى الجند المأجورين، فضلا عما يضيفه هؤلاء من أعباء مالية على الخزانة الخاوية، فقد نشأ نظام الاقطاع الحربى لتكوين جيش قوى، فتقرر إدخال أعداد هائلة من الفلاحين البيزنطيين فى الجيش بعد أن حازوا إقطاعات صغيرة مقابل تأدية الخدمة العسكرية(٢٩)، وجرى نقل أعداد أخرى كبيرة من الصقالبة إلى آسيا الصغرى حيث أنزلوا بالثغور، وهكذا بدأت دماء جديدة تشارك فى الجيش البيزنطى فأحدثت به تطورا كبيرا(٣٠)، بالإضافة إلى أن الجند من الفلاحين الذين نزلوا بالثغور، غدوا عنصرا ثابتا فى قوات الجيش البيزنطى، وأمدتهم إقطاعاتهم بالوسائل الاقتصادية التى تكفل لهم سبل العيش وتعدهم فى نفس الوقت حربيا، فضلا عن أنهم كانوا يتقاضون راتبا منتظماً برغم قله مقداره، وهذا النظام الجديد خلص الخزانه الامبراطورية من أعباء ثقيلة(٣١).

وقد كانت نتائج هذه الإصلاحات الشاملة واضحة ملموسة، إذ أن تغلب الصفه العسكرية على إدارة الإمبراطورية، وإعادة تنظيم القوات المسلحة قد أديا إلى تغيير فى مصير الحروب ضد فارس فى أوائل القرن السابع الميلادى، فقد عوض الجيش البيزنطى خسائره بالانتصارات الباهرة التى

(28) Vasiliev: Op. Cit., P. 227.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 86.
(29) Ibid. P. 87.

(٣٠) العرينى : نفس المرجع السابق، ص ١٢٢.

(31) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 90.

أحرزها فى ظل هذه التغييرات، ولم تلبث الامبراطورية المتداعية أن نهضت من جديد، ولقى أعداؤها الهزائم منذ ذلك الحين[٣٢].

وأسهمت الكنيسة بقدر وافر فيما أحرزته الإمبراطورية من انتصارات، فقد جعلت كل مالديها تحت تصرف الحكومة، وعاونت هرقل بحركة دعائية ضخمة، وجمعت ما فى كنائس العاصمة والأقاليم من التحف الذهبية والفضية وقدمتها للحكومة فجرى صهرها وسكها نقوداً ليصرف منها هرقل على إعداد جيوشه[٣٣]. فقد أعتبرت الكنيسة الحرب ضد الفرس حرباً صليبية لاسترداد الأماكن المقدسة منهم واستعادة الصليب الأعظم، ولهذا طغى على الحرب فى مستهلها جو من الحماس الدينى لم يكن معروفاً فى العصور السابقة، ويعتبر بداية لما اختصت به الحروب فى العصور الوسطى من مظاهر[٣٤]. وجرت الحرب وسط مشاعر دينية ملتهبة[٣٥].

بدا لهرقل أن ثمة حرب صليبية لابد وأن تعلن على الفرس لاسترداد الأماكن المقدسة منهم، واستعادة الصليب الأعظم، فبدأ بتنظيم جهازه الحكومى، ومحاولة توفير الأموال اللازمة لمشروعاته العسكرية، وأظهرت الكنيسة - كما سبق أن أشرنا - تعاونا طيباً فى تلك الظروف، فاستطاع هرقل أن يستأجر الجند المرتزقة ويتأهب لشن الحرب على الفرس، ومن أجل ذلك عقد صلحا مهيناً مع الآفار، تعهد بموجبه أن يدفع لهم جزية سنوية كبيرة، بعد أن أحدث الآفار هلعاً كبيراً لسكان العاصمة البيزنطية سنة

---

(٣٢) العرينى: نفسه ص ١٢٢.

(33) Vasilier: Op. Cit., P. 197.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 90.

(٣٤) العرينى: المرجع السابق، ص ١٢٤،

Lemerle ; op. Cit., PP. 66-67.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 90.

(٣٥) وسام عبد العزيز فرج: دراسات ص ١٥١.

٦١٧م[٣٦]، ومكنه هذا الصلح من التفرغ لمحاربة الفرس.

قرر هرقل أن يقود الجيش بنفسه محتذيا فى ذلك حذو الامبراطور موريس الذى قاد الحملة المنفذه لقتال الافار، ولقى هرقل معارضة لذلك مثلما لقى موريس أيضا من كبار مستشأريه؛ إذ لم يكن مألوفاً منذ ثيودسيوس الأول أن يباشر الامبراطور القتال بنفسه[٣٧]، ومكنته المعاهدة التى عقدها مع الآفار والتى قبل بموجبها دفع مبلغ كبير من المال وإرسال رهائن لهم، من نقل قواته من أوربا إلى آسيا دون عوائق[٣٨].

عبر هرقل البسفور فى إبريل سنة ٦٢٢م إلى آسيا الصغرى فانضوى له عدد كبير من جند الثغور بعد أن درس خططه العسكرية، وابتكر أساليب جديدة فى الحرب بزيادة الاعتماد على الفرسان فى القتال واستخدام الرماة من الفرسان بطريقة فعالة، ثم ما لبث أن شق طريقه إلى آرمينيا حيث التقى بالجيش الفارسى وأنزل به هزيمة ساحقة على حدود أرمينيا، وطرد الفرس من آسيا الصغرى[٣٩]. وعلى الرغم من انتصار هرقل فقد رفض كسرى الثانى أن يمضى فى طريق السلام، الأمر الذى دفع هرقل إلى أن يشق طريقه فى أرمينيا حيث استولى على عدة مراكز تابعة للفرس، وخرب بعض مدنهم ولاذ كسرى نفسه بالفرار وأشعل البيزنطيون الحرائق فى بعض معابد الفرس انتقاما لما أنزلوه من قبل ببيت المقدس، ووقع فى يد هرقل عدد لا حصر له

(36) Baynes : The Successors of justinian - in Camb. Med . Hist. v. 2, P. 291.
- Bréhier ; Vie et mort de Byzance, P. 54.
وإسمت غنيم : الاثار ص ٤١ .

(37) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 90.
(38) Vasiliev: Op. Cit., P. 197.
(39) Camb. Med . Hist. v. 2, P. 293.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 91.

من الأسرى سنة ٦٢٣م[٤٠]، وأمضى هرقل سنتى ٦٢٤م، ٦٢٥م فى مناضلة الفرس، ولم يقدر له أن يحقق تقدماً كبيراً ضدهم فى تلك الفترة، بل يشير المؤرخون إلى عدم استطاعته أن يشق طريقه إلى فارس عبر قيليقية على الرغم من أنه أحرز بعض الانتصارات عليهم[٤١].

وشهدت سنة ٦٢٦م أحداثاً خطيرة فى الصراع بين البيزنطيين والفرس زادت خطورتها بتدخل الآفار فى هذا الصراع بعد أن نقضوا شروط الصلح، إذ حشد كسرى جيوشه لسحق البيزنطيين، وارتكزت خطته على أن يستوقف أحد جيوشه هرقل بينما يزحف جيش آخر إلى خلقدونيا ليهاجم القسطنطينية ومن ذلك اتصل الفرس بالآفار لمهاجمة القسطنطينية فى نفس الوقت، وقام تحالف بين الفرس من جهة والآفار ورعاياهم من جهة آخرى[٤٢]، فبينما وصل القائد الفارسى شهر براز إلى خلقدونيا فى يونيو سنة ٦٢٦م، حيث عاث الفساد فى ضواحى المدينة، وصل الآفار الى أدرنة فى نفس الشهر، وأصبح موقف بيزنطة بالغ الخطورة، ثم واصلوا طريقهم إلى القسطنطينية فى الشهر التالى، حيث بدأت اتصالاتهم بالجيش الفارسى المرابط فى خلقدونيا، وخربوا القناة المائية التى تمد العاصمة بالمياه، وتشير بعض الروايات الى أن جيش الآفار بلغ نحو ثمانين ألف رجل من الآفار والسلاف والجبيداى والبلغار والسكثيين وغيرها من القبائل الخاضعة للآفار[٤٣].

---

(40) Ibid. PP. 91-92.
(41) Ibid. P. 92.
(42) Vasiliev: Op. Cit., P. 197.
Baynes: op. cit. P. 295.
إسمت غنيم : الآفار ص ٤٣.
(43) Theophanes : Chronographia, ed. de Boor, Leipzig 1883. P. 315,
إسمت غنيم : الآفار ص ٤٤ – ٤٥.

وعلى الرغم من ذلك وعلى الرغم أيضا من استعانة الآفار بسفن السلاف فى حصار العاصمة البيزنطية، إلا أن العاصمة صمدت خاصة وقد أبدى الآفار تشدداً عظيماً حين لجأ البيزنطيون فى غيبة هرقل لمفاوضتهم، إذ أصروا على إخلاء العاصمة من أهلها وخروجهم منها دون أن يحملوا أية أمتعة أو ثروات[٤٤]، ولهذا لم يعد أمام البيزنطيين إلا مواصلة الحرب، إذ نجحت سفنهم فى إغراق كثير من سفن الأعداء براً بينما أخذت العناصر المشاركة فى الحصار البرى تتسلل من أمام العاصمة، وفشل الحصار تماماً بعد أن حقق البيزنطيون صموداً فى هذه المحنة، أما القائد الفارسى شهرباراز فقد استدار منسحباً من أمام خلقدونيا، وفشلت محاولتة فى استغلال عداء الآفار لبيزنطة[٤٥].

وفى خريف سنة ٦٢٧ قام الامبراطور هرقل بزحفه الكبير نحو الجنوب إلى قلب بلاد فارس فوصل إلى نينوى (قرب الموصل الحالية على نهر دجلة)، حيث نشبت المعركة الحاسمة مع الفرس والتى قررت مصير النزاع بين الدولتين، فقد أحرز البيزنطيون انتصاراً باهراً، وحلت بالجيش الفارسى هزيمة ساحقة فتحت الطريق لهرقل لالتهام مزيد من المدن والقلاع والمراكز الفارسية، وترتب على ذلك عزل كسرى وقتله وإحلال ابنه قبادشيرويه محله فى الحكم، فبادر الحاكم الجديد بإبرام معاهدة مع هرقل[٤٦]، استردت بيزنطة بمقتضاها كل ما كان لها من ممتلكات فى الشرق، فضلا عن أرمينيا، واستردت بيزنطة سوريا وفلسطين ومصر، وأجبر الفرس على إطلاق سراح الأسرى البيزنطيين، ورد الصليب الأعظم، وعاد هرقل الى عاصمتة

---

(44) barisie : Le Siege de Constantinople, P. 383.

وإسمت عنيم : الآفار ص ٤٦.

(45) barisie : Op. Cit., P. 390,

إسمت عنيم الآفار ص ٤٩.

(46) Theophanes : Op. Cit., de Bonn, Leipzig . P. 485

بعد أن غاب عنها نحو ستة أعوام[٤٧].

ومالبث هرقل أن ارتحل إلى بيت المقدس سنة ٦٢٩م، فأعاد وسط مظاهر الفرح والسرور إقامة الصليب المقدس فى موضعه كما أعاد كل ما جرى سلبه من الكنيسة من التحف والنفائس، وقام بتوزيع المنح والعطايا على سائر الكنائس وعلى سكان المدينة المقدسة[٤٨]. واعتبر المؤرخون هذه الحرب أول حرب مقدسة قام بها العالم المسيحى، كما أنها حطمت قوة الفرس وقضت على ما كان لهم من أهمية وأسهمت فى هدم عظمة بنى ساسان، وإضعاف دولتهم فى مواجهة الخطر العربى الذى ما لبث أن أجهز على دولة الفرس فى موقعة نهاوند سنة ٦٤١م، وضم المسلمون أملاك الدولة الفارسية إلى دولتهم الفتية فى غضون سنوات قليلة[٤٩].

وعلى الرغم من كل ما بذله هرقل من جهد فى استعادة أملاك الامبراطورية البيزنطية فى الشرق، فإنه لم تمض إلا سنوات قليلة حتى استولى المسلمون على كل ما استرده هرقل من أقاليم[٥٠]، فخلال الاشتباكات الدامية بين الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية كانت الجزيره العربية تشهد حدثاً فريداً فى تاريخها هو ظهور الاسلام، وتصبح مسرحاً لظهور أحدث ديانة سماوية عرفتها البشرية[٥١]. إذ كان الرسول الكريم قد ولد بمكة سنة ٥٧٠م، واضطلع برسالتة السامية وهو فى سن الأربعين، وفى الفترة الأولى من حياته بعد البعثة، وهى الفترة المكية دعا الناس خلالها سراً للدين الجديد

(47) Vasiliev: Op. Cit., P. 198.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 93.
(48) hussey : Op. Cit., P. 24.
Pirenne : Op. Cit., P. 148.
(49) Ostrogorsky : Op. Cit., PP. 45-46.
Vasiliev. Op. Cit., P. 199.
(50) Ibid. P. 211.

(٥١) عشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٦١

وعرض عليهم العقيدة الجديدة، فتجمع حوله فئة قليلة من الأتباع هاجر بهم إلى المدينة سنة ٦٢٢م، حين اشتدت عليه نقمة الأرستقراطية القرشية(٥٢). وهناك فى المدينة اكتملت الديانة الجديدة وهى الديانة التى ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية بالنسبة للعرب، عرفوا بفضلها الوحدة السياسية بعد طول فرقة، وآمنوا بدين واحد بعد ديانات متعددة، وعرفوا حكومة واحدة بدلاً من التفكك والفوضى فى الشئون السياسية والاجتماعية(٥٣).

ولم يمض على هجرة الرسول إلى المدينة أكثر من عشر سنوات حتى كان الاسلام قد عم بلاد العرب كلها تقريباً، وغدا للجماعة الإسلامية وزنها وقوتها وأوشكت دولة العرب الاسلامية أن تغير معالم المنطقة كلها، وتوفى الرسول سنة ٦٣٢م وهو يتأهب للجهاد فى سبيل الله، بإرسال حملة إلى حدود الشام ليبشر بالدين الجديد، ويدعو للعقيدة الجديدة، سيما وقد أظهر المسلمون حماسة كبيرة للجهاد واسترخصوا فى سبيل ذلك الأنفس والمال(٥٤).

ولم يظهر كل من الإمبراطور البيزنطى هرقل وملك الفرس كسرى الثانى، وهما فى غمرة اشتباكاتهما وحروبهما اهتماماً بما كان يجرى فى الجزيرة العربية من بعثة الرسول الكريم سنة ٦١٠م وهجرتة إلى المدينة سنة ٦٢٢م ودعوتة لنشر الرسالة السامية بأمر الوحى وجمع كلمة العرب وتنظيم

---

(٥٢) فشر . نفس المرجع السابق ق ١ ص ٦٣.

(٥٣) فشر : نفس المرجع السابق ق ١ ص ٦٣،

Ostrogorsky : Op. Cit., P. 98.
Ricc ; Op. Cit., P. 75.

(٥٤) ابن هشام : السيرة ج ٣ ص ٢١١، ص ٢١٥، ص ٢٢٨، ص ٢٣٨

المسعودى. لتنبية والاشراف ص ٢٣٠ - ٢٣١.

المجتمع الإسلامى وإرساء قواعد الدولة الجديدة(٥٥). فالواقع أن الغرب المسيحى ربما لم يعرف من تعاليم الإسلام إلا ما يتعلق بزواج المسلم من أربع نساء وما يعد به الرسول المؤمنين من نعيم مقيم فى الحياة الآخرة ، إلا أن هؤلاء العرب ما لبثوا أن غدوا أمة عظيمة وقوة هائلة لم يقتصر أثر قيامها على بلاد العرب فحسب بل امتد هذا الأثر إلى أوربا ذاتها(٥٦). فلم يكد يمضى أكثر من اثنتى عشرة سنة على وفاة الرسول، حتى استولى خلفاؤه على كل الامبراطورية الفارسية وانتزعوا مصر والشام وفلسطين من بيزنطة وامتدت دولتهم من أصفهان شرقاً حتى طرابلس وبرقة غرباً(٥٧).

ومما يسترعى الانتباه أن الفتوح الاسلامية قد جرت بهمة وسرعة كبيرة تركت مسحة من الذهول والتعجب لدى المعاصرين واللاحقين، لاسيما أنها وجهت ضد إمبراطوريتين عريقتين فى وقت واحد، وأسفرت عن اختفاء إحداهما وتقليم أظفار الأخرى وانتزاع أعظم ما فى عقدها من دور ، فقد بدأت حركة الفتوح الإسلامية على عهد أبى بكر الصديق خليفة رسول الله الذى أنفذ جيشين فى وقت واحد إلى الشام والعراق، أحدهما لقتال الروم بقيادة أبى عبيدة ابن الجراح والثانى لقتال الفرس بقيادة خالد بن الوليد(٥٨)، ولم يفد الروم ماحشدوه من جند فى الشام تحت قيادة تيودور أخى الامبراطور، إذ سرعان ما وصل خالد من العراق لنجدة الجيش الإسلامى فى الشام، وجرى إنزال هزيمة ساحقة بالقوات البيزنطية فى

(55) Oman · Op. Cit., P. 212, P. 216-17
Pirenne ; Op. Cit., P. 148.
(56) Camb. med. hist. V. 3, PP. 432-435.
(57) Rice: Op. Cit., PP. 75-76,
Maclagan : Op. Cit . PP. 77 - 78.
Vasili. v: Op. C..., . 145.

(٥٨) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٨، ص ٣٢.
البلاذرى: فتوح البلدان ص ١١٩،
- Oman : Op Cit., P 217.

إجنادين سنة ٦٣٤م[٥٩]. ثم أذعنت دمشق وحمص سنة ٦٣٥م، بعد أن تولى عمر بن الخطاب الخلافة، وعندما حاول جيش بيزنطى كبير استعادة دمشق وحمص تعرض لهزيمة ساحقة فى موقعة اليرموك سنة ٦٣٦م[٦٠]، فترت بعدها مقاومة الروم وتضاءلت جهودهم لمنع العرب عن بلاد الشام، فسقطت فى أيدى المسلمين عكا وصيدا وصور وبيروت واللاذقية سنة ٦٣٧م، ودانت أنطاكية وبيت المقدس سنة ٦٣٨[٦١]، وكانت بيت المقدس قد تعرضت لحصار طويل امتد نحو عامين، وانتهى باتفاق بين بطريرقها والخليفة عمر بن الخطاب نفسه على تسليم المدينة للمسلمين مقابل ضمانات دينية واجتماعية لسكان المدينة، ونقل المسيحيون الصليب المقدس منها إلى القسطنطينية، ومالبث المسلمون أن أخضعوا ماردين والرها وميا فارقين من أرض الجزيرة وأطراف العراق فى سنة ٦٣٩م، كما سقطت قيصرية سنة ٦٤٠م وبذلك حال العرب بين بيزنطة وبقية أملاكها فى مصر وشمال أفريقية[٦٢].

ثم حدث بعد ذلك أن أتجه الخليفة عمر بن الخطاب، بعد تسلمه بيت المقدس إلى الجابية جنوبى دمشق للاجتماع بقادتة ورجاله، ويقال أن عمر فوتح فى موضوع فتح مصر وهو فى الجابية وكان عمرو بن العاص أكثر القادة تحمساً لهذا المشروع وأشدهم حدبا على إتمامه لما كان يعرفه عن مصر من رخاء وثراء وضعف عن الدفاع عن نفسها حينئذ، فضلاً عن أنه أدرك بفطرته وهو القائد المطبوع أن تأمين سلامة العرب فى بلاد الشام

---

(٥٩) الطبرى: نفسه ج ٤ ص ٣٥، البلاذرى: نفسه ص ١١٩،
Lewis : The Arabs in Hist. P. 53.

(٦٠) البلاذرى : نفسه ص ١٤٣.

(61) Cantor : Med. Hist. P. 171.

(٦٢) البلاذرى، فتوح البلدان ص ١٤٣،
Oman : Op. Cit., P. 220.

بلاد الشام رهن بالاستيلاء على مصر والحيلولة بين البيزنطيين وبين اتخاذها مركزاً للهجوم من جديد على بلاد الشام[٦٣]، ولابد وأنه أدرك أيضا أن مصر والشام كثيراً ماخضعتا فى العصور المختلفة لحاكم واحد، لأن كليهما يتمم الآخر، ولأنه لا يمكن اعتبار الحدود بينهما حدوداً فاصلة منيعة، كما أدرك قادة المسلمين أيضا أهمية موقع مصر وموانيها فى عالم البحر المتوسط وفى تأمين الفتوحات الاسلامية فى بلاد الشام[٦٤].

ونكاد نجزم أن عمراً كان على دراية تامة بأحوال مصر فى ذلك الوقت، وأن تحمسه لفتحها كان يستند فى الحقيقة إلى فهم واع وإدراك عميق لظروفها، إذ تشير الدلائل إلى أن أحوال مصر كانت قد ساءت تحت حكم البيزنطيين[٦٥]، لاسيما وقد تطرف أباطرة بيزنطة فى اضطهاد المصريين منذ أن تفجرت المشكلة حول طبيعة المسيح - كما رأينا - وهى المشكلة التى أذكت الصراع وتسببت فى الانقسام وفى موجة اضطهاد جديدة لمسيحى مصر نظراً لاعتناق المصريين مذهب الطبيعة الواحدة أو المذهب المنوفيزيتى فى حين أخذت بيزنطة بمذهب خلقدونيا أو ما سماه البيزنطيون المذهب الأرثوذكسى أو المذهب الملكانى، ومن هنا اتسمت العلاقات بين الجانبين بكثير من العنف والاضطهاد وساءت أحوال البلاد[٦٦].

وبينما اضطربت شئون مصر الدينية، وتفجر الصراع المذهبى، كانت أحوال البلاد الاقتصادية والاجتماعية قد ساءت كثيراً، فقد أثقلت ضرائب البيزنطيين كاهل الرعايا المصريين، وحولت حياتهم إلى لون من البؤس

---

(63) Camb. Med. hist. V. 3, P 349.
Butler : The Arab Conquest of Egypt, P. 195.

(٦٤) حسنين ربيع : دراسات ص ٧١.

(65) Vasiliev: Op. Cit., P. 145.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 98.

(66) Vasiliev: Op. Cit., PP. 222 - 3.
Ostrogorsky Op. Cit . P 101.

والشقاء(٦٧)، فى حين جرى اتباع نظام الموظفين غير المأجورين الذين أذاقوا الأهالى الهوان للحصول على الأموال والهبات، وزاد العبء على الفلاحين وصغار الملاك، فهجر كثير منهم أراضيهم فاستولى عليها الاقطاعيون وكبار الملاك، حتى كادت تختفى طبقة صغار الزراع(٦٨)، وأصاب الخلل أيضا البناء الاجتماعى فاعتبر المصريون الطبقة السفلى من طبقات المجتمع، وترتب على ذلك قيامهم بأشد الالتزامات قسوة وحرمانهم من حقوقهم الاجتماعية ومعاملتهم معاملة غير انسانية(٦٩).

وزاد من اضطراب الأحوال فى مصر انتهاز الفرس الفرصة للقيام بغزو مصر فى أوائل القرن السابع - كما رأينا - فأحدثوا بها الكثير من الخراب والدمار(٧٠). وعلى الرغم من أن الامبراطور هرقل قد نجح فى طرد الفرس من مصر ومن جهات أخرى وذلك سنة ٦٢٩م، إلا أنه فشل فى كسب ود المصريين أو وقف الصراع معهم لاسيما وقد ظلت مشكلة المذهب المونوفيزيتى تلقى بظلها على العلاقات بين الجانبين وتتسبب فى تعرض المصريين لكره واضطهاد بيزنطة(٧١).

وبلغ سوء الفهم بين الجانبين مداه قبيل الفتح العربى لمصر، حين أرسل هرقل حاكما عاما على مصر، يجمع فى يده السلطتين الدينية والزمنية، وذلك سنة ٦٣١م، وهذا الحاكم هو قيرس Cyrus الذى عرفه كتاب

(٦٧) العرينى : مصر البيزنطية ص ٣٢٤.

(٦٨) العريينى . المرجع السابق ص ٣٢٧.

(٦٩) العرينى: نفس المرجع ص ٣٢٦.

(70) Vasiliev: op.cit., p. 196.
Ostrogorsky: op.cit. p.85

(71) Diehl: L'Egypte Byzantine , p. 543.
Ostrogorsky: op.cit. p. 86.

العرب باسم المقوقس[٧٢]. وقد اشتهر هذا الرجل بالعنف والغلظة الأمر الذى أدى إلى ازدياد سوء الأحوال فى مصر وهروب كثير من رجالها، لاسيما رجال الدين وعلى رأسهم البطريرق الأنبا بنيامين، لما كان ينتظرهم من اضطهاد وعنف على أيدى الحاكم الجديد[٧٣].. وبدت مصر قبيل الفتح العربى متهالكة ضعيفة بعد أن اختلت أحوالها الدينية والاقتصادية والاجتماعية، وفر رجالها وكبار المسئولين فيها واضطربت شئونها [٧٤]، فى الوقت الذى كان عمرو بن العاص يعد العدة لفتحها[٧٥].

فقد تقدم عمرو بن العاص إلى مصر فاستولى على الفرما سنة ٦٤٠م، ثم دخل بلبيس بعد أن الحق الهزيمة بحاميتها البيزنطية، ثم تقدم بعد ذلك نحو النيل حيث حاصر حصن بابليون المنيع ونقطة الارتكاز للروم فى مصر ومركز الدفاع البيزنطى فيها، فاستولى عليه فى السنة التالية (٦٤١م)، ثم اتجه نحو الاسكندرية وضرب الحصار حولها، وفى هذه الأثناء توفى الامبراطور هرقل يائسا وهو يجاهد لمنع العرب من التهام بقية الأقاليم التابعة لدولته[٧٦]، ولم يكن قد بقى من أرض مصر فى أيدى الروم عند وفاة هرقل سوى مدينة الاسكندرية وبدخولها فى حوزة العرب فى السنة التالية تم لهم فتح مصر واقتطاعها نهائيا من الامبراطورية البيزنطية[٧٧].

---

(72) Diehl: op.cit. p.542.
Hardy: Christian Egypt, p. 184.
(73) Butler: The Arab Conquest of Egypt, pp. 177-9.
(74) Diehl: op.cit. p. 543.
Butler: op.cit. p. 183.
(٧٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٥٣ -٥٦،
Butler: op.cit. p. 195.
(76) Ostrogorsky: op.cit. pp. 101-103.
وانظر ايضا حسنين ربيع: دراسات ص ٧٢.
(77) Ostrogorsky: op.cit. p.103.

وينبغى أن نشير إلى موقف أقباط مصر من الفتح العربى لمصر، إذ يبدو أن الأقباط قد أضناهم طول الاضطهاد والتعسف من قبل السلطات البيزنطية واعتبروا هراطقة فى نظر الكنيسة البيزنطية، واثقلت كواهلهم بالضرائب والمكوس لذلك رحبوا بالعرب وتعاطفوا معهم واعتبروهم أداة للخلاص من نير الحكم البيزنطى، كما أنهم كانوا قد سمعوا كثيرا عن عدل الإسلام وتسامح المسلمين، ولهذا فقد فضلوا أن يعيشوا فى ظل الإسلام عن أن يخضعوا لسلطات بيزنطية ظالمة[٧٨]، فبعد تقدم عمرو بن العاص فى أرض مصر برز الأنبا بنيامين من مكمنه بعد أن اختفى نحو عشر سنوات قبل الفتح، ويقال أنه كتب بعد خروجه من مكمنه إلى إخوانه فى كافة الأنحاء يقول: «أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمر القبط بتلقى عمرو». وعلى كل حال حدد الاقباط موقفهم من العرب بعد سقوط حصن بابليون، ومالوا مع العرب ضد الروم[٧٩].

بعد أن تم للعرب الاستيلاء على الأملاك البيزنطية فى الشرق بالتهام بلاد الشام وفلسطين ومصر، لم يبق من أعمال هرقل سوى جهوده فى تنظيم الأمور الإدارية والحربية فى الامبراطورية ، فقد ارتكزت قوة الدولة فى القرون التالية على تلك الأسس والقواعد التى وضعها هرقل، لاسيما نظام الأجناد أو الثغور الذى غدا يمثل العمود الفقرى للدولة فى العصور الوسطى، ولم تبدأ الدولة فى التفكك إلا حين انهار ذلك النظام[٨٠].

---

(78) Vasiliev: op.cit. pp. 195.6.
(79) Diehl: op.cit. p. 556.
Butler: op.cit. pp. 480-9.

(٨٠) العريني: الدولة البيزنطية ص ١٣٠.

على أن ناحية أخرى نالت من هرقل عناية أيضا، وأعنى بها المسألة الدينية، فقد ساء هذا الامبراطور أن يرى الانقسامات المذهبية والشقاقات الدينية، تنخر فى عظام الدولة وتزيد فى مشاكلها، ولهذا حاول أن يعيد الوحدة الدينية إلى ربوع البلاد[٨١]، لاسيما بعد انتصاراته الباهرة على الفرس التى اعتقد أنها كفيلة بإعادة الهيبة لشخص الامبراطور، وفرض الوحدة الدينية فى البلاد، ويبدو أنه حاول أن يتجاهل مابين الشرق والغرب بين خلاف ويتجاهل الآراء والمذاهب التى تكاثرت وتعاظمت بين أشياع المسيحية، واعتقد أن بوسعه أن يفرض مذهبا جديدا[٨٢]. فقرر أن يمتنع الناس عن مناقشة موضوع طبيعة المسيح، وهى القضية التى تسببت فى تعدد المذاهب واختلافها واحداث الشقاق بين المسيحيين، وسمى هذا المذهب بمذهب التوفيق أو مذهب التوحيد إشارة إلى محاولته توحيد مختلف المذاهب والتوفيق بينها[٨٣]، واتجه إلى السماح لأشياع المسيحية بالقول بأن للمسيح إرادة واحدة فقط على أساس أن ماللمسيح من طبيعتين: إلهية وبشرية، تتسمان بإرادة واحدة[٨٤].

وعلى الرغم مما يحمله هذا المذهب الجديد من ميزات يمكن أن تحسم الخلاف بين المسيحيين وتعيد الوحدة الدينية إلى البلاد، فإنه فشل فى تحقيق الغرض منه، بل إنه تسبب فى نزاع دينى عنيف، إذ رفض اليعاقبة بمصر هذا المذهب وعارضوه بشده[٨٥]، وحينما لجأ المقوقس فى مصر إلى استعمال

---

(81) Ostrogorsky: op.cit. p.97.
Vasiliev: op.cit. p.222.
(82) Diehl: op.cit. p. 543.
(83) Hardy: op.cit. p.186.

(٨٤) العرينى: الدولة البيزنطية ص ١٣٢.

(85) Diel: op.cit. p. 530.

الشدة فى فرضه والإرهاب ضد المصريين لنشر هذا المذهب بين المصريين، اضطربت أحوال مصر الدينية أكثر مما كانت ونشأت معارضة سرية واختفى الأنبا بنيامين (٨٦)- كما بينا - وتمنى الأقباط زوال هذا الكابوس والدخول تحت حماية العرب والاسلام، وبذلك فشلت سياسة هرقل الدينية فشلا ذريعا، وتسببت فى إحداث خلل شديد فى مصر ساعد بدوره على تسهيل فتحها على يد العرب(٨٧).

أما عن نهاية عهد هرقل، فالواقع يميل المؤرخون إلى اعتبار عهد هذا الامبراطور نقطة تحول هامة فى تاريخ الدولة الرومانية الشرقية من الناحيتين الحضارية والسياسية(٨٨)، لأن استيلاء المسلمين على الأقاليم الشرقية والجنوبية من املاك الدولة البيزنطية جعل العنصر اليونانى هو السائد فيما تبقى من أملاك الدولة بآسيا الصغرى وجزر بحر الأرخبيل والقسطنطينية، ومايجاورها من الجهات، هذا فضلا عن أن هرقل أنهى نفسه استخدام اللغة اللاتينية وجعل اللغة الرسمية هى اليونانية(٨٩).

خلفاء هرقل (٦٤١ - ٧١٧م):

توفى هرقل فى فبراير سنة ٦٤١م، وكان قد جعل كلا من ابنه الأول قنسطنطين وابنه الثانى هرقلوناس قسيمان فى الحكم، وورثان له فى

(86) Hardy: op.cit. p. 186.
(87) Ostrogorsky: op.cit. p.98.
Vasiliev: op.cit. p.223.
(88) Vasiliev: op.cit. p.223.

(٨٩) العرينى: الدولة البيزنطية ص ١١٥-١١٦.

العرش، وبهذه الطريقة جرى حفظ وراثة الحكم فى الأسرة المالكة، وتأكد استمرارها فى حكم الدولة، فقد منح هرقل ابنه قنسطنطين - قسيمه فى الملك - لقب باسيليوس، ثم منح نفس هذا اللقب لابنه الآخر هرقلوناس Heraclonas، وأوصى هرقل بأن تشترك زوجته مارتينا والدة الإبن الأصغر (هرقلوناس) فى الحكم كوصية، على الرغم مما أثاره ذلك من معارضة فى الدولة(٩٠).

وبعد وفاة هرقل نشب النزاع والخلاف بين خلفائه واستشرت الفتن بينهم، فى وقت تعرضت فيه الامبراطورية لأخطار جسيمة من الخارج، فلم تكد تمضى شهور قليلة حتى توفى الإبن الأول لهرقل (قنسطنطين الثالث) فى مايو سنة ٦٤١م(٩١)، وانفرد الابن الثانى (هرقلوناس) بالحكم فى وصاية أمه، وحدثت مظاهر نفور فى أنحاء الدولة، بسبب ما أشيع من أن قنسطنطين قد توفى مسموما، وأن لتلك الوصية وابنها يد فى ذلك، نظرا لأنه كان ابنا لهرقل من زوجه أخرى(٩٢). وانتهت الثورة بإبعاد الوصية وابنها، وإحلال ابن قنسطنطين الثالث مكان عمه المخلوع واطلق العامة على الامبراطور الصغير اسم قنسطانز وهو مصغر قنسطنطين(٩٣).

---

(90) Ostrogorsky: op.cit. p. 100.
Diehl: op.cit. p. 548.
(91) Ostrogorsky: op.cit. p. 101.
(92) Ibid. p. 102.
(93) Ibid. 102.

قنسطانز الثانى(٦٤١ - ٦٦٨م):

وعلى عهد قنسطانز الثانى هذا انبسط سلطان المسلمين على الساحل الشمالى لإفريقية، واستولوا على طرابلس سنة ٦٤٣[٩٤]، ولما توفى الخليفة عمر بن الخطاب وولى الخلافة عثمان بن عفان، بادر عثمان بعزل عمرو بن العاص عن مصر، وأسند ولايتها لعبد الله بن سعد بن إبى سرح، غير أنه لم يكد يمضى وقت على عزل عمرو حتى دبت أساطيل البيزنطيين وجيوشهم فى البحر تبغى استعادة مصر على عهد الامبراطور قنسطانز، فاحتلت الإسكندرية بسهولة وتقدمت إلى أبعد منها[٩٥]، وعندئذ طلب عرب مصر من الخليفة عثمان إعادة عمرو قائدا عاما لخبرته بقتال الروم وهيبته فيهم فأعاده عثمان، فنجح عمرو فى إنزال الهزيمة بالروم عند نقيوس وألجأهم إلى الارتداد إلى الإسكندرية، للإحتماء بأسوارها، ثم ألقى الحصار عليها، وما لبث أن فتحها عنوة[٩٦] سنة ٢٥هـ (٦٤٥م)، وهو ماعرف بالفتح الثانى، ولهذا حاول عثمان أن يسترضى عمرا فعرض عليه ولاية الشئون العسكرية بمصر دون الشئون المالية - التى أبعد عن مصر بسببها وبسبب ما اشيع عنه بخصوصها - لكن عمراً رفض هذا العرض رفضا باتا وقال قولته الشهيرة: «إننى اذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها».

ويبدو أن عمراً لجأ بعد دخوله الاسكندرية إلى استعمال العنف والشدة فيها بسبب مالاقاه من صعوبة فى فتحها، إذ أعمل القتل فى الحامية

---

(٩٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ١٥٧

(95) Ostrogorsky: op. cit. p. 103.

ابن عبد الحكم: نفسه ص ١٥٨،

Butler: op. cit. p. 471.

(96) Diehl: op. cit. p. 555.

Butler: op. cit. p. 475.

البيزنطية، وخرب أسوار المدينة ولهذا هرب كثير من البيزنطيين إلى القسطنطينية بحرا[٩٧]، على حين أظهر أقباط مصر ابتهاجهم بعودة الحكم الإسلامى للمدينة، وقاد البطريرق الشعب السكندرى فى مظاهرة، وأعلن الإذعان لحكم المسلمين، وهو دليل على أن المصريين آثروا الحكم العربى على الحكم البيزنطى[٩٨]. وتم للعرب الاستيلاء نهائيا على مصر وحرموا بيزنطة من أغلى درة فى عقدها وأعظم ولاياتها قيمة من الناحية الاقتصادية[٩٩].

وعلى زمن قنسطانز أيضا رسخت أقدام المسلمين فى الشام والجزيرة، واجتمع حكم الشام كله لمعاوية بن أبى سفيان، وتطلع المسلمون إلى الاستيلاء على أرمينيا وآسيا الصغرى، وشنوا غارات متوالية على الأراضى الأرمينية فى سنتى ٦٤٢م، ٦٤٣ كما غزا معاوية قبادوقيا سنة ٦٤٧، واستولى على قيصرية[١٠٠]، وأمر معاوية قائده يزيد بن الحر العبسى سنة ٦٤٨م/٢٧هـ بتخريب مايلاقيه من أرض الروم، وإقامة الحراس على المنافذ التى يمر منها حتى يعود من الغزو[١٠١]، خوفا من أن يقطع البيزنطيون عليه الطريق ويسدون تلك المنافذ دونه.

ولقد أدرك المسلمون أهمية البحر فى صراعهم مع الدولة البيزنطية، ولهذا فقد وضع معاوية مشروع إنشاء قوة بحرية قوية نصب عينيه، ولم تكد

---

(97) Diehl: op. cit. p. 555.
(98) Ibid. pp. 555 - 6.
(99) Ostrogorsky: op. cit. p. 103,

حسنين ربيع: دراسات ص ٧٢.

(١٠٠) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٦،

العرينى: الدولة البيزنطية ص ١٤٢.

(١٠١) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٧١ – ١٧٢،

العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص ١٠٦.

تمضى سنوات قليلة على وفاة الخليفة عمر بن الخطاب، وعلى عهد عثمان شرع معاوية فى إنشاء أسطول بحرى قوى، واستهل المسلمون نشاطهم البحرى سنة ٦٤٩ (٢٨هـ)، فاستولى الأسطول الإسلامى تحت قيادة معاوية على عاصمة جزيرة قبرص، التى كانت من أعظم القواعد الإستراتيجية لأسطول بيزنطة فى الشرق(١٠٢)، ثم أغار الأسطول الإسلامى فى سنة ٦٥٤م على جزيرة رودس وأحدث بها كثيرا من الخسائر ونهب كثيرا من متاعها، وتعرضت جزيرة كريت أيضا لغارات البحرية الإسلامية(١٠٣).

ويبدو أن معاوية كان يحرص عى إسقاط القسطنطينية، لأنه حاول تأمين الطريق البحرى إليها بالإستيلاء على جزيرتى قبرص ورودس، غير أن الامبراطور قنسطانز حاول وقف تقدم البحرية الإسلامية، وإلحاق الهزيمة بها فقاد قوة بحرية عظيمة سنة ٦٥٥م، والتقى بالأسطول الاسلامى بالقرب من ساحل آسيا الصغرى ونشبت أول معركة بحرية بين القوتين البيزنطية والاسلامية أسفرت عن انتصار المسلمين وإحرازهم نصرا بحريا مؤزرا(١٠٤)، على الرغم من حداثة معرفتهم بالبحر وحداثة خبرتهم فيه، بل كاد الامبراطور البيزنطى يقع أسيرا فى أيدى المسلمين فى تلك الموقعة(١٠٥).

ويميل بعض المؤرخين إلى إعتبار هذه المعركة التى سماها مؤرخو

---

(102) Lewis: The Arabs in Hist. p. 66,

ابن عبد الحكم. فتوح مصر ص ١٦٠،

الطبري: المصدر السابق ج٥ ص ٧٠

(١٠٣) موس. ميلاد العصور الوسطي ص ٢٥٧،

Pirenne: op.cit. p. 153

(104) Lewis: op. cit. p. 66

العرب باسم معركة «ذات الصوارى» لكثرة صوارى السفن التى اشتبكت فى القتال – حدا فاصلا فى سياسة الروم إزاء المسلمين[١٠٦]، فقد أدرك بعدها الإمبراطور قنسطانز أن مسألة استرداد أجزاء من بلاد الشام أو مصر من يد المسلمين مشروع فاشل، وأن الجهد الذى يبذل فى سبيل ذلك جهد ضائع، وأنه من الأنفع له أن ينظم دولته ويرتب سياستها على أساس الأمر الواقع، للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها، ويقوى استعداداتها العسكرية لصد هجمات المسلمين التى أخذت تتعاظم وتتكاثر لتهدد القسطنطينية نفسها[١٠٧]، وإن ترتب على معركة ذات الصوارى أن تداعت سيادة بيزنطة فى البحر[١٠٨]، وقضت هذه المعركة على ما اتصف به البحر المتوسط من أنه «بحر الروم»، لتجعله حريا بأن يسمى «بحر المسلمين» بعد أن أصبحت السفن الإسلامية تنطلق فيه فى حرية ذاهبة وغادية حيث تريد رافعة أعلام الإسلام[١٠٩].

والواقع أن النصر الذى أحرزه المسلمون لم تترتب عليه نتائج مباشرة، إذ تلا هذه المعركة حدوث فتن داخلية فى الدولة الإسلامية بعد مقتل عثمان بن عفان سنة ٣٥/٦٥٦هـ، فنشبت الحرب بين على ومعاوية، الذى نادى بنفسه خليفة فى دمشق وانتهى النزاع بمقتل على بن أبى طالب سنة ٦٦١م[١١٠]، وأدى ذلك النزاع إلى حدوث تفاهم بين معاوية والبيزنطيين؛

---

(١٠٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص ٤٦.
ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ١٩٠ – ١٩١
العريني: المرجع السابق ص ١٤٣.

(107) Ostogorsky: op. cit. p. 104.

(١٠٨) العريني: نفسه ص ١٤٣.

(١٠٩) العدوي: الأمويون والبيزنطيون ص ٩٨.

(١١٠) فشر: المرجع السبق ق١ ص ٦٥.

إذ عقد معاوية معهم صلحا سنة ٦٥٩م التزم بمقتضاه أن يدفع لهم جزية سنوية، ريثما تتحسن الأحوال في دولته[١١١]، في الوقت الذى اتجه فيه إلى حدود الشام الشمالية ليحصنها ويقيها من خطر البيزنطيين لو فكروا فى معاودة الكرة فى هذه الجهات[١١٢].

غير أن الامبراطور قنسطانز انصرف إلى محاولة تدعيم إمبراطوريته، ورأى أن ينقل مقر حكمه من القسطنطينية إلى صقلية حيث يستطيع من هذا المقر أن يربط الدولة البيزنطية ببقية أملاكها فى شمال افريقية، ويصد الزحف الإسلامى المتدفق على هذه البلاد من مصر ويحفظ بقية أملاك الامبراطورية فى الغرب[١١٣]، فضلا عن أنه حاول أن يحل المشكلة الدينية وانقسام الرعايا منذ عهد هرقل وفشل هذا فى فرض مذهب التوفيق[١١٤]، وماحدث من تطور فى هذا الشأن، خاصة وقد زاد الإنقسام فى شمال إفريقيا واحتدمت المشكلة الدينية، ولم يستجب الناس لما أصدره قنسطانز من قرارات بتحريم النقاش حول مسألة الإرادة الإلهية وقدرة الله، أو مايعرف بمذهب الإرادة الواحدة أو المونوثلستية والذى لقى معارضة من المونوفيزتيين من ناحية والخلقدونيين الارثوذكس من ناحية أخرى، وسبب كثيرا من المشاكل فى الدولة[١١٥]. ولهذا قرر قنسطانز أن ينتقل إلى صقلية عله ينجح فى حل هذه المشكلة مع الغرب أيضا، إلا أن تطور الأحداث فى بيزنطة لم

(١١١) العرينى: نفسه ص ١٤٣.

(١١٢) العدوى: نفس المرجع ص ٩٩.

(113) Ostrogorsky: op. cit. pp. 105 - 108.

(114) Vasiliev: op. cit. p. 222.
Ostrogorsky: op. cit. p. 97.

(115) Vasiliev: op. cit. p. 224
Ostrogorsky: op. cit. p. 106.

يمكنه من ذلك وفشل مشروع تقوية الجبهة الغربية فى الامبراطورية البيزنطية(١١٦) .

قسطنطين الرابع (٦٦٨-٦٨٥م):

ولى العرش بعد قسطانز ابنه قسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥م)، وعلى عهده تطور النضال بين العرب والبيزنطيين، فقد استأنف معاوية بن أبى سفيان سياسة الفتوح الاسلامية بعد أن استتب له الأمر وحظى بالخلافة واتخذ دمشق مقرا له سنة ٦٦١(١١٧)، وشجع معاوية على استئناف الجهاد صغر سن الامبراطور البيزنطى الجديد وقلة تجاربه، فاتجهت حملة أعدها معاوية سنة ٦٦٣م ناحية القسطنطينية، واشتبكت فى عمليات حربية مع أساطيل الروم فى مياه العاصمة البيزنطية، ثم استأنف المسلمون هجماتهم على بيزنطة(١١٨)، وجددوا حروبهم معها على مدى سبع سنوات (٦٧٣-٦٨٠م/٥٤- ٦٠هـ) كان المسلمون ينسحبون لقضاء الشتاء فى جزيرة قيزيقوس Cyzicus، ويعودون فى الربيع لمحاصرة القسطنطينية وهكذا(١١٩).

وعلى الرغم من ذلك لم تستطع أساطيل المسلمين الاستيلاء على القسطنطينية نظرا لحصانتها وسهولة إمدادها بحرا من المناطق المجاورة(١٢٠)، فضلا عن استخدام الروم أسلوب الهجوم المضاد بتوجيه بعض جندهم غير النظاميين (المردة) لشن غارات على بلاد الشام لإرغام المحاصرين

---

(116) Vasiliev: op.cit. p. 224.

(١١٧) فشر: المرجع السابق ق١ ص ٦٥.

(118) Ostrogorsky: op. cit. p. 111.

(١١٩) العدوى: المرجع السابق ص ١٦٥ - ١٦٦،

Bréhier: Vie et mort de Byzance, p. 63.

(120) Stewart: Byzantine Legacy, p. 96.

للقسطنطينية على فك الحصار[١٢١]، بالإضافة إلى استخدام النار الإغريقية التى احدثت خسائر جسيمة بالسفن الإسلامية[١٢٢]، ومع ذلك جد معاوية فى حصار المدينة ولم يرفع عنها الحصار الا حين أحس بدنو أجله سنة ٦٨٠م (٦٠هـ)، وضرورة سحب الفرق العسكرية لضمان حماية البيت الأموى من الفوضى والاضطراب، ولكن شاء الله أن يصادف الأسطول الاسلامى عاصفة شديدة فى طريق عودته، فلم ينج منه سوى بعض السفن القليلة عادت إلى قواعدها ببلاد الشام[١٢٣].

وترتب على فشل هجوم المسلمين على القسطنطينية هذه المرة (٦٨٠م) نتائج بالغة الأهمية، فقد انتهت بعقد اتفاق بين الطرفين مداه ثلاثين عاما[١٢٤]، وترتب على صمود القسطنطينية إزاء الهجوم الإسلامى أن توقف زحف المسلمين إلى أوربا من جهة الشرق، أما بالنسبة للبيزنطيين فقد زادت هذه الحرب فى هيبة الامبراطور قنسطنطين الرابع، فأذعنت له العناصر المشاغبة فى شبه جزيرة البلقان من الآفار والصقالبة[١٢٥]، وأعلنوا ولاءهم للامبراطور، وأرسلوا الرسل والهدايا للامبراطور والتمسوا إقامة سلام ومودة معه وسألوه أن يقيم علاقات سلمية معهم[١٢٦].

---

(121) Lewis: Naval Power and Trade in the Mediterranean, p. 60.
(122) Ostrogorsky: op.cit. p. 111
Bréhier: op.cit. p. 63.
Vasiliev: op. cit. p. 214.
Bury: Hist. of the later Roman Empire, 311
(123) Lewis: op. cit. p. 61, Ostrogorsky: op.cit. p. 111
Vasiliev: op. cit. p. 214 العرينى: الدولة البيزنطية ص ١٥٠،
(124) Ostrogorsky: op.cit. p. 112.
(125) Theophanes: Chronographia, de Boor, p. 356
Ostrogorsky: op. cit. p. 112.
Vasiliev: op. cit. p. 215.

(١٢٦) حسنين ربيع: دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص ٩٠.

أما عن سياسة قنسطنطين الرابع تجاه البلغار، فالمعروف أن البلغار يرجعون إلى أصل تركى استقروا فى البداية فى المنطقة الواقعة إلى الشمال من البحر الأسود وبحر قزوين وهناك خضعوا لسلطان الآفار فى القرن السادس الميلادى، غير أن البلغار ثاروا ضد سيادة الآفار وطلبوا التأييد من الامبراطور هرقل فأيدهم هرقل فى صراعهم ضد الآفار ثم بدأ البلغار يتحولون إلى المسيحية بالتدريج[١٢٧]، غير أن دولة البلغار تفككت فى منتصف القرن السابع الميلادى بسبب تحرك الخزر نحو الغرب، حيث خضع جانب من البلغار للخزر[١٢٨]، على حين غادر جانب آخر موطنه الأول فى السبعينات من القرن السابع وارتحل غربا فظهر عند مصب نهر الدانوب بالبلقان[١٢٩]، ثم مالبثوا أن عبروا نهر الدانوب إلى الإقليم الشمالى الشرقى من البلقان ليحتموا من العناصر المتبربرة من ناحية وليفيدوا من الأراضى الخصبة فى دلتا نهر الدانوب من ناحية أخرى بعد أن تحولوا من مرحلة الرعى إلى الاقتصاد الزراعى وذلك منذ سنة ٦٧٠م[١٣٠].

أدرك قنسطنطين الرابع أن ظهور هؤلاء الأقوام شديدى المراس والمشهورين بحب القتال على الأطراف الشمالية للإمبراطورية يعتبر خطرا يهدد كيان دولته خاصة بعد عبورهم نهر الدانوب، فلم يكد يبرم الصلح مع المسلمين حتى قاد بنفسة حملة بحرية سنة ٦٨٠م اجتازت البحر الأسود إلى مصب نهر الدانوب فى حين تقدمت العساكر البرية لتجتاز تراقيا وتصل إلى الضفة الشمالية لنهر الدانوب. غير أن مستنقعات هذه المنطقة جعلت من

(١٢٧) وسام عبد العزيز فرج: دراسات ص ١٦٧ – ١٦٨.

(128) Dunlop: The History of the Jewish Khazars, pp. 58 - 9.

(129) Vasiliev: op. cit. p. 219
Ostrogorsky: op. cit. p. 113

(١٣٠) وسام عبد العزيز فرج: دراسات ص ١٦٨.

العسير على القوات البيزنطية القيام بعمليات حربية[١٣١]، على حين لجأ البلغار إلى تجنب لقاء عدوهم الذى يفوقهم عددا وعدة، وغدا لزاما على البيزنطيين آخر الأمر أن ينسحبوا، وأثناء انسحابهم انقض عليهم البلغار فكبدوهم خسائر فادحة، وانتهت حملة قنسطنطين الرابع بالفشل الذريع، وانتصر البلغار الذين أكملوا احتلالهم للمنطقة التى نزلوا فيها عند دلتا نهر الدانوب[١٣٢]. وفى النهاية عقد صلح بين الطرفين تعهد بموجبه قنسطنطين بدفع جزية سنوية للبلغار وتنازل لهم عن البلاد الواقعة بين نهر الدانوب وجبال البلقان، وهى المعروفة قديما باسم مؤيسيا وسيزيا الصغرى، وأضحى فى يد البلغار مصب الدانوب وجانب من ساحل البحر الأسود[١٣٣]، ومنذ ذلك الوقت غدت تلك المملكة الجديدة التى اعترف بها الإمبراطور البيزنطى خطرا كبيرا يهدد الدولة البيزنطية، خاصة بعد أن شرع البلغار فى التوسع فاصطدموا بالسلاف واضطروا للتأثر بالمؤثرات السلافية والبعد تدريجيا عن الأصول التركية حتى غدوا فى القرن التاسع من الشعوب السلافية رغم احتفاظهم باسم البلغار وظلوا يهددون بيزنطة ويمثلون قوة معادية لها[١٣٤].

وهكذا غدت دولة البلغار شوكة فى ظهر الامبراطورية البيزنطية، خاصة وأنها مالت إلى تطوير نظامها السياسى والعسكرى، حتى قبل عبور البلغار نهر الدانوب، ولذا لم يكن من السهل استيعاب البلغار أو هضمهم على يد بيزنطة، وربما لهذا سلمت لهم الامبراطورية جزءً هاما من أملاكها فى البلقان وتنازلت عنه رسميا بمقتضى اتفاقية سنة ٦٨١[١٣٥].

(١٣١) العرينى: الدولة البيزنطية ص ١٥٣.

(١٣٢) وسام فرج: نفسه ص ١٦٨.

(133) Vasiliev: op. cit. p. 219.

(١٣٤) حسين ربيع: المرجع السابق ص ٩٢ – ٩٣.

(١٣٥) وسام عبد العزيز فرج: دراسات ص ١٦٩

وإذا كان ذلك قد جرى فى الشمال الشرقى من البلقان، وفقدت الامبراطورية البيزنطية إقليما هاما من أقاليمها فى البلقان قرب مصب نهر الدانوب، فإن الأوضاع فى الجزء الشمالى الغربى من البلقان شهد أيضا هجرة مماثلة قام بها الصرب والكروات، بعد أن تخلصا من سيطرة الآفار قرب منتصف القرن السابع الميلادى، إذ جمعت أواصر القربى بين الشعبين[١٣٦]، فعبر الكروات الدانوب ليقوموا بطرد بقايا الآفار من إقليم إيلليريا واستقر هذا الشعب بموافقة الامبراطورية البيزنطية فى ذلك الإقليم بين درافا والبحر الأدرياتى، وبعد ذلك بقليل هاجر الشعب الآخر (الصرب) ونزلوا بموافقة الامبراطورية إلى الشرق من الكروات فى الجزء الشمالى الغربى من شبه جزيرة البلقان، ثم مالبث الشعبان أن أصبحا يدوران فى فلك الامبراطورية البيزنطية، واعتنقوا المسيحية على يد بعثات تبشيرية أرسلت إليهم من روما بموافقة الامبراطورية البيزنطية، وترتب على القضاء على امبراطورية الآفار وطردهم من البلقان بروز دويلات مستقلة استفادت كثيرا من موقعها بين روما فى الغرب والقسطنطينية فى الشرق[١٣٧].

جستنيان الثانى:

توفى قنسطنطين الرابع سنة ٦٨٥م، بعد أن حكم نحو سبع عشرة سنة فخلفه ابنه جستنيان الثانى (٦٨٥ – ٦٩٥، ٧٠٥ – ٧١١م)، الذى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره. وعلى الرغم مما اتصف به هذا الامبراطور من الميل للاستبداد والعنف وما اشتهر به من الطيش والخفة، فإنه يعتبر خير ممثل لأسرة هرقل، إذ كان طموحا محبا للعظمة والمجد، بل كان حاكما

---

(١٣٦) وسام عبد العزيز فرج: نفس المرجع ص ١٧٠.

(١٣٧) وسام عبد العزيز فرج: نفسه ص ١٧٠.

موهوبا يدرك حاجيات الدولة ويحرص على تحقيقها، فضلا عما اشتهر به من الشجاعة والنشاط[١٣٨].

وفى نفس العام الذى ولى فيه جستنيان الثانى (٦٨٥م)، ارتقى عرش الدولة الإسلامية الخليفة عبد الملك بن مروان، وقد ارتبط بعهديهما تجدد الصراع الإسلامى البيزنطى، ففى غمرة حرص عبد الملك بن مروان، فى بداية حكمه، على أن يحيط نفسه بكافة الوسائل التى تكفل له تحقيق الوحدة الإسلامية[١٣٩]، وتضمن له سلامة دولته من الفتن الداخلية اضطر إلى عقد معاهدة مع الامبراطورية البيزنطية، نظرا لقيام جيشها بالإغارة على حدود الشام منتهزة فرصة انشغال المسلمين بمشاكلهم الداخلية، واشترى عبد الملك هذه الهدنة بدفع مبلغ من المال ريثما يحقق أهدافه فى ظل الهدوء والاطمئنان[١٤٠]، غير أن جستنيان عاد إلى الحرب وبدأ بالعدوان على أراضى الدولة الإسلامية منتهزا فرصة انشغال عبد الملك بالثورات الداخلية وخلو مناطق التخوم الإسلامية من القوات المرابطة بها، واستخدم فى عدوانه جماعة المردة (الجراجمة) القاطنين بجبال اللكام وطوروس وعلى تخوم الدولة الإسلامية، وكانوا دائما ينفذون رغبات الامبراطورية البيزنطية فى الإغارة على الأراضى الإسلامية[١٤١]، وعندئذ لجأ عبد الملك إلى أسلوب التفاوض لتجديد الهدنة السابقة، واشترط أن تتعهد الدولة البيزنطية بإبعاد الجراجمة عن مناطق التخوم الإسلامية مقابل دفع مبلغ كبير من المال

---

(138) Ostrogorsky: op. cit. p. 116
Bury: op. cit. p. 320.

العرينى. الدولة البيزنطية ص ١٥٧.

(١٣٩) العدوى: الأمويون والبيزنطيون ص١٧٣.

(١٤٠) العدوى: المرجع السابق ص ١٧٤.

(141) Theophanes: op. cit. p. 554.

سنويا(١٤٢).

ولقد دلل جستنيان الثانى على قصر نظره بموافقته على هذه الخطوة التى ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية، فقد شرع فعلا فى نقل نحو ١٢,٠٠٠ من الجراجمة إلى رومانيا وإلى تراقيا وشتت الباقى منهم داخل آسيا الصغرى(١٤٣). وحين تجددت الاشتباكات مع الدولة الإسلامية أدرك جستنيان مغبة عمله، واحتياجه إلى الجراجمة لسد الثغرة بينه وبين المسلمين، فضلاً عن أن الجراجمة أنفسهم كانوا شديدى المراس محبين للقتال، ولهذا لجأ إلى محاولة سد تلك الثغرة بإحضار عناصر أخرى شديدة المراس من السلاف الضاربين فى أطراف البلقان(١٤٤)، ولكن ذلك كله لم يؤد الثمرة المرجوة ولم يملأ الفراغ الذى تركه المردة أو الجراجمة، الذين درج المؤرخون على اعتبار وجودهم على تخوم الدولة الإسلامية يمثل «سورا حديديا» أو سياجا قويا يحمى الامبراطورية من جهة الجنوب الشرقى(١٤٥).

ويميل بعض المؤرخين إلى تبرير الخطوة التى اتخذها جستنيان الثانى بتفريق المردة فى أنحاء إمبراطوريته بكرهه لهم نظراً لأنهم كانوا على المذهب المونوفيزيتى البغيض لدى الأباطرة البيزنطيين(١٤٦)، ومهما يكن من أمر فقد

(142) Vasiliev: op.cit. p. 215.
Ostrogorsky: op.cit. p. 117.
Bury: op.cit. p. 302.

(١٤٣) العدوي: المرجع السابق، ص ١٧٦.

(144) Theophanes: op.cit. p. 366.
Bury: op.cit. p. 336.

(145) Bury: op.cit. p. 321.

(١٤٦) العدوي: الدولة الإسلامية، وامبراطورية الروم ص٦٨.
إدارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قنسطنين السابع ص ٨٥ (ترجمة د. محمود عمران). وانظر:

Theophanes: Chronographia, p. 295.

أسفر هذا العمل عن خطورة بالنسبة للدولة البيزنطية، وأثبت من ناحية أخرى دهاء عبد الملك بن مروان وعلو كعبه فى السياسة؛ إذ فتح للدولة الإسلامية الطريق إلى عاصمة بيزنطة بمعاهدة سياسية أدى بموجبها مبلغا زهيدا من المال[١٤٧].

ومالبث أن تفجر صراع بين الطرفين بسبب مسألة الورق أو ما كان يسميه العرب القراطيس، التى كانت تستوردها بيزنطة من الدولة الإسلامية، وتدفع مقابل ذلك الدنانير البيزنطية المعروفة، والتى كانت العملة السائدة فى البلاد الإسلامية، وكانت مصر هى التى تصدر تلك القراطيس لبيزنطة حتى قبل الفتح العربى لها[١٤٨]، ودرج أقباط مصر على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث فى رؤس قطع الورق الكبيرة، ولكن عبد الملك بن مروان رأى أن ذلك لايتفق ومظهر الدولة الإسلامية، فأمر أن يستبدل بتلك الصيغة عبارة «قل هو الله أحد»[١٤٩]، وتسبب ذلك فى غضب الامبراطور جستنيان الثانى، فكتب إلى الخليفة يقول: «إنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتابا نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهون»[١٥٠]. فغضب من ذلك عبد الملك وخشى أن يسبب ذلك اضطراب أحوال العملة لأنها كانت العملة الرسمية فى الأسواق الإسلامية، ولهذا فقد أمر عبد الملك بسك عملة إسلامية جديدة عليها آيات من القرآن عرفت باسم الدنانير الدمشقية وخلص عبد الملك بذلك الدولة من ربقة العملات

(١٤٧) العدوي: الأمويون والبيزنطيون ص ١٧٦،

Bury: op.cit. p. 3 21.

(١٤٨) العدوي: المرجع السابق ص ١٧٧.

(١٤٩) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤٩.

(١٥٠) البلاذري: المصدر السابق ص ٢٤٩.

الأجنبية التى كانت متداولة فيها منذ زمن بعيد[١٥١].

وكان قيام عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين لتستكمل الدولة العربية مقوماتها الأساسية، وقيامه أيضا بضرب النقود بالسكة العربية استجابة حتمتها ضرورة الاستقرار الاقتصادى والسياسى للدولة العربية الإسلامية فى ذلك الوقت[١٥٢]. وكان أن أرسل الخليفة عبد الملك التزاماته المالية إلى الامبراطور بالعملة الجديدة فأدى ذلك إلى نشوب القتال وتجدد الصراع من جديد بين الطرفين وأغار الامبراطور على أراضى المسلمين، وأخذ يتحرش بهم، فلم يجد عبد الملك بدا من قتاله وتلقينه درسا قاسيا، لاسيما وقد صادف ذلك انتهاء المشاكل الداخلية فى الدولة الإسلامية واستتباب الأمن فى ربوعها[١٥٣].

زحف عبد الملك على قيليقيا بآسيا الصغرى واشتبك عند مدينة سيواس بالقوات البيزنطية التى ضمت أعداداً هائلة من السلاف (الصقالبة)، وكان الامبراطور نفسه على رأس تلك القوات المحاربة، وما كادت الحرب تدور بين الطرفين حتى انحازت القوات السلافية إلى جانب المسلمين[١٥٤]، بسبب حقدها على الامبراطور ورفضها الطاعة له، واضطر الامبراطور إلى الهرب مع فلول جيشه إلى البسفور بصحبة بعض جند السلاف ممن بقى على الولاء له، لكنه فى هذه الظروف أثبت جهلا وقصر نظر حين أمر بجمع كل السلاف وقتلهم عند مدينة ليوكاتا Leucata انتقاما من خيانة بنى

---

(١٥١) العدوي: المرجع السابق ص ١٧٨.

(١٥٢) حسنين ربيع: دراسات ص ٩٥.

(١٥٣) العدوي: المرجع السابق ص ١٧٩.

(154) Vasiliev: op.cit. p. 218.
Ostrogorsky. op.cit. p. 118,

الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ٧ ص ٢٠٩.

جلدتهم[١٥٥]. وترتب على هذه الفعلة الشنيعة أن أصبح هذا الامبراطور موضع كراهية السلاف جميعا فى كل أنحاء آسيا الصغرى والامبراطورية، بل إن هؤلاء غدوا أداة طيعة فى يد المسلمين واستفاد منهم المسلمون كثيرا إذ كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى ومسالكها، فقاموا بإرشاد المسلمين عبر طرقها ودروبها، ولهذا تابعت الجيوش الإسلامية على عهد الدولة الأموية انتصاراتها على البيزنطيين وإغاراتها على مدن آسيا الصغرى[١٥٦].

سقوط أسرة هرقل :

والواقع أن جستنيان الثانى أسهم فيما لحق بأسرته من ضعف واضمحلال أدى فى النهاية إلى سقوطها، فقد اتخذ بعض الإجراءات التى هددت الطبقة الأرستقراطية فضلا عن أنه تعرض لكره السلاف بنزعه جموعا منهم من مواطنهم الأولى وإنزالهم فى أقاليم لم يألفوها، ولم تكن لهم بها سابق معرفة وقيامه بإحداث مذبحة بشرية رهيبة بين أولئك الذين بقوا على الولاء له فى موقعة سيواس[١٥٧]، يضاف إلى كل ذلك أنه ورط السكان فى تحمل أعباء مالية باهظة حتى يتسنى له النهوض بمشروعاته العمرانية الكبيرة، فتسبب بذلك فى اشتداد الكراهية للموظفين الذين تولوا المناصب المالية فى الدولة[١٥٨]، فضلا عن أنه تسبب فى اندلاع نزاع بين بيزنطة وروما حول بعض الأمور الدينية، دون تفهم لما جرى من تطور فى الكنيستين الشرقية والغربية على الرغم من أنه أظهر ورعا دينيا معروفا[١٥٩].

---

(155) Theophanes: op.cit. pp. 366 - 7.
Bury: op.cit. p. 322.

(١٥٦) العدوي: المرجع السابق ص ١٨٠، .Bury: op.cit. p. 322

(157) Theophanes: op.cit. pp. 366 - 7.

(158) Ostrogorsky: op.cit. pp. 120-2.

(159) Vasiliev: op.cit. p.225.

لهذه الأسباب كلها اندلعت ثورة سنة ٦٩٥م ضد جستنيان الثانى ونصب إمبراطور جديد وفتك الثوار بأكبر المسئولين عن النظم المالية والضريبية، وجرى نفى جستنيان الثانى نفسه إلى شبه جزيرة القرم بعد أن جدع أنفه حتى لايتطلع إلى العرش من جديد[١٦٠]، وضربت الفوضى فى الامبراطورية بعد ذلك لمدة عشرين سنة وتعرضت الامبراطورية لأخطار جديدة، وفقد مزيد من ممتلكاتها، فقد سقطت قرطاجة بشمال إفريقيا فى أيدى المسلمين سنة ٦٩٥م وضاعت إفريقيا تماما من بيزنطة منذ السنوات الأخيرة من القرن السابع[١٦١].

وفى الفترة الممتدة من سنة ٦٩٥م حتى سنة ٧٠٥م ولى العرش الامبراطورى إثنان من الأباطرة[١٦٢]، عزل الأول منهما بعد نحو ثلاث سنوات وجدع أنفه أيضا وألحق بالدير فى الوقت الذى بسطت هذه الظروف الجديدة يد عبد الملك بن مروان فى شمال إفريقيا، فثبتت أقدام المسلمين فى قرطاجة سنة ٦٩٨م[١٦٣]، وتمكن موسى بن نصير والى إفريقيا من إنشاء قاعدة بحرية بها وسيطر على المضايق التى تفصل بين جزيرة صقلية وساحل إفريقيا، واضحت تونس الحالية مرفأ مأمونا للبحرية الإسلامية فى شمال إفريقيا، وأصبحت القوى البحرية الإسلامية موزعة بين ثلاثة مراكز: شمال إفريقيا ومصر والشام[١٦٤]. وبدأت سفن المسلمين تتخذ القاعدة الجديدة منطلقا للإغارة على جزر البحر المتوسط مثل صقلية وسردينيا وجزر

---

(160) Ostrogorsky: op.cit. 123-4.
(161) Theophanes: op.cit. pp. 366-7.
(١٦٢) هما ليونتيوس (٦٩٥ -٦٩٨)، وطيبريوس الثالث (٦٩٨- ٧٠٥).
(163) Diehl: op.cit. p. 383.
Ostrogorsky: op.cit. p. 124.
(164) Lewis: Naval Power and Trade, p.64.
العريني: نفس المرجع ص ١٦٩.

البليار[١٦٥]، وبفضل هذا الأسطول الإسلامى أحرز موسى بن نصير الانتصارات الباهرة على الأعداء وخضع له الشمال الإفريقى من تونس حتى سبته سنة ٧١١م، وأدى ذلك إلى انتقال المسلمين إلى أسبانيا حيث تم إخضاعها ٧١١ - ٧١٣م، بل تجاوزوا جبال البرانس سنة ٧١٧م وأضافوا إلى ممتلكاتهم ناربون من أملاك غالة وبذلك صار للمسلمين السيطرة على الطريق الممتد من نهر الرون غربا إلى أرمينيا شرقا عبر البحر المتوسط[١٦٦].

ولم تؤد عودة جستنيان الثانى إلى العرش سنة ٧٠٥م بعد عشر سنوات فى المنفى[١٦٧]، إلى نتائج حاسمة فى أوضاع الامبراطورية القلقة فى تلك الآونة وإن أدت - على عكس ذلك - إلى زيادة الضعف والإضمحلال والفوضى على إثر موجة من الاستبداد والعنف التى قام بها هذا الامبراطور العائد حتى يستأصل شأفة أعدائه الذين تسببوا فى نفيه وجدع أنفه[١٦٨]، ولذلك أطلق المؤرخون على جستنيان الثانى لقب السفاح المستبد أثناء الفترة الثانية من حكمه والتى امتدت ست سنوات ٧٠٥ - ٧١١م، وغلبت عليه نزعة الانتقام حتى أغفل مصالح الدولة وتهاون فى حماية أملاكها[١٦٩]. ولذلك أفاد المسلمون من هذه الأوضاع وأنزلوا صارم ضرباتهم بآسيا

---

(165) Lewis: op.cit. p. 65.

العريني: نفس المرجع ص ١٦٩.

العدوي: المرجع السابق ص ٢٣١.

(166) Lewis: The Arab in Hist. p. 117.
Pirenne: op.cit. p. 158.
Hearder, Waley: op.cit. p.34.
Keen: Hist of Med. Europe, p.23.

(167) Dunlop: op.cit. pp. 171-2.

(168) Ostrogorsky: op.cit. pp. 126 - 7.

(169) Ibid. p. 127.

الصغرى وأحرزوا انتصارات كثيرة[١٧٠]، وكان أن اندلعت ثورة جديدة سنة ٧١١ أودت بالامبراطور العائد ولقى ابنه الصغير مصرعه وبذلك انتهت أسرة هرقل وسط مظاهر القتل والارهاب وسفك الدماء[١٧١].

(١٧٠) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٦٤.

(١٧١) العريني: المرجع السابق ص ١٧٤،

Ostrogorsky: op.cit. p. 127.
Hussey: The Byzantine World p.27.

الفصل الرابع

الاسرة الايسورية [٧١٧ - ٨٢٠م]

اشتهر عصر الأسرة الإيسورية فى التاريخ البيزنطى بأنه عصر مناهضة عبادة الصور المقدسة والأيقونات Iconoclasm[١]. وهى الحركة التى امتدت عبر تاريخ تلك الأسرة وجزء من تاريخ الأسرة التالية فى بيزنطة، وانتهت فى سنة ٨٤٣م بما هو معروف باسم العودة إلى الارثوذكسية[٢].

فقد ضربت الامبراطورية فى الفوضى والاضطراب فى الفترة الأخيرة من عهد أسرة هرقل (٧١١-٧١٧م)، وران على البلاد ضعف واضمحلال وتعاقب الأباطرة على عرش الدولة فى تلك الفترة الوجيزة، وأفاد المسلمون من ذلك القلق فأغاروا على أملاك الإمبراطورية البيزنطية[٣]، وانتهز البلغار الفرصة لمهاجمة البيزنطيين فتوغلوا فى الأراضى البيزنطية حتى بلغوا أسوار القسطنطينية، وأنزلوا الخراب والدمار بجهاتها المجاورة[٤]. وفى ظل هذه الظروف اعتلى ليو الثالث الأيسورى عرش الامبراطورية.

ليو الثالث الايسورى (٧١٧ - ٧٤١م).

وينتسب ليو الايسورى إلى إقليم إيسوريا عند جبال طوروس فى الطرف

---

(1) Hussey : Op. Cit. P. 27.
Vasiliev : Op. Cit. P. 63.

(2) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 143.

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك. ج ٧ ص ٦٤.

(4) Hussey : Op. Cit., P. 28.
إدارة الامبراطورية البيزنطية للإمبراطور قسطنطين السابع ص ٨٥ – ٨٦.

الشرقي لشبه جزيرة آسيا الصغرى[٥]، وينحدر من أسرة فقيرة قطنت بشمال الشام في مدينة مرعش على الحدود الإسلامية البيزنطية، ثم نزحت إلى تراقيا زمن جستنيان الثانى، ثم دخل ليو فى خدمة الامبراطور جستنيان الثانى سنة ٧٠٥م، وأخذ يرتقى فى سلم الوظائف فى خدمة الأباطرة الذين خلفوا جستنيان حتى عين قائدا لمنطقة الأناضول، فأصبح بذلك على رأس أكبر الأقاليم البيزنطية وأكثرها أهمية، فاستغل ليو ذلك ليثب إلى العرش[٦]، ومالبث أن أعلن الثورة على الإمبراطور القائم ثيودوسيوس الثالث وتقدم ناحية نيقوميديا حتى ألقى القبض على الإمبراطور،وحصل منه على تنازل عن العرش ووافق مجلس السناتو وبطريرق القسطنطينية وكبار رجال الدولة على ذلك[٧]، فدخل ليو العاصمة فى مارس سنة ٧١٧م حيث تم تتويجه إمبراطوراً باسم ليو الثالث، مؤسسا أسرة جديدة فى التاريخ البيزنطى[٨].

وكان على ليو الثالث الإيسورى أن يسهر على حماية الامبراطورية من الأخطار التى تتعرض لها من قبل العرب، إذ تابع الوليد بن عبد الملك سياسة والده عبد الملك بن مروان فى محاولة إذلال الروم والتطلع إلى عاصمتهم[٩]، وجعل هدفه الحربى الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية، وتقدمت جيوش الوليد فألقت الحصار على مدينة طوانة Tyana وهى مفتاح الطريق إلى البسفور والطريق الذى تسلكه الجيوش الإسلامية لمهاجمة القسطنطينية[١٠]، واشتد

(٥) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٢٨.

Vasiliev : Op. Cit., P. 234.

(٦) العرينى : الدولة البيزنطية ص ١٨٦، Bury : Op. Cit., P. 374.

(٧) جوزيف نسيم يوسف : تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١١٩.

(8) Ostrogorsky : Op. Cit., PP. 137-8.

(٩) العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٨١.

(10) Bury : Op. Cit., P. 362.

حصار المسلمين لها قرابة عامين لم تجد حاميتها فى النهاية بدا من الاستسلام بعد أن أنهك الجوع أهلها وأضنى القتال جندها، فدخلها المسلمون سنة ٧٠٧م وصار لهم زمام إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى كله[١١].

وفى الوقت الذى هاجمت فيه الجيوش البرية معاقل آسيا الصغرى قام الأسطول الاسلامى بالمساهمة فى مهاجمة سواحل الامبراطورية البيزنطية[١٢]. كانت هذه هى الظروف التى تولى فيها الإمبراطور ليو الثالث الإيسورى، وكان عليه أن يتعامل مع هذا العدو الذى عاش بقرية فترة، وتمرس على أساليبه فى القتال. فقد أتقن ليو اللغة العربية[١٣]، وفهم تقاليد الإسلام ووقف على مطامع المسلمين فى دولته، ولكن الخليفة الوليد كان قد أزمع الاستيلاء على القسطنطينية مهما كلفه الأمر، وعهد بقيادة الحملة التى أعدها لذلك إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك، ولكن فى غمرة الاستعدادات لغزو القسطنطينية توفى الخليفة الوليد وتولى سليمان بن عبد الملك، فتبنى المشروع بحماسة أشد وأقوى[١٤].

فلم يكد يمضى على دخول ليو إلى القسطنطينية ستة شهور (سبتمبر سنة ٧١٧م)، حتى وصل المسلمون إلى أسوار القسطنطينية، فى الوقت الذى كان أسطول إسلامى كبير تألف من نحو ألف وثمانمائة سفينة يحاصرها من جهة البحر ويقال أن جيش مسلمة بلغ نحو ثمانين ألف جندى، فأخذ مسلمة ينظم التعاون بين القوات البرية والبحرية لإتمام حلقة

---

(11) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 173.

(١٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك. ج ٨ ص ٦٨.

(13) Vasiliev : Op. Cit., P. 234.

(١٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك. ج ٨ ص ١١٨.

الحصار حول المدينة[١٥]، عازما على إسقاطها والنفاذ منها إلى شرق أوربا وتتويج محاولات الأمويين لإسقاطها بنصر مؤزر.

غير أن مواهب ليو الثالث الإيسورى تجلت فيما سلكه من خطة الدفاع عن المدينة، فقد أغلق مدخل البسفور بسلسلة ضخمة من الحديد، وشحن أسوار العاصمة بالجند الذين استماتوا لمنع المسلمين من النفاذ إلى المدينة عبر الأسوار، فى الوقت الذى حرص فيه ليو على بقاء جهة المدينة المطلة على القرن الذهبى مفتوحة، فضلا عن أنه درج على إرسال سفن النار الإغريقية لتزيد فى متاعب السفن الإسلامية المحاصرة والجادة فى حصار المدينة بحرا[١٦].

وظل حصار مسلمة للقسطنطينية حتى الشتاء، وشتاء هذه الجهات قارس البرد جدا، ويعتبر من العوامل الطبيعية التى تستند اليها خطة القسطنطينية فى الدفاع عن نفسها وإطالة مدة مقاومتها، واضطر مسلمة إلى مواءمة نفسه مع هذه الظروف «فعمل بيوتا من خشب شتا فيها... وأقام بالقسطنطينية قاهرا لأهلها ومعه وجوه أهل الشام».[١٧] وعلى الرغم مما عاناه المسلمون من قسوة الشتاء وشدة المقاومة فقد صمدوا وأثبتوا أنهم أولى بأس وعزم وصدق رغبة فى الجهاد، وحرص على رفع راية الاسلام عالية خفاقة.

ووصلت فى بداية الربيع نجدات بحرية وبرية لمسلمة، فجاءه أسطول من مصر[١٨] وآخر من شمال إفريقية، ووصلت نجدات برية عبرت آسيا الصغرى

---

(15) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 138.
Bury . Op. Cit., I 401.
(16) Lewis : Naval Power and Trade, P. 66.
Vasiliev : Op. Cit., P. 234.

(١٧) الطبرى . تاريخ الرسل والملوك. ج ٨ ص ١١٧.

(١٨) أنظر العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٨٥

عن طريق قيليقيا وعسكرت فى نيقوميديا ونيقية، وأخذت فى مهاجمة الشواطىء البيزنطية، وقطع الطريق على السفن التى تحاول أن تمد القسطنطينية بالمؤن أو السفن الذاهبة إلى البحر الأسود لجلب الغلال[١٩].
ودارت رحا الحرب شديدة عنيفة وأبلى المسلمون فيها بلاء حسنا وظهر بين صفوفهم أبطال عظام، واستشهد منهم من استشهد.

ولجأ ليو الأيسورى إلى مفاوضة البلغار، فهاجم هؤلاء المسلمين المحاصرين للمدينة من الجانب الأوربى وردوهم عنها[٢٠]، واستخدم ليو الثالث النار الإغريقية التى سببت للمسلمين خسائر فادحة فى السفن وفى الأنفس[٢١]، «وهى النار التى مكنت الرومان عند استخدامها من تمزيق أسطول المسلمين فى قيزيقوس»[٢٢]، وزاد من سوء الأحوال فى الجبهة الاسلامية ماحدث من تواطؤ البحارة المسيحيين العاملين بالأسطول الاسلامى مع البيزنطيين[٢٣]، وماترامى للجند من وفاة الخليفة سليمان بن عبد الملك وولاية الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز، فقد تردد صدى هذا التغيير فى ميدان القتال، إذ يمثل الخليفة سليمان امتداد تيار الفتوحات الاسلامية، ولهذا حرص على إمداد الجيوش المحاصرة للقسطنطينية بالجند والعتاد، وحرص على إتمام مابدأه فى هذا المشروع[٢٤]، غير أن الخليفة عمر بن

---

(19) Bury : Op. Cit., P. 403.

العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ١٨١ .

(20) Lewis : Naval Power and Trade, P. 66.

(21) Vasiliev : Op. Cit., P. 236.
Bury : Op. Cit., P. 403

(٢٢) إدارة الامبراطورية البيزنطية للإمبراطور قسطنطين السابع ص ١٨٢.

(23) Lewis : Naval Power and Trade, P. 67.

(٢٤) العدوى : نفس المرجع السابق ص ١٩١ .

عبد العزيز يمثل فترة الإستقرار فى إلفتوحات الإسلامية اقتضتها الظروف والأحوال فى الدولة الاسلامية، فقد أصبحت الدولة تمتد من حدود الصين شرقا إلى بلاد الأندلس غربا وبحر آرال شمالا إلى شلالات النيل السفلى جنوبا، وغدت بحاجة إلى شىء من التنظيم وتأمين الرقعة المفتوحة والتريث قليلا فى مشايع الفتح والغزو(٢٥).

ونظرا لنفاذ الأقوات فى المعسكر الاسلامى، وطول أمد الحصار الذى استمر أكثر من عام، وطول خط الإمدادات، وماكان من تدابير ليو الثالث الحربية والبحرية فضلا عن الظروف التى استجدت فى جوف الدولة الإسلامية، كل ذلك أسهم فى اضطرار المسلمين إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والعودة إلى بلاد الشام سنة ٧١٨م(٢٦). فقد بعث الخليفة عمر بن عبد العزيز فى أغسطس سنة ٧١٨م يطلب من مسلمة العودة بجيوشه وأساطيله إلى بلاد الشام، فلم يكن بوسع هذا سوى تنفيذ الأمر فعادت الحملة بعد أن أدت رسالتها فى إعزاز دولة الاسلام وحملت الأباطرة البيزنطيين على التخلص من أحلامهم القديمة فى استرداد أراضيهم التى دخلت فى حوزة الخلافة الاسلامية(٢٧). ويعتبر هذا الهجوم أخر هجوم قام به العرب على القسطنطينية، ولذا جعل له المؤرخون الأوربيون أهمية تاريخية كبيرة، واتخذ النضال بين الدولة البيزنطية والمسلمين منذ ذلك الوقت صفة الحرب المقدسة(٢٨).

---

(٢٥) العدوى : نفسه ص ١٩١.

(26) Diehl : Hist. of the Byzantine Empire, P. 58.

Ostrogorsky : Op. Cit., P. 139,

إدارة الامبراطورية البيزنطية للإمبراطور قسطنطين السابع ص ٨٧.

(٢٧) العدوى : نفسه ص ١٩٢.

(٢٨) العرينى : الدولة البيزنطية ص ١٨٩،

Vasiliev : Op. Cit., P. 237.

ويشير أحد المؤرخين المحدثين[٢٩]، إلى أنه لولا دفع الإمبراطور ليو الأيسورى للمسلمين عن القسطنطينية لانتشر الاسلام عبر البلقان وسهول البحر الأسود الى جبال أورال شمالا وشرقا، ولم يجنب أوربا ذلك سوى مقاومة القسطنطينية سنة ٧١٨م[٣٠] وعلى رأسها إمبراطور شاب قدير تسنده استحكامات هائلة وأسوار سامقة وبحرية مسيطرة على البواغيز، فضلا عن النار الإغريقية التى لم يعرف المسلمون وقتئذ عنها شيئا، فضلا عن النجدة البلغارية التى وصلت إلى الإمبراطور وهو فى أشد ساعات الحرج[٣١].

وإذا كان ليو الثالث الإيسورى قد استهل حكمه بهذا النصر، وبإرغام المسلمين على التراجع عن عاصمته، فإن الخطر الاسلامى ظل يهدد دولته من آن لآن، فقد درج المسلمون منذ سنة ٧٢٦م على الإغارة على آسيا الصغرى كل سنة تقريبا[٣٢]، فدمروا قيصرية وحاصروا نيقية وأوغلوا فى سنة ٧٣٧م حتى بلغوا طوانة فى جنوب قبادوقيا، فألقوا الحصار عليها ثانية سنة ٧٣٩م، غير أنهم اضطروا للتراجع عنها سنة ٧٤٠م، بعد أن تكبدوا بعض الخسائر، واضطروا للجلاء عن بعض جهات آسيا الصغرى الغربية، بعد هزيمتهم على يد ليو الثالث، الذى أفاد كثيرا من تحالفه مع مملكة الخزر[٣٣]، بعد أن ارتبط مع تلك المملكة، برباط المصاهرة وزوج ابنه وولى عهده قنسطنطين الخامس من ابنة خان الخزر، فلعبت هذه المصاهرة دورا كبيرا فى ربط هذه المملكة بالدولة البيزنطية، وفى الانتصار على المسلمين

---

(٢٩) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٦٧.

(٣٠) فشر : نفسه ق ١ ص ٦٧.

(٣١) فشر : المرجع السابق ق ١ ص ٦٧.

(32) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 139.

(33) Dunlop : Op. Cit., P. 177.

بآسيا الصغرى سنة ٧٤٠م[٣٤].

أما عن سياسة ليو الثالث الدينية فقد سلك سياسة أدت إلى إساءة العلاقات مع البابوية، وذلك حين أعلن مناهضته لعبادة الصور والأيقونات، وهى الصور، والرسوم والتماثيل التى تصور أو تمثل المسيح والقديسين، والتى أفادت الكنيسة فى البداية فى تقريب العقيدة لأذهان الأميين وتعليمهم الدين الجديد، ولم تكن جديدة فى بيزنطة فى ذلك الوقت، إلا أنها شاعت بمرور الوقت[٣٥] وامتلأت بها الكنائس ، والأديرة وعلقت بالدور والحوانيت وطرزت على الملابس ورسمت على الكتب، ونقشت على الأثاث ونحتت فى الحجر، وأقيمت فى الميادين العامة[٣٦]، وجاءت مصحوبة بكثير من البدع والخرافات، الأمر الذى استنكره المثقفون فى الامبراطورية[٣٧].

والواقع أن الصراع حول عبادة الصور والأيقونات يعد مرحلة جديدة من مراحل التاريخ البيزنطى، فقد غلب على الحياة الاجتماعية البيزنطية شىء من الروحانيات المقترنة ببعض الخرافات والخزعبلات والأوهام، وشاع بين الناس الاعتقاد فى المعجزات والنبوءات والرؤيات، فغمر الطابع الدينى جميع مظاهر الحياة وجرى تفسير كافة المحن والنوازل تفسيرا دينيا[٣٨]، فليس بوسع الإنسان أن يدفع تلك الكوارث طالما أنها ليست إلا أمرا سماويا يتحتم التسليم به والإذعان إليه، وترتب على ذلك أن ازدادت مكانة رجال الدين

---

(34) Vasiliev : Op. Cit., P. 238.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 139.
Dunlop : Op. Cit., P. 180.

(٣٥) جيبون : اضمحلال الامبراطورية ج ٢ ص ٥٤٦،
Hussey : Op. Cit., P. 29.

(36) Oman : The Byzantine Empire, P. 191.

(٣٧) سعيد عاشور : أوربا ج ١ ص ١٣٠.

(38) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 142.

الأحياء منهم والأموات، وراحت تلتمس منهم البركات ويحج إلى مشاهدهم ويعود الناس من تلك المشاهد بأثر من آثارهم أو رسم من رسومهم ليكون ذلك الرسم الملاك الحارس لهم والتميمة التى تحفظ لهم أطفالهم وذويهم(٣٩).

واحتلت صور المسيح والعذراء المكانة المرموقة فى القسطنطينية وسائر المدن البيزنطية، وسجد الناس لها يستلهمون النصرة ودفع المكروه، ومنها التمسوا الشفاء والبركة وقضاء الحاجات(٤٠)، وساير رجال الدين الناس فيما ذهبوا إليه واعتبروا تلك الصور ليست إلا إنجيل الأميين، وهادى الجهلاء، فللصورة لدى الجاهل أثر روحى يفوق أثر آيات الكتاب المقدس، وللأيقونة دور فى تعليم الجهلاء والأميين(٤١). وهكذا انتشرت عبادة الصور المقدسة فى الكنيسة، وأضحت من المظاهر الأساسية لما اشتهر به البيزنطيون من التقوى والورع(٤٢)، ولكنها اختلطت بكثيرمن البدع والخرافات الأمر الذى أصبح فعلا موضع نقد المثقفين والمستنيرين فى أنحاء البلاد(٤٣)، وخاصة وقد تأثر كثير منهم بالمؤثرات الإسلامية وكراهية المسلمين لتصوير الإنسان(٤٤).

والحقيقة أن استنكار عبادة الصور والأيقونات لم يكن وليد عهد ليو

---

(٣٩) طرخان : الحركة الأيقونية ص ٤-٦،

Baynes : The Byzantine Empirt, PP. 9(-91.

Oman : The The Dark Ages , P. 309.

(٤٠) جيبون : اضمحلال الامبراطورية ج ٢ ص ٥٤٦ -٥٥١ (ترجمة لويس اسكندر ومراجعة هاشم).

(٤١) طرخان : المرجع السابق ص ٥ - ٦.

(42) Vasiliev : Op. Cit., P. 255.

Ostrogorsky : Op. Cit., P. 142.

(٤٣) سعيد عاشور : أوربا ج ١ ص ١٣٠.

(٤٤) العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٠١.

الثالث وإنما يرجع إلى عهد سابق، حين أعلن بعض المثقفين سخطهم على تصوير الإنسان ورسمه بالفسيفساء والنقوش البارزة، ونحته فى الحجر، واعتبروا ذلك ضربا من الوثنية وعبادة الأصنام[٤٥]، إلا أن الأمر لم يتخذ هذه الصفة الرسمية حتى عهد ليو الثالث الذى أعلن الحرب على عبادة الصور المقدسة، وخلق تلك المشكلة التى تعتبر من خصائص هذه الحقبة من التاريخ البيزنطى، والتى ترتبت عليها مشاكل داخلية خطيرة لمدة تزيد على قرن من الزمان[٤٦].

أصدر ليو الثالث فى سنة ٧٢٦م مرسوما يحرم عبادة الصور والأيقونات بتأييد من بعض قطاعات الشعب وكبار رجال الدولة والعسكريين، وفى ظل ترحيب من أقاليم الدولة الشرقية التى نشطت فيها الحركة اللا أيقونية بتأثير الإسلام وكره المسلمين لعبادة الأصنام[٤٧]؛ فقد ظهرت هذه المقاومة والمعارضة بوضوح فى الجهات الشرقية من الإمبراطورية التى تعتبر منذ القدم مهد الإثارة الدينية، والتى كانت على اتصال دائم بالمسلمين والعالم الاسلامى، فقد بدأت الحرب على عبادة الصور والأيقونات فى الدولة الإسلامية قبل أن يبدأها ليو الأيسورى وذلك عندما أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك فى سنة ٧٢٣م، أى قبل صدور قرار ليو الثالث الأيسورى بثلاث سنوات قرارا يقضى بإزالة الأيقونات من الكنائس المسيحية بالدولة الاسلامية[٤٨]، ثم انتقلت الفكرة بعد ذلك إلى الامبراطورية البيزنطية،

(45) Camb. Med. Hist. V . 4, PP. 6-10.

(46) Vasiliev : Op. Cit., P. 256.
Chadwick : Op. Cit., P. 283.

(47) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 143.
Vasiliev : Op. Cit., P. 255.

(48) Theophanes . Chronographia , P. 401.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 143.
Vasiliev : Op. Cit., P. 255,.

سعيد عاشور : المرجع السابق ص ١٣٠.
العريبى : الدولة البيزنطية ص

وتعتبر آسيا الصغرى لاسيما فريجيا أهم مواطن الحركة اللاأيقونية والمعارضة لعبادة الصور المقدسة فى أنحاء الأمبراطورية الشرقية(٤٩).

ويبدو أن ليو الثالث تأثر كثيرا بالحضارة الاسلامية والعقلية الاسلامية فقد كان نفسه من أصل أسيوى وعاش سنوات فى الجهات الشرقية من الامبراطورية وازداد اتصاله بالمسلمين أثناء وجوده بثغر الأناضول قائدا لهذا الثغر(٥٠)، ولهذا ذهب البعض إلى أنه أخذ بكثير من عناصر الحضارة التى عاش بقربها، فضلا عما كان يربطه بالمسلمين من مودة قبل ولايته العرش حتى أطلق عليه البعض «ليو ذى العقلية الاسلامية»(٥١)؛ لذلك حرص على أن يمضى فى سياسته الدينية دون أن يحفل بمعارضة رجال الدين أو مقاومة عباد الصور، فصار يلقى العظات يشرح فيها ما فى هذه العبادة من الحماقة، واستند إلى تأييد أساقفة آسيا الصغرى وبعض فئات الشعب، فضلا عن قادة الجيش فمضى فى هذه السياسة الدينية الجديدة(٥٢).

ويشير بعض الباحثين المحدثين إلى أن ليو الأيسورى لم يكن مثقفا ثقافة عالية، بل كانت معلوماته عن اللاهوت المسيحى سطحية، لأنه لم يكن إلا قائدا عسكريا فكر كما فكر جنود وضباط الفرق البيزنطية فى آسيا اصغرى فيما نزل بالامبراطورية من كوارث، ولماذا توقف الله عن تأييد بيزنطة ونصر عليها أعداءها(٥٣)، وربما اهتدى إلى ذلك بسبب ما انتشر من خرافات وخزعبلات وتقديس للصور والأيقونات، ولهذا مضى فى سياسته اللاأيقونية،

---

(49) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 143.
(50) Vasiliev : Op. Cit., P. 234.

(٥١) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٠١.

(52) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 144.
Camb. Med. Hist. V. 4, P .9.

(٥٣) وسام عبد العزيز فرج : دراسات ص ١٧٣.

وأحدث خطوة تصاعدية فيها حين أمر بتدمير تمثال المسيح المقام بأعلى مداخل القصر الامبراطورى، وهو يعلم تماما أن هذا التمثال يحتل مكانة خاصة فى قلوب الناس ويحظى بتبجيلهم وتقديسهم، وربما أدى تدميره إلى ثورة عارمة فى العاصمة(٥٤).

اندلعت الثورة فعلا فى القسطنطينية وتجمهر الناس وأكثرهم من النساء واشتد سخط المتظاهرين فقتكوا بمندوب الامبراطور الذى وكل إليه تحطيم ذلك التمثال، ورد الامبراطور على ذلك بأن أمر بالتنكيل بهؤلاء المتظاهرين، ولقى بعضهم حتفه فاعتبروا شهداء فى نظر الجماهير(٥٥). وانبثقت المعارضة والتمرد من بلاد اليونان التى طرحت طاعة الامبراطور ونادت بإمبراطور جديد وأرسل الثوار منها أسطولا إلى القسطنطينية لمهاجمتها، غير أنه لم يكن من العسير على ليو الثالث أن يقضى على ذلك التمرد، ولكنه فشل فى حمل بلاد اليونان على تغيير موقفها من الحركة اللا أيقونية، فاستمر الميل فيها نحو عبادة الصور والأيقونات طوال تلك الحقبة، ولعل ذلك تسبب فيما لجأ اليه الامبراطور من الحذر فى سياسته اللا أيقونية(٥٦)، فقد بدأ بحوار مع السلطات الكنسية وحاول أن يظفر بتأييد البابا وبطريرق القسطنطينية إلا أن ماعرضه ليو على البطريرق من الاقتراحات لقيت الرفض، ولم تؤد رسائله مع البابا جريجورى الثانى إلى نتائج حاسمة فى هذا الأمر(٥٧).

وعلى الرغم من أن البابا جريجورى الثانى لم يكن يوافق الامبراطور على

---

(54) Vasiliev : Op. Cit., P. 258.
Ostrogorsky : Op. Cit., P. 144.

(55) Vasiliev : Op. Cit., P. 258.

(٥٦) العرينى : المرجع السابق، ص ٢٠٥.

(57) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 144.

سياسته الدينية الجديدة، فإنه حرص على أن يتجنب الشقاق مع الإمبراطور، وأن يحتفظ بالولاء لبيزنطة بسبب حاجته الماسة إلى حماية الامبراطورية ضد الخطر اللمباردى[٥٨]، الذى كان يهدد البابوية فى إيطاليا، على الرغم من أن ملك اللمبارديين حينئذ – ليتوبراند – حرص على ألا يفجر صراعا كبيرا بينه وبين البابوية فدفعه ذلك إلى عقد معاهدتين مع البابوية[٥٩]، إلا أن البابا مع ذلك حاول أن يخمد ماساد فى إيطاليا من روح الكراهية لسياسة الامبراطورية الجديدة، ولكنه لم يوفق فى محاولته[٦٠].

ويبدو أن تحفظ البابا جريجورى الثانى إزاء سياسة الامبراطورية الدينية قد شجع ليو الثالث على أن يمضى قدما فى تلك السياسة دون أن يحفل برد فعل السلطات الكنسية هناك، ولو أدى الأمر إلى استخدام القوة لتحقيق أغراضه[٦١]، إذ أنه أصدر قرارا يقضى بتدمير كل الأيقونات المقدسة وتحريم ماكان سائدا من عبادتها فى أنحاء إمبراطوريته، وحرص على أن يضفى الشرعية اللازمة على هذا العمل فعقد فى أوائل سنة ٧٣٠م مجلسا حضره كبار المسئولين المدنيين والكنسيين وطلب إلى الحاضرين أن يوافقوه على سياسته[٦٢]، ولكن البطريرق (جرمانوس) رفض ذلك، فقرر ليو الثالث عزله وأبدله بأنستاسيوس الذى اعلن استعداده للموافقة على القرار، فلم يصبح القرار بذلك صادرا باسم الإمبراطور فحسب بل أيضا بموافقة الكنيسة، فأصبح القرار بذلك واجب التنفيذ، فجرى تدمير الأيقونات وتعرض

(58) Pirenne : Op. Cit., P. 72.

(59) Oman : The The Dark Ages , P. 287.

محمد الشيخ : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ٢١٨.

(60) Ostrogorsky : Op. Cit. PP. 144 - 5.

(٦١) حسنين ربيع : دراسات ص ١١٤.

(62) Vasiliev : Op. Cit. P. 258.

عبادها للاضطهاد، وبدأ عهد جديد في مناهضة هذه العبادة(٦٣).

ويرى المؤرخ سيفن رنسمان أن مذهب تحطيم الصور هذا في أساسه مسألة تدخل تحت علم طبيعة المسيح وشخصه، فهل يمكن رسم ألوهية المسيح وتصويرها؟ فإن لم يكن، أليس من الوثنية إذن عبادة صور المسيح؟(٦٤) ويبدو أن ليو الثالث آمن كما آمن غيره من القادة الذين ينحدرون من أصل أسيوى أنه لو أغفل هذا التقديس وهذه العبادة لأتهم هو ومن جاء بعده بإهانة المسيح وجميع القديسين، ولهذا مضى ليو فى سياسته وسانده الجيش والقادة من ذوى المولد الأسيوى، وعاضده كل من كان يكره الزيادة المطردة فى قوة الكنسية والأديرة(٦٥).

غير أن البابا جريجورى الثالث الذى خلف جريجورى الثانى فى كرسى البابوية أعلن معارضته لسياسة الامبراطور الدينية، على الرغم من أن الامبراطور لم يستطع تنفيذ سياسته فى إيطاليا لبعدها عن مقر الحكم البيزنطى، وأضحى الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية واقعا لامحالة(٦٦)، فقد أخذت معارضة البابا شكلا جديا، وبادر بعقد مجمع دينى فى روما، أنكر فيه سياسة بيزنطة اللاأيقونية، واعتبر اللاأيقونيين خارجين على الكنيسة، هذا فضلا عن معارضة الديريين الذين وجدوا فى تقديس الصور والأيقونات مصالح خاصة بهم ومعارضة لسياسة الامبراطور القائمة على تقليم أظفار الديريين وتحطيم ثروات الأديرة والحد من نفوذ هذا الفريق من رجال الدين(٦٧)، فضلاً عما أحدثته كثرة الرهبان من أضرار بحركة التجنيد والشئون الزراعية

---

(63) Ostrogorsky : Op. Cit., P. 145.
Hussey : Op. Cit., P. 27.

(٦٤) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٣٤.

(٦٥) رنسمان : نفس المرجع السابق ص ١٣٤.

(66) Vasiliev : Op. Cit., P. 259.

(٦٧) رنسمان : نفس المرجع السابق ص ١٣٤.

في الدولة[٦٨]، واذا أضفنا إلى ذلك ما أظهره عامة الشعب فى الغرب من معارضة لسياسة الامبراطور اللا أيقونية تأكدنا أن ثمة أمور خطيرة بدأت تستجد في الموقف، وأصبح الصراع بين الأيقونيين واللاأيقونيين ينذر بشر مستطير[٦٩].

ولقد قويت المعارضة لسياسة الامبراطور بإعلان رجل من علماء عصره رأيه فى هذا الشأن، وهو حنا الدمشقى الذى كان يونانى الأصل، وشغل وظيفة كبيرة فى دار الخلاقة الأموية بدمشق ثم صار من رهبان القديس سابا قرب بيت المقدس، فقد كتب هذا الرجل ثلاث رسائل دفاعاً عن الأيقونات تعتبر من أهم مؤلفاته وأكثرها ابتكاراً[٧٠]، أشار فيها حنا الدمشقى إلى أن الأيقونه ليست إلا رمزاً أو وسيلة يقف عامة الناس بمقتضاها على ما ينبغى أن يقدسوه ويبجلوه، وبرر بذلك استخدام صورة المسيح، ولهذه الأراء يد فيما جرى بعدئذ من تطور تعاليم عبادة الصور المقدسة والأيقونات[٧١].

أنكر البابا جريجورى الثالث إذن سياسة الإمبراطور الدينية، وأصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور سنة ٧٣١م، فتسبب بذلك فى بعد الشقة بين بيزنطة وروما، وفى تدهور العلاقات بين الجانبين[٧٢]. غير أن الامبراطور لم يحفل بذلك بل وجه صفعة جديدة للبابا بأن أمر باعتقال الممثل البابوى

---

(٦٨) العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم، ص ٨٦.

(69) Camb. Med. Hist. V. 4, P P .9 - 10.

(٧٠) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٠٥ ،

Hussey : Op. Cit. P. 30.

Vasiliev : Op. Cit. P. 259.

(٧١) العرينى : المرجع السابق، ص ٢٠٦،

Ostrogorsky : Op. Cit. P. 145.

Hussey : Op. Cit., P. 30.

(72) Chadwick : Op. Cit. P. 283.

فى العاصمة البيزنطية، وعول فى مناهضتة للبابا على مركز الامبراطورية فى الأقاليم المتسمة بالصفة اليونانية والدائرة فى فلك بيزنطة مثل صقلية وجنوب إيطاليا وإيلليريا والتى كانت تنتمى لأسقفية روما، فأمر بمصادرة ما كانت تؤدية من خراج لروما[٧٣]، وفصلها عن أسقفية روما وربطها مباشرة ببطرقية القسطنطينية، فأسهمت هذه الخطوة فى إحداث تطابق كبير بين الحدود السياسية التى صنعتها الأحداث التاريخية وبين الحدود الدينية التى عينتها العلاقات بين بطريرقية القسطنطينية وأسقفية روما[٧٤].

وأذ اشتد بالبابوية القلق من جراء استمرار الامبراطور فى سياسة المناهضة للأيقونات عولت البابوية على حليف آخر تخرج به من عزلتها وتنفتح به على ناحية أخرى من العالم، فاتجهت إلى دولة الفرنجة بغالة وطلبت التأييد من ملك الفرنجة الكاثوليكى[٧٥]. فأسهمت بذلك فى الانسحاب من الشرق اليونانى وزيادة الفجوة بينها وبين القسطنطينية، وحيث أن شمال إيطاليا خضع للمبارديين فى حين خضع جنوبها وصقلية للامبراطور البيزنطى، فقد اقتصر نفوذ البابوية على الجزء الأوسط من إيطاليا الذى ظلت اللاتينية تميزه عن بقية الأجزاء ونفوذ البابوية فى روما يفصله عن بقية أنحاء البلاد، ويشده بإحكام إلى غرب أوربا[٧٦].

والواقع أن تطور هذه الأحداث أسهم فى ازدياد مكانة وثروة بطريرقية

---

(73) Theophanes : Op. Cit., P. 410.
(74) Hussey : Op. Cit., PP. 30 - 31.
(75) Rice : Op. Cit., P. 80.
Hussey : Op. Cit., P. 31,
فشر : المرجع السابق ، ص ٨١، رنسمان : المرجع السابق ص ١٤٠
(76) Vasiliev : Op. Cit., P. 259.

القسطنطينية على حساب بطريرقيات الشرق التى أصابها الضعف بعد استيلاء المسلمين على توابعها فى المناطق الشرقية فى الوقت الذى أضيف فيه إلى ولاية القسطنطينية الدينية كل من شبه جزيرة البلقان وجنوب ايطاليا، حيث سادت الصفة اليونانية[٧٧] فصار لبطريرقية القسطنطينية كل ما كان خاضعاً لسلطان الدولة البيزنطية من الأقاليم فاتسعت دائرة تأثيرها وازداد نفوذها وغدت تدين بذلك للامبراطور ليو الثالث الايسورى، الأمر الذى أغرى هذا الامبراطور بإخضاعها لسياسة الدولة ، وكان له ما أراد فخضعت الكنيسة الشرقية لسلطة الأمبراطور بدلاً من أن تخضع لسلطة البابا[٧٨] . أما النتيجة السياسية الهامة التى ترتبت على النضال اللاأيقونى، فهى أن روما انسحبت من الشرق اليونانى بينما خرجت بيزنطة من الغرب اللاتينى، وبذلك انهارت فكرة الوحدة التى تمسكت بها كل من الامبراطورية البيزنطية والبابوية[٧٩] . وبذلك اضطرت الإمبراطوية إلى معاداة البابوية وتطورت المسألة كلها أواخر عهد الامبراطور ليو الثالث من مسألة دينية بحتة إلى مسألة غلبت عليها النزعة السياسية[٨٠].

وعلى الرغم مما أحدثته سياسة ليو الثالث الإيسورى من إنقسام داخلى فى الشئون الدينية، إلا أنه لم يعر ذلك كبير اهتمام بسبب اطمئنانه لسياسته النابعة من عمق إدراكه وعظيم إيمانه ورغبته الصادقة فى تخليص الامبراطورية البيزنطية من آثار تلك العبادة ورواسبها فى المجتمع وفى الكنيسة وبين طوائف

---

(77) Vasiliev: op.cit. p. 259,

رنسمان :الحضارة البيزنطية ص١٤٠ .

(78) Vasiliev: op.cit. p. 259.

(٧٩) العرينى: المرجع السابق، ص ٢٠٨ .

(٨٠) العدوى: الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٨٧.

الشعب، بل إننا لانوافق أولئك الذين ذهبوا إلى أن ليو الثالث لم يكن مثقفا ثقافة عالية وأن إلمامه كذلك باللاهوت المسيحى كان سطحيا. وترى أن عناده فى هذه المسألة وإصراره على اتباع هذه السياسة إنما كان نابعا من علو ثقافاته وإلمامه التام بهذه المشكلة الدينية ولابد وأن معرفته باللاهوت المسيحى مكنته من مجابهة خصومه وفيهم رجال الدين ورجال الأديرة.

وإلى جانب ذلك مضى ليو الثالث فى حركة إصلاح شاملة لجهازه الحكومى والإدارى والمالى أعطت الأسرة الإيسورية ما تمتعت به من شهرة طيبة فى تاريخ الأسرات البيزنطية[٨١]، إذ أدرك ليو الثالث بثاقب فكره أن رخاء الامبراطورية تهدده ثروات الأديرة والكنائس وماحازه رجال الدين من ضياع وافرة وامتيازات خاصة وإعفاءات ضريبية كبيرة[٨٢]. ويبدو أن مناهضة عبادة الصور والأيقونات كانت ترمى إلى تحقيق هدفين فى وقت واحد: تصفية النفوذ الدينى المتعاظم لهذه الفئة من ناحية وضرب مصالحهم الاقتصادية الكبيرة لصالح الدولة من ناحية أخرى[٨٣].

كما أدرك ليو الثالث أيضا أن ثمة ناحية أخرى تهدد رخاء الامبراطورية وتكمن فى البناء الاجتماعى والاقتصادى نفسه، فبينما نمت الضياع الكبيرة نموا هائلا وازدادت سلطة كبار الملاك على المستأجرين وصغار الملاك، وتضاءلت طبقة الملاك الأحرار، وآثر الكثيرون منهم بيع أراضيهم لكبار الاقطاعيين، وتناقصت سلطة الحكومة لدى هؤلاء الاقطاعيين[٨٤]،

(81) Oman: op.cit. p.321.
(82) Vasiliev: op.cit. p. 253.
(83) Ostrogorsky: op.cit. pp. 144-5.
(84) Oman: op.cit. pp. 504-7.

واستتبع ذلك حرمان خزانة الدولة من جانب كبير من مواردها، فضلا عن حرمانها من الجند من طبقة الفلاحين الأحرار، ولهذا بذل ليو الثالث جهودا كبيرة للحد من نمو الملكيات الكبيرة والحفاظ على سلطة الحكومة على هذا القطاع من السكان(٨٥)، واهتم باستصلاح الأراضى وتحسين طرق الزراعة ووسائلها والرقى بالصناعات، فتكاثرت مراكز الصناعة ونشطت الطوائف والنقابات فى القيام بالصناعات الهامة، واعتنى بالتجارة ووسائل نقلها وطرق تسويقها وتسويق المصنوعات، واحتكرت الحكومة تجارة الحبوب والحرير، فأمدت خزانة الدولة بقدر هام من الموارد الاقتصادية(٨٦).

وامتد إصلاح ليو الثالث إلى الجيش فأعاد تنظيمه وإعداده ومده بخيرة الجند والأسلحة، واستطاع هذا الجيش أن ينهض بأعباء الحرب وحماية الدولة، وأظهر الامبراطور اهتماما خاصا باستعمال النار الإغريقية التى كان لها دور كبير فى رد العرب عن القسطنطينية فى بداية عهده(٨٧)، وهى تتولد من بعض المواد الكيماوية وتستعمل بطرق مختلفة، فتقذف بالمقاليع أو تقذف فى هيئة قنابل يدوية، وقيل أن مخترعها رجل سورى من أصل يونانى كان قد فر إلى القسطنطينية، وأقام بها عندما غزا العرب سوريا، واخترع تلك النار فى القرن السابع الميلادى وحرص على أن يجعل تركيبها سرا، واستخدم نوع منها فى رد العرب عن القسطنطينية على عهد هذا الامبراطور(٨٩).

---

(85) Diehl: History of the Byznatine Empire P.69.
(86) Camb. Med. Hist. V.4, p.4.
(87) Bury: Hist. of the Later Roman Empire, p. 402.
(88) Rice: op.cit. p. 76.
(89) Diehl: op.cit.p. 54.
Lewis Naval power and trade, p.67.

ومن إصلاحات ليو الثالث الإيسورى أيضا اهتمامه بالتشريع، فقد أصدر سنة ٧٢٦م الإكلوجا Ecloga (المختار) الذى قال إن الهدف منه هو إدخال المبادىء المسيحية إلى القانون(٩٠)، وجعله مرجعا قانونيا يرتبط في مجموعه بالقانون المدنى ويتناول أيضا بعض موضوعات القانون الجنائى، فهو يتناول مايتعلق بالزواج والطلاق والخطبة والوصايا وعتق الرقيق والشهود والبيع والشراء والقروض والرهن وتقسيم غنائم الحرب والملكية والميراث(٩١). أما ما يتعلق بالقانون الجنائى فأهم ماجاء به يختص بالعقوبات، وقد تجلى أثر المسيحية فى القانون الجنائى هذا بتقييد عام لعقوبة الإعدام مثلما تجلى أثرها أيضا فى القانون المدنى خاصة فيما يتعلق بالزواج وأسباب الطلاق(٩٢)، وقد جعل ليو الثالث هذا القانون فى متناول رجال العدل والقضاة بغية تسهيل عملهم وكفهم مشقة الرجوع إلى المصادر المطولة فى القانون، خاصة وأن قوانين جستنيان دونت باللاتينية(٩٣)، بينما أصبحت اليونانية هى اللغة السائدة التى يجرى التعامل بها، ولم تعد اللاتينية مفهومة فى معظم أنحاء الإمبراطورية لاسيما فى الشرق، بينما أصبحت الحاجة ماسة لقانون يسهل الرجوع إليه من ناحية ويعكس المتغيرات التى شهدتها الامبراطورية فى القرن السابع وبداية القرن الثامن من ناحية أخرى(٩٤)، ولهذا اعتمد الإكلوجا على قانون جستنيان ولكنه عكس فى نفس الوقت بعض التغيرات الخاصة، فضلا عما حرص عليه ليو الثالث من كفالة العدالة وتنزيه القضاة، والارتقاء

---

(٩٠) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ٨٢ (مترجم)

(91) Ostrogorsky: op.cit. p. 141.

(٩٢) رنسمان : المرجع السابق ص ٨٢-٨٣،

Vasiliev: op.cit. p. 242.

(93) Ostrogorsky: op.cit. p. 141.

(94) Vasiliev: op.cit. p. 243.

بهم وتجريدهم من الميل والهوى[٩٥]. وقد أفادت الشعوب السلافية المجاورة من ترجمات هذا القانون[٩٦].

وفضلا عن هذا اهتم ليو الثالث الإيسورى بعظمة بلاطة وفخامته، وأغرم كثيرا بمظاهر الترف والرفاهية والمرح، وأدخل كثيرا من التحسينات الإدارية ونظم الشئون المالية والضرائب، وأصلح النظم الكنسية[٩٧]، ومنح الامبراطورية فترة استقرار هامة على الرغم من سياسته الدينية المتطرفة.

قنسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥م):

اعتلى العرش بعد وفاة ليو الثالث ابنه قنسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥م) الذى كان والده قد أشركه معه فى الحكم قبل ذلك بعشرين عاما، ولم يكن قنسطنطين وقتها يتعدى الثانية من عمره[٩٨]، غير إنه لم يكد يمضى على ولايته سوى سنة واحدة حتى ظهر له منافس قوى اغتصب العرش لبضعة شهور تحت ستار معارضته للحركة اللا أيقونية[٩٩]. والغريب أن مغتصب العرش هذا لم يكن إلا زوج أخت قنسطنطين الخامس ويدعى ارتفازوس Artavasaus، قائد أحد الثغور فى آسيا الصغرى الذى دخل العاصمة، ونصب نفسه إمبراطورا بعد أن هرب قنسطنطين الخامس إلى عمورية حاضرة ثغر الأناضول والمركز الرئيسى المؤيد للأسرة الايسورية، حيث لقى ترحيبا هناك وتأييدا لاسترداد عرشه، وفعلا كان له ما أراد، واستعاد عرشه من جديد، وبدا وكأن الله يقف إلى جانب اللاأيقونيين[١٠٠]، إذ أن

(95) Ostrogorsky: op.cit. p. 141.
(96) Hussey : Op. Cit., PP. 28-9.

(٩٧) سعيد عاشور، أوربا ج ١ ص ١٢٩.

(98) Ostrogorsky: op.cit. p. 147.
(99) Vasiliev: op.cit. p. 260.

(١٠٠) وسام عبد العزيز فرج : دراسات ص ١٨٥.

النصر النهائى كان حليف قنسطنطين الخامس الذى دخل العاصمة ظافرا، فأنزل بخصومة أشد أنواع التنكيل[١٠١].

وفاق قنسطنطين الخامس والده فى القيادة الحربية .وفى كرهه لعبادة الصور والأيقونات، غير أنه لم يبلغ مابلغه أبوه من القوة البدنية وحسن التفكير بل اشتهر باعتلال الصحة واضطراب الأعصاب، وربما يفسر ذلك ماساد عصره من وحشية واضطهاد ومانزل بخصومة من تعذيب وقسوة[١٠٢]، ولكنه نجح فى إحراز انتصارات باهرة على كل من العرب والبلغار، الأمر الذى جعل العساكر يتعلقون به ويثقون فى مقدرته القتالية وحنكته فضلا عما اشتهر به من الشجاعة والاقدام[١٠٣]، بالإضافة إلى أنه كان متفقها فى علم اللاهوت ولهذا حرص على إبراز الأسس القوية التى تستند إليها المسيحية الصحيحة[١٠٤]، مؤكدا ضرورة استمرار السياسة اللاأيقونية التى بدأها والده مكملا ماتم فى عهد أبيه ليو الثالث دون أن يأبه بما ناله من ألقاب السخرية التى أطلقها عليه العامة لتشويه سمعته والحط من شأنه بسبب سياسته اللاأيقونية[١٠٥].

فقد صادفت السنوات الأولى من حكم قنسطنطين أن استشرت الفتن فى الدولة الأموية فى أخريات أيامها، وضربت الفوضى فى أنحاء البلاد، ثم أعقب ذلك سقوط تلك الخلافة سنة ٧٥٠م، وقيام الخلافة العباسية، التى نقلت حاضرتها من دمشق إلى بغداد، فانتقل بذلك مركز الثقل من الشام

---

(101) Ostrogorsky: op.cit. p. 148,

العرينى : المراجع السابق ص ٢١٠.

(١٠٢) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢١٠.

(103) Ostrogorsky: op.cic.p. 149.

(١٠٤) وسام عبد العزيز فرج : دراسات ص ١٨٥ - ١٨٦.

(١٠٥) العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ص ٨٧.

إلى العراق، فخف الضغط الواقع على الدولة البيزنطية، وبدأت تخرج من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم(١٠٦)، فقد أغار قنسطنطين فى أواخر عهد الخلافة الأموية فى سنة ٧٤٦م على شمال الشام واستولى على مرعش موطن آبائه وأجداده، ونقل من وقع فى يده من أسراها إلى تراقيا، وكان بعضهم لايزال على مذهبه المنوفيزيتى لأن المؤرخ ثيوفانيس يشير إلى وجود بعض السوريين المنوفيزيتيين فى القرن التاسع الميلادى بهذا الإقليم(١٠٧)، كذلك أنزل الأسطول البيزنطى الهزيمة بأسطول إسلامى فى العام التالى (٧٤٧م)، وأعقب ذلك قيام قنسطنطين بالهجوم على أرمينيا بالجزيرة وأعالى النهرين، حيث استولى على معقلين هامين من معاقل الحدود هما: أرضروم وملطية، وجرى نقل بعض الأسرى الذين أسرهم الامبراطور من هذه المعاقل أيضا إلى تراقيا على الحدود البلغارية، كما صد هجوما إسلاميا سنة ٧٤٨م على جزيرة قبرس، وإن لم تؤد هذه الأعمال إلى مكاسب إقليمية بيزنطية لأن المسلمين مالبثوا أن استردوا ما استولى عليه البيزنطيون(١٠٨).

وعلى الجبهة البلغارية بدأت مرحلة جديدة فى الحرب بين بيزنطة والبلغار إذ اعتبر قنسطنطين الخامس البلغار أخطر أعداء الامبراطورية، وكاد ينجح فى تحطيم قوة البلغار الناهضة(١٠٩)، إذ وجه ضدهم تسع حملات فيما بين سنتى ٧٥٩ - ٧٧٥م كان أخطرها الحملة التى قادها بنفسه

---

(106) Ostrogorsky: op.cit. p. 149.
Theophanes : Op. Cit. P. 422.
(107) Theophanes : op.cit. pp. 422.

(١٠٨) العريبى : الدولة البيزنطية ص ٢١١،
Ostrogorsky: op.cit. pp. 149.

(١٠٩) وسام عبد العزيز فرج : دراسات ص ١٨٩

سنة ٧٦٣م إلى تراقيا لملاقاة ملك البلغار تيليتز Teletz الذى اشتهر بأنه من أشد الكارهين لبيزنطة والساعين إلى مهاجمتها وفى نفس الوقت أرسل الامبراطور أسطوله فى البحر الأسود إلى مصب الدانوب يحمل أعدادا كبيرة من الفرسان وعتادهم، وحين اجتمع هؤلاء ببقية جيش قنسطنطين دارت معركة هامة مع البلغار فى أواخر يونيو سنة ٧٦٣م هزمهم فيها ملك البلغار هزيمة ساحقة(١١٠)، واحتفل قنسطنطين بهذا النصر المؤزر فدخل القسطنطينية فى موكب نصر عظيم وجرت الاحتفالات بالعاصمة بهذا النصر بينما لقى ملك البلغار حتفه على إثر ثورة إجتاحت بلغاريا بعد هذه المعركة بقليل(١١١)، وعلى الرغم من جهود قنسطنطين ضد بلغاريا فإنه لم ينجح فى فرض الصلح عليها أو تسوية مشكلتها نهائيا حتى وفاته سنة ٧٧٥م.

غير أن قنسطنطين لم يحرز توفيقا فى سياسته فى الغرب، وبصفة خاصة فى إيطاليا، فلم يعط كبير اهتمام لما كان يجرى هناك، فأدى ذلك إلى انهيار ماكان يربط بيزنطة بروما لاسيما فكرة العالمية وقيام امبراطورية متحدة، ظل الناس يتشبثون بها حتى ذلك الوقت(١١٢)، فعلى حين رأت روما ضرورة الحفاظ على ولائها للامبراطور لحاجتها لمساعدته ضد الخطر اللمباردى — ولو كان ولاء ظاهريا — نجد أن هذه السياسة لم تكف البابا شر اللمبارديين، فقد استفحل خطرهم واشتد بلاؤهم هناك بل واستطاع الملك استولف (٧٤٩ – ٧٥٦م) إسقاط راڤنا سنة ٧٥٢م التى كانت فى أيدى البيزنطيين(١١٣)، فانتهى بذلك حكم بيزنطة فى شمال إيطاليا ووسطها،

---

(110) Vasiliev: op.cit. P. 239.
(111) Ostrogorsky: op.cit. pp. 148-9.
(112) Vasiliev: Op.Cit. P. 265.
Ostrogorsky: op.cit. p. 151.
(113) Oman : Op. Cit. P 327.

ولم يعد البابا يؤمل فى مساعدة من قبل الامبراطورية البيزنطية. وكان سقوط رافنا فى أيدى اللمبارديين عاملا هاما فى تحرر البابوية من سلطة بيزنطة وانتهاجها سياسة الاستقلال، إذ لم يعد ثمة ما يدعوها لمداراة الإمبراطورية البيزنطية والسير فى ركابها بعد ضياع نفوذها وهيبتها فى كل شمال إيطاليا ووسطها[١١٤]، لهذا اتجه البابا إلى قوة أخرى فتية بدأت تفرض نفسها فى الغرب، وهى قوة الفرنجة، فقابل ملك الفرنجة بيبن القصير (الثالث) سنة ٧٥٣م، ووضع معه أسس سياسة التعاون والتحالف التى ربطت بين البابوية والفرنجة، وعقد معه ميثاقا مشهودا، وأنعم عليه بأسمى المراتب الدينية، كما بارك له ولولديه من بعده فى الملك، وفى مقابل ذلك تعهد بيبن بإعادة المدن التى استولى عليها اللمبارديون إلى البابوية وكنيسة بطرس وأوفى بوعده[١١٥]. وهكذا قطعت البابوية آخر خيط فى ولائها للامبراطورية البيزنطية، ويبدو أن لسياسة الامبراطورية الدينية دخل كبير فى هذا التغيير[١١٦].

على أن الأيقونيين اعتقدوا أن بوسعهم إجبار قنسطنطين الخامس على تغيير سياسته الدينية، إلا أن هذا الامبراطور أثبت أن حماسته اللاأيقونية لاتقل عن حماسة والده إن لم تفقها كثيراً. إذ نكل بالأيقونيين ودعاة الردة واهتم - كما سبق أن أشرنا - بإبراز الأسس القوية التى تستند إليها العقيدة الحقة وكلف من قام بالبحث فى كتابات وأقوال آباء الكنيسة الأول لاقتباس مختارات منها، كما حرص على أن تلقى العظات والخطب الدالة على

---

(١١٤) محمد الشيخ : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ٢١٩،
Pirenne : op. cit. P. 70,
.Ostrogorsky: op.cit. p. 151.

(١١٥) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٨٢ - ٨٣.

(116) Pirenne : Op. cit., P. 70.
Oman : Op. Cit. P 328.
Ostrogorsky: Op.Cit. P. 151.

صحة تحريم الصور وعبادة الأيقونات[١١٧] . ثم دعا إلى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية سنة ٧٥٤ م لمناقشة هذه المشكلة الدينية، فاجتمع هذا المجمع الدينى فعلاً وهو المعروف بالمجمع المسكونى السابع[١١٨]، والذى حضره كل أساقفة الامبراطورية تقريباً أي نحو ٣٣٨ أسقفاً على الرغم من أن البابوية أُنزلت اللعنة على كل من يحضر هذا المجمع، على حين اعتذر عن حضوره أساقفة أنطاكية وبيت المقدس والاسكندرية الذين كانوا فى حماية المسلمين[١١٩] .

كما قام الامبراطور نفسه بدور كبير فى النشاط الأدبى إذ ألف ما لايقل عن ثلاثة عشرة رسالة دينية لم يبق منها إلارسالتان ، قصد منها توجيه المجمع إلى إصدار قرارات معينة، فكان لهذه الرسائل أثر كبير فى شرح وتوضيح الآراء اللاأيقونية[١٢٠]، إذ اختلف قنسطنطين عن دعاة عبادة الصور فى أن هؤلاء الأيقونيين يفرقون بين الأيقونة والحقيقة التى تمثلها، ويعتبرون الصور مجرد رمز، أما قنسطنطين الذى تأثر بالآراء الشرقية، فإنه أصر على أن هناك اتحاد بين الصورة والحقيقة التى تمثلها، وعارض بشدة فى أمر تشبيه المسيح وجواز رسمه على أساس ما له من صفه إلهية.[١٢١] .

ونجح المجمع فعلاً فى إصدار قرارات تؤيد سياسة قنسطنطين الدينية وتحرم تصوير المسيح والقديسين، وتحرم عبادة الصور والأيقونات، فاستغل قنسطنيطين قرارات هذا المجمع المسكونى فى تصفية معارضية والتطرف فى

(١١٧) وسام عبد العزيز فرج : دراسات ص ١٨٥ – ١٨٦ .

(١١٨) جيبون : اضمحلال الامبراطورية ج ٢ ص ٥٣٩ .

(١٩٩) سعيد عاشور : أوربا ج ١ ص ١٣٤ .

(i20) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 152.
Hussey : Op. Cit. P. 30.

(١٢١) أنظر العرينى : المرجع السابق ص ٢١٧ ،
Camb. Med. Hist. V. 4, P. 14.

معاملة الأيقونيين لا سيما من الديريين، وإنزال أقسى العقوبات بمخالفى سياسته من نفى وتشريد وطرد من الوظائف المدنية وسجن ومصادرة للأموال(١٢٢)، فكل من يجرؤ على تصوير المسيح أو يقوم بتقديسه أو يتخذ صورته فى كنيسة أو فى بيته أو اقتنى هذه الصورة تقرر عزله إن كان من رجال الدين، أما إذا كان راهباً أو من العلمانيين فقد تقرر محاكمته وفقاً للقوانين المدنية باعتباره عدوا لله(١٢٣)، ولم يتعرض عباد الصور للعزل فحسب بل قرر طردهم أيضا من الوظائف المدنية، ولقى كثير منهم التشريد والسجن وصودرت ممتلكاتهم ونفى بعضهم إلى الأقاليم النائية، كما قطع كل من البطريرق جرمانوس وحنا الدمشقى من رحمة الكنيسة ولقى كثير من عباد الصور مختلف أنواع التنكيل(١٢٤).

ووقع عبء مقاومة هذه السياسة على كاهل الرهبان بعد فشل رجال الكنيسة فى التصدى لهذه الحركة، واضطر قنسطنطين الخامس إلي استخدام العنف والقسوة أيضا مع الرهبان ورجال الأديرة وازداد شرهه لسفك الدماء وقتل المعارضين منهم حتى لقى عدد كبير منهم حتفه على يد هذا الإمبراطور(١٢٥). واعتبرت الأجيال التالية عهد قنسطنطين الخامس عهد إرهاب واستبداد لما طفح به من ألوان الشدة والعنف، وارتبط اسمه أيضا بالكراهية الشديدة، ومع ذلك فإن ما أحرزه من انتصارات حربية، وما قام به من أعمال مجيدة ظل معروفاً ومشهوراً، والدليل على ذلك أنه حينما اشتد

---

(122) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 154.
Vasiliev: Op.Cit. P. 261.
(123) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 15.
Vasiliev: Op.Cit. P. 260.
(124) Camb. Med. Hist. V. 4, PP. 14-15.
(125) Vasiliev: Op.Cit. P. 262.

ضغط البلغار على الدولة البيزنطية في أوائل القرن العاشر الميلادى واستبد اليأس بالناس اجتمع أهل القسطنطينية عند قبر قسطنطين الخامس وراحوا يتوسلون أن يعود إليهم هذا الامبراطور الميت ليخلصهم من محنتهم(١٢٦)

وفى ميدان الاصلاحات الداخلية، اقتفى قسطنطين الخامس أثر والده ليو الثالث فاهتم بالزراعة وزيادة الانتاج الزراعى ومد الرقعة الزراعية، خاصة بعد استخدام الصقالبة فى استصلاح الأراضى والعناية بالرى(١٢٧)، وفى إطار هذه السياسة أقام عدة مستعمرات فى المناطق الواقعة على الحدود الغربية للامبراطورية، وأنزل فيها المسيحيين المهاجرين من أرمينيا وتراقيا، لطبع هذه المناطق بالطابع اليونانى(١٢٨)، فتقدمت الزراعة فى عهده وتوافرت المحاصيل والغلات الهامة ، كما اهتم بالتجارة وأمن الطرق ووسائل النقل وقضى على قطاع الطرق وحرص على سلامة التجار، فأسهم بذلك فى منح الدولة فترة انتعاش حقيقية(١٢٩). كما اهتم بالقسطنطينية وعمل على تزويدها بالمياة العذبة، وشجع النازحين إليها على الاقامة والاستقرار بها لتعميرها خاصة بعد أن أهلك الوباء الذى انتشر فيها سنتى ٧٤٦ - ٧٤٧م الآلاف من سكانها ، وتوفى قسطنطين الخامس فى النهاية سنة ٧٧٥م وهو فى السابعة والخمسين من عمره(١٣٠).

---

(١٢٦) العرينى : المرجع السابق ص ٢٢٠.

(127) Oman : Op. Cit P 316.

(128) Theophanes : Op. Cit. P. 422.

(129) Camb. Med. Hist. V. 4, PP. 14-17.

(130) Oman : Op. Cit. PP. 316-17.

ليو الرابع (٧٧٥ - ٧٨٠م) :

تولى ليو الرابع العرش بعد وفاة والده، وهو الذى اشتهر بليو الخزرى لأن والدته كانت ابنة ملك الخزر التى تزوجها قنسطنطين الخامس(١٣١) سنة ٧٣٢م، غير أن مدة حكم ليو الرابع لم تطل أكثر من خمس سنوات ليس فيها ما يلفت النظر سوى أنه اتبع سياسة والده اللاأيقونية، وإن اشتهر ليو الرابع بالميل إلى الاعتدال، فقد توقف الهجوم على عبادة العذراء أم المسيح، وجرى اغفال ما اتبعه قنسطنطين الخامس أواخر حكمه من سياسة مناهضة الديرية، فاستعاد الديريون بعض ما فقدوه من النفوذ(١٣٢).

لكن يبدو أن ليو الرابع لم يستطع المضى فى سياسة الإعتدال نظراً لقوة الحزب اللا أيقونى فى الدولة، واستمرار هيمنته على شئون الامبراطورية، فضلاً عن أنه وجد الأيقونيين قد عادوا يرفعون رءوسهم ضد سياسة الدولة، فعاد ليو الرابع من جديد إلى السياسة اللاأيقونية، فأمر فى سنة ٧٨٠م أى قبل وفاته بقليل بجلد وحبس بعض كبار موظفى الدولة ممن أصرو ا على العودة إلى عبادة الصور والأيقونات(١٣٣)، ولكن هذه العقوبة لم تبلغ ما بلغته من عنف وشدة زمن قنسطنطين الخامس.

ويبدو أنه كان لزوجة ليو الرابع (أيرين) يد فى الاعتدال الذى ميز هذا العهد؛ إذ اشتهرت هذه السيدة بحبها لعبادة الصور والأيقونات وبقوة

---

(١٣١) يذكر المؤرخ دنلوب Dunlop أن اسمها هو Chichak وتزوجها قنسطنطين الخامس سنة ٧٣٢م وجرى تعميدها عند زوجها وأعيد تسميتها باسم أيرين Eirene. أنظر :

Dunlop : Op. Cit., P. 127.

وأنظر أيضا: إدارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قنسطنطين السابع ص ٦٧.

(132) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 21.

Vasiliev: Op.Cit. P. 263.

(133) Theophanes : Op. Cit,. P. 453.

شخصيتهاومضاء عزيمتها، كما أنها كانت تنتمى إلى مدينة أثينا المشهورة بعبادة الصور والايقونات[١٣٤]، ولهذا حملت ليو على إظهار الاعتدال فى سياسته الدينية، وإن لم تنجح فى حمله على التحول عن اللاأيقونية تحولا تاماً. كما يبدو أن فتور حدة اللاأيقونية زمن ليو الرابع ليس إلا رد فعل طبيعى لما جرى من طغيان زمن قنسطنطين الخامس[١٣٥]، حتى جاز لنا القول أن عهد ليو الرابع يعتبر مرحلة انتقال بين ذروة الحركة اللاأيقونية زمن قنسطنطين الخامس وبين العودة إلى عبادة الصور المقدسة زمن أيرين.

ولقد حاول ليو الرابع أيضا الاستمرار فى سياسة والده الخارجية ومحاربة المسلمين فى آسيا الصغرى فهاجم شرقى الأناضول سنة ٧٧٨م، إلا أن الخليفة العباسى المهدى رد عليه بمهاجمة الأراضى البيزنطية فى العام التالى[١٣٦]. ولم يعش ليو الرابع الخزرى ليكرر محاولته ضد المسلمين اذ أن الموت لم يمهله وتوفى سنة ٧٨٠م بعد نحو خمس سنوات فى الحكم[١٣٧]، وترك الحكم لابنه الطفل قنسطنطين السادس تحت وصاية أرملته أيرين التى حازت السلطة الفعلية فى الدولة، ولعبت دوراً هاماً فى التاريخ البيزنطى فى أواخر القرن الثامن، وفى تاريخ الأسرة الإيسورية[١٣٨].

(134) Vasiliev: Op.Cit. P. 263.

(١٣٥) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٢١.

(١٣٦) تنفيذا لوصية والده المنصور الذى وصاه فيها بقوله: «...... وليكن أهم أمورك إليك أن تحفظ أطرافك وتسد ثغورك ... وارغب إلى الله فى الجهاد والمحاماه عن دينك واهلاك عدوك ..». أنظر الطبرى ج ٨ ص ١٢.

(١٣٧) كان ليو الرابع مريضا بالسل ومات فى الثلاثين من عمره. أنظر أسد رستم : الروم ج ١ ص ٢٩١، وأنظر د. محمود عمران فى كتاب إدارة الامبراطورية البيزنطية لقسطنطين السابع ص ٦٧، وأنظر كذلك

Lemerle : Op. Cit., P. 75,

وأنظر أيضا : جوزيف نسيم : المرجع السابق ص ١٣٤.

(138) Vasiliev: Op.Cit. P. 263,

Oman : Op. Cit. PP. 317- 21.

حسنين ربيع : دراسات ص ١٢٢

قسطنطين السادس وايرين :

اعتلى قسطنطين السادس العرش ولم يكن قد تعدى العاشرة من عمره، بوصاية أمه أيرين، التى أضحت قسيما له فى الحكم سنة ٧٨٠م، وكانت تلك هى الفرصة التى تمنتها هذه السيدة لإحداث انقلاب خطير فى السياسة الدينية للامبراطورية ، وإعادة عبادة الصور والأيقونات التى تعلقت بها كثيراً، فبمجرد قيامها بالوصاية على العرش أظهرت تحمسها للأيقونية، وأعلنت ميولها التى نجحت فى إخفائها طوال عهد زوجها(١٣٩) . غير أنه لم يكن من السهل عليها إحداث ذلك الانقلاب فى يوم وليلة فقد رسخت قواعد الحركة اللاأيقونية، وصار يؤمن بها عدد كبير من رجال الكنيسة وموظفى الحكومة، فضلاً عن تعلق جانب من رجال الجيش بهذا المذهب بفضل إخلاصهم ووفائهم للامبراطور قسطنطين الخامس، ولهذا فقد رأت أيرين ضرورة التريث والتزمت طريق الحذر والروية(١٤٠) .

لكن سرعان ما تكشفت خطط هذه السيدة ابتداء من سنة ٧٨٤م، حين أخذت أيرين فى ترتيب الوظائف الكنسية ووضعت فيها من اشتهروا بحبهم لعبادة الصور، وعينت طرسيوس بطريرقا فى القسطنطينيةوهو أحد دعاة الأيقونية المتحمسين(١٤١)، ثم بادرت بالدعوة لعقد مجمع دينى لإقرار سياستها الدينية الجديدة ولإعادة عبادة الصور وإعلان بطلان المرسومات التى أصدرها المجمع اللاأيقونى الذى عقده قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤م،

---

(139) Rice : Op. Cit., P. 81.

(١٤٠) العرينى : المرجع السابق ص ٢٢٣،
Ostrogorsky: Op.Cit. P. 157.

(١٤١)سعيد عاشور : أوربا ج ١ ص ١٣٦ ،
Vasiliev: Op.Cit. P. 263.

وانعقد المجمع فعلاً سنة ٧٨٧م[١٤٢] فى مدينة نيقية وحضره ثلاثمائة وخمسين أسقفاً وعدد كبير من الرهبان، وهللت البابوية والكنيسة الغربية لهذا المجمع، فأصدر قرارات تقر بقاء الصور والأيقونات على مبدأ احترامها وتقديسها دون عبادتها لذاتها، وأعلن المجتمعون بالإجماع أن عبادة الصور والتماثيل الدينية تتفق مع الكتاب المقدس ويرتاح لها آباء الكنيسة ومجالسها[١٤٣]. وكل من يخالف ذلك تقرر قطعه من الكنيسة، كما تقرر قطع أولئك «الذين اعتبروا الأيقونات المقدسة أصناما، والذين رأوا أن المسيحيين إنما اتخذوا الأيقونات آلهة أو ادعوا بأن الكنيسة الكاثوليكية قبلت عبادة الأصنام»[١٤٤]، وتقرر أيضا إعادة المخلفات المقدسة الى مواضعها بالكنائس وتقرر أيضا إنكار ما وقع من تحويل الأديرة إلى دور ومساكن، وصدرت الأوامر بإعادتها سيرتها الأولى، وجرى بطلان ما أصدره المجمع اللاأيقونى المنعقد فى سنة ٧٥٤ وإعادة عبادة الصور المقدسة، ورأى المجمع أن العبادة ليست موجهة إلى الأيقونات بل إلى الأشخاص الذين جرى رسمهم عليها[١٤٥].

ويعلق المؤرخ جيبون على قرارات هذا المجمع بأنه على الرغم من إعلانهم ذلك إلا أنهم ترددوا فيما اذا كانت تلك العبادة مباشرة أو نسبية، وفيما اذا كان نفس هذه العبادة ينبغى تقديمها إلى الرب ولصورة المسيح

---

(142) Rice : Op. Cit., P. 81.
Hussey : Op. Cit. P. 30.

(١٤٣) جيبون : اضمحلال الامبراطورية ج ٢ ص ٥٨٠.
Bevan : Christianity, P. 82.

(١٤٤) العرينى : المرجع السابق ص ٢٢٤،
Vasiliev: Op.Cit. P 264.

(145) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 159.
Hussey : Op. Cit., P. 30.

سواء بسواء، ويقول جيبون: «ولاتزال قوانين هذا المجلس موجودة كأثر عجيب للخرافة والجهل والزيف والحماقة»[١٤٦].

وعلى الرغم من القرارات التى أصدرها هذا المجمع والتى أيدت السياسة الأيقونية، فقد كان متوقعاً أن يستمر الصراع بين الأيقونيين واللاأيقونيين، لاسيما وقد حدث نزاع بين أيرين وابنها الامبراطور قنسطنطين السادس بسبب تمسكها بالوصاية واحتفاظها بالسلطة رغم بلوغ ابنها سن الرشد وتطلعه الى مباشرة سلطته فقد انحاز إليه المعارضون لسياسة أيرين الأيقونية[١٤٧]، وحدثت مؤامرة ضدها سنة ٧٩٠م، لم يكن من العسير عليها القضاء عليها، وترتب على ذلك أن طلبت أيرين من الجيش أن يقسم لها يمين الولاء باعتبارها صاحبة السلطة الكاملة، فيتقدم اسمها على أسم ابنها وقسيمها - قنسطنطين السادس - فلم تتردد القوات المرابطة فى القسطنطينية فى الاستجابة لطلبها[١٤٨].

لكن المعارضة الشديدة لحكم أيرين جاءت من العساكر المرابطين فى آسيا الصغرى إذ أصر الجيش هناك على ضرورة انفراد قنسطنطين السادس بالحكم، خاصة بعد أن بلغ سن الرشد وقاد بعض الحملات العسكرية، وحقق بعض الانتصارات على العرب بالقرب من سواحل آسيا الصغرى[١٤٩]، ولهذا لم يستجب الجيش فى آسيا الصغرى لمطالب أيرين بل أصر على معارضتها والوقوف فى وجه سياستها الأيقونية، إلا أن قنسطنطين السادس عاد فخذل أنصاره والمتعاطفين معه على حد سواء بسبب

---

(١٤٦) جيبون : المرجع السابق ج ٢ ص ٥٨٠.
(147) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 160.
(148) Ibid. P. 160.

(١٤٩) سعيد عاشور : أوربا ج ١. ص ١٣٧.

ما اشتهر به من ضعف وما حل به من الهزيمة على يد البلغار سنة ٧٩٢[١٥٠]، حتى تطلع أنصاره إلى تنصيب عمه نقفور فى الحكم، فما كان من قنسطنطين إلا أن بدأ حركة إرهابية أسهمت فى زيادة الكره له، إذ أمر بسمل عينى عمه نقفور وقطع ألسنة أعمامه الآخرين خشية أن ينازعوه السلطة، والتنكيل ببعض قادة الجيش[١٥١]، فوقع الاضطراب فى صفوف الجيش، ونشب نزاع بين قنسطنطين وأنصاره أنفسهم سنة ٧٩٣م وفقد قنسطنطين السادس تأييد الحزب الأرثوذكسى وحزب المعارضة اللاأيقونى خاصة بعد أن أقدم قنسطنطين السادس على طلاق زوجته ماريا وزواجه من ثيودورا وهى إحدى وصيفات القصر، وتوجها إمبراطورة، فتعرض لهجوم الرهبان الذين اتهموه بالزنا ومخالفة قوانين الكنيسة[١٥٢]، وإذا أضفنا إلى ذلك ما عرفه الناس عنه من طيش وعناد وقسوة، أدركنا أنه فقد التأييد، وصار من السهل عزله دون أن ينهض أحد للدفاع عنه، وفى نفس الوقت كانت أمه أيرين قد ساءها مشاركته لها فى السلطة مع رغبتها الكامنة فى الاستمرار فى الانفراد بها وبالحكم، ولهذا فقد دبرت مؤامرة سنة ٧٩٧م انتهت بالقبض عليه[١٥٣]، وأثبتت أيرين أنها سيدة بالغة القسوة فقدت كل معانى الأمومة والعطف فى سبيل الانفراد بالسلطة، فقد أمرت سنة ٧٩٧م بسمل عينى ولدها قنسطنطين فى نفس الغرفة الأرجوانية التى شهدت مولده قبل ذلك بسبع وعشرين سنة[١٥٤]، وانفردت أيرين بالسلطة فى الامبراطورية ونجحت فى تحقيق مآربها وأغراضها، فخيم على البلاط جو التآمر

---

(150) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 160.
(151) Ibid. P. 160.
(152) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 160.
(153) Camb. Med. Hist. V. 4, P.24.
(154) Oman : Op. Cit. PP. 319- 20.

والاستبداد وتطلع بعض المستشارين للظفر بالسلطة، و ران على البلاد ضعف واضمحلال(١٥٥).

وترتب على تلك الانقسامات أن ساءت أحوال البلاد الداخلية، وتقدمت جيوش الخلافة العباسية فى آسيا الصغرى ووصلت حتى البسفور، واضطرت أيرين إلى شراء الصلح من المسلمين بدفع مبلغ كبير من المال (نحو سبعين ألف دينار سنويا)(١٥٦)، كما اجتاح البلغار جبهه البلقان وحل بالبيزنطيين هزيمة ثقيلة سنة ٧٩٢م بلغ من شدتها أن هرب الإمبراطور البيزنطى نفسه من ساحه القتال بينما وقع فى أسر البلغار عدد كبير من كبار القادة البيزنطيين، والتزمت الامبراطورية أيضا بدفع الجزية السنوية للبلغار(١٥٧).

ولم يقتصر الأمر على فشل الإمبراطورية فى سياستها فى آسيا والبلقان، بل تعدى ذلك إلى فشلها أيضا فى سياستها فى الغرب، إذ فقدت بيزنطة مالها من سلطان فى روما على إثر قيام تحالف هام بين روما والفرنجة، أدى إلى إعراض روما عن القسطنطينية(١٥٨) ذلك أنه فى الوقت الذى حكمت فيه أيرين الإمبراطورية البيزنطية، تولى فيه حكم مملكة الفرنجة ملك من أعظم الملوك هو شارلمان (شارل الكبير)، الذى استطاع أن يجعل دولته أعظم قوة فى أوربا، بل أعظم دولة مسيحية فى زمنه، فقد استولى على بافاريا وسكسونيا وتوسع على حساب الصقالبة وقضى على مملكة الآفار ودمر

---

(155) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 161.

(١٥٦) الطبرى : المصدر السابق ج ١٠ ص ٩٩،
Camb. Med. Hist. V. 4, PP. 22 - 4.
Bury : Op. Cit., PP. 488 - 90.

(157) Runciman : The Bulgarian Empire, P. 49.

(158) Hussey : Op. Cit., P. 31.

المملكة اللمباردية فى إيطاليا وأضافها إلى دولته[١٥٩].

ورأت كنيسة روما أنه لافائدة ترجى من تحالفها مع القسطنطينية على حين أن التحالف مع شارلمان الذى قهر اللمبارديين أعداء البابوية أجدى كثيراً، وأنفع لها، ولهذا أقدم البابا ليو الثالث على قرار خطير حين توج شارلمان إمبراطورا فى روما بكنيسة القديس بطرس فى ٢٥ ديسمبر سنة ٨٠٠م[١٦٠]، وترتب على هذا التتويج نتائج بالغة الأهمية، إذ جاء ضربة قاصمة لبيزنطة التى ظلت تعتبر حتى ذلك الحين الامبراطورية الوحيدة التى انتقل اليها تراث الامبراطورية الرومانية القديمة، وعلى هذا الأساس لم تعترف بيزنطة بتولية شارلمان بل اعتبرت ذلك ليس إلا عملاً من أعمال الاغتصاب[١٦١]، ولكن البابوية اعتبرت عرش الامبراطورية البيزنطية شاغراً بعد عزل الامبراطور الشرعى قسطنطين السادس سنة ٧٩٧م فى الوقت الذى جرى فيه اعتبار ولاية امرأة الحكم مخالفا للتقاليد الرومانية[١٦٢].

(١٥٩) ديفز : شارلمان ص ١٧٣ (ترجمة العرينى)،

Camb. Med. Hist. V. 2, P. 624.
Oman : Op. Cit. PP. 349 - 56.
Einhard : "Life of Charlemagne" - in Med. World by Cantor, P. 142.
Haskins : The Normans in European Hist. P. 31
Ostrogorsky: Op.Cit. P. 162.

(160) Oman : Op. Cit. P. 373. See : The Annals of lauro-sheim in monumenta Germaniae Historiea, Scriptores, Ed. by Georg H, Pertz and Others - In Documents of German Hist . By Snyder, P. 26.

وأنظر كذلك للمؤلف : دولة الفرنجة ص ٢٢،
تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص٢٦١.

(161) Cantor : Med. Hist. P. 223.
Hussey : Op. Cit., P. 30.
Camb. Med. Hist. V. 4, P. 24.

(162) Contor :Op. Cit., PP. 222 - 3.

ديفز : شارلمان ص ١٧٣، وأنظر العرينى : نفس المراجع السابق ص ٢٣٢.

نهاية الأسرة الأيسورية :

ويبدو أن الجريمة البشعة التى ارتكبتها أيرين مع ابنها قسطنطين السادس لم تستطع أن تمنح هذه الأم حكما هانئا، بل على عكس ذلك، عكرت صفو حياتها وأثارت فى وجهها المعارضة، ولاسيما أن مناهضى الأيقونية كانوا لايزالون يمثلون قوة فعالة فى الجيش والحكومة، بالإضافة إلى أن سياستها أثارت كبار الاقطاعيين وفجرت الثورة فى نفوس فريق كبير من السكان فى الوقت الذى تعرضت فيه البلاد لأخطار الغزو الخارجى وتنافس مستشاروها على الفوز بالسلطة والنفوذ(١٦٣)، وبرزت إمبراطورية جديدة فى الغرب تهدد بوجودها كيان الإمبراطورية القائمة فى الشرق(١٦٤)، وحين أدركت أيرين حرج موقفها وفقدها احترام رعاياها وحبهم وعجزها فى نفس الوقت عن وضع حد للكوارث الداخلية والخارجية، عولت على الارتباط بدولة الفرنجة ورحبت بالمفاوضات مع شارلمان بغية الزواج منه وربط الشرق والغرب عن طريق المصاهرة وإعادة الوحدة الى ربوع الإمبراطورية الرومانية(١٦٥).

ويشير المؤرخ ثيوفانيس إلى أن شارلمان والبابا هما اللذان أرسلا إلى أيرين وفتحا باب المفاوضات فى هذا الأمر «وقد أرسل شارلمان والبابا ليو رسولهما إلى تقية الأتقياء أيرين طالبين منها ربط الشرق بالغرب عن طريق الزواج» (١٦٦)، لكن يبدو أن هذه المفاوضات فشلت فى نفس الوقت الذى تعرضت فيه أيرين لمؤامرة أطاحت بها سنة ٨٠٢م بقيادة نقفور متولى

---

(163) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 161.

(164) Vasiliev: Op.Cit. P. 265.
Oman ; op. cit. P. 373.

(165) Camb. Med. Hist. V. 2, P. 624.

(166) Theophanes : The Chronicle of Theophanes, by harry Turtledove, Pensylvania 1982, P. 158.

الخزانة، إذ ألقى القبض عليها وأرسلت لتسجن في أحد الأديرة لتلقى نفس مصير ولدها بعد أقل من خمس سنوات من جريمتها فى حق ابنها[١٦٧].

نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١م) :

اجتاحت الإمبراطورية البيزنطية فى الفترة الأخيرة من عهد الأسرة الإيسورية إذن فتن واضطرابات أدت الى عزل أيرين وقيام نقفور فى الحكم سنة ٨٠٢م[١٦٨]، وينتمى نقفور (٨٠٢ - ٨١١م) إلى أصل عربى إذ هاجر جده إلى آسيا الصغرى حيث شب وترعرع هذا الرجل ثم تدرج فى مناصب الدولة حتى وصل إلى وظيفة وزير الخزانة أو متولى الخزانة وازدادت أهميته ومعارضته لسياسة أيرين، ثم نظم الثورة التى أطاحت بأيرين على الرغم من أنه لم يكن يمت للجيش بصلة[١٦٩]، ودعم نقفور مركزه فى الحكم وقضى بمهارة على المناوئين من قادة الجيش، وأظهر مهارة فى علاج المشاكل القائمة والتى اعترضت طريقه فى بداية حكمه[١٧٠]، ولعل أهم ما وضعه هذا الإمبراطور نصب عينيه هو إصلاح أحوال البلاد الاقتصادية معولاً فى ذلك على خبرته الطويلة فى الشئون المالية ، فرأى إعادة تقدير الضرائب على السكان وإلغاء الأوامر التى أصدرتها أيرين بالتجاوز عن الضرائب المتأخرة[١٧١]، وفرض ضرائب على أراضى الأديرة والكنائس، وأمر

---

(167) lemerle : Op. Cit., PP. 75-6
Vasiliev: Op.Cit. P. 268.

(168) Diehl: Hist. of the Byzantine Empire, p. 67.
Camb . Med. Hist. V. 4, PP. 22-3.

(169) Bury : Eastern Roman Empire, P. 8.
Vasiliev: Op.Cit. P. 271.

(١٧٠) سعيد عاشور : أوربا ج ١ ص ٤٠٩.

(171) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 167.
Bury : Op. Cit., PP. 213-16

بأن يتضامن جميع أهالى كل منطقة فى دفع ما على المنطقة من ضرائب، أى أنه طبق النظام الجماعى فى دفع الضرائب ليثرى خزائن الدولة وينعش أحوالها الاقتصادية(١٧٢).

واستمر نقفور الأول فى التعاطف مع عبادة الصور المقدسة وإن جاءت سياسته معتدلة إلى حد بعيد غايرت سياسة أيرين المغالية فى حبها لتقديس الصور والأيقونات، بل إنه أظهر نوعاً من التسامح مع اللاأيقونيين، حتى تململت الكنيسة ورجالها من ذلك، فاضطر نقفور إلى التشدد فى الرقابة عليهم وإرغامهم على الانصياع لأوامره(١٧٣)، اذ لم يشأ نقفور أن يتطرف فى سياسته الدينية فى الوقت الذى انصرف فيه لاتباع سياسة اقتصادية صارمة لاصلاح أحوال البلاد اقتصادياً وإثراء الخزانة، ولهذا لم يكن بوسعه التطرف فى الاتجاهين فى وقت واحد، فحاول إظهار نوع من الاعتدال فى سياسته الدينية.

وعلى الرغم من أن هذا الامبراطور لم يكن من قادة الجيش إلا أنه أظهر اهتماماً كبيراً بنظم الدفاع فى الامبراطورية، ونظام التجنيد(١٧٤)، فلم يعد الجيش فى عهده يعتمد فقط على صغار المقطعين الذين يؤدون الخدمة العسكرية مقابل الاقطاع وهو النظام الذى عرفته الامبراطورية منذ عهد هرقل، وإنما جند نقفور أيضا الفلاحين الفقراء بأن ألزم أهل القرى بالتكفل بتجهيز هؤلاء الفلاحين بالعدة والعتاد، فكأنه ألزم كل مجموعة من الفلاحين فى القرية بتجهيز واحد منهم حربياً ومده بما يلزمه من عدة وعتاد للحرب فسد نقفور بذلك العجز فى المجندين(١٧٥)، كما أهتم بتجهيز

---

(172) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 27.
(173) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 167.
(174) Oman : Op. Cit. P. 479.
(175) Bury : Op. Cit., PP. 215-17.

جماعات من سكان آسيا الصغرى إلى البلقان لإقامة مستعمرات فى الجهات التى تعرضت للأخطار، فأدت هذه المستعمرات وظيفة حربية فى الدفاع عن حدود الإمبراطورية[١٧٦].

ومالبث رجال نقفور أن تصدوا لهجمات العناصر السلافية، الذين هاجموا المراكز البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان سنة ٨٠٥م، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقه فى باتراس، وجرى استرقاقهم، وأعاد نقفور النفوذ البيزنطى بجنوب بلاد اليونان، وأصبح جانب كبير من شبه جزيرة البلقان يخضع مباشرة للإدارة البيزنطية، كما أن مركز بيزنطة ازداد قوة فى الجهات الساحلية[١٧٧]. ولقد أشار إلى ذلك الإمبراطور قسطنطين السابع فى كتابه إدارة الامبراطورية البيزنطية، وأوضح كيف استرق البيزنطيون أعداداً كبيرة من السلاف الذين هاجموا باتراس، والذين كانوا قد نهبوا بلاد اليونان وعاثوا فساداً فى إقليم البلوبونيز، وخربوا الجهات المجاورة وهاجموا باتراس بعد حصارها فترة، وكيف تم دحرهم وأسر أعداد كبيرة منهم وتفريق الباقى وإجباره على الانسحاب[١٧٨].

واذا كان نقفور قد نجح فى سياسته مع الصقالبة فى الغرب، فإنه لم يحرز نفس النجاح مع المسلمين فى الشرق، فقد بادر بعد توليه الحكم مباشرة بالامتناع عن دفع الجزية التى كانت تؤديها أيرين للخلافة العباسية ، بل إنه تجرأ وطالب بإعادة ما دفعته أيرين من الجزية[١٧٩]، وتطاول على هارون الرشيد وأرسل إليه يقول « .... فإن المرأة وضعتك موضع الرخ، ووضعت نفسها موضع الشاة ... فأدى إلى ما كانت المرأة تؤدى إليك. »

---

(176) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 169.

(١٧٧) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٤١ .

(١٧٨) إدارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قسطنطين السابع ص ١٨٢ - ١٨٤ .

(١٧٩) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ٥٠٠.

فاجاب الرشيد : « من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، أما بعد فقد فهمت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه»[١٨٠]، فتقدم الرشيد بنفسه على رأس جيوشه فى الأراضى البيزنطية سنة ٨٠٦م فاستولى على بعض الحصون المنيعة الواقعة بأطراف الامبراطورية البيزنطية واحتل هرقلة، ثم أذعنت له طوانة شمال قلعة اللؤلؤة فاتخذ منها قاعدة يرسل منها السرايا والجند إلى سائر الجهات، وعند ذلك عاد نقفور يطلب الصلح ويعرض دفع مبلغ خمسين ألف دينار مقابل انسحاب القوات الاسلامية، فعقدت الهدنة بين الطرفين من جديد[١٨١].

وكان على نقفور أن يواجه الخطر الحقيقى الممثل فى مملكة البلغار، لاسيما وقد أغار البلغار على بعض المراكز البيزنطية بتراقيا، وأحدثوا بها مذابح بشرية رهيبة على يد ملكهم كروم Krum ، الذى اشتهر بالمقدرة والكفاية وعرف بالشجاعة والإقدام والمكر والدهاء أيضا[١٨٢]، ولابد وأن خطر هؤلاء البلغار قد تفاقم سنة ٨١١ الأمر الذى دفع الامبراطور نقفور يخرج بنفسه لمحاربتهم، فقد سار نقفور سنة ٨١١م على رأس جيش كبير لتأديب البلغار، واجتاز تراقيا، وتقدم نحو العاصمة البلغارية[١٨٣] دون مقاومة، وعند ذلك طلب كروم الصلح من الإمبراطور، إلا أن هذا لم ينصت لهذا الطلب، وتقدم فدخل العاصمة، واستولى على خزائن الملك بها وأشعل النيران

---

(١٨٠) صبح الأعشى للقلقشندى ج ١ ص ١٩٢ .

(181) Oman : Op. Cit. PP. 479 - 80.
Bury : Eastern Ronan Empire, P. 250
- الطبرى : المصدر السابق ج ١٠ ص ٤٩٩ .

(182) Bury : Op. Cit., P. 340.

(183) Ostrogorsky: Op.Cit.PP. 173-4.
Oman : Op. Cit. P. 480.

بالقصور الملكية، ولم يستجب مرة ثانية لتوسلات كروم لعقد الصلح، وأصر على تدمير مملكة البلغار نهائيا[١٨٤]، وحين بدأ يتتبع البلغار فى الجبال التى لجأوا إليها باغت كروم وجيشه الإمبراطور، فمزقوا البيزنطيين شر ممزق، ولقى الإمبراطور حتفه فى تلك المعركة، وجرح ابنه وولى عهده جرحاً قاتلاً فى يوليو سنة ٨١١م، وانتهى بذلك حكم نقفور بعد نحو تسع سنوات فى الحكم، ثم توفى ابنه وولى عهده بعد عدة أشهر من هذه الحادثة، وانتقل العرش إلى صهره ميخائيل الذى عرف بميخائيل الأول[١٨٥].

ميخائيل الأول رانجابى (٨١١ - ٨١٣م)

اشتهر ميخائيل الأول رانجابى Michael I rangabe (٨١١ - ٨١٣م) بدماثة الخلق والوداعة ولين الجانب أحيانا وأحيانا أخرى بالجبن والتشكك فى مستشاريه وكبار رجال دولتة[١٨٦]، كما اشتهر بحماسته لعبادة الصور والأيقونات وخضوعه للكنيسة من ناحية ولزوجته من ناحية أخرى، بما يعنيه ذلك من إضعاف لسلطة الإمبراطور وزيادة نفوذ الكنيسة وتدخلها فى شئون الدولة خاصة وأن ميخائيل الأول أغفل سياسة نقفور الاقتصادية وأظهر كرما عظيماً فى توزيع المنح والهبات والعطايا، فبدد الأموال التى ادخرها سلفه فى أعمال البر والاحسان، وظفرت الكنيسة والأديره بالنصيب الأوفر

---

(184) Bury : Op. Cit., P. 344.
Oman : Op. Cit. P. 480.
(185) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 174.
Oman : Op. Cit. P. 480.
(186) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 29.
Oman : Op. Cit. P. 481.

من هذه المنح(١٨٧).

وأعاد ميخائيل الأول النظر فى سياسة الإمبراطورية البيزنطية تجاه تتويج شارلمان إمبراطوراً فى الغرب، فلم يجر قبل ذلك اعتراف بذلك التتويج، إلا أن ميخائيل الأول أرسل فى سنة ٨١٢م سفراءه إلى آخن، فاعترفوا بشارلمان امبراطورا، وزاد ميخائيل الأول من وده لشارلمان فأرسل فى نفس الوقت يطلب زواج ابنه من ابنة شارلمان توثيقاً لأواصر المحبة والمودة(١٨٨). وبهذا الاعتراف أصبح هناك إمبراطوران شرعيان أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب، بما ترتب على ذلك من نتائج وما قيل فيه من مبررات، ويبدو أن ميخائيل الأول اتخذ هذا المسلك على أثر الهزيمة التى لقيتها بيزنطة على يد البلغار سنة ٨١١م من ناحية، وما ترتب عليها من عدم استطاعة الإمبراطورية البيزنطية النهوض للنضال ضد الغرب من ناحية أخرى خاصة وقد نشط الفرنجة للاستحواذ على أملاك بيزنطة فى إيطاليا وسببوا متاعب كبيرة للإمبراطورية البيزنطية هناك(١٨٩).

فلقد قويت شوكة البلغار فعلاً فى البلقان بعد ما أحرزوه من نصر هناك، فاستولوا على بعض المراكز والقلاع التابعة لبيزنطة على البحر الأسود،

---

(187) Bury : Op. Cit., P. 23.
Ostrogorsky: Op.Cit. P. 176.
Oman : Op. Cit. P. 481.
العرينى المرجع السابق ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(188) Bury : Op. Cit., P. 23.
Ostrogorsky: Op.Cit. P. 176.
Oman : Op. Cit. P. 364.

(١٨٩) ديفز : شارلمان ص ١٨٦ - ١٨٧ (ترجمه العرينى).
وأنظر أيضا : العرينى : المرجع السابق ص ٢٤٨،
Ostrogorsky: Op.Cit. P. 176.

ودمروا استحكامات البعض الآخر وخربوا عمائرها(١٩٠)، وعلى الرغم من ذلك فقد عرض كروم ملك البلغار الصلح بشروط مجحفة ومطالب مالية وامتيازات تجارية لم يكن بوسع بيزنطة أن تقبلها، وغلف مطالبه وشروطه بالتهديد والوعيد(١٩١)، فلم يسع ميخائيل الأول إلا أن يسير على رأس جيشه لوضع حد لهذا التهديد، إلا أنه تعرض لهزيمة ساحقة بالقرب من أدرنة، ولاذ عساكره بالفرار، وأخذ البلغاريون يطاردونهم حتى أسوار العاصمة البيزنطية سنة ٨١٣م(١٩٢).

ويميل بعض المؤرخين إلى اعتبار هذه الهزيمة، قد حدثت بفعل خيانة طائفة من الجيش ممن كانوا يناهضون عبادة الصور المقدسة والأيقونات، وكرهوا في ميخائيل الأول ما يعتنقه من مذهب الأيقونية، ولابد وأن هذه الحركة قصد بها تنحية ميخائيل من الحكم وتنصيب إمبراطور آخر يساير الاتجاه نحو اللاأيقونية من جديد(١٩٣). وفعلا قضت تلك الهزيمة على هيبة ميخائيل وحطت من قدره، فتم خلعه في ١١ يوليو سنة ٨١٣م وتولى مكانه ليو الأرمني، الذى كان أول الهاربين من المعركة، والذى ترأس الحزب المناهض لهذا الإمبراطور الأيقوني(١٩٤).

---

(190) Oman : Op. Cit. P. 481.
(191) Bury : Op. Cit., P. 348.
(192) Ostrogorsky: Op.Cit. PP. 177- 8
Oman : Op. Cit. P. 482.
(193) Ostrogorsky: Op.Cit. PP. 177- 8
(194) Bury : Op. Cit., P. 352.

ليو الخامس الأرمني (٨١٣ - ٨٢٠م) :

يمثل ليو الأرمني المعروف بليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠م) التيار الجديد المناهض لعبادة الصور المقدسة والأيقونات، وينتمي ليو الخامس إلى آسيا الصغرى، ويشبه ليو الثالث في أن كلا منهما كان قائداً لأحد ثغور الشرق، وأن كلا منهما كره عبادة الصور والأيقونات ، ويشيد المؤرخون بهذا الإمبراطور ويقولون أنه كان قديراً له مقدرة وكفاية[١٩٥]، على الرغم مما صادفه من مشكلات وما واجهه من عقبات خلال السنوات التي وليها في حكم بيزنطة.

وكان على هذا الإمبراطور الجديد أن يواجه المتاعب التي أثارها كروم ملك البلغار الذي واصل هجومه على بيزنطة بعد انتصاره عليها فبلغ بجيشه أسوار مدينة القسطنطينية، ولكنه وقف عاجزاً لا يستطيع اقتحامها، فقد صمدت القسطنطينية في هذه المرة مثلما صمدت من قبل أمام أعداء أشد وأعتى[١٩٦]، ولجأ ليو الأرمني إلى سياسة المفاوضة وسلك طريق الخداع والمداهنة ليوقع بغريمه ملك البلغار، إلا أن هذا اكتشف خطط الإمبراطور، فازداد حنقه واشتد غضبه، وألحق الخراب والدمار بالجهات القريبة من العاصمة البيزنطية، ثم توجه إلى أدرنة وضيق عليها الحصار إلى أن استسلمت له، فقام بنقل سكانها ورئيس أساقفتها إلى البلاد البلغارية فيما وراء الدانوب[١٩٧].

وعندئذ نهض ليو الأرمني لمحاربة البلغار، واستطاع أن ينزل بهم هزيمة

(195) Oman : Op. Cit. P. 482.
Ostrogorsky: Op.Cit. PP. 177- 8

(196) Hussey : Op. Cit. P. 27.

(١٩٧) العريني المرجع السابق ص ٢٥٥،
Bury : Op. Cit., P. 356.

قاسية عند مسميريا فى خريف سنة ٨١٣م جعلت ملكهم كروم يتقدم من جديد بطلب الصلح وإن عاد كروم إلى عدائه لبيزنطة من جديد، فزحف فى الربيع التالى (سنة ٨١٤م) على القسطنطينية فى حلف كبير ضم إليه الصقالبة والآفار، ولم ينقذ القسطنطينية من ذلك الخطر الداهم سوى وفاة كروم فجأة فى ابريل سنة ٨١٤م ، فانتهت بذلك مشروعاته ضد الإمبراطورية البيزنطية(١٩٨)، وآلت الأمور إلى ابن كروم أومرتاج Omurtag الذى حرص على عقد هدنة طويلة مع بيزنطة أمدها ثلاثين سنة لأنه يبدو كان معنيا بمد نفوذه وحدوده فى الاتجاه الشمالى الغربى، وحرص على أن يحقق أهدافه فى ظل السلام مع بيزنطة خاصة، وقد كفل له هذا الصلح اقتسام تراقيا مع الامبراطورية البيزنطية(١٩٩).

وعلى الجبهة الاسلامية أفادت الدولة البيزنطية من حدوث الفتن والاضطرابات فى جوف الخلافة العباسية على عهد المأمون، فتطلع ولاة مصر إلى الاستقلال واشتعلت ثورة بابك الخرمى فى فى آذربيجان وأرمينيا، وتطلب الأمر حشد العساكر والجند لقمع الثورات(٢٠٠)، ولهذا نعمت بيزنطة بفترة سلام امتدت نحو ستة عشر عاما (٨١٤-٨٢٩م) ويبدو أن ذلك أتاح للإمبراطور ليو الخامس فرصة لإعادة تنظيم الادارة والجيش والمالية حتى تستعيد الإمبراطورية قوتها ونشاطها فى الداخل والخارج(٢٠١).

أما بالنسبة لسياسة ليو الخامس الدينية، فقد جد فى تنفيذ خطتة اللاأيقونية(٢٠٢)، بعد انحسار خطر البلغار ووفاة كروم، وتحسن الأوضاع العسكرية فانغمس ليو الأرمنى فى سياسته اللاأيقونية، وطلب من البطريرق

---

(198) Ostrogorsky: Op.Cit. PP. 177- 8

حسنين ربيع : دراسات ص ١٥٤.

(199) Bury : Op. Cit., P. 360.

(٢٠٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٦ ص ١٦٢.

(٢٠١) سعيد عاشور : أوربا ج ١ ص ٤١١.

(202) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 179.

نقفور سنة ٨١٥م أن يرفع الصور فى الكنائس وأماكن العبادة إلى المستوى الذى لا يمكن الناس من تقبيلها أو لمسها بغرض التقديس، غير أن البطريق رفض ذلك فبادر الامبراطور بعزله وتعيين آخر مكانه يمت بصلة القرابة للامبراطور نفسه، فبادر هذا بتنفيذ أمر الإمبراطور(٢٠٣)، ومن ثم أمر بعقد مجمع دينى جديد لمناهضة عبادة الصور، وانعقد المجمع فعلاً فى كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية (٢٠٤)، لتقرير الحركة اللاأيقونية ونقض هذا المجمع كل ما أصدره مجمع نيقية المسكونى الذى عقد سنة ٧٨٧م من قرارات وأقر أعمال مجمع سنة ٧٥٤م المناهض لعبادة الصور(٢٠٥)، وذلك على الرغم من مظاهر النفور والكراهية التى أبدتها بعض فئات الشعب، وحين أمر الامبراطور بإزالة وتدمير ما فى المدينة من الصور والأيقونات، اندلعت الثورات بالشوارع واضطربت الأمور فى القسطنطينية، وتعرض المتظاهرون للتنكيل الشديد(٢٠٦).

واذا كان الامبراطور ليو الأرمنى (الخامس) قد نجح بفضل ما اتبعه من الشدة والعنف فى تحقيق إرادته وقهر خصومه الأيقونيين، فإنه لم يحظ بمثل ما حظى به الأباطرة اللاأيقونيين أمثال ليو الثالث وقنسطنطين الخامس، بل إنه ما لبث أن فقد عرشه وحياته معاً فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٢٠م فى كنيسة أيا صوفيا أيضا على يد أحد أتباع الامبراطور السابق ميخائيل، لينتهى بذلك عهد ويبزغ عهد جديد فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية(٢٠٧) إذ آل العرش الى هذا القاتل ويدعى ميخائيل واعتلى العرش باسم ميخائيل الثانى وعرف بالمتلعثم(٢٠٨).

(203) Ibid . P. 180.

(204) Oman : Op. Cit. P. 483.

(205) Ibid . P. 483.

(206) Ostrogorsky: Op.Cit. P. 180.

(207) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 33.

(٢٠٨) إدارة الامبراطورية لقنسطنطين السابع ص ٨٧.

الفصل الخامس

الأسرة العمورية [٨٢٠ - ٨٦٧م]

حكمت هذه الأسرة الجديدة قرابة نصف قرن من الزمان، لم تستطع فيه أن تمنح الإمبراطورية ما كانت فى حاجة إليه من القوة والمنعة وما كانت تأمل فيه من الرخاء والإزدهار بل تذبذب أباطرتها فى سياستهم الدينية بين مناهض لعبادة الصور وبين مؤيد لها [١]، فى الوقت الذى غضت فيه الطرف عما كان يجرى فى الجبهة الإسلامية من نشاط أدى إلى فقدان بيزنطة أراضى جديدة وجزر فى البحر المتوسط دانت لها فترة غير قصيرة[٢]، على حين اندلعت الفتن الداخلية فى جوف الإمبراطورية البيزنطية ونشبت الحروب الأهلية، ولم يكن ثمة ما يحول بين هذه الدولة وبين إستمرار إنحدارها[٣].

ميخائيل الثانى العمورى (٨٢٠ - ٨٢٩م) :

يأتى ميخائيل الثانى (٨٢٠-٨٢٩م) على رأس هذه الأسرة، وينتمى هذا الأمبراطور إلى أسرة متواضعة بعمورية التى تعتبر حاضرة ثغر الأناضول[٤]، وإقليم فريجيا بآسيا الصغرى، ولهذا فقد عرفت الأسرة التى أسسها ميخائيل الثانى بالأسرة العمورية أو الأسرة الفريجية Phrygian[٥]، ولم يكن ميخائيل الثانى العمورى على شئ من المقدرة أو الكفاية بل كان أميا لايعرف من

---

(1) Bury: Eastern Roman Empire, p. 79, p. 221.
Ostrogorsky : Op. Cit. p, 161, p. 181, p. 186

(٢) الكندى: الولاة والقضاة ص ١٨٠
Ostrogorsky : Op. cit. p. 185,

(3) Bury : Op. Cit. p. 106,

فازيليف : العرب والروم ص ٤٨ (ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة)

(4) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 185
Ware: The Orthodox Church, p. 39, p. 64.

(٥) حسنين ربيع : دراسات ص ١٣٥

سعيد عاشور: أوربا ج ١ ص ٤١٢.

القراءة أو الكتابة شيئا، فضلا عن جفاف فى الطبع وحدة فى الطباع وقسوة متناهية وغلظة أرهب بها خصومه وجعلته يشق طريقة فى الجيش بثبات(٦).

وفى عصر هذا الإمبراطور توقف إضطهاد عباد الصور والأيقونات، وخمدت الفتن الدينية، وعاد المنفيون من أنصار هذه العبادة، وأظهر الإمبراطور سياسة متوازنة بين الاتجاهين، فلم يعترف بقرارات مجمع نيقية الأيقونى سنة ٧٨٧م، ولابالمجمع اللاأيقونى سنة ٧٥٤م، ومنع المناقشات حول موضوع الأيوقونات ـ ربما لمحاولة تهدئة الأمور داخل الدولة، وفتح صفحة جديدة بين الرعايا(٧)، على الرغم من أنه كان لاأيقونيا بحكم انتمائه إلى أكثر أقاليم آسيا الصغرى كراهية لعبادة الصور والأيقونات، ويعدد المؤرخون دلائل كثيرة تؤكد أن هذا الإمبراطور كان فعلاً من المتحمسين لمناهضة عبادة الصور ولكنه اضطر إلى اتباع سياسة متوازنة، وإظهار ذلك الاعتدال وآثر اتخاذ اتجاه وسط ليهدئ الأمور فى الدولة ويمنع تفاقم المشكلة بين الرعايا، وهى سياسة نوه بها المؤرخون البيزنطيون أنفسهم (٨).

غير أن ذلك لم يحقق الهدف الذى رمى إليه الإمبراطور، إذ سرعان ما اندلعت ثورة توماس الصقلبى التى استمرت ثلاث سنوات(٩)، واستنفذت جانبا كبيرا من جهود الإمبراطور،وكان توماس هذا من زملاء الإمبراطور القدامى ومن رفاق السلاح، ولكنه قرر الثورة ضده وأعلن أنه زعيم عباد الصور المقدسة؛ وألبس ثورته رداء الإصلاح الإجتماعى، فنادى بأنه نصير الفقراء وحامى الضعفاء، فانضم إليه العامة وكل من تأثر بسوء الأحوال الإقتصادية(١٠).

(6) Ostrogorsky: Op. Cit. pp. 180-181
Camb. Med. Hist. v. 4, p.37.

(7) Bury : Op. Cit. p. 37.

(8) Leo Grammaticus: Chronographia, p. 211 (Bonn 1842)
Zonaras: Epitome Historiarum, p. 338 Ed. pender and Buttner - Wobst Bonn, 1841-97

(٩) أنظر إدارة الإمبراطورية البيزنطية لقسطنطين السابع ص ٨٧.

(10) Theophanes Continuatus: Historia, in C.S.H.B. Bonn 1838, p. 53.

والأهم من ذلك أن توماس هذا حصل على تأييد الخليفة العباسى المأمون مقابل عقده معاهدة مع الخليفة - تقضى بتحالفهما معا ضد الإمبراطور ميخائيل الثانى لطرد هذا من الحكم على أن يتنازل توماس بعد اعتلائة العرش عن بعض مواضع على الحدود للخليفة المأمون، وطبقا لهذا جرى تتويج توماس إمبراطورا فى أنطاكية برضى الخليفة العباسى [١١]. ولكن حين انتقل توماس بقواته لمحاصرة القسطنطينية فى ديسمبر سنة ٨٢١م وهو الحصار الذى استمر أكثر من عام فشل فى ثورته، وهاجمه جموع البلغار، واستطاعوا أن ينزلوا به الهزيمة انتصارا لحليفهم ميخائيل، وانتهى الأمر بفراره ثم ألقى القبض عليه وسلم للإمبراطور الذى نكل به وعذبه حتى الموت[١٢].

ولقد لقيت بيزنطة انتكاسات فى سياستها الخارجية على عهد ميخائيل الثانى لاسيما من قبل المسلمين. فقد فقدت جزيرة كريت سنة ٨٢٧م التى استولى عليها الأندلسيون[١٣] دون مقاومة تذكر من قبل سكانها نظراً لما كان يكنه هؤلاء السكان من الكراهية للبيزنطيين بسبب سوء سيرة عمالهم

---

(١١) تشير الروايات إلى أن توماس هذا كان قد لجأ أكثر من مرة إلى الشام فأقام وسط المسلمين فرارا من السلطات البيزنطية، وامتدت إقامته فى المرة الأخيرة بين المسلمين نحو عشر سنوات (٨٠٣-٨١٣م) زمن الإمبراطورين نقفور الأول وميخائيل الأول، ومن ثم أتيح له - عندما قرر الثورة ضد ميخائيل- الاتصال بالسلطات العباسية وإقامة ذلك التحالف الذى أشارت إليه المصادر البيزنطية فى الوقت الذى صمتت حياله المصادر العربية تماما ولم تذكره أو تشير إليه : انظر :

Cedrenus: Historiarum Conpendium, in P. G. Tome 121 col 959 (Pelgium)
Bury: Op. Cit. P. 48 (Note I).
Ostrogorsky: Op. Cit. p. 182,

فازيلييف: العرب ص ٣٥

(١٢) فازيلييف : نفسه ص ٤٨.

(١٣) اسمت غنيم: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ص ٩١.

وظلمهم أهل الجزيرة. وبنى زعيم الأندلسيين الذين غزوا الجزيرة وهو أبو حفص عمر بن شعيب حاضرة ملكه فى الجزيرة على الشاطئ الشمالى للجزيرة وأحاطها بخندق عميق فاتخذت المدينة اسمها المعروف «الخندق» Chandax أو كنديا Candia[١٤]. ولم تجد محاولات ميخائيل الثانى لاسترداد الجزيرة من المسلمين، فقد لقيت جيوشه وأساطيله الهزيمة أكثر من مرة[١٥]. وظل المسلمون يحكمون الجزيرة فترة طويلة زادت على قرن وربع من الزمان حتى استعادها نقفور فوقاس سنة ٩٦١م.

كما ظفر المسلمون بجزيرة صقلية الأكثر أهمية بالنسبة لبيزنطة لدورها فى تجارة البحر المتوسط، فقد انتهز الأغالبة حكام إفريقية فرصة ما حدث بهذه الجزيرة من فتن وقلاقل، وأرسل زيادة الله بن الأغلب أسطولا قويا تألف من نحو مائة سفينة تحمل نحو عشرة آلاف رجل وسبعمائة فارس على رأسه القاضى أسد بن الفرات[١٦] فى يونيو سنة ٨٢٧م، ولم تستطع بيزنطة أن توجه جهودا محسوسة للدفاع عن الجزيرة إلا بمقدار ما سمحت به مشاكلها فى شرق البحر المتوسط وحدودها الشرقية المتاخمة للدولة الإسلامية[١٧]، فاستطاع المسلمون أن يشقوا طريقهم فى داخل الجزيرة نحو عاصمتها

---

(14) Bury: Op. Cit. p. 88,

فازيلييف: العرب والروم ص ٥٥

العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٠٨

إدارة الإمبراطورية البيزنطية لقسطنطين السابع ص ٨٧.

(١٥) فازيلييف: العرب والروم ص ٦٠، ٦١، اسمت غنيم: نفسه ص ٩٧.

العدوى: المرجع السابق ص ١٠٨-١٠٩،

Ostrogorsky: Op. Cit. p. 201

(١٦) فازيلييف: العرب والروم ص ٧٢

(١٧) العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٠٩،

Hussey: Op. Cit. p. 39.

سيراكوز (سرقوسة)، ووصلت للمسلمين إمدادات من إفريقية وكريت والأندلس[١٨]. فبدأ المسلمون يحققون انتصارات فى الجزيرة، لأنه يبدو أن الإمبراطورية اعتبرت غزو المسلمين لصقلية مسألة ثانوية بالنسبة لما كانت تعانيه من أخطار من إغارات المسلمين على سواحلها ذاتها[١٩].

وعلى الرغم من أن الإمبراطور ميخائيل أرسل مددا من قبله ليمنع المسلمين من الاستيلاء على سرقوسة إلا أن ذلك لم يفده فى شئ، إذ سقطت عاصمة الجزيرة فى النهاية بعد وفاة ميخائيل الثانى وقيام ثيوفيلوس سنة ٨٣١م (٢١٦هـ)، بينما سقطت فى أيدى المسلمين بالرمو[٢٠]، ثم استولى المسلمون على سائر أنحاء الجزيرة،. وأضحت هذه الجزيرة القاعدة الإسلامية البحرية التى هاجمت منها أساطيل المسلمين سواحل إيطاليا وقطعت طرق تجارتها وانهارت بذلك سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط[٢١].

ثيوفيلوس (٨٢٩-٨٤٢م) :

وهكذا جرت الأحداث على عهد ميخائيل الثانى العمورى أول أباطرة هذه الأسرة، وتوفى هذا الإمبراطور سنة ٨٢٩م/٢١٤هـ تاركا العرش لابنه ثيوفيلوس (ثيوفيل) ٨٢٩م-٨٤٢م، الذى اشتهر بعلو ثقافاته وولعه بالعلوم والفنون، وتأثره بالثقافة الإسلامية إلى جانب معرفته الطيبة بثقافات العالم البيزنطى فى ذلك الوقت[٢٢]، ونمت وتطورت حول اسمه كثير من القصص والروايات الخيالية والأساطير[٢٣]. ويبدو أن تعلق هذا الأمبراطور بالثقافة والفن

(18) Bury : Op. Cit. p. 303

(١٩) العدوى: المرجع السابق ص ١٠٩.

(20) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 185.
(21) Maricas: La berberic Musulamane et L'orient on Moyen Ages, p. 215 (Paris 1946).
(22) Finly: Hist. of the Byzantine Empire, p, 132 (London 1906).
(23) Diehl Ch: La Legende de L'Empereur Théophile, p. 33.

الإسلامى بصفة خاصة قد دفعه إلى التطرف فى مناهضة عبادة الصور المقدسة والأيقونات، فشهدت الإمبراطورية، الموجة الأخيرة للحركة اللاأيقونية[٢٤]، وغدت اللاأيقونية تلفظ أنفاسها الأخيرة، لاسيما وقد أظهر هذا الإمبراطور عنفاً شديداً وقسوة فى تصريف شئون الدولة وفى مناهضة عباد الصور والأيقونات، وبلغ التأثير الإسلامى فى بيزنطة الذروة فى ذلك العصر دون شك[٢٥].

ولم يكن ذلك كل ما اشتهر به هذا الإمبراطور، إذ أن تعلقه بالثقافة الإسلامية والعلوم العربية وإعجابه بما زخر به البلاط العباسى فى ذلك الوقت من تيارات فكرية وثقافة عالية جعله يمعن فى محاولة الظهور بمظهر الحاكم المثالى الحريص على نشر العدل فى أنحاء الإمبراطورية مقلدا فى ذلك الخليفة هارون الرشيد[٢٦]، ودفعه ذلك إلى الطواف بأنحاء العاصمة ليقف على أحوال الناس ويتحدث إلى الفقراء والمساكين ويسمع شكوى المظلومين ويأمر بإنزال العقاب بمن ظلمهم مهما علا شأنهم وسمت مكانتهم فى الدولة[٢٧].

كما امتاز ثيوفيلوس بنشاطه الوافر وحبه للحرب وقوة إرادته، وربما يفسر هذا إهتمامه بإثارة المشاكل مع الخلافة العباسية، وصرفه جانبا كبيرا من الجهد لمحاربة المسلمين، إذ قضى شطرا كبيرا من حياته فى هذه الحرب ربما معتقدا أن المسلمين ضعفوا بعد وفاة الرشيد وشغلوا بأحوالهم الداخلية أكثر

---

(24) Bury: Eastern Roman Empire, p. 140

(٢٥) أنظر محمد الشيخ: سياسة الإمبراطور البيزنطى ثيوفيلوس تجاه الخلافة العباسية ص ١٤١ (مجلة كلية العلوم الإجتماعية – الرياض: العدد الثالث ١٩٧٩).

(٢٦) العرينى: الدولة البيزنطية ص ٢٧٤، Ostrogorsky: Op. Cit. p. 184

(27) Bury: Op. Cit. pp. 121-2 العرينى: نفسه ص ٢٧٤،

من مشروعاتهم الخارجية بدرجة تمكنه من استرداد أملاك بيزنطة التى فقدتها من قبل إلى أيدى المسلمين[٢٨]. ولذلك أظهر ثيوفيلوس اهتماما كبيرا بنظام الثغور الذى كان قائما فى الإمبراطورية، فعمل على امتداد الثغور فى جهات متعددة لتوطيد مركز الدولة خاصة ناحية البحر الأسود وفى شبه جزيرة البلقان[٢٩]، وفى المناطق الجبلية الواقعة على الحدود المتاخمة للمسلمين.

وكان إهتمام ثيوفيلوس بأمر تحصينات الحدود مع الدولة الإسلامية عظيما، فقد تألف فى عهده من بعض الثغور المطلة على الحدود الإسلامية ثلاث وحدات عسكرية إدارية فى المناطق الجبلية المتاخمة للمسلمين، وهى الوحدات التى اشتهرت باسم الدروب، والتى أضحت بعد ذلك ثغورا[٣٠]. وعلى الرغم من أن هذا الإمبراطور أظهر حماسة شديدة لفنون العرب وثقافاتهم إلا أن ذلك لم يمنعه من شن الحرب عليهم منتهزا فرصة نشوب الخلافات الداخلية والثورات المتأججة فى المشرق فى عهد الخليفة المأمون[٣١].

فلقد أفاد ثيوفيلوس من انشغال الخليفة العباسى المأمون بإخماد ثورة الخرمية فى المشرق وإخماد الثورة فى مصر، إذ نالت الثورة التى تزعمها بابك الخرمى الفارسى[٣٢]، اهتمام المأمون كثيرا، وشغل بإخمادها مما مكن

---

(28) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 85
(29) Ibid. p. 184

(٣٠) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٨ ونص عبارته «وعمل سلوقية من ناحية بحر الشام إلى طرسوس واللامس ويتولاه عامل الدروب وفيه من الحصون سلوقية وعشرة حصون»

ياقوت: معجم ج ٤ ص ٣٧٤-٤٧٥، ج٦ ص ٢٥٥، ج٨ ص ١٥٠ (ط مصر سنة ١٩٠٦)

(31) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 185.

(٣٢) اليعقوبى: تاريخه ج٢ ص ٤٧٤-٢٧٠، الطبرى: تاريخ الرسل ج١٠ ص ٢٧٠.
المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٤٤٢، ص ٤٦٧، ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٣٤، Ostrogorsky: Op. Cit P. 185.

ثيوفيلوس من الاتصال ببابك فى محاولة الاستفادة من ثورته ضد الخلافة العباسية، فنزح أعداد كبيرة من الخرمية إلى الأراضى البيزنطية، ودخلوا فى خدمة الإمبراطور، فأمر بتوزيعهم على الثغور البيزنطية وكانوا نحو خمسة عشر ألف رجل جعلهم فى فرق بلغ كل منها ألفين من الرجال[٣٣].

وفى ربيع سنة ٨٣٠م قام ثيوفيلوس مستعيناً بكثير من هؤلاء اللاجئين، وعبر الجبال وهاجم بعض نقط الحدود بينه وبين الدولة العباسية، وقتل من أهلها عددا كبيرا محاولا استثارة الخلافة العباسية فى ظروف غير مواتية بالنسبة لها محدثا مظاهرة عسكرية صاخبة على حدودها. وعندئذ بادر الخليفة المأمون بالخروج متخذا طريق الموصل ومنبج إلى دابق ثم إلى أنطاكية ثم المصيصة ثم إلى طرسوس[٣٤]، ومنها اجتاز حدود الدولة البيزنطية، ووجه ابنه العباس للإغارة على بعض الحصون، وفتح بنفسه حصنا يسمى ماجدة ثم حصنا آخر يقال له قرة فتحه عنوة وأمر بهدمه ووجه بعض قادته ففتحوا حصونا أخرى مثل سندس وسنان وغيرها، وغدت قيليقيا مسرحا لقتال عنيف بين المسلمين والبيزنطيين، وتعرض ثيوفيلوس لهزيمة ساحقة ولم ينج بحياته إلا بصعوبة بالغة، فعاد أدراجه فى حالة سيئة[٣٥]، وترتب على هذا النصر أن استولى المسلمون على كثير من الحصون.

وغير أن ثيوفيلوس مالبث أن استعاد بعض توازنه، وعاد فى العام التالى (٨٣١م) فهاجم طرسوس والمصيصة وقتل من أهلها عددا كبيرا وأحرز بعض

---

(٣٣) الطبرى: نفسه ج١٠ ص ٢٨٠.

(34) Bury: Op. Cit. p. 472، ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢١٩

(35) Cedrenus: Histonarum Compendium, p. 123 (ed. bekker Bonm 1839).
Genesius: Ragna, p. 113 (ed Lachmann, Bonn 1834)
ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢١٩-٢٢٠ (٢١٥هـ)

الانتصارات واستولى على بعض الحصون الواقعة على الأطراف[٣٦]، الأمر الذى شجعه على أن يطلب من الخليفة عقد صلح أمده خمس سنوات، مقابل أن يقوم بإطلاق سراح بعض الأسرى لديه وإعادة بعض الحصون التى استولى عليها، ولكن الخليفة المأمون رفض هذا العرض، إذ يبدو أن إمعان ثيوفيلوس فى قتل الأهالى فى المدينتين المذكورتين، فضلا عن أنه حين كتب للمأمون بدأ بنفسه - على حد رواية الطبرى[٣٧] ـ مقدما نفسه على الخليفة «فلما ورد الكتاب عليه (المأمون) لم يقره وخرج إلى أرض الروم» أى أن المأمون لم يحفل بهذا العرض[٣٨]، وتقدمت جيوش المأمون فاستولت على هرقلة بغير قتال ووجه أخاه أبا إسحاق ففتح ثلاثين حصنا، ووجه يحى بن أكثم من الطوانة فأغار وقتل وحرق، بينما جرت معركة كبيرة بين القوات البيزنطية بقيادة الإمبراطور نفسه وبين جيش العباس بن المأمون أحرز فيها العباس نصراً باهراً واستولى على عدد من الحصون والمواقع[٣٩]، وأخيرا «خرج المأمون إلى كيسوم فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم ارتحل إلى دمشق»[٤٠].

وعاد الخليفة المأمون فى عام ٨٣٢م بعد إخماد ثورة مصر، فاستأنف القتال ضد البيزنطيين فى آسيا الصغرى، فحاصر قلعة لؤلؤة الحصينة[٤١] التى تتحكم فى درب قيليقيا، واستمر الحصار أكثر من ثلاثة أشهر واستطاع أن يسقط هذه القلعة، إذ استسلمت للمسلمين ولم يجرؤ ثيوفيلوس على لقاء

---

(36) Bury: Op. Cit. p. 473

(٣٧) الطبرى: تاريخ الرسل ج ١٠ ص ٢٨١

(38) Vasiliev: Op. Cit. p. 276
Camb. Med Hist. v. 4, p. 128
Bury: Op. Cit. p. 474 ،

(٣٩) فازيلييف : العرب والروم ص ١٠٤

(٤٠) الطبرى: تاريخ الرسل ج ١٠ ص ٢٨١

(41) Cedrenus: Op. Cit. p. 174.

الجيوش العباسية «وارتحل قبل موافاتهم»، وجبن عن لقاء المسلمين، فكأن النصر النهائى فى هذه الجولة أيضا كان للخليفة العباسى المأمون[٤٢]. ومرة ثانية عرض ثيوفيلوس عروضه لوقف القتال، ولكن الخليفة المأمون لم يكن يثق فى هذا الإمبراطور بل كتب إليه «... ولولا مارجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ فى تقليب الفكرة ... لجعلت جواب كتابك لخيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم»[٤٣]. واستمر المأمون يواصل القتال فى آسيا الصغرى واتخذ الطوانة قاعدة لعملياته العسكرية[٤٤]، ثم عاد إلى البدندون فحلت به حمى شديدة أدت إلى وفاته فى أغسطس سنة ٨٣٢م (٢١٨هـ) «فحمله ابنه العباس وأخوه أبو إسحق محمد بن الرشيد إلى طرسوس فدفناه فى دار كانت لخاقان خادم الرشيد»[٤٥]. وانتهت بذلك حلقة هامة فى الحروب بين البيزنطيين والمسلمين على عهد ثيوفيلوس.

آلت الخلافة بعد وفاة المأمون إلى أخيه المعتصم الذى اشتهر بالبسالة والشجاعة والفروسية، كما عرف عنه حبه للأتراك واستكثاره منهم وتمكينه لهم فى الدولة، غير أنه عمل فى السنوات الأولى من حكمه على تهدئة الأمور مع الإمبراطورية البيزنطية، حتى تتاح له فرصة القضاء على فتنة بابك الخرمى التى شغلت الخلافة ـ فى الفترة السابقة، على حين انشغل ثيوفيلوس نفسه فى تلك السنوات فى محاولة إستعادة صقلية من المسلمين[٤٦]. فلم

---

(٤٢) الطبرى ك نفسه ج ١٠ ص ٢٨١-٢٨٣، Camb. Med. Hist. v. 4, p. 128

(٤٣) الطبرى: نفسه ج ١٠ ص ٢٨٣-٢٨٤

المسعودى: مروج الذهب ج٣ ص ٤٥٦ (ط بيروت ١٩٦٦)

(44) Camb. Med. Hist. v. 4, p. 128، الطبرى : نفسه ج ١٠ ص ٢٩٥

(٤٥) المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٤٥٦، الطبرى: نفسه ج ١١ ص ٢٩٥

(46) Lemerle: Op. Cit, pp 77-8
Camb. Med. Hist v. 4, pp. 130-131.

يكد يمضى من عهد المعتصم سوى أربع سنوات حتى استأنف ثيوفيلوس سياسته العدائية ضد المسلمين فى الشرق خاصة بعد فشله فى إسترداد صقلية من أيديهم فى الغرب، وما بلغه من سوء حالة بابك الخرمى ومقاربة ثورته على الفشل(٤٧)، وما لجأ إليه هذا الثائر من الاتصال بالإمبراطور عارضا عليه أن يعتنق هو وأتباعه المسيحية وأن يكونوا فى خدمة بيزنطة(٤٨)، إذ نجحت القوات الإمبراطورية فى إنقاذ موقفه ودعم ثورته ضد العباسيين، ولهذه الأسباب خرج الإمبراطور من عاصمته وشق طريقه نحو المشرق بغية الإغارة على أطراف العراق والاتصال بالخرمية، إذ كانت أرمينيا وآذربيجان من معاقل بابك الخرمى، وكان ثيوفيلوس فى نحو سبعين ألفا من الجند وثلاثين ألفا من الأتباع بينهم البلغار والصقالبة وفيهم فرقة من الفرس أصحاب بابك وكذلك الأكراد، ويبدو أن الإمبراطور هدف إلى فتح الطريق بينه وبين بابك الخرمى للاتصال به(٤٩)، ولهذا أغار ثيوفيلوس على أعالى الفرات واستولى فى طريقه على حصن زبطرة الحصين وهو من ثغور الجزيرة الهامة وأحدث بهذا الحصن مذبحة بشرية رهيبة(٥٠)؛ فقتل الذكور من سكان الحصن المسلمين أو أخضعهم لشتى أنواع التعذيب من سمل الأعين أو جدع الأنوف أو صلم الآذان، وسبى النساء والأطفال من أهل زبطرة، كما هاجم سميساط أيضا وجعلها طعمة للنيران على حين استسلمت له ملطية بعد أن بلغها أنباء الخراب والدمار الذى أحدثه الأمبراطور فى زبطرة(٥١).

---

(47) Bury: Op. Cit. p. 259

(٤٨) فازيلييف: العرب والروم ص ١٢٤، Bury: Op. Cit. p. 259

(٤٩) اليعقوبى: تاريخه ج ٢ ص ٤٧٥

الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ٣٣٤

ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٤٦-٢٤٧

(50) Michel Le Syrien; Chronique, III, p. 74
Cedrenus: Op. Cit p. 130.

(٥١) فازيلييف: العرب والروم ص ١٢٧.

ولم يكد الخليفة المعتصم يسمع بهذه الأنباء فى عاصمته الجديدة سامرا حتى أقسم أن يثأر لأهل زبطرة وأن ينزل ضربته القاصمة بالإمبراطور ويذله ويقضى على هيبته، فأمر المعتصم بعمامة الغزاة فاعتم بها ونادى «بالنفير» وبالإستعداد للحرب[٥٢]. «وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم وا معتصماه فأجابها وهو جالس على سريره لبيك لبيك ونهض من ساعته»[٥٣] عازما على مهاجمة عمورية - مسقط رأس الإمبراطور - وإزالتها من الوجود، وإذا نجح فى ذلك يصبح الطريق مفتوحا أمامه للوصول إلى القسطنطينية، لأن الاستيلاء على عمورية يعتبر خطوة فى سبيل الوصول إلى العاصمة[٥٤]، وهكذا لم تكن حملات المعتصم موجهة ضد الحصون والقلاع الواقعة على الأطراف بل اتجهت مباشرة إلى جوف آسيا الصغرى[٥٥].

جعل المعتصم مدينة أنقرة أول هدف للحملة، وأعد جيوشه منذ سنة ٨٣٧م لهذا الهدف، وفي أبريل سنة ٨٣٨م غادرت الجيوش سامرا وقد كتب على ألوية الجيوش وتروسها «عمورية» عل الخليفة يشفى غلة انتقامه لما حدث لأهل زبطرة، فقد بلغ عدد جيش المعتصم نحو مائة ألف محارب - كما ذكر ميخائيل السريانى - إذ قسمه إلى ثلاثة جيوش تقدم أحدها وهو فى نحو ثلاثة وثلاثين ألف جندى عدا التجار والباعة والأتباع ومعهم خمسون ألف دابة[٥٦]، وسار هذا الجيش تحت قيادة الإفشين الذى ذاع صيته عقب نجاحه

---

(٥٢) الطبرى: نفس المصدر ج ١٠ ص ٣٣٥.

اليعقوبى: تاريخه ج ٣ ص ٤٧٥.

المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٢.

(٥٣) ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢٤٧.

(54) Bury: Op. Cit. p. 262.,

العرينى: الدولة البيزنطية ص ٢٨١.

(55) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 185.

(٥٦) ميخائيل السريانى ج ٣ ص ٩٥.

فى القضاء على الفتنة التى حدثت بمصر، والذى شارك أيضا فى القضاء على بابك الخرمى وثورته فى المشرق وسلك طريق مرعش عبر جبال طوروس، وزحف الجيشان الآخران تحت قيادة الخليفة نفسه والقائد أشناس التركى عبر أبواب قيليقيا وتحت قيادة كل منهما قوة تقترب من قوة الإفشين أى أن عدد جنود هذين الجيشين الأخيرين نحو ستة وستين ألف مقاتل، واتفق قادة الجيوش الثلاثة على التلاقى فى سهول أنقرة قبل الزحف على عمورية(٥٧)، وكانت القيادة العليا على الجيوش الثلاثة بطبيعة الحال للخليفة المعتصم نفسه الذى قرر أن يسير هو وأشناس متقاربين.

وبعبارة أخرى جرى تقسيم الجيش العباسى الكبير إلى ثلاثة أقسام: قسم تحت قيادة المعتصم نفسه، وقسم يليه فى الأهمية تحت قيادة الإفشين، والثالث تحت قيادة أشناس التركى تحسبا وحذراً، على أن يسير الإفشين من طريق تختلف تماما عن الطريق الذى يسلكه المعتصم وأشناس(٥٨). أى يسير الإفشين إلى أنقرة عن طريق مرعش ودرب الحدث، ويسير بعد ذلك بقليل أشناس والمعتصم من الطوانة صوب الشمال إلى أنقرة ولايتخذان الدرب الآخر - درب أبواب قيليقيا - الذى يتوقع ثيوفيلوس قدوم المسلمين منه، على أن يسبق أشناس المعتصم بيومين(٥٩).

أدرك الإمبراطور ثيوفيلوس أن هدف الجيوش الإسلامية هو أنقرة وعمورية فخرج من القسطنطينية فى مايو سنة ٨٣٨م، واتجه نحو عمورية واظهر اهتماما بالغا بزيادة تحصينها وتقوية حاميتها، وأشرف بنفسه على ذلك وحشد فيها

(57) Bury: The Mustasim's March through Capadocia p. 120,
وأنظر العدوى: الدولة الإسلامية ص ١٠٢

(58) Bury: Eastern Roman Empire, p. 263
Ostrogorsky: Op. Cit. p. 185

(٥٩) ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢٤٧

كميات كبيرة من المؤن والزاد والعتاد استعدادا لحصار قد يطول، وعهد إلى إثيتيوس وتسميه المصادر الإسلامية «باطس» ولعله «ياطس»[٦٠] قائد ثغر الأناضول بالدفاع عن عمورية باعتبارها قاعدة الثغر وأهم المدن فيه[٦١]، فى الوقت الذى خطط فيه للزحف إلى بقعة تمكنه من مفاجأة الجيش الإسلامى أثناء تقدمه صوب الشمال إلى أنقرة قبل أن يصل إلى المدينة نفسها، وكان أن جمع قواته عند نهر هاليس Halys وهو نهر صغير يصب فى البحر الأسود فى أقصى خرسيون، حيث يستطيع أن يقطع الطريق على القوات الإسلامية، دون أن يدرى أن ثمة جيشا آخر أتخذ الطريق الآخر مباشرة نحو أنقرة سالكاً درب الحدث بقيادة الإفشين[٦٢].

وفى الوقت الذى سير فيه الخليفة المعتصم الجيش الثانى على رأسه أشناس التركى ليخطو فى حذر ويحاول استطلاع المكان الذى عسكر فيه الإمبراطور، كان الإمبراطور نفسه قد وقف على خطة المسلمين وعلى نبأ تقدم جيش آخر نحو أنقرة من الدرب الآخر، فاضطربت خطط الإمبراطور واضطر إلى ترك مكمنه عند نهر الهاليس وتقدم ليفاجىء الإفشين ويمنعه من التقدم إلى أنقرة، غير أن الإفشين مالبث أن اصطدم بالإمبراطور عند دازيمون Dazimon حيث جرت معركة هامة[٦٣] فى ٢٢ يوليو سنة ٨٣٨م/٢٥ شعبان ٢٣٢هـ أنزل الإفشين فيها هزيمة ساحقة بالإمبراطور، فوقع الاضطراب فى صفوف البيزنطيين وهرب الإمبراطور نفسه فى حالة سيئة

---

(٦٠) الطبرى: تاريخ الرسل ج ١٠ ص ٣٣٩،
المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٣

(٦١) فازيلييف: العرب والروم ص ١٣٢، Ostrogorsky: Op. Cit. p. 185

(62) Bury: Op. Cit. p. 264

(63) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 185
Bury: Op. Cit. pp. 264-5

وشاع أنه لقى مصرعه[٦٤]، وفتح الطريق أمام المسلمين إلى المدينة نفسها، ومالبث الخليفة المعتصم نفسه وأشناس أن اقتحما مدينة أنقرة بعد مقاومة باهتة[٦٥] بسبب مابلغ أهلها من هزيمة الإمبراطور وما راج من أن هذا قد لقى حتفه فى ميدان القتال، ولحق الإفشين بالجيوش الإسلامية فى أنقرة فأنزل الجميع بها الخراب والدمار حتى يشفى الخليفة غلة انتقامه لما حدث لمسلمى زبطرة[٦٦].

وعلى الرغم من أن الإمبراطور ثيوفيلوس قد أرسل فى ذلة يلتمس من الخليفة الصفح ويطلب عقد الصلح ويعرض إعادة بناء زبطرة وإعادة من بقى من سكانها إليها[٦٧]، وإطلاق سراح من عنده من أسرى المسلمين، وأن يسلم الخليفة كل من ارتكب فى زبطرة عملا من أعمال العنف أو القسوة، إلا أن المعتصم لم يستجب لتوسلات هذا الإمبراطور ورفض كل عروضه[٦٨]، وتركه قابعا فى دورليوم ينتظر ماسوف يحل بعمورية من المصير المحتوم[٦٩].

سلك المعتصم بعد ذلك فى زحفه على عمورية نفس الخطة، فقسم جيشه إلى ثلاثة أقسام، قاد هو أحدها وجعل كلا من الإفشين وأشناس على الجيشين الآخرين، وتقدم أشناس فى المقدمة هذه المرة، وسار المعتصم نفسه فى الوسط، على حين سار الإفشين فى المؤخرة، «وأمرهم أن يحرقوا فيما بين

(٦٤) ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢٤٨

(٦٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ٣٣٨.

(٦٦) ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢٤٨

فازيلييف: العرب والروم ص ١٤٣

(٦٧) اليعقوبى: تاريخه ج ٢ ص ٤٧٦

(68) Bury; Op. Cit. p. 273

(٦٩) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ١٠ ص ٢٤٢.

فازيلييف: العرب والروم ص ١٤٣

أنقرة وعمورية»[٧٠]. وتقدم الجميع صوب عمورية فأنزلت الجيوش الثلاثة، الخراب والدمار بكل ما اجتازت به من أراضى الروم، حتى وصلوا إلى عمورية بعد سبعة أيام، ومالبث المعتصم أن ألقى الحصار على عمورية فى أغسطس من نفس العام (٨٣٨م)[٧١]، وكانت مدينة حصينة يحيط بها سور مرتفع عليه أكثر من أربعين برجاً، وأحاط بها خندق واسع.

استمر حصار المسلمين لعمورية نحو أسبوعين ثم أعلنت المدينة التسليم فدخلها المسلمون ووقع فى أيديهم عدد كبير من الأسرى والسبى من النساء والأطفال، فضلا عن الغنائم الوفيرة، وأعملت الجيوش الإسلامية فيها التخريب والتقتيل، وأخذت سيوف المسلمين تحصد كثيرا من أهلها[٧٢] وحاميتها حتى يشفى الخليفة غلة انتقامه، وأخذ الخليفة منها كثيراً من الأسرى فى طريق عودته[٧٣]. وفى نفس الوقت قبض المسلمون على إثيتيوس (ياطس)، وبلغ من كثرة الغنائم أن أمر المعتصم «ألا ينادى على السبى إلا ثلاثة أصوات ليتروج البيع... وكان ينادى على الرقيق خسمة خسمة وعشرة عشرة والمتاع الكثير جملة واحدة»[٧٤].

وبعد التماسات وتوسلات من الإمبراطور، وافق المعتصم على عقد الصلح خاصة وقد حقق الخليفة معظم أهدافه وشفى غلة انتقامه، فتقرر عقد الصلح سنة ٨٤١م، وإن لم يمنع ذلك المعتصم من التفكير فى غزو القسطنطينية بعد أن فتح الطريق إليها بفتح عمورية كما أن التفكير فى غزو

---

(٧٠)الطبرى: نفسه ج ١٠ ص ٣٣٨، ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢٤٩

(71) Cedrenus: Op. Cit. p. 135
Genesius: Op. Cit. p. 65

(72) Zonaras: Op. Cit. p. 117.
Bury: Op. Cit. p. 266.

(٧٣) الطبرى: نفس المصدر ج ١٠ ص ٣٤٣، Camb Med. Hist. v.4, pp. 130-131

(٧٤) ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢٥٠

القسطنطينية لم يكن أمرا جديدا فى سياسة العباسيين فى هذه الفترة فقد فكر فيه المأمون أيضا لكن الموت لم يمهله لتنفيذه، ولهذا فقد فكر المعتصم أيضا فى غزوها عقب سقوط عمورية مباشرة[٧٥] لولا اضطراره للعودة إلى بلاده بسبب ماترامى إليه من أنباء سيئة عن محاولة مؤامرة لخلعه من الخلافة[٧٦]، ولكن المعتصم ظل يفكر فى غزو القسطنطينية بعد انصرافه عن مواصلة الجهاد فى آسيا الصغرى، وفى نفس الوقت أيقن ثيوفيلوس أن ارتداد المعتصم ليس إلا مقدمة لمعاودة الكرة من جديد، حينما تسنح الظروف وتتهيأ الفرصة مع إحساسه بآثار الهزائم التى لقيتها بيزنطة فى الغرب وفى الشرق على حد سواء أمام الأغالبة فى صقلية ومن الأندلسيين فى كريت[٧٧]، فضلاً عما لقيه من هزائم فى آسيا الصغرى فى الشرق، لهذا فكر الإمبراطور فى الخروج من هذه المحنة معولا على التماس المساعدة من الغرب الأوربى.

بعث ثيوفيلوس سفارة إلى لويس التقى عاهل الفرنجة وإمبراطور الغرب[٧٨]، يحثه على القيام بعمل عسكرى ضد المسلمين فى الشرق بغزو مصر أو الشام، ليشغل العباسيين عن بيزنطة ويضعف قوة المعتصم ويبعثرها، إلا أن هذه السفارة لم تنجح فى إستثارة لويس التقى أو فى تحفيزه لعمل عسكرى فى الشرق، بل شغل فى هذه المرحلة بمشاغله الخاصة والنزاع بين أبنائه [٧٩]. كما أرسل ثيوفيلوس إلى دوق البندقية لإثارته ضد الأغالبة وأهل

---

(75) bury: Op. Cit. p. 274.

(٧٦) الطبرى نفسه ج ١٠ ص ٣٤٧، المسعودى: مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٣
ابن الأثير: الكامل ج ٥ ص ٢٥١

(77) Ostrogorsky; Op. Cit. p. 185.

(78) Camb. Med. Hist. v. 3, pp. 10-11.

(79) Oman: Op. Cit. p. 409.

كريت من المسلمين[٨٠] ليشغل هؤلاء عن التحالف مع العباسيين، كما سعى ثيوفيلوس إلى إقامة محور سياسى مع أمير الأندلس الأموى عبد الرحمن الثانى ضد العباسيين[٨١]، إلا أن هذه المساعى لقيت فشلا ذريعا وفشلت مساعى الإمبراطور لدى الغرب فى إخراج بيزنطة من محنتها[٨٢].

وفى نفس الوقت لم يثن المعتصم عن عزمه فى غزو القسطنطينية، فكان أن أعد نحو أربعمائة سفينة لغزو العاصمة البيزنطية، أبحرت فعلا من موانى الشام سنة ٨٤٢م/٢٢٧هـ، غير أن المعتصم مالبث أن توفى فى نفس العام، على حين فاجأت العواصف السفن الإسلامية فدمرت بعضها وعاد الباقى إلى موانيه[٨٣]. ومالبث الإمبراطور ثيوفيلوس نفسه أن توفى هو الآخر ولحق بالمعتصم فى نفس الشهر سنة ٨٤٢م/٢٢٧هـ، وقضى نحبه مهموما بعد هزيمته وضياع هيبته وفشله فى سياسته الخارجية، وانتهت بذلك حلقة هامة فى الصراع بين البيزنطيين والمسلمين فى ذلك الوقت[٨٤].

أما فيما يختص بسياسة ثيوفيلوس اللاأيقونية، فقد نكل هذا الإمبراطور بعباد الصور والأيقونات، وسار على نهج ماحدث زمن الإمبراطور قنسطنطين الخامس بأن ركز الهجوم على الأديرة، ولهذا فقد جرت المرحلة الأخيرة من اللاأيقونية زمن ثيوفيلوس[٨٥]، فلقد أنزل العقاب بكل من بشر بها من

---

(٨٠) ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس ص ٩٧-٩٨ (ترجمة د. عبد العزيز سالم)
حسين مؤنس: المسلمون فى حوض البحر المتوسط ص ١٦٥ مقالة.
محمد الشيخ: دولة الفرنجة ص ٩٧.

(٨١) ابن الأثير: الكامل ج٦ ص ٤١٧ (سنة ٢١٥هـ)، المقرى: نفح الطيب ج ١ ص ٣٣٤
محمد الشيخ: دولة الفرنجة ص ٩٧.

(82) Bury: Op. Cit. p. 273.
(83) Bury: Op. Cit. p. 272.
(84) Camb. Med. Hist. v. 4, p. 131.
(85) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 186.

الرهبان، وأمر بتحريم الصور الدينية بالقسطنطينية لمنع انتشارها. لكن على الرغم من ذلك فلم تلق سياسة هذا الإمبراطور إلا الفشل الذريع[٨٦]، ولم تتجاوز هذه السياسة اللاأيقونية حدود العاصمة، حتى أن آسيا الصغرى ذاتها موطن اللاأيقونية صارت تنكر حينئذ السياسة اللاأيقونية. وهكذا لم تلق هذه السياسة إلا تأييدا محدودا وبمجرد وفاة الإمبراطور سنة ٨٤٢م انتهت اللاأيقونية، ولم تلبث بيزنطة أن تخلصت من هذه الأزمة وبدأت عصرا جديدا فى تاريخها[٨٧].

ميخائيل الثالث (٨٤٢-٨٦٧م) ونهاية الأسرة العمورية :

توفى الإمبراطور ثيوفيلوس سنة ٨٤٢م، وترك ابنه ووريثه ميخائيل الثالث دون السادسة من عمره، ولهذا فقد تولت الوصاية عليه أمه ثيودورا يساعدها مجلس من كبار رجال أسرتها[٨٨]. وفى نفس الوقت قام على تنشئة الصغير خاله برداس، فأهمل فى تربيته وتنشئته فساء خلقه وأدمن شرب الخمر والمقامرة وغيرذلك من الموبقات، حتى أطلق عليه البيزنطيون لقب «السكير»[٨٩]، ويبدو أن خاله برداس تعمد ذلك حتى يظل يشارك ابن اخته الحكم ويهيمن على شئون الدولة، واستمر الحال على ذلك حتى كره ميخائيل الثالث هذه الهيمنة فدبر مؤامرة لقتل خاله اشترك فيها باسيل المقدونى، وجرى قتل برداس فى نهاية الأمر فتخلص ميخائيل الثالث من وصايته[٩٠].

---

(٨٦) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٢٩٣.

(87) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 186.
(88) Cedrenus: Op. Cit. p. 139.
Bury: Op. Cit. p. 143.
(89) Hussy: Op. Cit. p. 31.
(90) Oman: Op. Cit. pp. 490-491.
Ostrogorsky: Op. Cit. pp. 197-8.

ومالبث الحكام الجدد أن قاموا بانقلاب دينى خطير حين قرروا إعادة عبادة الصور المقدسة، كما تقرر إعادة الأيقونات إلى المواضع التى انتزعت منها بالكنائس، وتم بذلك القضاء على اللاأيقونية قضاء تاما[٩١]، وفشلت بذلك المحاولة التى جرت لإخضاع الكنيسة لسلطة الدولة على مدى سنوات طويلة، وإزدادت مكانة الكنيسة وارتفع شأنها[٩٢]. فكما أحدثت أيرين من قبل انقلابها الدينى وهى وصية على ابنها قامت ثيودورا بإحداث انقلاب مماثل وهى وصية على ابنها ميخائيل الثالث، فعزلت البطريرق اللاأيقونى (حنا النحوى) والأساقفة اللاأيقونيين، ودعت مجمعا دينيا للانعقاد فى العاصمة لإعادة الأيقونية، وتعرض الأيقونيون للإضطهادات الشديدة وأخذوا يهجرون البلاد بالجملة[٩٣].

ويبدو أن استقرار الأحوال فى البلاد فى بداية عهد ميخائيل الثالث، وعودة عبادة الصور قد أغرى الحكام الجدد بإستئناف الحرب ضد المسلمين، فبعثوا بحملة بحرية ضخمة لمهاجمة جزيرة كريت سنة ٨٤٣م على رأسها الوزير البيزنطى نفسه، ونجحت الجيوش البيزنطية فى النزول بالجزيرة إلا أن مسلمى الجزيرة انتهزوا فرصة عودة الوزير إلى القسطنطينية بعد سماعه أخباراً سيئة، وقاموا بمهاجمة الفرق البيزنطية وأنزلوا بها هزيمة ساحقة، وفشلت الحملة فى تحقيق أهدافها[٩٤].

---

(91) Oman: Op. Cit. pp. 489-90.
Ostrogorsky: Op. Cit. p. 195.

(٩٢) العرينى: الدولة البيزنطية ص ٢٩٥.

(٩٣) سعيد عاشور: أوربا ج ١ ص ٤١٥، Oman : Op. Cit. pp. 489-90

(94) Bury: Op. Cit. p. 292, فازيلييف : العرب والروم ج ١ ص ٣٣٤،
العرينى: نفسه ص ٢٩٧.

ولابد وأن فشل الإمبراطورية فى سياستها فى كريت وصقلية فضلا عما حدث من اضطراب أحوالها، جعلها أكثر ميلا لعقد الصلح فى الوقت الذى تعرضت فيه الخلافة الإسلامية على عهد الواثق (٨٤٢-٨٤٧م) لثورات تأججت فى دمشق وبلاد العرب وأعالى العراق وفتن الخوارج والفتنة الدينية حول القول بخلق القرآن وقدمه[٩٥]، جعلت الخليفة يجنح إلى السلم هو الآخر ويوافق على عقد هدنة مع البيزنطيين، وبمقتضى هذا الصلح جرى تبادل الأسرى بين الدولتين سنة ٨٤٥-٨٤٦م[٩٦].

غير أن ثيودورا الوصية على الإمبراطور وحكام بيزنطة الجدد عادوا إلى محاولة الرد على فشل حملة كريت، فأرسلوا حملة بحرية ضخمة لمهاجمة سواحل مصر، التى أمدت جزيرة كريت بالمؤن والمساعدة، وتألفت الحملة البحرية البيزنطية من ثلاث أساطيل كل منها تكون من نحو مائة سفينة كلف أحد هذه الأساطيل بمهاجمة دمياط فى حين كلف الآخران بمهاجمة سواحل الشام[٩٧].

وفى مايو سنة ٨٥٣م، نزل الأسطول البيزنطى عند دمياط ولم يكن بها حامية، لأن آخر ولاة مصر من قبل الخلافة العباسية كان قد استدعى إليه فى الفسطاط رجال حامية المدينة للإحتفال بحلول عيد الأضحى[٩٨]، ولهذا فقد تعرضت المدينة للنهب والسلب على أيدى البيزنطيين، ووقع فى أسرهم نحو ستمائة من المسلمين والأقباط وقدرا هائلا من المؤن الذى أعد لإرساله إلى

---

(٩٥) الطبرى: تاريخ الرسل ج ١١ ص ٢٠، العرينى : نفسه ص ٢٩٧.

(٩٦) الطبرى: تاريخ الرسل ج ١١ ص ١٩، العدوى : الدولة الإسلامية ص ١١٣.

(97) Bury: Op. Cit. p. 292.

وانظر أيضا محمود عمران: إدارة الإمبراطورية البيزنطية لقسطنطين السابع ص ١٩٥.

(٩٨) فازيلييف : العرب والروم ص ١٨٩.

جزيرة كريت، وبعد يومين انسحب البيزنطيون عائدين إلى بلادهم(٩٩)، ولم تجد محاولات البيزنطيين على عهد ميخائيل الثالث فى استرداد جزيرة كريت من أيدى المسلمين، كما فشلت حملاتهم فى الشرق فى إحراز أى نصر على المسلمين فى جبهة آسيا الصغرى(١٠٠).

ولقد جرى عزل ثيودورا عن الحكم سنة ٨٥٦م وإبعادها عن السلطة فى الوقت الذى بلغ فيه ابنها ميخائيل الثالث سن الرشد وبدأ ينشط لإثبات كفاءته وأحقيته فى الانفراد بالسلطة(١٠١)، فعادت الإمبراطورية البيزنطية إلى استئناف الهجوم على التخوم الإسلامية عند سميساط وآمد وأعالى الرافدين، وقاد ميخائيل الثالث جيشه لمنازلة المسلمين على الحدود رداً على الغارات التى قادها أمير ملطية وأمير طرسوس بمعاونة أعداء الدولة البيزنطية فى آسيا الصغرى، والمنشقين عليها من البيالصة الذين تعرضوا للإضطاد عقب القضاء على الحركة اللاأيقونية(١٠٢). وحينما شرع ميخائيل الثالث فى مهاجمة الأطراف الإسلامية دهمه المسلمون فألحقوا به هزيمة قاسية ولم ينج من القتل إلا بصعوبة بالغة. ولما عاود الهجوم بعد ذلك بثلاثة أعوام سنة ٨٥٩م تصدى له عمر والى ملطية فأنزل به هزيمة أخرى فر على أثرها فى حالة سيئة، بل إن عمر هذا تقدم فى الأراضى البيزنطية حتى بلغ سينوب، وخرب ودمر ماصادفه وعاد بعد ذلك بأربعة أعوام فوصل إلى شواطئ البحر الأسود(١٠٣).

غير أن الإمبراطور ميخائيل الثالث بادر بحشد جيش كبير بلغ على حد قول بعض الروايات نحو خمسين ألف محارب، ونجح فى نصب كمين لعمر

(99) Bury: Op. Cit. p. 293
(100) Bury: Op. Cit. p. 279.
(101) Oman: Op. Cit. p. 490.
(102) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 197.
(103) Bury: Op. Cit. pp. 279-283.

والى ملطية، فأنزل به الهزيمة ولقى عمر نفسه مصرعه وهو يقاتل جيشا يفوقه، فى العدد والعده[١٠٤]، وحقق الإمبراطور بعض الانتصارات سنة ٨٦٤م عند أعالى الفرات منتهزا فرصة مرور الخلافة العباسية بمحنة وبسبب تحكم الأتراك فى الخلفاء وعزلهم، حتى أرغم الخليفة المستعين على التنازل عن الخلافة سنة ٨٦٦م، ودخلت الدولة العباسية فى دور التداعى والاضمحلال[١٠٥]. وعلى الرغم من ذلك فلم يستطع الإمبراطور ميخائيل الثالث أن يزعزع الوجود الإسلامى بجزيرة كريت أو جزيرة صقلية، بل على عكس ذلك رسخت أقدام المسلمين فى جزيرة صقلية واستولوا على أجزاء جديدة منها، وأخذوا يضيقون على سيراكوز عاصمتها التى سقطت فى أيديهم فى عهد الأسرة المقدونية[١٠٦].

ولقد تشابكت العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية زمن ميخائيل الثالث وبين بعض الأمم الأخرى مثل الروس والخزر والصقالبة، أما الروس فقد قاموا فى عهد هذا الإمبراطور بأول هجوم لهم على القسطنطينية سنة ٨٦٠م. منتهزين فرصة انشغال الإمبراطور بحرب المسلمين فى آسيا الصغرى[١٠٧]. غير أن الإمبراطور مالبث أن عاد مسرعا واستطاع أن يجبر الروس على الإرتداد عن عاصمته، ونجح فى تخليص القسطنطينية من خطر جديد بات يتهددها[١٠٨]؛ وربما لذلك فكرت بيزنطة فى محاولة تحويل هذا الشعب إلى

(104) Hussey: Op. Cit. p. 35.
Ostrogorsky: Op. Cit. p. 200.

(١٠٥) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٣٧٧.

(106) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 206.
Oman; Op. Cit. pp. 484-5.

(١٠٧) المسعودى: مروج الذهب ج ١ ص ٣١٩.
التنبيه والإشراف ص ١٢١،
Obslensky: Byzantine Common - wealth , pp.182-3

(108) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 202.

المسيحية الأرثوذكسية درءا لخطرهم واتقاء لشرهم، ومحاولة لجعلهم يدورون فى فلك الإمبراطورية البيزنطية، لتنفذ إليهم تيارات الحضارة البيزنطية والمسيحية الأرثوذكسية(١٠٩).

وإذا كانت علاقات بيزنطة بالروس فى عهد ميخائيل الثالث قد بدأت علاقات عدائية، الأمر الذى جعل بيزنطة تحاول احتواء هذا الشعب والتأثير فيه دينيا وحضاريا ليصبح من الشعوب المرتبطة بها(١١٠)، فإن علاقات بيزنطة بالخزر على عهد هذا الإمبراطور قد سادتها المودة والموادعة، فقد أرسل خاقان الخزر سنة ٨٦٠م إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث يطلب مبعوثين بيزنطيين لتعليمهم الديانة المسيحية، فتحمس البطريرك فوتيوس ونصح الإمبراطور ـ كما يقول دنلوب(١١١) ـ بإرسال قنسطنطين أحد تلامذة فوتيوس على رأس هذه البعثة، فوافق الإمبراطور، واتجه قنسطنطين إلى بلاد الخزر بعد أن بقى لفترة فى خرسون لتعلم اللغة الخزرية، ومنها سلك طريق الدون - الفولجا إلى إتيل ثم جنوبا إلى ساحل بحر قزوين حتى التقى بخاقان الخزر فى ساماندر Samandar. وعلى الرغم مما بذله قنسطنطين هذا والبعثة التبشيرية المرافقة له من جهد، إلا إنه لم يجر سوى تعميد نحو مائتى شخص ولم تحقق البعثة النجاح المرتقب ، ثم عاد بعد ذلك إلى القسطنطينية(١١٢).

وما حدث مع الخزر حدث مع الصقالبة فى مورافيا، الذين أرسلو إلى الإمبراطور ميخائيل الثالث يطلبون بعثة دينية تبشر بينهم بالمسيحية، لأنهم يبدو خشوا أن تنتقل إليهم المسيحية عن طريق الفرنجة فيصبحون محصورين بين الفرنجة من جهة والبلغار من جهة أخرى(١١٣)، فالتمسوا علاقات المودة من

(109) Ibid. p. 203.
(110) Bury: Op. Cit. pp. 421-2.
Hussey: Op. Cit. p. 38.
(111) Dunlop: Op. Cit. p. 194.
(112) Ibid. pp. 194-5.
(113) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 203.

بيزنطة وأرادوا تلقى المسيحية منها، فأرسلت البعثة إلى هناك فعلا، ولكنها لم تحقق أيضا نجاحا يذكر، ولم توفق إلا توفيقا محدوداً، وعادت بعد مقتل ميخائيل الثالث وولاية باسيل المقدونى(١١٤).

والأهم من ذلك كله ماحدث من علاقات مع البلغار لأنهم العدو اللدود الذى كان يتربص بالإمبراطورية في جهة الدانوب، وزاد من خطر هؤلاء البلغار محاولتهم التحالف مع الفرنجة الأمر الذى أقلق ميخائيل، وخشى أن يترتب على ذلك التحالف أن يخضع البلغار لسيطرة كنيسة روما ويتلقون المسيحية من الغرب(١١٥). ولهذا فقد توجه الإمبراطور ميخائيل الثالث فى صيف سنة ٨٦٣م على رأس جيشه لمهاجمة الأراضى البلغارية على حين توجه الأسطول البيزنطى تجاه ساحل بلغاريا على البحر الأسود، وصادفت هذه المظاهرة البحرية حظا مواتيا نظرا لاختلال أحوال البلغار فى ذلك الوقت، بسبب تعرضهم للمجاعة ولغياب جزء كبير من جيشهم أرسل لمعاونة الفرنجة بمقتضى اتفاق التحالف بين الجانبين(١١٦).

وأمام الحشود البيزنطية اضطر ملك البلغار إلى الإذعان وقبل ماعرضه الإمبراطور من شروط لإيقاف الحملة، أهمها أن تتخلى بلغاريا عن محالفة الفرنجة وأن تقبل المسيحية من بيزنطة، وأن تعقد مع البيزنطيين معاهدة، وتم عقد الصلح فعلا سنة ٨٦٤م(١١٧)، ومن ثم شرع رجال الدين اليونانيين فى تنظيم الكنيسة البلغارية وتنصير البلغار، على الرغم من أن البابا والفرنجة نافسوا بيزنطة فى استقطاب البلغار إلى الكنيسة اللاتينية، وارتبطت بلغاريا حينئذ بالدولة البيزنطية من الناحيتين الدينية والسياسية(١١٨)، ولهذا فقد خرجت

(114) Bury: Op. Cit. pp. 400-401.
(115) Oman: Op. Cit. p. 491.
(116) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 205.
(117) Bury: Op. Cit. pp. 384.
(118) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 205.

بيزنطة من هذا النزاع مظفرة وظلت كنيسة بيزنطة وكنيسة البلغار على وفاق تام أكثر من قرنين من الزمان[١١٩].

وعلى عهد الإمبراطور ميخائيل الثالث أيضا اشتد الجدل فى الأمور الدينية بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما على عهد البابا نيقولا الأول، فضلا عن التنافس بين الكنيستين على استقطاب البلغار[١٢٠]، واتهم فوتيوس بطريرق القسطنطينية البابا بالزندقة، وجرى عقد مجمع دينى فى القسطنطينية سنة ٨٦٧م تولى رئاسته الإمبراطور ميخائيل الثالث نفسه، وتقرر فى هذا المجمع قطع البابا نيقولا الأول من رحمة الكنيسة وبطلان مذهب كنيسة روما بشأن الروح القدس واعتباره هرطقة واعتبر تدخل روما فى شئون كنيسة بيزنطة أمرا غير مقبول[١٢١]. وبذلك حدث الإنشقاق الدينى بين الكنيستين وزادت حدة الخلاف بينهما.

وفى ذروة الجدل والشقاق وقعت ثورة فى القصر الإمبراطورى بالقسطنطينية أدت إلى تغيير الأمور، ووضعت نهاية تعسة للأسرة العمورية، ورفعت أسرة جديدة إلى العرش هى الأسرة المقدونية[١٢٢]، فقد لقى ميخائيل الثالث حتفه على يد رجل كان قد استعان به من قبل فى تنفيذ مؤامراته، وتثبيت أقدامه فى السلطة هو باسيل الذى عرف بباسيل المقدونى، والذى انتمت إليه الأسرة المقدونية ذائعة الصيت فى حكم بيزنطة[١٢٣]، فقد طمع هذا الرجل وكان من أصل وضيع فى الوصول إلى العرش وخاف فى

---

(119) Runciman: First bulgarian Empire, p. 99.

وانظر أيضا رانسمان: الحضارة البيزنطية ص ١٤٢ (مترجم).

(120) Bury: Op. Cit. p. 384.
(121) Oman: Op. Cit. p. 453.
(122) Bury: Op. Cit. pp. 166.
Ostrogorsky: Op. Cit. p. 206.
(123) Oman: Op. Cit. p. 492.

نفس الوقت على حياته بعد أن اعترى ميخائيل الثالث نوع من التقلب فأسرف في الشراب وازداد قسوة وغلظة وغالى فى الإسراف والانحلال، فدبر باسيل مؤامرة اغتيل على أثرها ميخائيل الثالث فى سبتمبر سنة ٨٦٧م، وجرى إحلال باسيل محله فى الحكم لتبدأ فترة جديدة ومثيرة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية(١٢٤).

(124) Ostrogorsky: Op. Cit. p. 206.
Bury: Op. Cit. pp. 166

الفصل السادس

الأسرة المقدونية [٨٦٧ - ١٠٥٧م]

العصر الذهبي للدولة البيزنطية

النصف الأول من عصر الأسرة المقدونية (٨٦٧ - ٩٦٣م) :

حكمت هذه الأسرة المقدونية نحو قرنين من الزمان، جاء النصف الأول من عهدها بداية لعصر جديد فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، حكم خلاله أربعة من الأباطرة على مدى نحو قرن من الزمان، نقلوا الامبراطورية خلاله إلى طور جديد فى تاريخها تميز بالقوة وبداية العظمة فى كافة نواحى الحياة خاصة فى النواحى العسكرية والاقتصادية والحضارية، ولكن القرن الثانى من عصر هذه الاسرة وبخاصة عهود ثلاثة من الأباطرة خلاله على مدى أكثر من ستين عاما مثل العظمة الحقيقية لعهد الأسرة المقدونية[1]، وهى الفترة التى خرجت فيها بيزنطة الى سياسة الهجوم على الدولة الاسلامية لأول مرة منذ الفتوحات الاسلامية قبل ثلاثة قرون أو يزيد، واحتلت الامبراطورية البيزنطية خلال هذه الفترة مكانة سامية بين الدول ومثلت قوة عظيمة تستند إلى قاعدة قوية عسكريا واقتصاديا وحضاريا حققت لها مجداً لايدانية مجد[2] .

ومن سوء حظ المسلمين أن هذه العظمة البيزنطية صادفت تحللا فى قوى المسلمين فى الشرق وبداية تداعى العظمة الاسلامية فى الشرق الأدنى، الأمر الذى أضفى على عصر الأسرة المقدونية هيبة وسمواً جعلها تنفرد بمكانة لم تكن لتحققها لو أن المسلمين حافظوا على قوتهم وتصدوا لهذه الصحوة العظيمة التى شهدتها الإمبراطورية خلال حكم هذه الأسرة وبالذات فى

(1) Lemerle: op. cit. p. 86.
(2) Ibid. p. 86.

النصف الثانى من عصر هذه الأسرة أى فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)(٣) والربع الأول من القرن الحادى عشر الميلادى.

أسس باسيل الأول المقدونى الأسرة الجديدة التى حكم خلال القرن الأول من عهدها أربعة من الأباطرة هم : باسيل الأول المقدونى (٨٦٧ - ٨٨٦م) ثم ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م) ثم قنسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩) ورومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣م)، ثم بلغت بيزنطة أوج عظمتها فى القرن الثانى من عهد هذه الأسرة الذى شمل عهود ثلاثة من أعظم الأباطرة على الإطلاق هم: نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩م) ثم حنازمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦م) ثم باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥م) وبعد ذلك دخلت الأسرة المقدونية فى السنوات الباقية من عمرها فى فترة ضعف واضمحلال مابين سنتى ١٠٢٥ وحتى نهاية عهدها سنة ١٠٥٦م(٤).

باسيل الأول المقدونى (٨٦٧ - ٨٨٦م):

اعتلى باسيل المقدونى أو باسيل الأول العرش عقب اغتيال ميخائيل الثالث السكير. وكان باسيل هذا قد ولد فى مقدونيا وبالتحديد فى تراقيا، وكان أبوه أرمينيا، ومن المرجح أن أمه كانت سلافية فاتحد فى هذا الرجل الأرض والسلاف، فأدى هذا الاتحاد إلى العظمة التى عاشتها بيزنطة فى عهد الأسرة التى أسسها هذا الامبراطور(٥)، وعند اعتلائه العرش لم تكن الأحوال فى الدولة مناسبة ولا الظروف مهيأة لحكم هادئ، بل تكاثرت المشاكل الداخلية والخارجية ونشب النزاع الدينى وكان الانشقاق بين الكنيستين

(٣) مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٢٠١،
ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٥٤٠ - ٥٤١.

(4) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 51.
Ostrogorsky: *op. cit.* p. 207.

(٥) وسام عبد العزيز فرج. دراسات ص ٢٥٣.

الشرقية والغربية قد حدث واستشرت الفتن بينهما[٦] بسبب رغبة روما فى تأكيد سلطانها على كل الكنائس بما فى ذلك الكنيسة الشرقية، وبذل البابا نقولا الأول جهدا كبيرا فى محاولة لإرغام القسطنطينية على التسليم بزعامة روما فى الوقت الذى تطلع فيه بطريرق القسطنطينية الذائع الصيت فوتيوس للاستقلال وتأكيد الذات البيزنطية فى الشئون الدينية والروحية[٧].

غير أن باسيل اهتم فى بداية عهده بتهدئة الأمور فى الكنيسة وحل المشكلة الدينية التى شغلت الأذهان، فأبعد البطريرق فوتيوس وعزله من منصبه بمجرد أن آلت إليه السلطة حتى يرضى البابوية من ناحية ويكسب عطف البيزنطيين من ناحية أخرى[٨]، لكنه عاد فاستدعى فوتيوس من منفاه وعينه بطريرقا فى القسطنطينية دون أن يحفل بمعارضة البابوية بعد أن ثبت أقدامه فى السلطة[٩]، بل وعهد إليه بتربية وتنشئة أبناء الامبراطور الصغار إمعانا فى تقريبه وإعلاء مكانته.

وفى نفس الوقت جرى باسيل على سنة الأباطرة البيزنطيين من حيث الاهتمام الشديد بأمور الدين والكنيسة، فحاول نشر المسيحية بين الشعوب الوثنية وبين المخالفين للمذهب الأرثوذكسى وجعل بيزنطة المركز الروحى للشعوب المجاورة حديثة العهد بالمسيحية. ويبدو أن الأصل الأوربى لباسيل الأول جعله يضطهد بشدة محطمى التماثيل وبخاصة البوليسيون واتباع هذه الطائفة من المسيحيين الشرقيين الذين انتشروا فى أرمينيا وآسيا الصغرى منذ القرن الخامس الميلادى[١٠]. ويرجح أنه حدث فى عهده أن حاولت

(6) Ostrogorsky: op. cit. p. 206.
(7) Bury: op. cit. pp. 186 - 192.
Ostrogorsky: op. cit. p. 206.
(8) Vasiliev: op. cit. p. 303.
(9) Bury: op. cit. p. 204.
Vasiliev: op. cit. p. 331.

(١٠) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٩.

الامبراطورية البيزنطية أن تحول الروس إلى المسيحية، وإن كانت المحاولات الجادة في هذا الصدد قد حدثت على عهد الامبراطور باسيل الثانى فى الربع الأخير من القرن العاشر الميلادى، وهذا لاينفى أن يكون باسيل المقدونى قد حاول إدخال هذا الشعب فى المسيحية وجذبه إلى المركز الروحى البيزنطى ليتلقى المسيحية من القسطنطينية(١١). كما اعتنق المسيحية فى عهده أيضا الجانب الأكبر من القبائل الصقلبية فى بعض نواحى البلقان، ولابد وأن باسيل اهتم بتحويل هؤلاء السلاف إلي المسيحية نظرا لأن أمه كانت سلافية ولهذا لقى السلاف عناية فائقة منه(١٢)، واهتم باسيل الأول أيضا باخضاع اليهود للدولة وفرض المسيحية عليهم(١٣).

ويبدو أن باسيل الأول قد بذل كل هذا الجهد لخدمة العقيدة المسيحية تكفيراً عما اقترفه من آثام وتخفيفا لشعوره بالذنب لارتكابه بعض الجرائم قبل أن يلى العرش واشتراكه فى بعض المؤامرات والاغتيالات سفكت فيها الدماء وأزهقت فيها الأرواح، ومابرح الناس يذكرونها له، فحاول أن يمحو تلك الصفحة ويتقرب إلى الكنيسة بالأعمال الطيبة. وهكذا حاول جهد استطاعته أن يمحو من أذهان الناس الحقيقة الخاصة بأنه كان يوما نديما للامبراطور ميخائيل الثالث السكير وصفيا له(١٤).

أما عن سياسته الداخلية فقد وجه باسيل الأول اهتمامه لمحاربة المسلمين فى الشرق حتى جاءت حملاته بداية مرحلة جديدة من مراحل الزحف والتقدم المنتظم التى قامت به الامبراطورية البيزنطية على الأطراف الشرقية وضد

---

(11) Rambaud: Histoire de La Russie, pp. 44 - 49.
Obolensky: Byzantine Commonwealth, pp. 189 - 90.

(١٢) وسام عبد العزيز فرج: دراسات ص ٢٥٣.

(13) Vasiliev: op. cit. p. 332.

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوروبا ج١ ص ٤١٧.

المسلمين فى الشرق، حتى يشير المؤرخ شارل أومان إلى أنه لو قدر لباسيل الأول أن يخلفه أباطرة أقوياء لأمكن للامبراطورية البيزنطية أن تمد سلطانها على معظم الأقاليم التى دانت لجستنيان قبل ذلك بنحو ثلاثة قرون(١٥). فقد صادف عهده بداية انحلال الخلافة الإسلامية وواتاه الحظ بقيام علاقات الود والسلم مع جيرانه المسيحيين فى أرمينيا وروسيا وبلغاريا وجمهورية البندقية والإمبراطورية الغربية(١٦). لذلك اتجه بقضه وقضيده ضد المسلمين فى الشرق مستفيدا مما حدث من فتن فى جوفها على أثر ازدياد نفوذ الترك فى البلاط العباسى وانسلاخ الإمارات العربية عن الخلافة، إذ قامت الإمارة الحمدانية فى إقليم الجزيرة ثم مدت سلطانها إلى شمال الشام، كما نهض بنو بويه فى بلاد الديالمة بفارس، واستقل البريديون بخوزستان والصفاريون فى الأقاليم الشرقية(١٧)، واستقل أحمد بن طولون بمصر سنة ٨٦٨م، ونشبت الحرب الداخلية فى شمال إفريقية واشتدت المنازعات بين المسلمين والمسيحيين فى بلاد الأندلس(١٨)، ولم يعد للخليفة العباسى نفوذ فعلى سوى فى بغداد وماحولها وبعض النفوذ الروحى فى الولايات التى استقلت(١٩).

اندفع باسيل الأول على رأس جيشه نحو الشرق حتى يلغ إقليم أعالى الفرات، فاستولى فى سنة ٨٧٣م على زبطرة وسميساط، ولم يوقف تقدمه سوى ما لحق به من هزيمة(٢٠)، حين حاول الاستيلاء على ملطية(٢١)، التى كانت من المعاقل الهامة فى تلك المنطقة. وفى سنة ٨٧٦م ، استولى باستيل على قلعة اللؤلؤة التى تسيطر على الطريق من طرسوس إلى

---

(15) Oman: op. cit. p. 493.
(16) Ostrogorsky: op. cit. p. 212.
(17) Oman: op. cit. p. 493.
(18) Vasiliev: op. cit. p. 303.

(١٩) وسام عبد العزيز فرج: دراسات ص ٢٥٦.

(٢٠) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج١١ ص ٨٤.

(21) Ostrogorsky: op. cit. p. 211.

القسطنطينية[٢٢] ثم مالبث أن وقع عبد الله بن كاوس والى الثغور الشامية أسيرا فى يده سنة ٨٧٧م/٢٦٤هـ[٢٣]. وإذا كان باسيل قد اكتفى بما أحرزه من نصر جزئى فى هذه الحملة إلا أن ما حققه من انتصارات لم يكن له نتائج حاسمة فى الجانب الإسلامى ولم يحقق به أيضا ما كانت الامبراطورية تصبوا إليه من آمال على الرغم من حماسته الطاغية فى محاربة المسلمين فى تلك الجهات[٢٤]. إذ يبدو أن الخلافة العباسية لجأت إلى أحمد بن طولون فى مصر ليتولى بنفسه الدفاع عن الثغور الشامية، ولهذا آثر باسيل مهادنة ابن طولون لقوة شكيمته فأطلق سراح ابن كاوس وعددا من أسرى المسلمين، كما أرسل لابن طولون عدة مصاحف على سبيل الهدية[٢٥]. لكن من الثابت أن باسيل وإن لم يغير كثيرا فى الأوضاع فى الشرق مع المسلمين إلا أنه نجح فى الإستيلاء على معظم المعابر التى كانت تنفذ منها الجيوش الإسلامية إلى آسيا الصغرى[٢٦].

هذا من ناحية علاقاته بمسلمى الشرق، أما مسلمى الغرب فقد ازداد خطرهم على كل من جنوب إيطاليا وساحل البلقان الغربى أو الساحل الشرقى للبحر الأدرياتى. ففى سنة ٨٦٧م استنجدت مدينة راجوزا بالامبراطور باسيل الأول على اثر قيام المسلمين من كريت وجنوب إيطاليا بمهاجمتها وإلقاء الحصار عليها، فاستجاب الامبراطور وبعث بأسطوله مؤلفا من نحو مائة سفينة نجحت فى فك الحصار الإسلامى عن هذه المدينة، ومنع المسلمين من

(22) Anderson ; The Road System, P. 34,

العدوى : الدولة الإسلامية ص ٢٢.

(٢٣) ابن الأثير: الكامل ج٧ ص ١١٠.

(24) Vasiliev: op. cit. p. 303.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل ج٧ ص ١١٠.

(٢٦) العدوى: الدولة الإسلامية ص ١٢٣.

(٢٧) انظر قسطنطين السابع: إدارة الامبراطورية البيزنطية ص ١٠٢،

Ostrogorsky: op. cit. p. 209.

إسقاطها. واستطاعت بيزنطة أن تعيد سيادتها على تلك الجهات[٢٧]، فضلا عن أن باسيل نجح فى الإستيلاء على جزيرة قبرص التى ظلت تابعة لبيزنطة من سنة ٨٧٤ إلى سنة ٨٨٧م[٢٨]

ولقد أدى ذلك إلى رسوخ أقدام الامبراطورية ونفوذها فى البلقان، فاعترفت مدن دالماشيا بما لبيزنطة من امتيازات وشاركها فى ذلك قبائل الصقالبة النازلة بساحل ذلك الإقليم وبداخل البلاد، وترتب على ذلك أيضا سرعة انتشار المسيحية وازدادت جهود بيزنطة التبشيرية فى البلقان، لاسيما فى مقدونيا وبلغاريا[٢٩]، وتفوق تأثير بيزنطة الروحى على تأثير روما الذى تدعمه دولة الفرنجة فى الغرب، وأسفرت هذه المنافسة عن انتصار السياسة الدينية للإمبراطورية البيزنطية على سياسة روما والفرنجة فى البلقان، فأصبح يدور فى فلك القسطنطينية الدينى كل من القبائل السلافية والصرب والكروات فضلا عن بلغاريا ومقدونيا[٣٠].

ويشير الامبراطور قنسطنطين السابع إلى أن الغالبية العظمى من السلاف، بعثوا إلى باسيل الأول يطلبون تعميد من لم يعمد منهم، كما أعلنوا خضوعهم وتبعيتهم لبيزنطة فأرسل إليهم باسيل مبعوثا إمبراطوريا يرافقه القساوسة الذين عمدوا من لم يعمد من أفراد هذه الشعوب كما اختار منهم أمراء ليحكموهم[٣١].

وازدادت قوة النفوذ البيزنطى فى إيطاليا على عهد باسيل الأول، وخلا الجو لبيزنطة لتحقق أطماعها فى إيطاليا بل وفى أوربا كلها، ولعل باسيل

---

(28) Runciman: Romanus Lecapenus, p. 123,

العدوى: نفسه ص ١٢٣،

Oman: op.cit. p. 493.

(29) Ostrogorsky: op. cit. p. 210.

(30) Ibid. p. 210.

(٣١) انظر قنسطنطين السابع. إدارة الإمبراطورية البيزنطية ص ١٠٨.

الأول كان يطمع فى مد نفوذه غربا كما كان الحال أيام جستنيان(٣٢). فقد دخلت بارى سنة ٨٧٦م فى حوزة البيزنطيين، ولم يبق بيد المسلمين فى تلك الجهات سوى تارنت(٣٣)، غير أن هجمات المسلمين على الساحل الغربى لإيطاليا جعلت الامبراطور باسيل عاجزا عن بسط نفوذه فى ذلك الساحل، الأمر الذى دفع البابوية إلى الاستنجاد بالغرب دون فائدة، فاضطرت فى نهاية الأمر إلى دفع الجزية للمسلمين لشراء السلام والأمن فى وسط إيطاليا(٣٤).

وما لبث المسلمون أن استولوا على جزيرة مالطة(٣٥)، وشددوا ضرباتهم فى صقلية فاستولوا على عاصمتها سيراكوز سنة ٨٧٨م(٣٦)، ولم يتوقف نشاط المسلمين البحرى فى المياه الغربية برغم محاولات الأسطول البيزنطى، بل تقرر عقد الصلح سنة ٨٨٥م بين المسلمين فى صقلية وبين البيزنطيين(٣٧)، الذين غدا لهم تواجد فى تلك المياه وفى داخل إيطاليا نفسها إذ دانت لهم بعض المدن مثل بنـفنتو وكامبانيا، وجرى إنشاء ثغرين فى كالبريا وأبوليا ومثلت بيزنطة قوة فى إيطاليا أرغمت البابوية على مداراتها فى الشئون الدينية وكسب ودها(٣٨).

أما عن إصلاحات باسيل الداخلية فقد تولى باسيل العرش وقد تفاقمت مشاكل البلاد المالية والاقتصادية نظرا لمغالاة الامبراطور السابق ميخائيل الثالث فى البذخ والإسراف وماحدث من إسرافه فى الشراب وإقباله على متع

(٣٢) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٧.

(33) Lewis: Naval Power and trade in the Mediterranean A. D. 500 - 1100, p. 138, Oman: op. cit. p. 493.
(34) Ibid. p. 138.
(35) Vasiliev: op. cit. p. 304.
(36) Oman: op.cit. p. 493.
(37) Lewis: op. cit. p. 139.
(38) Ostrogorsky: op. cit. p. 212.

الدنيا.[٣٩] لذلك وجه باسيل الأول اهتمامه إلى إصلاح أحوال البلاد المالية، فأرغم بعض المختلسين على عهد سلفه على رد ما أخذوه من أموال الدولة[٤٠]. ووقف فى وجه طبقة الأغنياء، وأظهر عطفاً واضحا على صغار الملاك وطبقة الفقراء، فاهتم بانتقاء مساعديه واختار أمناء الموظفين ليتولوا الإدارة المالية، وفعل كل مابوسعه ليحفظ على الفلاحين حقوقهم فى امتلاك الأرض مع التزام الرأفة فى تقدير ما يؤدونه من ضرائب[٤١].

والواقع أن باسيل الأول بذل جهودا مضنية فى إصلاح نظام الضرائب وطريقة جبايتها، وألزم الموظفين بإثبات ماهو مقرر من الضرائب المستحق جباتها من الناس دون إسراف أو تقصير، واشترك بنفسه فى مراجعة وفحص الحسابات والنظر فيما يرد من شكاوى الناس، وترتب على ذلك أن أخذت أحوال الرعية فى التحسن لاسيما الطبقات العاملة والفقيرة[٤٢]، فظلت تنظيمات باسيل الأول قائمة نحو قرنين من الزمان[٤٣].

علي أن إصلاحات هذا الامبراطور فى مجال التشريع هى التى منحته شهرة ذائعة، فقد اهتم بتصنيف مجموعة شاملة للقانون البيزنطى تضم القوانين القديمة والجديدة ويجرى ترتيبها ترتيبا زمنيا[٤٤]، بعد مراجعة قوانين جستنيان وإضافة الإكلوجا (المختار) التى أصدرها ليو الثالث الأيسورى، حتى جاءت مجموعة باسيل الأول مرجعا قانونيا للدولة البيزنطية حتى أواخر عهدها[٤٥]،

---

(39) Bury: Hist. of the Eastern Roman Empire, p. 176.
(40) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 51.
(41) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 52.
(42) Ibid. p. 52.

(٤٣) سعيد عاشور: أوربا ج١ ص ٤١٧.

(٤٤) العريني: الدولة البيزنطية ص ٣٤١.

(٤٥) سعيد عاشور: نفسه ج١ ص ٤١٧.

خاصة وأنه عزم على نشر هذه المجموعة باللغة اليونانية، فضلا عن اهتمامه بإضافة ما استجد من القوانين[٤٦]. وكانت الأقسام الأربعة التى تألفت منها مجموعة جستنيان (مدونة جستنيان والموسوعة والنظم والمتجددات) قد اشتهرت بضخامتها فضلا عن أنها كانت مكتوبة باللغة اللاتينية، ولهذا حرص باسيل الأول على كتابة مجموعته باللغة اليونانية، وإدخال عدد من القوانين الجديدة، ووصف باسيل محاولته لإصلاح القانون بأنها ليست إلا تنقية للقوانين القديمة[٤٧]، علي الرغم من أن هذا العمل لم يكتمل زمن باسيل الأول، واكتمل فى العصر اللاحق له بحيث صار الأساس الذى استندت إليه أعمال ليو السادس التشريعية فيما بعد[٤٨].

أصدر باسيل الأول كتابين صغيرين فى القانون وجعلهما مقدمة لعمله التشريعى الكبير أولهما المجمل Procheiron ، وصدر بأسماء باسيل وقنسطنطين وليو، ولم يكن هذا الكتاب سوى مجملا موجزا للقوانين التى تسير عليها الدولة تتناول موضوعات القانون المدنى والقانون العام أيضا منها الخطبة والزواج والملكية والمواريث وغير ذلك[٤٩]. وثانيهما المدخل Epana-goge وصدر بأسماء الأباطرة باسيل وليو واسكندر، ولم يكن سوى صورة أخرى من المجمل قصد به أن يكون مدخلا للعمل التشريعى، لكنه اشتمل على فصول جديدة حددت سلطة الامبراطور وسلطة البطريرق وسائر الموظفين[٥٠]. ويتضح من ذلك أن العمل الضخم الذى أزمع باسيل القيام به

(46) Vasiliev: op. cit. p. 339
Ostrogorsky: op. cit. p. 212.
(47) Vasiliev: op. cit. p. 339
(48) Ostrogorsky: op. cit. p. 213.
Vasiliev: op. cit p. 339
(49) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 212.

(٥٠) العرينى: الدولة البيزنطية ص ٢٤٣،

Camb. Med. Hist. V. 4, p. 212.

لم يكتمل تماما فى عصره وإنما عد المقدمة التى أقام عليها ليو السادس النهضة التشريعية فيما بعد، وإن أعطت هذه البداية دفعة كبيرة للأباطرة الذين أتوا بعد باسيل لإكمال هذا العمل وإتمامه[٥١] ويشير المؤرخون إلى أن فترة حكم باسيل الأول المقدونى وليو السادس تعتبر آخر العهود الخلاقة المبدعة فى التشريع الرومانى، لأن جمع وتنظيم ذلك التراث القانونى غدا يلائم مطالب واحتياجات العصر الجديدة[٥٢].

ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م):

اعتلى عرش الدولة البيزنطية بعد باسيل ابنه ليو السادس، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره إلا أنه اشتهر بالعلم والفصاحة، وكان قد نال قدراً كبيراً من التعليم[٥٣]، فأثبت أنه دارس وكاتب أكثر من كونه جنديا أو محاربا[٥٤]، فقد أدخله أبوه الدير وهو صبى صغير ثم وكل أمر تعليمه وتهذيبه إلى فوتيوس الشهير[٥٥]، فأصبح ليو يجمع أشتات المعارف فى عصره، إذ درس الفلسفة والمنطق واللاهوت وفنون الحرب والشعر واشتهر بميوله الكنسية واللاهوتية وأولع بالتنجيم ومعرفة الغيب، وعنى كثيرا بالقراءة وجمع المادة العلمية وتصنيف الكتب حتى اشتهر بليو الحكيم أو ليو الفيلسوف أو ليو العاقل[٥٦]. ويبدو أن إغارات العرب على آسيا الصغرى دفعت ليو هذا إلى تأليف كتاب التكتيكا Tactica[٥٧] أى التكتيك الحربى وهو كتاب يتناول

(٥١) رنسمان: الحضارة البيزنطية ص ٨٣ (مترجم).

(٥٢) جوزيف نسيم: تاريخ الدولة البيزنطية ص ١٤٨.

(53) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 56.

(54) Hussey: op. cit. p. 31.

(55) Vasiliev: op. cit. p. 331.

(٥٦) وسام فرج: دراسات ص ٢٦٠.

(٥٧) نشر فى مجموعة أعمال الآباء اليونانيين Patrologia Graeca العدد ١٠٧ سنة ١٨٦٣، ثم أعيد نشره عام ١٩٧٨.

التنظيم العسكرى للجيوش البيزنطية وخططها الحربية أراد به ليو السادس أن يكون موسوعة علمية ومرجعا هاما أمام القادة البيزنطيين(٥٨).

وعلى عكس باسيل الأول لم يكن ليو السادس يسير وفق منهج مرسوم للسياسة الخارجية فأضر ذلك بالامبراطورية ضررا بليغا، إذ عجزت الامبراطورية البيزنطية عن إحراز انتصارات تواكب ماغدت فيه الامبراطورية من تطور على عهد الأسرة المقدونية وما حدث فى الجانب الإسلامى من تداعى(٥٩). وتأتى حروبه مع المسلمين فى مقدمة علاقاته الخارجية على الرغم من أنه تعرض فى الأربع عشرة سنة الأولى من حكمه (من سنة ٨٨٦ - ٩٠٠م) لهزائم عديدة فى الشرق عند أبواب قيليقيا وفى غربها(٦٠)، وترتب على انتصار المسلمين أن زحفوا على امتداد الساحل وتوغلوا فى جوف آسيا الصغرى، ثم ما لبث المسلمون أن أحرزوا انتصارا آخر على قوات الامبراطورية سنة ٨٩٨م تجاه شاطئ آسيا الصغرى الأمر الذى دفع الامبراطور إلى استدعاء قائده الشجاع نقفور فوقاس(٦١)، الذى قدم إلى آسيا الصغرى سنة ٩٠٠م وإن لم يترتب على ذلك نتائج حاسمة فى صالح البيزنطيين كثيرا(٦٢).

كما ضغط المسلمون علي مملكة أرمينيا التى اعتبرت دولة حاجزة بين المسلمين والبيزنطيين والتى اعترفت بالسيادة للمسلمين وقبلت دفع الجزية للخليفة العباسى(٦٣)، وحينما تململت هذه الدولة وانعطفت نحو بيزنطة تعرضت لهجمات المسلمين، ولم يفدها ما لجأت إليه من طلب النجدة من

---

(58) Oman: A Hist. of the Art of War, V. I, pp. 183 - 6 (London, 1924)
(59) Oman: The Dark Ages, p. 493.
(60) Camb: Med. Hist. V. 4, p. 140.
(٦١) هو جد الامبراطور نقفور فوقاس الذى حكم من سنة ٩٦٣ - ٩٦٩م.
(62) Ostrogorsky: op. cit. pp. 227 - 8.
(63) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 140, p. 160.

الإمبراطور ليو السادس إذ اتجه إليها المسلمون وخضعت لحكمهم سنة ٩١٤ وتوفى الامبراطور قبل أن تصل إليها النجدة(٦٤)، وعلى الرغم من ذلك يشير بعض المؤرخين إلى أن ليو السادس نجح فى إضافة جزء من الأراضى الواقعة فيما بين النهرين وهى التى غدت تمثل جزءاً من ثيم العراق(٦٥).

واستمر المد الإسلامى تجاه بيزنطة فى السنوات الأولى من القرن العاشر فسيطرت البحرية الإسلامية على البحر المتوسط بل بسط المسلمون سيادتهم على بحر إيجه وجزر بحر الأرخبيل وساحل البيلوبونيز وتساليا حيث اشترك الأسطولان الإسلاميان فى الشام وكريت فى الإغارات على تلك الجهات(٦٦). فأغار المسلمون فى سنة ٩٠٢م على جزر بحر إيجه وأنزلوا الخراب والدمار بمدينة سالونيك، وبعد ذلك بعامين هاجموا الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى، بل اجتازت البحرية الإسلامية الدردنيل إلى بحر مرمرة فى طريقها إلى القسطنطينية ذاتها(٦٧)، ولكنها استدارت مرة أخرى لتهاجم سالونيك الهامة سنة ٩٠٤م، وأحرز المسلمون نصرا هائلا على البيزنطيين أسهب فى الحديث عنه المؤرخون البيزنطيون الذين عاصروا هذه الأحداث مثل جورج موناخوس وصاحب صلة ثيوفان وكدرينوس(٦٨)، فضلا عن كامينياتى أحد رجال الدين من أهالى تلك المدينة وكان شاهد عيان لغارة المسلمين عليها، وكتابه بعنوان «قهر سالونيك» وهو مدون باليونانية(٦٩). كما أشار إلى

---

(٦٤) العرينى: المرجع السابق ص ٣٧٩.

(٦٥) عاشور: أوربا ج١ ص ٤٢٠. Hussey: op. cit. p. 35

(66) Theophanes Continuatus, pp. 298 - 300
Genesius: Basileiai, L. II, p. 48.

(67) Bréhier: Vie et mort de Byznce. p. 150.

(68) Monachus: Vitae Recentiorum imperatorum, pp. 862 - 3.
Theophanes Continuatus, VI, p. 368.
وانظر إسمت غنيم: الامبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ص ١٨٥.

(٦٩) اسمت غنيم: نفسه ص ١٨٥.

هذه الغارة أيضا المؤرخون المسلمون منهم الطبرى والمسعودى وابن الأثير[٧٠]، وقاد هذا الهجوم على سالونيك ليو الطرابلسى، إذ تجمع أسطول مصر وأساطيل موانى الشام واتجه الجميع إلى كريت حيث انضم اسطول كريت، فأصبح عدد السفن نحو أربع وخمسين قطعة. ويبدو أنه كان فى نية ليو الطرابلسى مهاجمة القسطنطينية، لكنه أدرك صعوبة حصارها فاستدار متخذا طريقه إلى سالونيك، وبعد هجمات متعددة ومتنوعة بمختلف الأسلحة اقتحم المسلمون سالونيك ودارت معركة كبيرة أحرز المسلمون خلالها انتصارا باهرا[٧١] وحصل المسلمون على غنائم كثيرة وثروات عظيمة وخلصوا أسراهم وكان عددهم بين أربعة آلاف أسير وخمسة آلاف أسير حسبما أشار الطبرى وابن الأثير[٧٢]. ووقع فى أيدى المسلمين من السبى نحو اثنين وعشرين ألفا من الذكور والإناث وهم يشكلون نحو عشر سكان المدينة، كما يذكر كامينياتى[٧٣]، ولم يمكث المسلون فى سالونيك سوى نحو عشرة أيام لأنه يبدو أنهم لم يهدفوا إلا إلى جعلها غارة انتقامية لما ألحقته أساطيل بيزنطة من خسائر بالمسلمين خاصة فى كريت قبل ذلك بسنوات قليلة[٧٤]، وجاء رد فعل البيزنطيين بعد فترة، إذ حاولوا غزو كريت عام ٩٠٨م/ ٢٩٦هـ، ولكنهم لم يوفقوا، وبعد ذلك بعامين (٩١٠م) هاجموا سواحل الشام فاقتحموا اللاذقية وأسروا بعض أهلها[٧٥]، وحاولوا فى العام التالى (٩١١م)

---

(٧٠) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك ج١١ ص ٥، المسعودى: التنبيه والإشراف ص ١٨٠ ابن الأثير: الكامل ج٧ ص ١٧٤ (أحداث سنة ٢٩١هـ)

(٧١) اسمت غنيم: نفسه ص ١٩٨.

(٧٢) الطبرى: نفسه ج١١ ص ٥، ابن الأثير: الكامل ج٧ ص ١٧٤.

(٧٣) اسمت غنيم: المرجع السابق ص ١٩٩.

(٧٤) اسمت غنيم: نفسه ص ٢٠٠.

(75) Ostrogorsky: op. cit. p. 229.

غزو جزيرة كريت دون جدوى، إذ فرضوا الحصار على الجزيرة نحو ثمانية أشهر وقعت خلالها بعض الاشتباكات بين الطرفين تفوق فيها المسلمون فاضطر البيزنطيون للإنسحاب فطاردتهم سفن المسلمين بقيادة دميانة وليو الطرابلسى فألحقت بهم بعض الخسائر(٧٦).

أما فى الغرب فقد ازداد الخطر الإسلامى فى صقلية، وأخذوا يهددون كالبريا وجنوب إيطاليا ولما حاولت السفن البيزنطية التصدى لهم تجاه الساحل الشمالى لصقلية أنزلت بهم البحرية الإسلامية هزيمة ساحقة ودمرت السفن البيزنطية عن آخرها(٧٧)، ثم تقرر عقد هدنة بين الطرفين سنة ٨٩٥م ففقدت بيزنطة بذلك كل ما لها من سلطان على مياه صقلية وغرب إيطاليا(٧٨). وفى بداية القرن العاشر استولى أبو العباس بن الأغلب على ريو فى كالبريا سنة ٩١٠م ثم قاد إبراهيم بن الأغلب حملة برية وبحرية سارت من بالرمو واستولت على آخر ما كان لبيزنطة فى صقلية سنة ٩٠٢م(٧٩). وعلى الرغم من ذلك يشير المؤرخ شارل أومان إلى أن سلطة بيزنطة فى شبه الجزيرة الإيطالية ذاتها قد ازدادت فى عهد هذا الإمبراطور فقد غزت بيزنطة أبوليا واستولت عليها من أيدى أدواق بنفنتو ونفوذ مسلمى الغرب، بل إن بنفنتو نفسها غدت فى يد الامبراطور لعدة سنوات ولو أظهر شيئا من النشاط لدفع جيوشه إلى أسوار روما ذاتها(٨٠).

وفيما يختص بعلاقة ليو السادس بالبلغار فقد ميزتها الحروب لاسيما بعد

(76) Vasiliev: op. cit. p. 305.
Camb. Med. Hist. V. 4, p. 14.
(77) Lewis: Naval Power and trade, p. 139.
Camb. Med. Hist. V. 4, p. 141.

(٧٨) العرينى: نفسه ص ٣٨٠.

(79) Ostrogorsky: op. cit. p. 228
Camb. Med. Hist. V. 4, p. 14 , ابن الأثير: الكامل ج٧ ص ٣٥٠
(80) Oman: The Dark Ages. p. 494.

أن تم الامتزاج بين البلغار الحاكمين ورعاياهم الصقالبة، وأضحت دولة البلغار تشمل جانبا كبيرا من غرب البلقان، وبعد أن اعتلى العرش البلغارى سنة ٨٩٣م سيميون أعظم ملوك البلغار فى العصور الوسطى[٨١]، وكان هذا الرجل قد نشأ بالقسطنطينية وتلقى تعليمه بها وأتقن اللغة اليونانية واستهوته الحضارة البيزنطية، وعلى الرغم من ذلك فقد نشب النزاع بين بلغاريا وبيزنطة بمجرد ولاية هذا الملك الحكم، فقد حدث أن قامت بيزنطة بفرض المكوس والضرائب على التجار البلغاريين بسبب مزاحمتهم للتجار البيزنطيين فى القسطنطينية[٨٢]، فضلا عن قيام التجار البلغاريين باحتكار السلع والمتاجر البلغارية فى العاصمة البيزنطية وقيامهم أيضا بإنشاء الوكالات التجارية ونجاحهم فى إدارتها نجاحا أوغر صدور البيزنطيين وجعلهم يتقدمون بالشكوى للامبراطور[٨٣]، فوافق الامبراطور ليو على أن يتولى التجار البيزنطيون احتكار السلع البلغارية فى العاصمة بل أمر بنقل السوق البلغارية إلى سالونيك بالإضافة إلى مافرضه من ضرائب ومكوس على التجار البلغاريين[٨٤].

أثار كل ذلك حفيظة سيميون ملك البلغار (٨٩٣ - ٩٢٧م)، لاسيما وأن ليو السادس لم يحفل بما قدمه سيميون من شكاوى. ولهذا فقد احتكم سيميون إلى السيف وقام فى سنة ٨٩٤م بالإغارة على الأراضى البيزنطية فى تراقيا، وأنزل بالقوات البيزنطية هزيمة ساحقة[٨٥]، وبعث بمن أسره منهم إلى القسطنطينية بعد جدع أنوفهم، وردت الامبراطورية على ذلك بالتحالف مع المجريين النازلين فى ذلك الوقت وراء الحدود البلغارية، وأنزل المجريون الهزيمة

---

(٨١) العرينى: المرجع السابق ص ٣٧٥،

Ostrogorsky: op. cit. p. 226.

(82) Miller: The Rise and Fall of the Bulgarian Empire, 237.

(83) Ostrogorsky: op. cit. p. 237.

(84) Ibid. p. 227.

(85) Vasiliev: op. cit. p. 316.

بالبلغار وخربوا الأراضى الواقعة بشمال بلغاريا[٨٦]، بينما تهيأ لبيزنطة أن ترسل قواتها بقيادة نقفور فوقاس لاحتلال الطرف الجنوبى لبلغاريا، على حين أحكم الأسطول البيزنطى الحصار على مصب نهر الدانوب، فأضاف إلى متاعب سيميون كثيراً وأرغمه على إعادة النظر فى موقفه[٨٧].

وإذا كان سيميون قد اضطر إلى عقد الهدنة مع البيزنطيين نتيجة لهذا الضغط، فإنه ما لبث أن تحالف مع قبائل البجناك شديدة المراس[٨٨]، ونجح بمساعدتهم فى التغلب على المجريين ثم على البيزنطيين فأحرز عليهم انتصارا باهرا قرب أدرنة سنة ٨٩٦م، وتقرر عقد الصلح وقبلت بيزنطة أن تدفع جزية سنوية لمملكة البلغار، ثم أرغمت الامبراطورية على التنازل عن بعض الأراضى التى يسكنها الصقالبة فى البلقان سنة ٩٠٤م، فوحد سيميون بذلك كل القبائل الصقلبية بالبلقان تحت لواء بلغاريا وساد السلام فترة بين بيزنطة والبلغار[٨٩].

أما فيما يختص بسياسته الداخلية فقد اهتم كثيرا بالنهضة التشريعية التى بدأت فى عهد والده باسيل الأول، ولقد جعله العمل القانونى الضخم الذى تم فى عهده أوفر المشرعين إنتاجا منذ زمن جستنيان[٩٠]، برغم ما تحقق زمن والده من عمل تحضيرى كبير. فقد جرى فى عهد ليو السادس استكمال الباسيليكا Basilica التى اختصت بمراجعة وتنقيح قانون جستنيان والتى ظلت

(86) Ostrogorsky: op. cit. p. 227.
(87) Bury: Eastern Roman Empire, V. 2, pp. 224 - 6.
(٨٨) كانوا يجاورون البلغار وكثيرا ما حاربوهم وتفوقوا عليهم بقوتهم من ناحية وكثرتهم العددية من ناحية أخرى حتى هزموهم أكثر من مرة.
انظر قسطنطين السابع: إدارة الامبراطورية البيزنطية ص ٥٦ – ٥٧.
(89) Camb. Med. Hist. V. 4, 237,
Vasiliev: op. cit. 317.
(٩٠) العرينى: المرجع السابق ص ٣٤٦.

منذ ذلك الحين المرجع القانونى الامبراطورى على الرغم من أن ليو أكملها بكثير من القوانين المستحدثة[٩١]. فقد أمر ليو السادس بتأليف لجنة من كبار المشرعين لتعيد النظر فيما تم زمن والده من تشريعات، ونجحت هذه اللجنة فى إصدار مجموعة القوانين المعروفة بالباسيليكا، والتى تعتبر أضخم مجموعة للقوانين فى الامبراطورية البيزنطية فى العصور الوسطى والتى صدرت فى السنوات الأولى من حكم ليو السادس بين سنتى ٨٨٦ - ٨٩٢م[٩٢].

وتعتبر الباسيليكا مجموعة للقانون الكنسى والقانون المدنى والقانون العام، استندت إلى مجموعة قوانين جستنيان، واعتمدت على قوانين جستين الثانى وطيباريوس وأفادت من غير ذلك من القوانين الصادرة زمن كل من باسيل وليو السادس[٩٣]، وبالإضافة إلى الباسيليكا وجدت مجموعة مؤلفة من ١١٣ مرسوما إمبراطوريا من مرسومات ليو السادس عرفت بمجموعة «تصويب وتنقية القوانين». ويلاحظ أن تشريع ليو السادس يعتبر الذروة لعملية تاريخية هامة جعلت كل سلطة الحكومة فى أيدى الامبراطور، ووضعت جميع أمور الدولة فى يد موظفى الامبراطور[٩٤].

وبالنسبة لنظم الحكم فقد بدأ تحول الحكومة إلى أداة بيروقراطية، ولم يعد مجلس السناتو الذى تألف من كبار الموظفين الامبراطوريين، إلا صورة بعد أن فقد ما كان له من قبل من سلطة إدارية وتشريعية وما اكتسبه من أهمية فى القرنين السابع والثامن. ويشير المؤرخ رنسمان إلى أن الامبراطور ليو السادس لم يكن ليطيق أى تدخل من السناتو، فأخذت سلطات هذا المجلس تبطل حتى

---

(٩١) رنسمان: الحضارة البيزنطية ص ٨٤.

(٩٢) العرينى: نفسه ص ٣٤٧.

(93) Vasiliev: op. cit. p. 342.

(94) Ostrogorsky: op. cit. pp. 216 - 17.

ألغاها فى النهاية ليو السادس[٩٥]، فلم تعد الدولة سوى الامبراطور وماكان له من أداة حربية وبيروقراطية[٩٦]، وأصبح الامبراطور رئيس الدولة وسيدها يمارس سلطة لاحدود لها، ولم يجر تقييد الاستبداد الامبراطورى إلا فى الأمور الدينية مهما نجح فى فرض نفوذه وسلطانه على النظام الكنسى لأنه لايزال يعتبر علمانيا[٩٧].

أما فيما يختص بنظام الثغور فقد أصلح ليو السادس تنظيم الثيمات لتحقيق نظام أكثر فعالية فى نظم الثيمات الدفاعية، فضم بعض المناطق إلى بعضها وجعل منها ثيمات جديدة فأدى ذلك إلى تصغير حجم الثيمات من ناحية وزيادة حجم الوحدات الإدارية والعسكرية على الحدود من ناحية أخرى وزيادة قدرتها العسكرية، فغدت الثيمات فى آسيا الصغرى أصغر حجما وأكثر مرونة وفرقها أسرع حركة وأفضل أداء[٩٨]. واكتمل هذا النظام فى القرن العاشر وجرى تبسيط الإدارة المدنية بالأقاليم بما حدث من تقسيم الثغور الكبيرة إلى وحدات ثغرية صغيرة واضحت السيادة فى الثغور للقائد الحربى نظرا لما تعرضت له الإمبراطورية من الأخطار الخارجية فى الشرق وفى الغرب[٩٩]. وأحيانا كانت الحدود تدفع إلى الأمام فتنفصل لذلك كتائبها عن ألويتها الأصلية، فإذا أضيف إلى بقعتها أراض جديدة ترفع نفسها إلى مرتبة الثغور أو ألوية الثغور، وطبقا لذلك أنشأ ليو السادس لواء سلوقيا الثغرى[١٠٠]. ولقد جرى أيضا تنظيم الثغور البحرية وأضيف لها ثغر جديد وأنشئت قواعد بحرية جديدة يستخدمها الأسطول البيزنطى[١٠١]، والمعروف أن نظام الثغور ظهر على عهد

---

(٩٥) رنسمان: المرجع السابق ص ٧٨.

(96) Ostrogorsky: op. cit. p. 218.

(97) Ibid. p. 218.

(٩٨) وسام فرج: دراسات ص ٢٦٠ – ٢٦١.

(99) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 732.

(١٠٠) رنسمان: الحضارة البيزنطية ص ١٦٤ (مترجم).

هرقل واستقر زمن الأسرة الأيسورية وحدث به تعديلات كثيرة فى القرن العاشر الميلادى[١٠٢].

ولقد تأثرت الحياة الاقتصادية بما اشتهرت به الحكومة البيزنطية حينئذ من الاستبداد[١٠٣]، ولذلك انتظم تجار العاصمة بل وفى سائر المدن فى نقابات تضم فريقا معينا من التجار مثل الجزارين والخبازين وأرباب الحانات وتجار المواشى وبائعى السمك وانتعشت تجارة الشموع والعطور والتوابل وتجارة الحرير والسلع الحريرية، واهتمت الدولة بفرض سلطانها القوى على تلك النقابات، وخضع نشاط النقابات للرقابة الشديدة والإشراف الدقيق من قبل السلطات الحكومية[١٠٤].

ولقد تزايدت قوة الأرستقراطية البيزنطية فى حقل الزراعة وامتلاك الأراضى فقد صار فى عهد ليو السادس للأرستقراطية من النفوذ والسلطان ما جعلها طبقة مستقلة، والتزمت الدولة بالاعتراف بحقوقها، واشتد استبداد الأرستقراطيين حتى صار لهم الحق فى طرد الفلاحين من أراضيهم وأخذت الأمور تسرع نحو ظهور الاقطاع[١٠٥].

قنسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩م):

توفى الإمبراطور ليو السادس فى مايو سنة ٩١٢م، وترك ابنه قنسطنطين السابع ولم يتجاوز السادسة من عمره، ولهذا انتقلت السلطة إلى مجلس

---

(101) Baynes: the Byzantine Empire, p. 140.
Runciman: the Byzantine Civilization, p. 151.
(102) Ostrogorsky: op. cit. p. 219.

(١٠٣) العرينى: المرجع السابق ص ٣٦٨.

(١٠٤) رنسمان: الحضارة البيزنطية ص ٢٠٨،
Ostrogorsky: op. cit. p. 225.
(105) Vasiliev: op. cit. p. 346.

الأوصياء الذى تشكل من كبار رجال الدولة، وضم شخصيتين كبيرتين: الاسكندر - عم الامبراطور القاصر - وكذلك رجل البلاد القوى رومانوس ليكابينوس[١٠٦]، لتدبير شئون الدولة، لكن هؤلاء انصرفوا نحو التمكين لأنفسهم للاستئثار بالسلطة، فدبروا المؤامرات وتكالبوا على الحكم، ومرت الامبراطورية بفترة قلقة انتهت بقيام عم الإمبراطور الصغير (الإسكندر) بتدبير شئون الدولة حتى يبلغ قسطنطين السن التى تؤهله للاضطلاع بشئون الحكم[١٠٧].

ومع أن الاسكندر أخذ يستأثر بالسلطة لنفسه ويحاول استخلاص الحكم من الامبراطور الصغير، وأجبر الامبراطورة على الاعتزال فى الدير، وأحل فى الوظائف الهامة رجاله وأعوانه بدلا من أخلص مستشارى الامبراطور ليو، إلا أن الاسكندر لم يهنأ بذلك كثيراً إذ دهمه الموت سنة ٩١٣[١٠٨]، وبرز اسم الشخص الآخر من الرامين إلى السلطة والمتآمرين من أجلها وهو رومانوس الأول ليكابينوس Romanus I Lecapenus الذى فرض وصايته على الامبراطور الصغير وحجبه فترة استمرت أكثر من ثلاثين عاما حتى سنة ٩٤٤م نجح خلالها فى حفظ البلاد من الفتنة وأنقذها من الانقسام الداخلى[١٠٩].

انفرد رومانوس ليكابينوس بالوصاية على الإمبراطور الصبى وكان صاحب مقدرة وكفاية كما كان سياسيا قديرا ودبلوماسيا موهوبا، فضلا عن اتصافه بالنشاط والمثابرة والصبر والقدرة على اختيار الرجال الذين يعاونونه فى إدارة شئون الدولة[١١٠]، ولهذا شرع هو الآخر فى التمكين لنفسه فى الدولة، ثم

---

(١٠٦) سيد أحمد الناصرى: الروم - تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربى ص ٣١٦.
(107) Ostrogorsky: op. cit. P. 231.
(108) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 59.
(109) Ostrogorsky: op.cit. PP. 239 - 240.

مالبث أن زوج الإمبراطور قنسطنطين من ابنته، وأخذ فى إجراء بعض الإصلاحات في الدولة يكتسب بها حب الرعية ويتقرب إلى الشعب بغرض الوصول إلى المنصب الإمبراطورى(١١١) ، فى الفترة التى انصرف فيها قنسطنطين السابع إلى اللهو وأغرق فى البذخ واستغرق فى الثقافة والتأليف(١١٢)، وأهمل شئون الحكم والدولة، ولم يبد إلا اهتماما قليلا بهذه المسئولية بل ترك الوصى يدير شئون الدولة ويستأثر بالسلطة فيها، حتى تمادى هذا فى محاولة وضع أسرته محل الأسرة المقدونية وتحويل العرش إلى أسرته هو بعد التخلص من الإمبراطور قنسطنطين السابع(١١٣) .

وعلى الرغم من الخطوات التى خطاها رومانوس هذا للوصول إلى العرش، وخلع الإمبراطور الشرعى، فإن أولاد رومانوس الثلاثة(١١٤) ، أفسدوا عليه خطته وانتهى الأمر بنفيه إلى إحدى الجزر القريبة من القسطنطينية سنة ٩٤٥م، واعتقد أولاده أن الجو قد خلا لهم لتحقيق أطماعهم، إلا أن الأمر انتهى بالقبض عليهم هم أيضا وأرسلوا حيث يوجد والدهم فى المنفى، وما لبث رومانوس أن توفى فى منفاه سنة ٩٤٨م، وانتهت مرحلة قلقة فى تاريخ

---

(١١٠) هو الذى اكتشف الوزير اللامع ثيوفانيس Theophanes، وعين القائد البارع حنار كوركواس Curcuas سنة ٩٢٣ قائدا عاما للجيش أنظر:

Vasiliev: op. cit. p. 306.

وقد ظل كوركواس يتولى القيادة العسكرية لمدة اثنتين وعشرين عاما أنظر:

Theophanes Continutus, p. 426,

وسام عبد العزيز فرج: **دراسات** ص ٢٦٢ – ٢٦٣.

(111) Runciman: Romanus Lecapenus, p. 345.

(١١٢) سيد الناصرى: المرجع السابق ص ٣١٧.

(113) Ostrogorsky: op. cit. p. 240.

(١١٤) هم خريستوفروس واسطفان وقنسطنطين. أما ابنته هيلانه فقد زوجها للامبراطور قنسطنطين السابع. انظر الناصرى: نفس المرجع ص ٣١٧.

الامبراطورية البيزنطية[١١٥].

استأثر الامبراطور قسطنطين السابع بالسلطة اعتبارا من سنة ٩٤٤م، وكان قد قارب الأربعين من عمره، ولكنه كان يميل إلى حياة الدعة والرفاهية، محبا لحياة اللهو والقصور مع ميل شديد للكتابة والتأليف[١١٦]، فترك كثيرا من شئون الحكم فى يد زوجته الامبراطورة هيلانة ابنة رومانوس ليكابينوس التى ورثت عن والدها حبه للطموح والرغبة فى السيطرة والسلطان والسعى للصدارة والنفوذ ولو من وراء ستار[١١٧].

أما عن السياسة الخارجية، فكان الامبراطور ليو السادس قد حاول إخراج العرب من جزيرة كريت ولكنه فشل فى ذلك[١١٨]، بل إن خطر العرب ما لبث أن هدد أجزاء جديدة من سواحل أوربا الجنوبية، فاستولوا على مدينة ريو Raggio فى طرف شبه الجزيرة الإيطالية، وأصبحت صقلية كلها بأيدى الأغالبة[١١٩]، ولم تستطع الامبراطورية البيزنطية منع المسلمين من الغزو والتوسع، بل إن أمير القيروان أعلن أنه سوف يواصل الزحف من جنوب إيطاليا إلى روما نفسها، ولم تستطع الإمبراطورية الرد بسبب انشغالها بالأحداث فى البلقان[١٢٠].

غير أن العلاقة تشابكت مع المسلمين فى الشرق خاصة فى الفترة التى انفرد فيها الإمبراطور قسطنطين السابع بالحكم، وازداد فيها خطر الحمدانيين

---

(115) Ostrogorsky: op. cit. pp. 246 - 7.
(116) Hussey: op.cit. p. 156.
(117) Vasiliev: op. cit. p. 305, Ostrogorsky: op. cit. p. 247.
(١١٨) اسمت غنيم: المرجع السابق ص ٢٠٣ - ٢٠٤،
Camb. Med. Hist. V. 4, p. 14.
(١١٩) ابن الأثير: الكامل ج ٧ ص ٣٥٠،
Ostrogorsky: op. cit. p. 228.
(120) Ostrogorsky: op. cit. p. 227
Camb. Med. Hist. V. 4, p. 137.

فى شمال الشام وأطراف العراق، فقد استطاع زعيم الحمدانيين - وهم من قبيلة تغلب - عبد الله بن حمدان أن يحصل من الخليفة العباسى على الموصل سنة ٩٠٥م، واتخذ ولده علىّ لقب سيف الدولة، وأقام لنفسه إمارة جعل حاضرتها حلب سنة ٩٤٤م، أى فى نفس السنة التى انفرد فيها قنسطنطين بالحكم، وامتدت أملاك سيف الدولة الحمدانى من طرسوس إلى أرمينية(١٢١)، وتحول القتال بين المسلمين والبيزنطيين إلى المنطقة الممتدة من قيليقيا إلى ديار بكر(١٢٢).

ولقد أحرز سيف الدولة الحمدانى انتصارا باهرا على البيزنطيين بالقرب من مرعش سنة ٩٤٤م وسنة ٩٤٧م(١٢٣) ومنذ ذلك الوقت بدأ سيف الحمدانى حملاته السنوية على آسيا الصغرى، وظل على ذلك نحو عشرين سنة حتى توفى(١٢٤). على الرغم من أن الإخشيد صار له هو الآخر دور فى تلك العلاقات بعد أن مد سلطانه إلى منطقة الثغور بين البيزنطيين والمسلمين، ولكن وفاة الإخشيد سنة ٩٤٦م واستبداد كافور بالحكم جعل الثغور تخرج عن طاعة الإخشيديين وتنتمى إلى الحمدانيين(١٢٥). ولقد استغلت الامبراطورية البيزنطية ماتعرضت له الخلافة العباسية من ضعف واضمحلال، وما مر بها من أحداث سيئة بعد أن عبث القرامطة بأقدارها وهددوا العراق ذاته، واندلعت الفتن بين القادة والأمراء، ولعل ذلك هو الذى أدى إلى أن تقع مرعش فى أيد البيزنطيين سنة ٩٤٩م حيث اندفع البيزنطيون فى زحفهم حتى

---

(121) Ostrogorsky: op. cit. p. 244.

(١٢٢) العرينى: المرجع السابق ص ٤١٧.

(123) Canard: Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Gazira et de Syrie, T. I, pp. 758 - 61.

العرينى: نفسه ص ٤١٨.

(١٢٤) العدوى: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ١٢٤.

(125) Canard: op. cit. p. 758.

طرسوس[١٢٦]، فقد استطاع القائد البيزنطى الكبير حنا كوركواس على مدى عقدين من الزمان (٩٢٦ - ٩٤٤م) كسر حلقة التحصينات التى أقامها العرب المسلمون على حدود الامبراطورية الشرقية واتخذوها قواعد لإغاراتهم على آسيا الصغرى[١٢٧].

وفى سنة ٩٥٠م غزا سيف الدولة الحمدانى أراضى الدولة البيزنطية، واستولى على بعض الحصون وعلى عدد كبير من الأسرى، وفى طريق عودته نجح البيزنطيون فى نصب كمين له تعرض بسببه للهزيمة، ولم ينج فى بعض أصحابه إلا بصعوبة كبيرة[١٢٨]، وإن كان قد عاد فانتقم من البيزنطيين بعد ذلك بعامين فأنزل بهم هزيمة ساحقة، ثم حشد قواته سنة ٩٥٣ وتوجه إلى أعالى الفرات حيث أغار على زبطرة التى كانت تابعة حينئذ للبيزنطيين[١٢٩]، ولما تصدى له البيزنطيون قرب ملطية ألحق بهم هزيمة كبيرة، وفى طريق عودته علم بإغارة البيزنطيين على أطراف إمارته ووقوع كثير من الأسرى والمغانم فى أيديهم وعلى الرغم من أنه لم يكن معه سوى نحو ستمائة فارس إلا أنه أحرز انتصارا ثانيا على البيزنطيين، واستولى على ما فى أيديهم من الأسرى والمغانم[١٣٠].

وفى العام التالى (٩٥٤) حاول البيزنطيون الثأر فبعثوا بجيش كبير لقتال سيف الدولة تألف من عناصر عديدة منها الأرمن والترك والروس والبلغار والصقالبة والخزر، غير أن المسلمين أنزلوا بهذا الجيش الهزيمة[١٣١]، وحصدت سيوف الحمدانيين رقاب البيزنطيين حتى هلك منهم نحو ثلاثة

---

(١٢٦) أسد رستم: الروم ج٢ ص ٣٢، العرينى: نفسه ص ٤١٨.

(١٢٧) وسام عبد العزيز فرج: دراسات ص ٢٦٤.

(١٢٨) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٣٦٥.

(129) Canard: op. cit. pp. 775 - 8.

(130) Ibid. p. 775.

(١٣١) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٣٨١ - ٣٨٢.

آلاف مقاتل ووقع كثير من الأسرى فى يد سيف الدولة، ولهذا فقد التمس الامبراطور قسطنطين السابع الصلح من يد سيف الدولة سنة ٩٥٥م. وهكذا ظلت الحرب سجالا بين سيف الدولة الحمدانى وبيزنطة حتى انتهى نقفور فوقاس من حملاته فى كريت، فانضم إلى أخيه ليون فوقاس فى الشرق[١٣٢]، وتبع ذلك استعانة الامبراطور بذلك القائد الشاب الذى بدأ نجمه يلمع حينئذ وبفضل هذا القائد أخذت الأمور تتحول فى الشرق وأخذ الجيش البيزنطى يستعيد زمام المبادأة، وبدأ فى مد أطراف الدولة البيزنطية فى الشرق على حساب الحمدانيين[١٣٣]، فقويت جبهة الروم الذين أخذوا يدفعون الحمدانيين إلى الوراء حتى انتهى الأمر بحصار سيف الدولة فى حلب[١٣٤].

ويعلل باحث محدث اتجاه التوسع البيزنطى تجاه الشرق على حساب المسلمين فى الربعين الثانى والثالث للقرن العاشر الميلادى (٩٢٦ – ٩٧٥م) والانتصارات العسكرية التى حققتها بيزنطة فى هذا الاتجاه لظهور طبقة الارستقراطية العسكرية والعائلات التى شكلت هذه الطبقة فى الأناضول منذ القرن التاسع الميلادى وازدهارها فى القرن العاشر حتى أصبحت تشكل مركز قوة خطير داخل الامبراطورية[١٣٥].

ولقد شهد عصر الامبراطور قسطنطين السابع حوادث خطيرة فى الشرق إذ استولت بيزنطة على مدن كثيرة ومدت حدودها لمناطق جديدة لم تبلغها من قبل وأكدت أنها بدأت تعيش فترة إفاقة وبداية توسع خطير على حساب

---

(١٣٢) العدوى: الدولة الإسلامية ص ١٢٤.

(133) Ostrogorsky: op. cit. p. 250.

(١٣٤) العدوى: نفسه ص ١٢٤،

Canard: op. cit. T. I, p. 783.

(١٣٥) وسام عبد العزيز فرج: دراسات ص ٢٦٤.

المسلمين[١٣٦]، فلقد استولت على ملطية سنة ٩٣٤م وعلى الرها فى منطقة الجزيرة سنة ٩٤٤م وعلى مدينة مرعش الهامة سنة ٩٤٩م وعلى ديار بكر فى العام التالى (٩٥٠) وعلى آمد فى سنة ٩٥٧ وعلى سميساط سنة ٩٥٨م[١٣٧]، وحرص هذا الامبراطور رغم مشاغله العديدة واهتماماته المتنوعة وولعه بالعلوم والفنون على استثارة الحماسة وروح القتال فى نفوس رعاياه حتى عد قنسطنطين السابع الذى اشتهر بقنسطنطين بورفيروجنيتوس — هو الذى استهل عصر الحروب الصليبية فى الشرق وفى الغرب على حد سواء[١٣٨] لاسيما وأن خطر المسلمين فى الغرب قد ازداد ومرح المسلمون فى جنوب إيطاليا وصقلية وأعلن المسلمون هناك أنهم عازمون على غزو روما ذاتها[١٣٩].

أما بالنسبة لعلاقات بيزنطة مع البلغار، فقد سبق أن أشرنا إلى نشاط البلغار على عهد ملكهم سيميون الذى أعلن الحرب على الامبراطورية البيزنطية زمن ليو السادس وهى الحرب التى استمرت قرابة مائة عام، فقد انتهز سيميون فرصة وفاة ليو السادس واختلاف الأوصياء، ونهوض رومانوس الأول ليكابينوس لمحاولة الفوز بالمنصب الامبراطورى[١٤٠] حاول أن يضرب ضربته ويفرض وصايته هو على الامبراطورية البيزنطية فى زحمة هذه الأحداث، فقام بالزحف نحو القسطنطينية مباشرة واستولى فى طريقه على مدينة أدرنة سنة ٩١٤م واتخذ معسكره بقرب القسطنطينية[١٤١].

ولم يجد نفعا ما لجأ إليه البطريرق نقولا من كتابة رسائل مؤثرة إلى

(136) Ostrogorsky: op. cit. p. 250.
(137) Vasiliev: op. cit. pp. 307 - 8.
(138) Diehl: Hist. of the Byzantine Empire, p. 467,

العرينى: نفسه ص٤٢٥.

(139) Lemerle: op. cit. p. 88.
(140) Runciman: Bulgarian Empire, p. 167.
(141) Vasiliev: op. cit. p. 317.

سيميون «لا بالمداد إنما بالدمع» يثنيه فيها عن عزمه، إلا أن سيميون لم يأبه لذلك لأن حملته هذه لم يبغ من وورائها النهب والسلب أو توسيع ممتلكاته إنما كان يهدف الى إحراز التاج الامبراطورى نفسه، ولم يكن هدفه إقامة مملكة، بلغارية قوية وإنما إنشاء امبراطورية عالمية واحدة تحل مكان بيزنطة وتجمع بين بلغاريا وبيزنطة[١٤٢]، ولهذا فقد أصر على موقفه بل أنزل بالبيزنطيين منذ ذلك الوقت هزائم متلاحقة لاسيما سنة ٩١٧م، سنة ٩١٨م ثم استولى على تراقيا ومقدونيا وشق طريقه إلى القسطنطينية سنة ٩٢٤م وألقى الحصار عليها بعد أن أعلن نفسه إمبراطورا على كل من بلغاريا وبيزنطة[١٤٣]، كما أسس فى عاصمته برسلاء بطريرقية منفصلة عن بطريرقية القسطنطينية[١٤٤].

أدرك سيميون أنه لايستطيع اقتحام القسطنطينية الحصينة مالم يكن لديه أسطول قوى وقوات كافية، ولهذا مال إلى المفاوضات واشترط أن يجتمع بزعيم الدولة البيزنطية، كما اشترط أن تكون المفاوضات بينه وبين الامبراطور مباشرة وأن تتم داخل القصر الامبراطورى فى القسطنطينية وهو المعروف بقصر البلاكرن، فتم له ما أراد[١٤٥] وجرى اللقاء فعلا سنة ٩٢٤ بين سيميون والامبراطور البيزنطى، إذ أدرك الامبراطور أيضا أن الثقافة والفن يمكن أن تهزم القوة والعنف، فاستقبل الملك البلغارى فى أفخم قصور العاصمة وأكثرها ترفا[١٤٦]، وتقرر فى هذا الاجتماع عقد هدنة بشرط أن تؤدى بيزنطة للملك البلغارى جزية سنوية وتحتم على سيميون أن يرتد عن العاصمة البيزنطية[١٤٧]، خاصة وقد بلغته أنباء سيئة عن تحفز بعض القبائل والعناصر

(142) Ostrogorsky: op. cit. pp. 232 - 5.
(143) Vasiliev: op. cit. p. 318.

(١٤٤) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص ١٥٨.
(١٤٥) جوزيف نسيم: نفسه ص ١٥٨ – ١٥٩.
(١٤٦) سيد الناصرى: الروم ص ٣٢٠.

(147) Runciman: op. cit. p. 162.

المعادية للانقضاض على دولته[١٤٨]، فضلا عما لقيه سيميون من الكرم وحسن الضيافة وماشاهده من عظمة البلاط البيزنطى وأبهة الملك ومظاهر الفخامة. كل ذلك جعله يؤمن أنه ليس من السهل القضاء على ذلك التراث والحضارة العريقة[١٤٩]. بل إنه خرج من هذا الاجتماع يسبح بحمد الإمبراطور ويتغنى بعظمته ويعلن أن الإمبراطورية البيزنطية هى صاحبة العظمة والسيادة[١٥٠]. ويبدو أن مالقيه من حسن المعاملة وكرم الضيافة جعله يقلل من أطماعه ويخفف من غلوائه وجعله يؤمن أن فكرة إدماج بلغاريا فى بيزنطة لا يمكن تحقيقها ولهذا وافق على الانسحاب إلى بلاده بعد عقد الصلح عائدا إلى عاصمته برسلاء بعد أن حصل من بيزنطة على بعض الكتب وأهم المصنفات النادرة التى لاشك أمل فى أن تدفع مملكته خطوات نحو الرقى العلمى والأدبى والدينى[١٥١]، وفى نفس الوقت بدأ التيار الفنى البيزنطى يغزو بلغاريا، فظهرت قطع نادرة من الفن البيزنطى فى برسلاف (برسلاء) عاصمة البلغار، وقلد البلغاريون فنون القسطنطينية فى عمارة كنائسهم وزخرفتها، فقد أغرقت هذه الموجة الحضارية بلغاريا وجعلتها تؤمن أن القوة الغاشمة لاقيمة لها أمام الرقى والثقافة والفنون[١٥٢].

وبعد وفاة سيميون البلغارى سنة ٩٢٧م وولاية ابنه بطرس تداعت فكرة الاستيلاء علي بيزنطة وجنحت بلغاريا ولمدة تقرب من نصف قرن إلى نوع من محاكاة بيزنطة وتقليدها فى سياستها، وقل كثيراً الخطر البلغارى على الإمبراطورية البيزنطية[١٥٣]، وبدأ سلطان الملكية البلغارية فى الضعف تدريجيا

(148) Ostrogorsky: op. cit. p. 236.
(149) Baynes, Moss: op.cit. p. 354.

(١٥٠) جوزيف نسيم: نفسه ص ١٥٩.
(151) Baynes, Moss: Byzantium, p. 352
Runciman: Emperor Romanus, p. 100.

(١٥٢) سيد الناصرى: الروم ص ٣٢٠ - ٣٢١.
(153) Ostrogorsky: op. cit. p. 237.

على حين أخذ النفوذ الدينى فى الازدياد، وخاصة وأن سيميون كان قد أسس بطريرقية جديدة في بلاده كمظهر من مظاهر الاستقلال فى الشئون الدينية(١٥٤)، كما أن بيزنطة كانت آخذة بأسباب الرقى والعظمة فى النصف الثانى من القرن العاشر بفضل عدد من الأباطرة الذين وهبوها مجداً وقوة وأعادوا لها شيئا كبيرا من هيبتها فى الشرق وفى الغرب على حد سواء(١٥٥).

أما بالنسبة لعلاقات بيزنطة مع المجريين فى عصر هذا الإمبراطور، فقد ظلت علاقات عدائية بسبب محاولات المجريين الهجوم فى البلقان أكثر من مرة حيث أجبروا الإمبراطورية على دفع الجزية، ولما تكررت اغاراتهم، اضطرت الامبراطورية إلي محاربتهم ونجحت فى انزال هزيمة ساحقة بهم سنة ٩٥٨م، تداعت بعدها قوة المجريين وبدأ خطرهم يتلاشى حتى عمل بعضهم فى الجيش البيزنطى كجند مأجورين(١٥٦).

أما عن علاقات بيزنطة بالروس فقد ميزها الوفاق فى عصر هذا الإمبراطور بعد أن نشطت محاولات بيزنطة لإحتواء هذا الشعب وتحويله إلى المسيحية، ويشير المؤرخون إلى أن هذه الجهود قد أثمرت، إذ قدمت إلى البلاط البيزنطى الأميرة أولجا الوصية على العرش الروسى فى السنوات الأخيرة من عصر قنسطنطين السابع حيث استقبلت بحفاوة بالغة وجرى تكريمها بعد تعميدها على يد رجال الدين فى العاصمة ولهذا فقد بدأ عهد جديد فى العلاقات بين الشعبين(١٥٧).

أما عن سياسة الإمبراطور قنسطنطين السابع الداخلية – فقد غلبت عليه

---

(١٥٤) حوزيف نسيم: المرجع السابق ص ١٥٨.

(155) Hussey: op. cit. pp. 31 - 2.

(156) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 212

(157) Ostrogorsky: op. cit. p. 251.
Hussey: op. cit. p. 39.

نوازعه وميوله فى تسيير شئون الدولة وفى سياستها الداخلية. فالمعروف أنه شابه والده فى حبه للعلم والكتابة والتأليف، فعنى عناية خاصة بشئون التعليم فى العاصمة وفى أقاليم الإمبراطورية، وأسند مناصب الأستاذية إلى المبرزين فى شتى فروع العلم وإلى النابهين منهم، وعنى عناية فائقة بطلاب الجامعات بالقسطنطينية(١٥٨)، وأشبع قنسطنطين هوايته فى الكتابة والتأليف، فصنف عديدا من المؤلفات منها «كتاب الأقاليم» أو المناطق العسكرية، وكذلك كتاب «تنظيم الإدارة الإمبراطورية» وكتب أيضا عن حياة جده الإمبراطور باسيل المقدونى، وأظهر له كثيرا من الإحترام والتبجيل. أما كتابه عن «مراسيم القصور» أو مراسم القصور فقد ضمنه قواعد المعاملة فى البلاط وآداب السلوك وغير ذلك(١٥٩). وفى مجال الفن كان قنسطنطين عاشقا للتراث التصويرى الكلاسيكى الإغريقى فحث الفنانين على بعثه من جديد فى شكل مسيحى، ومن ثم تأثرت الحركة الفنية بذوق هذا الإمبراطور(١٦٠).

ولعل حب قنسطنطين للقصر والبلاط جعله يبدى اهتماما عظيما بالبلاط البيزنطى فجعله أبهى بلاط فى عصره، وعنى عناية فائقة بمنحه الفخامة والعظمة نظراً لدرايته الواسعة بواجبات رجال البلاط والرسوم المختلفة فى القصر(١٦١)، واهتم كذلك بالنهضة التشريعية التى كانت قد بدأت فى عهد جده وأبيه، فاختصر كتاب القوانين الإمبراطورية بغرض الإفادة منه وتسهيل الإطلاع عليه حتى لتعد فترة حكم باسيل الأول وابنه ليو السادس

---

(158) Vasiliev: op. cit. p. 362.
(159) Ostrogorsky: op. cit. p. 248.
Vasiliev: op. cit. pp. 362 - 3
Camb. Med. Hist. V. 4, p. 67
Hussey: op. cit. p. 156.

(١٦٠) سيد الناصرى: **الروم** ص ٣١٩.

(161) Vasiliev: op. cit. p. 363.

وحفيده قنسطنطين مرحلة هامة فى النهضة التشريعية التى شهدتها بيزنطة على امتداد تاريخها الطويل[١٦٢].

وعلى الرغم من أن قنسطنطين السابع كان يكن الكراهية الشديدة لصهره رومانوس الأول ليكابينوس طوال حياته، الأمر الذى بدا جليا فى كتابات قنسطنطين التى تفيض بغضا وكراهية لرومانوس خاصة فى كتاب «إدارة الإمبراطورية البيزنطية»[١٦٣]، على الرغم من ذلك فإن ماوضعه هذا الحاكم القدير (رومانوس) من خطة سياسية لمعالجة الأمور الداخلية والخارجية سار عليها من بعده قنسطنطين، يضاف إلى ذلك أن حكومة قنسطنطين السابع جرت على ما وضعه رومانوس من سياسة زراعية والتزمت بتنفيذ قراراته ومرسوماته[١٦٤]. ولعل أبرز ما سنه من قوانين تخص النواحى الاقتصادية قانون سنة ٩٤٧م الذى يحرم على الأغنياء امتلاك أراضى الفقراء، كذلك القانون الذى حرم التصرف فى الأملاك التى يعتمد عليها الجند فى معاشهم وفى تجهيز أنفسهم بأدوات القتال وغير ذلك من القوانين التى نظمت المعاملات فى الدولة[١٦٥].

رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣م):

توفى الإمبراطور قنسطنطين السابع سنة ٩٥٩م، فخلفه فى الحكم ابنه رومانوس الثانى الذى كان فى العشرين من عمره، ولكنه كان مؤثراً للذات الحياة مبالغا فى حياة الترف والتنعم منصرفا إلى مغانيه ومباذله، فقد التف حوله نفر من أهل السوء وبطانة من الأشرار، الأمر الذى دفعه إلى نقل السلطة إلى

---

(162) Ostrogorsky: op. cit. pp. 248 - 9
Camb. Med. Hist. V 4, p. 66.

(١٦٣) انظر قنسطنطين السابع: إدارة الإمبراطورية البيزنطية ص ٧٢ مثلا.

(164) Ostrogorsky: op. cit. p. 248.

(165) Ibid. p. 249.

زوجه ثيوفانو(١٦٦)، التى ظلت تحكم باسم زوجها وتسير دفة الأمور فى بيزنطة حتى وفاة زوجها رومانوس سنة ٩٦٣م، ولعل أهم ماقامت به هذه السيدة أنها استخدمت أكفأ الرجال وأصحاب المهارات، وعملت على توطيد العلاقات مع أمراء الشرق والغرب، وحاولت أن توجه جهود الدولة إلى ماوراء الحدود(١٦٧).

ولقد وقع اختيارها على القائد نقفور فوقاس وأخيه ليون فوقاس، وكان نقفور محاربا فذا وقائدا محنكا وجنديا شجاعا، برع فى الشئون العسكرية والفكر العسكرى وألف كتابا عن «مجرى الحرب» عالج فيه تنظيم الجيوش وإعدادها وتعبئة الفرق العسكرية وحشدها، وبدأ نجمه يلمع منذ أواخر عهد قنسطنطين السابع وعلى عهد رومانوس الثانى(١٦٨). وكان قد عمل فى الجبهة الشرقية فى آسيا الصغرى وأحرز بعض الانتصارات على العرب، وهو ينحدر من أسرة عريقة فى قبادوقيا وهى أسرة فوقاس التى اشتهر أفرادها بحب الجندية وممارسة القتال ضد الفرس والعرب(١٦٩)، ولمع جده المعروف باسم نقفور فوقاس أيضا وحاز شهرة كبيرة فى حروبه التى خاضها فى إيطاليا وصقلية زمن ليو السادس(١٧٠)، ولهذا وقع الاختيار على نقفور فوقاس القائد الجديد للقيام بالهجوم على القوات العربية فى كريت(١٧١).

---

(١٦٦) يشير أحد المؤرخين المحدثين فى الغرب إلى أن زوجة رومانوس الثانى هى يودوكسيا وجاراه فى ذلك أحد المؤرخين فى الشرق، ويؤكدان أنه توجد فى المكتبة الوطنية بباريس لوحة منحوته من العاج تصور المسيح وهو يعلو بقامته متوسطا رومانوس وزوجه يودوكسيا وقد وضع كلتا يديه على رأسيهما يباركهما. أنظر:

Rice: Byzantine Art, p. 175, p. 52, p. 250.

السيد الناصرى: الروم ص ٣٢١ - ٣٢٢.

(167) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 68.

(168) Finlay: Hist. of the Byzantine, Empire p.507.

اسمت غنيم: الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية ص ٢٤٧.

Oman : The Byzantine Empire, PP. 228 - 30.

(169) Hussey: op. cit. p. 31, p. 36.

(170) Ostrogorsky: op. cit. pp. 227 - 8.

(171) Camb. Med. Hist. V. 4, pp. 69 - 70.

وتم حشد جيش كبير ضم إلى جانب الجنود البيزنطيين من مختلف الثغور الأوربية ومن الثغور الآسيوية كثيرا من الجند المأجورين من الروس ومن البنادقة والأماليفيين، فضلا عن آلاف المردة والأرمن والصقالبة والبجناك والخزر[١٧٢]، كما حشد أسطول ضخم يضم مئات السفن الحربية وسفن التموين، بل بالغ بعض المؤرخين البيزنطيين فى ذكر أعدادها التى قالوا أنها تصل إلى عدة آلاف مابين سفن كبيرة وأخرى صغيرة فضلا عن سفن لنقل المؤن والخيل[١٧٣]. وأرسلت بعض السفن الحربية إلى الشرق لتمنع أية مساعدة قد تأتى إلى كريت من بلاد الشام وتحول دون نهوض الأساطيل الإسلامية فى شرق البحر المتوسط لمساعدتها[١٧٤].

واهتم البيزنطيون هذه المرة بفتح الجزيرة التى سيطر عليها العرب، وأصبحت حائلا دون تجارة بيزنطة مع العالم الغربى، ومركزا للقوات الإسلامية لتهديد السواحل البيزنطية[١٧٥]. ووصل الأسطول البيزنطى إلى سواحل كريت فى صيف سنة ٩٦٠م / ٣٤٩هـ ونزل الجيش على سواحلها دون مصاعب، وأمر نقفور فوقاس بأن تلتف سفن الأسطول لتحيط بالجزيرة ولتحول دون وصول الإمدادات الإسلامية إليها[١٧٦]، ثم مالبث الجيش البيزنطى أن ألقى الحصار على مدينة الخندق عاصمة الجزيرة برا بينما حاصرتها السفن

---

(172) Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 476,
إسمت غنيم: المرجع السابق ص ٢٤٨.

(173) Symeon Magistri, p. 758,
اسمت غنيم: نفسه ص ٢٤٨.

(174) Lewis: Naval Power and trade, pp. 185 - 6
العرينى: المرجع السابق ص ٤٣٦.

(175) Ostrogorsky: op. cit. p. 252.

(176) Leon Diaconus, pp. 7 - 8
Theophanes Continuatus, p. 476,
يحيى بن سعيد الأنطاكى: التاريخ المجموع على التحقيق ص ٨٤
اسمت غنيم: المرجع السابق ص ٢٥٠.

بحرا وضيق البيزنطيون عليها وانساحوا فى الجزيرة ينهبون ويفسدون، وكانت الخندق حصينة منيعة الأمر الذى أطال الحصار عندها إلى سنة ٩٦١م[١٧٧]، على حين لجأ أمير كريت عبد العزيز بن عمر بن شعيب إلى التماس المساعدة من الفاطميين فى شمال إفريقيا والأمويين بالأندلس[١٧٨]، وفى نفس الوقت أرسل إلى الدولة الإخشيدية سفارة يطلب المساعدة بينما كان كافور يتولى السلطة الحقيقية فى مصر ويحجب أبا القاسم أنوجور بن الإخشيد، ويبدو أن السفارة وصلت فى الوقت الذى اشتد فيه الصراع بين الرجلين، فلم يكن بوسع كافور أن يرسل نجدة إلى كريت وهو يحاول تأكيد سلطته فى مصر فتظاهر بإعداد أسطول لنجدة كريت ثم ما لبث أن تقاعس عن ذلك[١٧٩].

وعلى الرغم من المساعدات التى قدمها الفاطميون، إلا أن المعركة أمام الخندق التى جرت بين البيزنطيين بقيادة نقفور فوقاس والجيش الإسلامى من أهالى كريت وما انضاف إليه من النجدة الفاطمية حتى بلغ عدده نحو أربعين ألف جندى، انتهت بهزيمة المسلمين[١٨٠]، ونجح البيزنطيون فى فتح ثغرة فى أسوار المدينة، فتدفق البيزنطيون فى المدينة وذلك فى مارس سنة ٩٦١م/ المحرم سنة ٣٥٠هـ، فأحدثوا بها مذبحة بشرية رهيبة راح ضحيتها عدد كبير من المسلمين ووقع فى أيدى البيزنطيين كثير من الأسرى[١٨١]، وما لبث نقفور

(177) Leon Diaconus, p. 11,

اسمت غنيم: نفسه ص ٢٥١.

(178) Theophanes Continutus, p. 477,

ابن الأثير: الكامل ج٧ ص ٥

(١٧٩) النعمان: المجالس والمسايرات ج٢ لوحة ٤١٦ (مخطوط بجامعة القاهرة رقم ٢٦٠٦٠)

وانظر اسمت غنيم: نفس المرجع ص ٢٥٢ - ٢٥٣.

(180) Ostrogorsky: op. cit. pp. 251 - 2.

(١٨١) اسمت غنيم: نفسه ص ٢٦٢.

أن أخضع بقية الجزيرة وأعاد تنظيم الإدارة البيزنطية فيها، وتم إعادة هذه الجزيرة إلى حظيرة الدولة البيزنطية، فعاد الهدوء والأمن إلي بحر الأرخبيل بعد أن تعرض زمنا طويلا لغارات المسلمين، وعادت كريت من جديد موقعا بيزنطياً متقدماً لصد غارات مسلمى شمال إفريقيا وآسيا الصغرى[١٨٢].

ولقد تردد صدى هذا الانتصار في العاصمة البيزنطية، فاستقبلت الجماهير هناك أنباء انتصار نقفور فوقاس فى كريت بفرح بالغ وحظى هذا القائد بشهرة كبيرة وشعبية عظيمة، وأطلق عليه الناس هناك لقب Kallinixos أى الظافر وما لبث أن استقبل فى العاصمة استقبال الأبطال، وأقيم لذلك احتفال مهيب استعرض خلاله أسراه من المسلمين وعلى رأسهم حاكم كريت السابق عبد العزيز بن شعيب وأبنائه فضلا عن وجهاء المسلمين من كريت بالإضافة إلى ما حمله من الأموال والمتاع[١٨٣].

ولم يمض إلا وقت قليل حتى أبدى نقفور اهتماما بالغا بموطنه فى آسيا الصغرى وجبهة القتال هناك، إذ كان على معرفة تامة بشئون الحرب فى هذه الجبهة الشرقية مع المسلمين، كذلك اتضح لحكام العاصمة مدى ما حازه نقفور من خبرة عسكرية وإتقان لفنون الحرب وما اكتسبه من حنكة فى تدريب الجيوش والتخطيط لها[١٨٤]، الأمر الذى جعل حكام بيزنطة يختارونه مرة ثانية ليحارب ضد مسلمى الشرق لاسيما وأن سيف الدولة الحمدانى كان قد انتهز فرصة انشغال الجيش البيزنطى بالعمل فى كريت وقام بمهاجمة

---

(182) Leon Diaconus, p. 28,

اسمت غنيم: المرجع السابق ص ٢٦٣.

(183) Leon Diaconus, p. 28
Zonaras, p. 494,

اسمت غنيم : نفسه ص ٢٦٣.

(١٨٤) سيد الناصرى: الروم ص ٣٢٢.

الأراضى البيزنطية(١٨٥) حيث أمعن فى نهب القرى والمدن وأحرق عدة حصون وأخذ من الغنائم والسبى والأسرى الشئ الكثير(١٨٦)، ولهذا فقد جرى حشد الجيش البيزنطى سنة ٩٦١م وتألف من نحو مائة وستين ألف جندى تحت قيادة نقفور فوقاس.

وفى هذه الحملة استولى نقفور على عين زربة وأحدث بها مذبحة بشرية رهيبة(١٨٧)، ويبدو أنه كان يقصد باستيلائه على تلك المدينة التحكم فى الطريق المباشر الذى يمتد من قيصرية إلى حلب توطئة لمهاجمة سيف الدولة الحمدانى فى عاصمته(١٨٨) واستولى أيضا على نحو أربع وخمسين موضعا، وقتل وأسر وسبى وأظهر شدة وصرامة وغلظة حتى يلقى الرعب فى نفوس المسلمين، ولهذا فقد استأمن له كثير من الحصون والقلاع، ولكنه كان فى بعض الأحيان ينقض عهده ويقتل المستأمنين له ويسفك دماء الأبرياء(١٨٩)، وتم له فى النهاية التحكم فى إقليم قيليقيا ثم اضطر إلى العودة إلى العاصمة على أن يعود من جديد إلى المنطقة ليواصل أعماله ضد المسلمين وليحارب سيف الدولة صاحب حلب ويقضى على هيبته(١٩٠).

ويشير المؤرخ أوستروجورسكى إلى أن انتصارات نقفور فوقاس فى منطقة قيليقيا قد استأصلت أكثر مراكز العرب خطورة فى آسيا الصغرى فى الوقت

---

(185) Ostrogorsky: op. cit. p. 252.

(١٨٦) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٤٨٥ - ٤٨٦ (ط بيروت سنة ١٩٦٦)، ص ٥٠٨ص ٥١٧، ص ٥٣١ - ٥٣٢.

(187) Ostrogorsky: op. cit. p. 252.

(188) Canard: op. cit. p. 806,

ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٤٩٩ - ٥٠٠.

(189) Canard: op. cit. pp. 806 - 7,

ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٥٠٠.

(190) Canard: op. cit. p. 807.

الذى أزال استيلاء البيزنطيين على كريت أهم قواعدهم فى شرق البحر المتوسط[١٩١] وفى أواخر عام ٩٦٢م خرج نقفور على رأس جيشه مرة أخرى قاصدا الشام وحلب بالذات، فاستولى على بعض المدن التابعة لإمارة حلب منها منبج التى كان يلى أمرها الفارس الشجاع أبو فراس الحمدانى الذى وقع فى أسر البيزنطيين بعد معركة أظهر فيها شجاعة فائقة، ولكنه جرح ووقع فى الأسر[١٩٢]، على حين خرج سيف الدولة الحمدانى وعسكر بجنوده بالقرب من المدينة ليمنع البيزنطيين عنها، ولكن نقفور ألحق به الهزيمة ونجح فى اقتحام حلب حيث أعمل السيف فى أهلها وسبى منهم الكثيرين[١٩٣] وتقهقر سيف الدولة ولم يستطع أن يمنع نقفور عن عاصمته، على حين صمدت قلعة المدينة وأخذت تحارب البيزنطيين بشجاعة فائقة، وقامت حاميتها بتخطف رجال نقفور الذين انصرفوا إلى النهب والسلب وبعد أن بقى نقفور تسعة أيام فى المدينة ارتد عنها[١٩٤]، ربما لخوفه من أن يباغته سيف الدولة فيها ولبقاء القلعة بأيدى الحلبيين وصمودها أمامه. ويبدو أنه اكتفى بإنزال الهزيمة بسيف الدولة وتخريب عاصمته وسبى الآلاف من أهلها وإطلاق سراح من بها من أسرى البيزنطيين[١٩٥]، فقرر الإنسحاب لاسيما وقد ترددت أنباء باستعداد الجيوش الإسلامية للمسير إلى حلب من دمشق وبغداد وغيرها من العواصم بعد إعلان حالة الجهاد فى أنحاء العالم الإسلامى لصد هذه الموجة المبكرة من الاعتداء شبه الصليبى على الأراضى

---

(191) Ostrogorsky: op. cit. p. 252.

(١٩٢) مسكويه: تجارب الأمم. ج٢ ص ١٩٢ (ط مصر سنة ١٩١٥)،
Canard: op. cit. p. 809.

(١٩٣) ابن الاثير: الكامل ج٨ ص ٤٠١،
مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ١٩٢.

(194) Canard: op. cit. pp. 814 - 15,
مسكويه: تجارب الأمم ح ٢ ص ١٩٣.

(195) Canard: op. cit. p. 814.

الإسلامية[١٩٦]، ولكن مجرد استيلائه على المدينة بعض الوقت أكسبه شعبية عارمة، وأصبح نقفور أكثر شهرة من الإمبراطور رومانوس الثانى نفسه[١٩٧].

وهكذا ترتب على حملات نقفور فى عهد الإمبراطور رومانوس الثانى أن استولى البيزنطيون على قليقيا وعلى معظم الحصون والقلاع الواقعة بهذا الإقليم وفى المنطقة الممتدة من نهر الفرات حتى جبال أمانوس[١٩٨]، كما ترتب على هذه الحملات أن لحقت الهزيمة بسيف الدولة وضاعت هيبته، وكان يمثل قوة هائلة فى شمال الشام ويحظى بشهرة ذائعة فى العالم الإسلامى كله لطول جهاده ضد البيزنطيين ولانتصاراته عليهم، كما ترتب على هذه الحملات أن فتح الطريق أمام الجيوش البيزنطية إلى بلاد الشام بعد أن أزال نقفور كثيرا من القلاع والحصون التى عاقت تقدم البيزنطيين من قبل[١٩٩].

وليس هناك شك فى أن ارتداد نقفور عن حلب سنة ٩٦٢م كان ارتدادا مؤقتاً، وأنه كان يعتزم العودة إليها فيما بعد، خاصة بعد أن هيأ السبيل لنفسه لمزيد من الانتصارات فى هذه الجهات، ولم تكن عودته إلى العاصمة البيزنطية إلا بسبب طموحه ورغبته فى الفوز بالمنصب الإمبراطورى، بعد أن ساءت صحة الإمبراطور القائم وتهيأت الفرصة لنقفور لاحتلال الصدارة واعتلاء العرش البيزنطى[٢٠٠].

---

(١٩٦) مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ١٩٤
ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٤٠٢.

(١٩٧) سيد الناصرى: الروم ص ٣٢٣.

(198) Canard: op. cit. 812,
ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٤٠١.

(199) Ostrogorsky: op. cit. p. 252
Canard: op. cit. p. 806.

(٢٠٠) مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ١٩٢
العرينى: الدولة البيزنطية ص ٤٦٠.

وبوفاة رومانوس الثانى سنة ٩٦٣م انتهى النصف الأول من عصر الأسرة المقدونية حكم خلاله أربعة من الأباطرة هم باسيل الأول وليو السادس وقسطنطين السابع ورومانوس الثانى شهدت بيزنطة إبان حكمهم بداية افاقة عظيمة ونشاط فى كافة الميادين ومدت نفوذها إلى جهات لم تبلغها منذ قرون وأرهص هذا القرن بفترة أخرى أكثر نشاطا وعظمة فى تاريخ هذه الأسرة البيزنطية.

النصف الثانى من عصر الأسرة المقدونية (٩٦٣ - ١٠٥٧م):

وبنهاية النصف الأول تقريبا من عصر الأسرة المقدونية بزغت حقبة هامة وخطيرة فى حياة بيزنطة تولى خلالها ثلاثة من أعظم أباطرة بيزنطة على الإطلاق: نقفور فوقاس وحنا زمسكيس وباسيل الثانى، حتى اعتبر عصرهم العصر الذهبى لعهد هذه الأسرة الكبيرة[1]. ولقد نجح هؤلاء الأباطرة فى إخراج بيزنطة إلى سياسة الهجوم على المسلمين لأول مرة بعد أن لزمت سياسة الدفاع لمدة تزيد على ثلاثة قرون منذ الفتوحات الإسلامية الأولى، ونجح هؤلاء فى مد حدودها فى بلاد الشام وأعالى الرافدين وإلى مناطق كانت قد فقدتها وخضعت للمسلمين طوال تلك القرون[2]، كما آثار هؤلاء الأباطرة روح الحرب والقتال فى نفوس رعاياهم وتطلعوا إلى الإستيلاء على الأراضى المقدسة المسيحية من يد المسلمين واستعادتها، فاصطبغت الحرب منذ النصف الثانى للقرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) بصبغة صليبية وميزها نوع من الحماسة الدينية والإثارة الروحية التى سبقت بها بيزنطة الغرب الأوربى بنحو قرن ونصف من الزمان وعد ذلك مقدمات للعدوان الصليبى على الشرق[3]، ولهذا فقد كتب أحد هؤلاء الأباطرة وهو نقفور فوقاس فى عام ٩٦٤م رسالة إلى الخليفة العباسى المطيع لله يتوعده فيها بالتنكيل وينذره بأنه قادم إلى الشرق لاجبار العرب المسلمين على إخلاء بلاد الشام وأطراف العراق والإنسحاب إلى قلب الجزيرة العربية، وأنه سينتزع منهم حتما الأراضى المقدسة فى فلسطين وبيت المقدس[4].

---

(1) Hussey: op. cit. p. 31,

الناصرى: الروم ص ٣٣٠

(2) Ostrogorsky: op. cit. p. 258.
(3) Ibid. p. 257.

(٤) سيد الناصرى: الروم ص ٣٢٧.

والواقع أن الإفاقة التى شهدتها بيزنطة فى النصف الثانى من ذلك القرن ابتداء من عهد نقفور فوقاس صادف أن عاصرت – للأسف الشديد – مرحلة قلق وتفكك فى الجبهة الإسلامية بعد أن ضعفت الخلافة العباسية وتقلص نفوذها[٥]، وأخذ البويهيون الفرس يهيمنون على أقدارها فى العراق، وانسخلت الأقاليم عن حكمها وبدأت نزعة انفصالية تجتاح أملاكها فى بلاد الشام وفلسطين ومصر وشمال إفريقيا، وعانت الدويلات المشتركة فى الحدود مع الدولة البيزنطية نتائج هذا الإنقسام والتفكك[٦]، ولم تستطع أن تعتمد على نجدات من قبل الخلافة العباسية أو من قبل الأمراء المحليين الذين بدأ كل منهم يحرص على مابيده من أملاك ماضيا فى تكريس انفصاله حريصا على تدعيم استقلاله[٧].

نقفور فوقاس (٩٦٣ – ٩٦٩م):

ترك الإمبراطور رومانوس الثانى طفلين هما باسيل الذى كان فى السادسة من عمره وقسطنطين الذى لم يتجاوز الثالثة من عمره تحت وصاية أمهما الإمبراطورة ثيوفانو، وكانت فى ذلك الوقت فى العشرين من عمرها ولديها رغبة ملحة فى التمسك بالسلطة وتسيير دفة الحكم من خلال وصايتها على ولديها[٨]، رغم معارضة كبير وزرائها برنجاس، ولهذا اتصلت ثيوفانو بنقفور فوقاس سرا ودعته إلى القسطنطينية لتستعين به فى القبض على زمام السلطة

---

(٥) المسعودى: التنبيه والإشراف ص ٤٠٠.

يحيى بن سعيد الأنطاكى: التاريخ المجموع على التحقيق ص ١٠٣ – ١٠٤.

(٦) ابن العديم: زبدة الحلب ج١ ص ١١٢ (تحقيق سامى الدهان)، يحيى بن سعيد: نفسه ص ٦٩.

(٧) مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٢٠١، ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٥٤٠ – ٥٤١.

ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٧١، ابن العديم: زبدة الحلب ج١ ص ١٤٩.

(8) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 70.

والوقوف فى وجه المعارضين لها فى الدولة[٩]، على حين نادت فرق الجيش بنقفور إمبراطورا وتحمس اثنان - من أقرب القادة إلى نقفور - هما حنا زمسكيس وكوكواس للمناداة بنقفور إمبراطورا، فزحف هذا إلى القسطنطينية لإحباط مؤامرات أعدائه فيها ودخلها فى منتصف اغسطس سنة ٩٦٣م، وجرى تتوجيه إمبراطورا فى كنيسة القديسة صوفيا[١٠]. ولم يسعه إلا أن يعلن رعايته لحقوق ولدى الإمبراطور الراحل: باسيل وقنسطنطين واشتراكهما معه فى الحكم وأنه ليس إلا قسيما لهما فى السلطة[١١]، ولم يمض أكثر من شهر على تتويج نقفور حتى تزوج ثيوفانو التى كانت لاتزال شابة بينما كان نقفور قد تجاوز الخمسين[١٢].

وإلى جانب ما امتاز به نقفور من صفات عسكرية ومهارة فى القتال وحسن القيادة فقد حاز صفات أخرى جعلت منه شخصية مهابة لدى الخاص والعام، فقد مال إلى الصرامة والخشونة، والبعد عن الترف والأبهة مع ميل شديد للتقوى والورع والرغبة فى مصاحبة النساك ورجال الدين مع إظهار الزهد والتقشف الشديد حتى قيل أنه كان ينام على جلد نمر خشن على أرض حجرته ويأخذ نفسه بالشدة والقسوة واتسمت حياته بالبساطة والزهد كما أن الصلاة ومجالسة رجال الدين كانت متعته الروحية الوحيدة، ولهذا فقد اعتبر نقفور فوقاس محاربا وراهبا فى وقت واحد[١٣].

شرع نقفور بعد توليه العرش فى تنظيم شئون الدولة وإحلال أنصاره والمقربين إليه محل كبار المسئولين فى الحكومة السابقة والقادة القدامى، فعهد

(9) Ibid . P. 71.
(10) Diehl, Marcias: Le mond oriental, p. 467.
(11) Camb. Med. Hist. V. 4, pp. 71 - 2.
(12) Diehl, Marcias: op. cit. p. 468.
(13) Ostrogorsky: op. cit. p. 253
Oman: The Byzantine Empire, pp. 229 - 30
Finlay: op. cit. p. 507.

بالقيادة العليا فى الشرق إلى القائد العظيم حنا زمسكيس، على حين عين أخاه ليو فوقاس زميله فى السلاح قائدا عاما فى الغرب، كما عين أحد كبار المؤيدين له رئيسا لمجلس السناتو[١٤] فى الوقت الذى تقرر فيه عزل برنجاس وإلحاقه بأحد الأديرة خارج العاصمة، فلزم ذلك الدير حتى وافته منيته بعد ذلك بسنوات قليلة، وبدا أن الأمر قد أخذ يستتب لنقفور فوقاس فى الحكم[١٥].

ويستمد عهد نقفور فوقاس أهميته من الانتصارات التى تحققت لبيزنطة فى الميدان الخارجى خاصة ضد العرب، حتى ليمكننا القول أنه ابتداء من عصر هذا الامبراطور بدأت بيزنطة تأخذ زمام المبادأة مع العرب، بعد تفكك جبهتهم واضمحلال قواهم وبعد أن ضعفت الخلافة العباسية وتقلص نفوذها وانسلخت الأقاليم عن حكمها واجتاحت أملاكها نزعة انفصالية[١٦]، فأفاد نقفور فوقاس من هذه الظروف الملائمة أيما إفادة فقد استقلت الدولة الطولونية بحكم مصر ومدت نفوذها إلى الشام، وما لبثت الدولة الإخشيدية أن قامت بعد ذلك فى مصر وفى جزء من بلاد الشام فترة تقرب من خمسة وثلاثين عاما (٩٣٥ - ٩٦٩م)، ودخلت فى صراع مع الحمدانيين[١٧] الذين نجحوا - كما سبق أن أشرنا - فى تأسيس إمارة لهم فى شمال العراق وشمال الشام، وبرز سيف الدولة الحمدانى فى حلب بصفة خاصة مؤسسا إمارة استمرت قائمة فى الفترة بين سنتى (٩٤٤ - ١٠٠٣م) وجعل من حلب عاصمة له ودخل فى حوزته حمص وأنطاكية واللاذقية وشيزر وحماة، وراح يتصدى

(14) Ostrogorsky: op. cit. p. 252.
(15) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 72.

(١٦) المسعودى: التنبيه والإشراف ص ٤٠٠،

يحيى بن سعيد الأنطاكى: التاريخ ص ١٠٣ - ١٠٤

(17) Canard: op. cit. pp. 576 - 83,

ابن العديم زبدة الحلب ج١ ص ١١١ - ١١٩.

لهجمات البيزنطيين ويشن الحرب عليهم فى غير هوادة دون أن يلقى معاونة صادقة من جيرانه المسلمين أو من الخلافة العباسية المتهالكة(١٨). وهكذا لم يكن ما أحرزه نقفور فوقاس من انتصارات على المسلمين راجع إلى قوته بقدر ما كان راجعا إلى ضعف المسلمين وتفكك دولتهم فى تلك المرحلة(١٩).

أما عن حروب نقفور فى الشرق، فكان قد أحرز بعض الانتصارات على الدولة الحمدانية سنة ٩٦٢م، قبل أن يتولى العرش بل وصل إلى حلب واقتحمها لكنه اضطر إلى الإرتداد عنها للأسباب التى أسلفناها، وعقب عودته إلى القسطنطينية وانشغاله بأمر التاج جرت أمور بالجبهة الشرقية جعلته يفكر فى معاودة الكرة فى الشرق(٢٠). ذلك أن سيف الدولة الحمدانى نهض فى سنة ٩٦٣م (٣٥٢هـ) فأغار على الأراضى البيزنطية فى آسيا الصغرى وأحرز عددا من الانتصارات، واستولى على كثير من المغانم والأسرى الأمر الذى دفع البيزنطيين إلى العودة من جديد للهجوم على القلاع والحصون الإسلامية فى قيليقيا، وتولى القيادة العليا فى هذه المرة القائد حنا زمسكيس (ابن الشمشقيق)(٢١).

وعلى الرغم من الجهود التى بذلها هذا القائد الجديد، إلا أنه لم يستطع

---

(18) Canard: op. cit. pp. 512 - 60,

يحيى بن سعيد: التاريخ ص ١١٠ - ١١١، ص ١١٥

اسمت غنيم: المرجع السابق ص ٢٤٠.

(19) Camb. Med. Hist. V. 4, pp. 276 - 7.

(20) Canard: op. cit. p. 818,

ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٤٠٦

مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٢٠١.

(21) Canard: op. cit. p. 818,

ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٥٤٤

مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ١٩٩ - ٢١٠.

أن يحسم الأمور فى قيليقيا، وبقيت المصيصة وأدنه وطرسوس بأيدى المسلمين وارتد حنا زمسكيس عن قيليقيا لشدة الغلاء وقلة الأقوات[٢٢]، لكنه كان قد نجح فى إحراز بعض الانتصارات الجزئية على المسلمين ومن بينها قضاؤه على بضعة آلاف فى معركة على تل لجأ إليه هؤلاء وراحوا يقاتلون قتال الأبطال وقتال اليائسين فهلك معظمهم حتى اصطبغ التل بالدم، واشتهر ذلك التل باسم «تل الدم» وذاع خبر هذه الكارثة فى سائر أنحاء العالم الإسلامى حتى أمسى اسم ابن الشمشقيق (زمسكيس) رمزا للرعب والخوف، ومهدت هذه الشهرة لزمسكيس لإحراز مزيد من الانتصارات فى الفترة اللاحقة بعد توليه العرش[٢٣].

وبحتم على نقفور أن يأتى بنفسه لقيادة الجيوش، بعد أن استتب له الأمر فى العاصمة، ونظم شئونها، وتعتبر الفترة من منتصف سنة ٩٦٤م حتى وفاة نقفور مرحلة بالغة الأهمية فى سياسة بيزنطة الخارجية، نهض فيها هذا الإمبراطور بعبء الحرب ضد المسلمين، وحقق فيها انتصاراته الكبيرة، ولو امتد به الأجل قليلا لاستطاع أن يدفع أطراف الدولة البيزنطية إلى الهند شرقا وإلى المحيط الأطلسى غربا، كما أشار إلى ذلك المؤرخون المعاصرون واللاحقون[٢٤]. ويمكن تقسيم هذه المرحلة إلى ثلاث حلقات من الصراع الذى خاضه نقفور فى الشرق.

استغرقت الحلقة الأولى سنتى ٩٦٤٤م ، ٩٦٥م ، ونجح الإمبراطور فيها فى تحطيم نقط الارتكاز الإسلامية فى إقليم قيليقيا، فاستولى على أدنة Adana

(22) Canard: op. cit. p. 818,

ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٤٠٨

مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٢٠٢.

(23) Canard: op. cit. p. 819,

العرينى: الدولة البزنطية ص ٤٧٤.

(24) Leonis Diaconis: Historiae, leber 11, pp. 25 - 8
Vasiliev: op. cit. p. 309.

وعلى المصيصة Mamistra وعلى طرسوس، وهى المعاقل الرئيسية للمسلمين فى إقليم قيليقيا المتاخم لحدود الشام من الشمال(٢٥). وكانت المصيصة وطرسوس من أبرز معاقل المسلمين فى المنطقة وبفتحهما انفتحت السبل والدروب إلى بلاد الشام. ولقد أحدث فى المصيصة مذبحة بشرية رهيبة وساق إلى القسطنطينية نحو مائتى ألف شخص على حد قول الروايات(٢٦). أما طرسوس فإن أهلها استأمنوا له بعد أن يئسوا من وصول نجدات سيف الدولة فنجوا مما تعرض له أهل المصيصة لكنه هجر أهلها إلى البلاد الأخرى وحولها إلى مدينة مسيحية(٢٧). وجدير بالذكر أن سيف الدولة لم ينهض فى ذلك الوقت للوقوف فى وجه نقفور نظرا لانشغاله بإخماد الثورات والفتن التى تعرضت لها دولته، بعد أن أعلن نفر من قادته العصيان عليه فترك مدن وحصون قيليقيا للمصير المحتوم(٢٨).

وفى الحلقة الثانية وهى التى استغرقت سنتى ٩٦٦، ٩٦٧م، تقدمت القوات البيزنطية فهاجمت مدن شمال الشام وإقليم الجزيرة فى أقصى شمال العراق فاستولى نقفور على بالس، وأحرق أرباض منبج وتوجه إلى حلب وحدثت بينه وبين سيف الدولة مراسلات وطلب فيها الأخير عقد الصلح على أن يؤدي للإمبراطور بعض الأموال(٢٩)، ولكن نقفور رفض واشترط أن يتنازل له سيف الدولة عن نصف بلاد الشام، لكن سيف الدولة رفض، وحدثت بين الطرفين بعض الاشتباكات، فتوجه نقفور ناحية أنطاكية، فألقى الحصار عليها لمدة ثمانية أيام فلم يستسلم أهلها فى الوقت الذى أخذ الجيش

---

(٢٥) سيد الناصرى: الروم ص ٣٢٨.

(٢٦) مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٢١١، ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٤١٤.

(27) Canard: op. cit. pp. 821 - 22,

مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٠٢، ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٥٤٧

(28) Canard: op.cit. pp. 824 - 8,

مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٢١٢ - ٢١٣.

(29) Ostrogorsky: op. cit. p. 257.

البيزنطي يفتقر إلى المؤن والعلوفة، فاستقر رأى نقفور على الانسحاب عائدا إلى بلاده[٣٠] فى أوائل سنة ٩٦٧م لاسيما وقد وافته أخبار تتطلب سرعة ارتداده لمواجهة مايعن من مشاكل هناك[٣١]. وفى هذا الدور عاث نقفور الفساد فى بلاد الشام ذاتها وأحرق وخرب كثيرا من مواضعها، ولم ينجح سيف الدولة الحمدانى فى وقف تقدم الجيوش البيزنطية، ثم ما لبث سيف الدولة أن جاز إلى ربه فى فبراير سنة ٩٦٧م[٣٢]، وفى نفس الوقت ركدت مشروعات بيزنطة فى الشرق نحو عام ونصف انشغل فيها نقفور بحرب البلغار فى جبهة البلقان[٣٣].

على أن الحلقة الثالثة من الصراع ما لبثت أن وافت واستغرقت عامى ٩٦٨، ٩٦٩م حتى وفاة نقفور، استأنف فيها نقفور حروبه فى الشرق خاصة بعد أن آل الحكم فى الإمارة الحمدانية إلى سعد الدولة الحمدانى ابن سيف الدولة الذى لم تكن له همة والده وما اشتهر به والده من المهارة فى الشئون السياسية والعسكرية، بل إنه ورث تركة مثقلة بالهموم والأعباء[٣٤]، فجرت الحرب بين بيزنطة والقوى الإسلامية بالشرق بعد أن أضحى الحمدانيون من الضعف بحيث تعرضوا لخطر البويهيين من ناحية والفاطميين من ناحية أخرى[٣٥]، فى الوقت الذى انصرفت فيه بيزنطة إلى مواصلة خطة الهجوم والتوسع.

(30) Canard: op. cit. p. 826, Ostrogogrsky: op. cit. p. 257,
مسكويه: نفسه ج٢ ص ٢٢١، ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٤٢٣

(31) Diehl, Marcias: op. cit. pp. 470 - 6.
Ostrogorsky: op. cit. p. 259.

(٣٢) مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١،
Canard: op. cit. p. 826.

(33) Ostrogorsky: op. cit. pp. 259 - 60.

(٣٤) انظر محمد الشيخ: الإمارات العربية فى بلاد الشام ص ٧٩.

(35) Grousset: L'Empire du Levant, p. 124,
يحيى بن سعيد: التاريخ ص ١٧٤ - ١٧٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج١ ص ١١٨
محمد الشيخ: الإمارات العربية ص ٨١.

وصل نقفور إلى بلاد الشام مرة أخرى سنة ٩٦٨م (٣٥٧هـ)، فاستولى على بعض المدن والقلاع مثل كفر طاب، كما استولى على بشيزر وحماة ودخل حمص وأحرق جامعها - للأسف الشديد - واستولى على عرقة ودمر أرباض طرابلس لكنه لم يستطع أن يأخذ المدينة ذاتها[٣٦]، ثم ارتد إلى أنطاكية فأرضاه أهلها بمبلغ كبير من المال[٣٧]. وفى هذه الأثناء استولى على عدد من الحصون وخرب كثيرا من القلاع وانصرف إلى تدمير القرى وإحراق المساجد، ووقع في يده عدد كبير من الأسرى[٣٨]. غير أنه اضطر إلى الانسحاب مرة أخرى ولكنه عين من قبله قائداً كبيراً فى حصن بغراس الواقع على الدرب الرئيسى إلى الاسكندرونة، واتخذ من الإجراءات ما كان كفيلا بالاستيلاء على مدينة أنطاكية العريقة، منها تعيين قائد آخر كبير جعل له الرئاسة على كافة الحاميات المرابطة فى القلاع والمواقع الحصينة المتناثرة بجبال طوروس والواقعة أيضا فى شمال الشام[٣٩]، وبفضل مساعدة المسيحيين من أهل أنطاكية، ولإهمال المسلمين فى الدفاع عن أنطاكية، وإغفال حراستها نجح قادة بيزنطة فى الإستيلاء علي المدينة فى اكتوبر سنة ٩٦٩م (٣٥٨هـ)، فوضعوا فى أهلها السيف وأسروا أكثر من عشرين ألفا من أهلها، وانتهت بذلك مرحلة هامة فى صراع بيزنطة فى الشرق، توجت بالاستيلاء على أنطاكية وتهديد حلب، وأصبح للبيزنطيين وجود فى بلاد

---

(36) Canard: op.cit. 831

(٣٧) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٥٤.

(38) Canard: op.cit. p. 832,

ابن العديم: زبدة الحلب ج١ ص ١٥٩ ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ٤٤٠ - ٤٤١.

(39) Canard : op.cit. p. 832.

الشام لأول مرة منذ زمن طويل[٤٠]، وبقيت أنطاكية فى حوزة بيزنطة لمدة تقرب من مائة عام حتى استعادها السلاجقة سنة ١٠٨٥م قبيل الحروب الصليبية.

أما بالنسبة لحروب نقفور فى الغرب فالواقع أن نقفور شن حروبه فى الغرب فى نفس الوقت الذى كان يحارب فيه المسلمين فى الشرق، فقد أرسل فى سنة ٩٦٥م (٣٥٤هـ) الأسطول البيزنطى للاستيلاء على جزيرة قبرص، ونجح الأسطول فعلا فى فتحها فى نفس العام، بينما كان نقفور يتازل حصون وقلاع قليقيا، ودعم الأسطول البيزنطى بذلك هيبة البحرية فى شرق البحر المتوسط[٤١]. وبالاستيلاء على قبرص ومن قبلها كريت أوقف نقفور غارات المسلمين البحرية على شواطئ بحر إيجه والأناضول، ومكن ذلك البيزنطيين من أن يعيثوا فسادا فى موانى سورية الشمالية حتى قيل أن بوابات هذه المدن البرونزية الضخمة نقلت إلى القسطنطينية كشاهد على انتصارات نقفور فوقاس(٤٢).

على أن الأخطر من ذلك ما حدث من قيام نقفور بمحاولة غزو جزيرة صقلية والقضاء على النفوذ الإسلامى فيها. فالمعروف أن جزيرة صقلية كان يحكمها حينئذ بنى الحسين الكلبيين من قبل الخلافة الفاطمية بشمال إفريقيا، ولم يكن قد بقى بيد البيزنطيين فى صقلية عند اعتلاء نقفور العرش سوى قلعة طيرمين Taormina ومدينة صغيرة تقع بالجانب الشرقى منها تعرف

---

(٤٠) مسكويه: تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٥٣.

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٥٩٦ - ٥٩٧.

يحيى بن سعيد: التاريخ ص ١٣٣ - ١٣٤ (نشر شيخو).

(41) Ostrogorsky: op.cit. p. 257.

(٤٢) الناصري: الروم ص ٣٢٨ - ٣٢٩.

Ostrogorsky: op.cit. p. 257.

باسم رمطة Rametta وبمقتضى صلح وقع بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٩٦١ قبل البيزنطيون دفع جزية سنوية للمسلمين فى صقلية(٤٣)، غير أنه بولاية نقفور فوقاس، ولما أحرزه من انتصارات على المسلمين فى الشرق أنف أن يدفع الجزية للمسلمين فى صقلية، واعتقد أن بإمكانه إلحاق الهزيمة بمسلمى الجزيرة مثلما ألحقها بالمسلمين فى كريت وفى الشرق من قبل(٤٤).

وكان رد المسلمين على قطع الجزية البيزنطية أن ألقوا الحصار على طيرمين وعمدوا إلى تحويل المياه عنها فاشتد الأمر على حاميتها البيزنطية وطلبت الأمان فأجيبت إلى ذلك، وامتلك المسلمون تلك القلعة التى كانت من أمنع القلاع وأشدها بأسا على المسلمين(٤٥). ثم تحول المسلمون إلى رمطة برغم صعوبة الوصول إليها لوقوعها وسط الجبال فى أقصى الطرف الشمالى الشرقى من الجزيرة غير بعيد عن مسينا وألقوا الحصار عليها(٤٦) فى أواخر اغسطس سنة ٩٦٣م الأمر الذى جعل نقفور يبادر بارسال حملة كبيرة إلى صقلية لرفع الحصار عن هذه المدينة من ناحية ومحاولة القضاء على السلطة الإسلامية فى الجزيرة من ناحية أخرى(٤٧).

---

(43) Lewis: op.cit. p. 151,

ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٣٧١.

(44) Canard : op.cit. pp. 826 - 32.

(٤٥) ابن الأثير: الكامل ج٨ ص ٤٠٣.

(٤٦) ابن الأثير: نفسه ج ٨ ص ٤٠٤.

(47) Schlumberger: Un Empereur Byzantine au dixiéme Siecle, Nicephore Phocas, pp. 443-45,

العرينى : الدولة البيزنطية ص ٤٩٢ – ٤٩٣.

أبحر الأسطول البيزنطى فى صيف سنة ٩٦٤م قاصدا صقلية واهتم الامبراطور كثيرا بإعداد هذه الحملة وأسند قيادتها إلى بعض كبار رجاله وقادته وضمت نحو أربعين ألف مقاتل واشترك فيها عدد كبير من السفن الحربية، وعنى عناية فائقة باختيار المحاربين فى هذه الحملة فجعلهم من خيرة جند الامبراطورية وأشدهم مراسا فكان منهم الأرمن والروس وبيالصة آسيا الصغرى وغيرهم، وفى خريف نفس العام اقتربت الحملة من صقلية بينما كان حصار المسلمين لرمطة لازال قائما(٤٨). وفى الوقت الذى سير نقفور فيه الحملة إلى صقلية كان أمير صقلية قد علم خبر هذه الحملة، وبعث إلى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى شمال إفريقيا يطلب المعونة، على حين اهتم هو كثيرا بتحصين مراكزه وحشد المقاتلين فى البر والبحر، وسير المعز الفاطمى حملة لمساعدة أمير صقلية، نزل جزء منها لمعاونة محاصرى رمطة فى حين انضم الباقى إلى جيش الجزيرة (٤٩).

وحين نزل البيزنطيون إلى الجزيرة عند رمطة بادروا بالهجوم واتجهوا نحو رمطة لفك الحصار الإسلامى عنها، وجرت معركة كبيرة بالقرب من تلك المدينة هلك فيها من الطرفين كثير، لكن النصر النهائى كان للمسلمين(٥٠)، ولقى قائد الحملة البيزنطية حتفه فى تلك المعركة وأخذت سيوف المسلمين تحصد البيزنطيين حتى هلك نحو عشرة آلاف منهم وغنم المسلمون ما لايحصى من الأموال والعتاد والسلاح والخيل، وأرسل القائد

---

(٤٨) أبن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٤١١،

Schlumberger; op.cit. pp. 446-7.

(٤٩) ابن الاثير: الكامل ج ٨ ص ٤١٢.

(٥٠) ابن الأثير: نفسه ج٨ ص ٤١٣،

Schlumberger: op.cit. pp. 455-6.

عاشور : أوربا ج ١ ص ٤٢٢.

الإسلامى إلى الخليفة المعز عددا من الأسرى الروس، وبعد ذلك ضعفت روح حامية رمطة فاقتحمها المسلمون وقتلوا من فيها وسبوا الحرم والأطفال وغنموا كل مافيها[٥١]، وأضيفت إلى أملاك الكلبيين بعد أن دخلت طيرمين فى حوزتهم من قبل[٥٢].

وفى الوقت الذى جرى فيه إنزال هذه الهزائم المتوالية بحملة نقفور فى صقلية كان الأسطول البيزنطى يرابط فى مياه ريو، حيث لجأت إليه حاميات المدن التى استولى عليها المسلمون وفلول جيش نقفور، وبعد أن امتلأت السفن البيزنطية وتقرر إبحارها ركب أمير صقلية فى عساكره المراكب الإسلامية وزحفوا إليهم فى الماء وقاتلوهم قتالا ضاريا وألقى بعض المسلمين أنفسهم فى الماء وهاجموا السفن البيزنطية فأغرقوا الكثير منها، فارتفعت الخسائر البيزنطية، واكتمل للمسلمين النصر برا وبحرا[٥٣]. ومرة أخرى استولى المسلمون على كثير من الغنائم والأسرى، ووقع قائد الأسطول البيزنطى فى أيدى المسلمين فأرسل إلى المهدية ليسجن بها. وانتهى الأمر بعقد صلح بين المسلمين والبيزنطيين سنة ٩٦٧م[٥٤]

وهكذا قدر لنقفور أن يتجرع غصة الهزيمة فى صقلية، وأن يثوب إلى

---

(٥١) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٥٥٦ - ٥٥٧ (ط بيروت ١٩٦٦)،

Ostrogorsky: op.cit. p. 257.
Schlumberger: op.cit. pp. 458.

(٥٢) إحسان عباس : العرب في صقلية ص ٦٢.

(٥٣) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٤١٣،

Schlumberger: op.cit. p. 461.

(٥٤) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٥٥٨ (ط بيروت ١٩٦٦)،

Schlumberger: op.cit. pp. 463 - 4.

صوابه ولايفكر فى إعادة الكرة أو الانتقام لما حدث لجيشه الكبير فى صقلية برا وبحرا، وتشير الروايات إلى أن نقفور اضطر إلى قبول ماترتب على هذه الهزيمة من الذلة والمهانة دون أن يثأر لها لظهور خطر جديد فى إيطاليا تمثل فى الإمبراطور الغربى(٥٥) عاهل الامبراطورية الرومانية المقدسة، فقد زحف الامبراطور أوتو الألمانى (الأول) على إيطاليا وتوغل فيها، بعد أن استولى على شمال إيطاليا ووسطها وأخضع البابوية وبدأ يفكر فى الانحدار إلى جنوب إيطاليا معلنا أنه إنما يعيد امبراطورية شارلمان(٥٦)، وفشل ما خطط له نقفور فوقاس من وراء زواج ابن الإمبراطور أتو الأول من ابنة رومانوس الثانى(٥٧)، ولعل هذا الخطر الجديد الذى بدأ يهدد إيطاليا هو الذى دفع الفاطميين والخليفة المعز إلى إبرام الصلح مع نقفور للتفرغ لهذا الخطر القادم فى إيطاليا ليهدد أملاك المسلمين فى جنوبها وفى صقلية (٥٨).

أما فيما يتعلق بعلاقات نقفور فوقاس بكل من البلغار والروس، فيذكر المؤرخون أن ملك البلغار «بطرس» لم يحسن التصرف حين أرسل رسله إلى نقفور فى سنة ٩٦٧م ليطلب أن تدفع بيزنطة الجزية المقررة(٥٩)، وكان ذلك وسط أفراح البيزنطيين بانتصارات نقفور فى الشرق واستيلائه على طرسوس وتحطيم خطوط الدفاع الإسلامية على أطراف قليقيا، ولهذا فقد ثار نقفور على هذا التصرف لأنه أنف أن يدفع الجزية للبلغار أو يعد بدفعها(٦٠) بعدما

---

(55) Ostrogorsky: op.cit. p. 258.
(56) Schlumberger: op.cit. p 461.
Hussey : Op. Cit. P. 39.
(57) Ostrogorsky: op.cit. pp. 258 - 9.
(٥٨) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٤١٣.
إحسان عباس : العرب في صقلية ص ٥٢.
(59) Vasiliev : Op. Cit., P. 336.
(60) Ostrogorsky: op.cit. p. 259.

حققه من انتصارات فى الشرق وفى الغرب على حد سواء، فأساء استقبال رسل البلغار، بل أنه أمر بجلدهم ومعاملتهم معاملة سيئة وإعادتهم إلي ملكهم حاملين رسالته إلى ملك البلغار يقول له فيها بسخرية بأن أعظم أباطرة بيزنطة سيبادر بزيارة ملكهم ليقدم له الجزية بنفسه(٦١).

وكان أن خرج نقفور على رأس جيوشه واجتاز الحدود البلغارية قبل أن تتهيأ الفرصة للبلغار لإعداد أنفسهم للتصدى له، ونجح نقفور فى الاستيلاء على نقط الحدود والحصون التى لم يكترث البلغار بعمارتها بعد ركود العلاقات بينهم وبين بيزنطة لفترة طويلة وهدوء الأحوال بين الدولتين لسنوات(٦٢). وعلى الرغم من ذلك فقد قرر نقفور الانسحاب والعودة إلى عاصمته، ويعلل المؤرخون هذه العودة بأن نقفور أدرك جيدا صعوبة اجتياز بلاد البلغار لوعورتها ولتأكده من أن البلغار سينهضون حتما لمقاومته، فضلا عن رغبته فى أن يتمم حروبه ضد المسلمين فى الشرق فى الوقت الذى عول فيه على الروس النازلين فيما وراء البلغار فى الهجوم على البلغار، وإضعاف دولتهم فإذا فرغ هو من حروبه فى الشرق يستطيع أن يتقدم لتصفية هذه المملكة البلغارية(٦٣).

نجحت سفارة نقفور إلى سفياتوسلاف Sviatoslav ملك الروس(٦٤)،

---

(61) Diehl, Marçias : Op. Cit., P. 476
(62) Ostrogorsky: op.cit. p. 259.
(63) Schlumberger: op.cit. p 558,

العرينى نفسه ص ٥٠٥.

(٦٤) هو ابن القيصره أولجا التى زارت القسطنطينية على عهد قسطنطين السابع سنة ٩٥٧م وعمدت فيها وعهد إليها بنشر المسيحية بين الروس. أنظر:
Ostrogorsky: op.cit. p. 251.

فنهض هذا سنة ٩٦٧م لاجتياح دولة البلغار، ونجح فعلا فى التهام الأقاليم الشمالية منها وطرد البلغار إلى عاصمتهم الثانية سيلسترا(٦٥)، وارتكب الروس فظائع كثيرة ضد البلغار وأحدثوا ببلادهم مذابح بشرية رهيبة(٦٦)، وواصل سفياتوسلاف تقدمه فى دولة البلغار سنة ٩٦٨م بهمجية وقسوة بالغة أدت إلى إحداث الخراب والدمار فى أقاليم بلغاريا، ولم يشأ أن يجعل هذا الغزو لحساب بيزنطة ويكتفى بالغنائم والاسلاب التى حازها - كما جرى الاتفاق مع البيزنطيين - وإنما يبدو أنه بدأ يعمل لحسابه هو، إذ استبد به الطمع فى العرش البيزنطى ذاته وأمل فى أن يقتحم القسطنطينية ويضمها إلى ملكه، الأمر الذى أقلق نقفور كثيرا وجعله يتبين مغبة سياسته فى البلقان(٦٧)، فى الوقت الذى واصل فيه الروس تقدمهم نحو الجنوب، بعد أن سقطت فى أيديهم العاصمة الأولى للبلغار «برسلاء» أو «برسلاف» فتأهبوا لاجتياز جبال البلقان لمهاجمة الامبراطورية البيزنطية فى الفترة التى شهدت نهاية الإمبراطور نقفور فوقاس(٦٨).

أما عن سياسة نقفور الداخلية فتشير الدلائل إلى أن نقفور جاء إلى العرش البيزنطى لنصرة الأرستقراطية البيزنطية، فمالبث أن أعلن تخليه عن السياسة التى اتبعها الأباطرة السابقون لممالأة الفلاحين، وألبس ذلك ثوبا براقا قوامه مبدأ المساواة بين الرعية لأن أسلافه أظهروا نصرتهم للفلاحين فعول هو على

---

(65) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 239.
(66) Ostrogorsky: op.cit. p. 258.
(67) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 239 .
Ostrogorsky: op.cit. p. 259..
(68) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 240 .
Ostrogorsky: op.cit. p. 259

إعادة التوازن إلى سياسة الامبراطورية[٦٩]، أى أن نقفور ظل يمثل نموذجا خالصا للأقوياء، ودل ارتقاؤه العرش على ما أحرزته الأرستقراطية البيزنطية من انتصار[٧٠].

وترتب على سياسة نقفور هذه أن أخذت طبقة جديدة فى الظهور هى طبقة صغار النبلاء بدأ ذكرها يتردد فى تشريعات نقفور ومن تلاه من الأباطرة. ولعل أكبر دليل على ازدياد قوة هذه الطبقة أن نقفور جند معظم جيشه من أفراد هذه الطبقة الذين صاروا يحوزون أسلحة وفيرة بفضل أملاكهم وإقطاعاتهم الحربية التى كبرت عن ذى قبل وأمدتهم بريع طيب مكنهم من اقتناء تلك الأسلحة الوفيرة، ولم يعد قوام الجيش من أولئك الفلاحين الفقراء، بل أظهر نقفور اهتماما كبيرا بأمر الجيش بصفة خاصة[٧١].

ولعل اهتمام نقفور بأمر الجيش والاغداق عليه دفعه دفعا إلى معاداة الكنيسة والأديرة، فقد عارض نمو الضياع الشاسعة التى تملكها الكنيسة والأديرة وأصدر من أجل ذلك مرسوما فى سنة ٩٦٤ م يمنع نمو أملاك الكنيسة، فاعتبر ذلك المرسوم أجرا ما صدر عن إمبراطور ضد الكنيسة، لاسيما وقد تزايدت سلطتها، واتسع نفوذها وأصبح ازدياد نمو ضياعها يضارع نمو الضياع الأخرى[٧٢]. فعلى الرغم مما أظهره هذا الإمبراطور من التقوى والورع

---

(69) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 75.
Ostrogorsky: op.cit. p. 254.

(٧٠) العرينى نفسه ص ٤٦٥.

(71) Ostrogorsky: op.cit. p. 254,
Camb. Med. Hist. V. 4, P. 75 .

(72) Ostrogorsky: op.cit. p. 254.

وحبه لرجال الدين إلا أن اهتمامه البالغ بالنظام الحربى وحرصه على الإكثار من الجند جعله يدخل فى ذلك الصراع مع الكنيسة والرهبان الذين أخذت أعدادهم فى التزايد[٧٣]. إذ أدرك نقفور فوقاس خطورة زيادة عدد الأديرة وزيادة عدد الرهبان على كيان الإمبراطورية، ففى عهد كهذا زخر بالحروب وتشابك فيه الصراع، بدأت أعداد الجند فى التناقص وفنت زهرة شباب الدولة وطحنت المعارك الحربية عشرات الألوف من الشباب، كان لابد النظر إلى تزايد أعداد الرهبان باعتباره تقصيرا متعمدا وهروبا من الجندية[٧٤]، وحرمانا للجيش من سواعد فتية انصرفت إلى حياة لا تمثل عنصرا أساسيا فى المجتمع إن لم يكن دورها ثانويا فى حياة الناس، ففى الوقت الذى لقى فيه خيرة جند الامبراطورية حتفهم فى الحروب، كان عدد الرهبان يتزايد تزايدا رهيبا، وبدأت أديرة جديدة فى الظهور. ولعل تزايد عدد هذه الأديرة هو الذى أقلق نقفور كثيرا نظرا لأن إقامتها استنفد أموالا طائلة، وحول جانبا كبيرا من ثروة البلاد إلى أيدى الرهبان[٧٥]، لاسيما وقد انصرف الرهبان إلى حيازة الضياع الشاسعة وامتلاك حدائق الفاكهة والتمكين لأنفسهم عن طريق الثروات الطائلة ونشر نوع من التعصب البغيض داخل المجتمع البيزنطى، ولهذا فقد عالج تشريع نقفور الصادر سنة ٩٦٤م هذه الأمور كلها فمنع تشييد أديرة جديدة وحرم وقف الأملاك أو العقارات عليها أو الإنفاق المالى عليها، كما تقرر أيضا منع مايؤدى إلى زيادة ثرائها[٧٦]، وإذا كان لابد للرهبان من أن يمارسوا حياتهم الديرية فليكن ذلك باللجوء إلى المواضع المهجورة أو أطراف

---

(73) Vasiliev : Op. Cit., P. 336.

(74) Schlumberger: op.cit., P 339.

(75) Vasiliev : Op. Cit., P. 336.

(76) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 74.

الصحراء بدلا من العيش فى ضواحى المدن وامتلاك الثروات الطائلة والضياع الواسعة[٧٧].

والحقيقة أن هذا التشريع جاء ضربة قاصمة للحياة الديرية فى بيزنطة بعد أن بعدت الديرية عن أسسها الحقة وحرص الرهبان على تشييد العمائر الكبيرة واقتناء أعداد كبيرة من الخيل والأبقار والأبل وسائر الدواب، وانصرفوا إلى جمع الثروات على الرغم من أنهم أمسوا يحيون حياة قريبة من حياة العلمانيين، ولا تختلف مطلقا عن حياة المدنيين[٧٨]، وإذا كانت الكنيسة قد أعلنت معارضتها للسياسة التى اتبعها نقفور فوقاس، وفجرت فى وجهه المعارضة وحاولت أن تتستر وراء واجهة أخرى، فانتهزت فرصة طلب نقفور منها اعتبار كل جندى يقتل فى الحرب ضد المسلمين شهيدا، فسارعت إلى معارضته بل دعت إلى الأخذ بحرفية التعاليم الدينية والحكم بالحرمان من تأدية الشعائر الدينية على كل مسيحى يسفك الدماء بما فى ذلك الحرب، مدة ثلاث سنوات[٧٩]، أقول إذا كانت الكنيسة قد فعلت ذلك، فإن نقفور واصل سياسته لتقليم أظفار الرهبان، ومنع ازدياد نفوذهم، وإن نجحت الكنيسة فى النهاية فى زعزعة الكرسى الذى يجلس عليه هذا الامبراطور الجرىء.

أما بالنسبة لنهاية نقفور فوقاس، فقد أدت السياسة الدينية التى اتبعها إلى ازدياد الكراهية له من رجال الدين والرهبان، بل إن هذه الكراهية بدأت تزداد بين طبقات الشعب لما سلكه الامبراطور من سبل فى تحصيل الضرائب

(77) Ostrogorsky: op.cit. p. 256..

(78) Schlumberger: op.cit., P 390.

(٧٩) العرينى : المرجع السابق ص ٤٧١،

Schlumberger: op.cit., P 390.

والمكوس لسد نفقات الجيش وتغطية الحملات العسكرية العديدة، فزادت الوطأه على الناس وتحولت حياتهم إلى حياة شقاء وبؤس، وقلت كثيرا الأقوات وانتشر الغلاء.(٨٠) ومع ذلك أدت انتصاراته العسكرية إلى كبت الأصوات المعارضة ومظاهر التململ الواضحة بين قطاعات الشعب، ولم تكن نهاية هذا الإمبراطور بسبب سخط الشعب وإنما الذى ألقى بنقفور إلى مصيره المحتوم فهو نزاعه مع صديقه القديم حنا زمسكيس (ابن الشمشقيق) وخيانة زوجته ثيوفانو(٨١).

فبالإضافة إلى ما أظهره الناس من ضيق بهذا الامبراطور وسياسته الحادة، فضلا عن حقد زملائه فى السلاح عليه لما حازه من شهرة ومجد على الرغم من أنهم لم يروا فيه مايميزه عنهم فى كثير، فضلا عن معارضة الكنيسة لتشريعاته وسياسته العدائية ضد الرهبان ورجال الدين ومراسيمه التى ألحقت كثيرا من الضرر بهذا القطاع من المجتمع البيزنطى بالإضافة إلى كل ذلك أظهرت زوجته ثيوفانو كرها شديدا لهذا الامبراطور(٨٢)، بسبب خشونته وزهده وانصرافه إلى القتال وعزوفه عن مباهج الحياة، وفى الوقت الذى كانت لاتزال شابة فى عنفوان الشباب كان هو يقترب من الشيخوخة بطباعه الجافية وهيئته الخشنة ومنظره القبيح وتعلقه بالحرب والقتال، هذا فضلا عما أظهره نقفور من خشونة فى مسلكه تجاه الأميرين الصغيرين شريكيه فى الحكم فأخاف

---

(80) Ostrogorsky: op.cit. p. 260.

(٨١) العرينى : المرجع السابق ص ٤٧١،

Ostrogorsky: op.cit., P 260.

(82) Ostrogorsky: op.cit. p. 260.

ذلك أمهما ثوفانو[٨٣]، ولهذا غدت هذه الزوجة أكثر الناس استعدادا لخيانة نقفور ومحاولة التخلص منه[٨٤].

ولم يمض إلا وقت قليل حتى تآمرت ثيوفانو مع حنا زمسكيس، وتكرر اللقاء ونسجت خيوط المؤامرة للخلاص من نقفور، لاسيما وأن زمسكيس كان من أكثر القادة شهرة وأعظمهم طموحا ورغبة فى العرش مع حقد شديد على زميله القديم نقفور الذى لم يحسن معاملته ولم يقدره قدره ولم يوله الاهتمام الواجب[٨٥]، فى الوقت الذى ربطت العاطفة بينه وبين ثيوفانو، فقد كان زمسكيس فى نحو الخامسة والأربعين من عمره، وعلى الرغم من أنه كان قصير القامة إلا أنه اشتهر بالوسامة وقوة الشخصية[٨٦]، وانحاز إليهما نفر من الحاقدين على نقفورودهم الجميع غرفة نوم الإمبراطور فى ديسمبر سنة ٩٦٩م فأجهزوا عليه فى لحظات وتوج زمسكيس إمبراطور فى اليوم التالى مباشرة بعد دفن نقفور سرا فى كنيسة الرسل القديسين[٨٧]، وانتهت بذلك فترة من أهم فترات التاريخ البيزنطى، ووضع حد لحياة إمبراطور من أعظم الأباطرة الذين حكموا بيزنطة على امتداد تاريخها الطويل.

---

(٨٣) يذكر المؤرخ المسيحى يحيى بن سعيد الأنطاكى أن ثيوفانو أظهرت لنقفور خوفها على ولديها فانتهرها قائلاً: «إنك الآن تضطريني إلى أن أخصى الصبيين وأجعل الملك لأخى»، وأكد هذه الرواية المؤرخ ابن الأثير. أنظر: يحيى بن سعيد: التاريخ ص ١٣٦.
ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ٢٣٩،

Diehl , marçias ; Op. cit., P. 47.

عاشور: أوربا ج ١ ص ٤٢٣.
عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبى على الشرق ص ٢٧.

(84) Ostrogorsky: op.cit. p. 260.
(85) Schlumberger: op.cit., P 746.
(86) Ostrogorsky: op.cit. p. 260,

العرينى المرجع السابق ص ٥١٤.

(87) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 77.

حنا زمسكيس (٩٦٩ - ٩٧٦م):

حاز حنا زمسكيس العرش بتآمره ووضعه حدا لحياة نقفور فوقاس، فأصبح زمسكيس الإمبراطور الثانى المغتصب لذلك العرش من أصحابه الشرعيين وهما ولدى الامبراطور الأسبق رومانوس الثانى. ولقد اعتمد زمسكيس فى سبيل الوصول إلى العرش على ماحققه من انتصارات باهرة فى الشرق، وعلى رصيد عريض من حب الجند له وتعلقهم به، فضلا عما اشتهر به من الشجاعة والسخاء وحسن الطلعة والوسامة والشباب إذ أنه لم يتعد الخامسة والأربعين من عمره[٨٨].

وينتسب زمسكيس لأسرة أرمينية الأصل، وتربطه بأسرة فوقاس ونقفور بالذات أواصر القرابة والنسب، والتحق بالجيش وأظهر نشاطا وافرا خلال قيادته جيوش الامبراطورية فى قيلقيا، وحقق بعض الانتصارات على المسلمين فى الشرق[٨٩]، وصحب نقفور فى بعض حملاته وربطت الصداقة بينهما وإن تغير عليه فى الفترة الأخيرة وأضمر له حقدا عظيما، أدى فى النهاية إلى اشتراكه فى اغتيال نقفور واعتلائه العرش البيزنطى، وكان لثيوفانو ضلع كبير فى ذلك[٩٠].

ولم يكد يتم تتويج زمسكيس حتى أعلن أنه يعتبر نفسه مجرد قيم على ابنى رومانوس الثانى صاحبى الحق الشرعى فى السطان وهما باسيل وقنسطنطين، وأنه يعتبر نفسه وصيا على الامبراطورية وقسيما لولدى رومانوس الثانى باسيل وقنسطنطين[٩١] فى الحكم وهو فى ذلك احتذى حذو نقفور

---

(88) Ibid . P. 78.

(89) Canard : Op. Cit., P. 819.

(90) Ostrogorsky: op.cit. p. 260.

(91) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 79.

من قبل، ومالبث زمسكيس أن عزل الموظفين الموالين للامبراطور السابق، وعين مكانهم انصاره وأتباعه من الموظفين وأخذ يمكن لنفسه فى العاصمة وحال دون اندلاع الثورات التى تخل بالأمن أو تعكر الصفو[٩٢].

غير أنه أدرك أنه لابد وأن يتلقى التاج من يد البطريرق فى الكنيسة الكبرى (كنيسة القديسة صوفيا)، حتى يتخذ حكمه الصفة الشرعية، إلا أن البطريرق اشترط أن يعلن زمسكيس توبته وأن يبرىء نفسه من اغتيال نقفور، وأن يتبرأ من القتلة، وأن يطرد الزوجة المجرمة (ثيوفانو) التى دبرت كل شىء، فعليه أن يفعل ذلك إذا أراد أن يرسمه البطريرق ويتوجه إمبراطور فى الكنيسة البيزنطية[٩٣]. وبل إن الكنيسة انتهزت الفرصة لتؤكد سلطتها وترغم زمسكيس على إلغاء القانون الذى أصدره نقفور بشأن الممتلكات الديرية والكنسية والذى صدر سنة ٩٦٤م واعتبرته الكنيسة ضربة قاصمة للحياة الديرية[٩٤]، وكذلك إلغاء القانون الذى أصدره أيضا نقفور والذى يمس استقلال الكنيسة والذى يحظر على رجال الدين إصدار القرارات الكنسية أو يقوموا بتنصيب رجال الدين أو ترقيتهم إلا بعد الحصول على موافقة الامبراطور[٩٥]، بل اشتطت الكنيسة فى مطالبها وغالت كثيراً، حين طلبت

---

(92) Ibid . P. 79,

العرينى المرجع السابق ص ٥١٩.

Schlumberger : L'Epopée Byzantin a La Fin du xe siecle, I, PP.11-12.

(93) Ostrogorsky: op.cit. p. 260.

Camb. Med. Hist. V. 4, P. 79.

(94) Ostrogorsky: op.cit. p. 260., Vasiliev : Op. Cit. P. 335

(95)Schlumberger: op.cit., I, P 16.

العرينى المرجع السابق ص ٥٢٠.

من زمسكيس أن يلغى كل ما أصدره نقفور من تشريعات تتعلق بالاعتداء على أملاك الكنيسة، وطلبت منه أن يأمر بعودة كل رجال الدين الذين جرى طردهم من مناصبهم من قبل بسبب معارضتهم لتشريعات نقفور، وأن يعودوا إلى مناصبهم السابقة دون قيد أو شرط[٩٦]، وأخيرا اشترطت الكنيسة شروطا تختص بزمسكيس نفسه فى محاولة لجعله يثوب إلى الصواب ويندم على فعلته، فقد طلبت منه أن يتنازل عن كل ممتلكاته وعقاراته فيعطى جانبا منها للفقراء والجانب الآخر للانفاق على العمائر الكنسية بالعاصمة تكفيرا عن جريمته وتقربا إلى الله[٩٧]، وهكذا كانت شروط الكنيسة ثلاثة أنواع، النوع الأول يختص بمعاقبة المتآمرين، والنوع الثانى يختص باسترجاع امتيازات الكنسية[٩٨]، والنوع الثالث يتعلق بمحاولة تكفير زمسكيس عن ذنبه وجريمته التى ارتكبها فى حق الامبراطور السابق، لتطهيره من الشر، والاثم قبل أن يجرى تتويجه على يد البطريرق.

والغريب أن زمسكيس وافق على كل هذه الشروط، بل إنه غالى فى ذلك كثيرا، واتخذ من الإجراءات ماكان كفيلا بتأليف قلوب الرعية حوله، فبذل المنح والهبات لأعضاء مجلس السناتو وكبار الموظفين وأفراد الطبقة النبيلة، على حين أعفى كثيرا من السكان من الضرائب، وبذل كثيرا من الأموال للطبقات الكادحة، وجلب المؤن والغلال لسكان العاصمة[٩٩]، ووزع كثيرا من هذه المؤن على السكان فخفف حدة الضائقة التى حلت بالناس، وأقدم

(96) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 79.

(97) Schlumberger: op.cit., I, P 17.

Camb. Med. Hist. V. 4, P. 79.

(٩٨) أنظر عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ص ٣٢.

(99) Schlumberger: op.cit., I, P 27.

على خطوة بالغة الخطورة حين طرد ثيوفانو من القصر وألحقها بالدير وتزوج من ثيودورا ابنة قنسطنطين السابع وعمة الإمبراطوريين الصغيرين، فأضفى بذلك شرعية على حكمه وأوحى بأنه ليس إلا وصيا على أصحاب الحق الشرعى باسيل وقنسطنطين[١٠٠]، ولهذا لم يتردد البطريرق بعد ذلك كله فى تتويج زمسكيس فى كنيسة أيا صوفيا[١٠١].

وهكذا أجبر زمسكيس على الإنصياع لأوامر الكنيسة والخضوع لها حتى شبه المؤرخ الروسى استروجورسكى هذه الحادثة بين البطريرق والامبراطور بحادثة كانوسا التى جرت بين البابا والإمبراطور الغربى فى القرن الحادى عشر، لنجاح الكنيسة فى الحادثتين فى فرض شروطها على السلطة العلمانية[١٠٢]، وإن تفوقت حادثة كانوسا فى الغرب فى إذلال الامبراطور هنرى الرابع، والحط من شأنه كثيرا، على عكس ماجرى هنا فى الشرق حين وضعت الكنيسة شروطا قبلها زمسكيس عن طيب خاطر بل بالغ فى الإستجابة للكنيسة إرضاء لرجالها والفوز بتأييدها.

استهل زمسكيس سياسته الخارجية بنشاط وافر وهمة عظيمة، إذ لم يكن يقل عن سلفه مهارة عسكرية أو خبرة قيادية، فما أن استتب له الأمر حتى شرع فى دفع الأخطار التى أحدقت بالبلاد، وكذلك إخضاع الثورات التى تأججت فى آسيا الصغرى، والتى فجرها آل فوقاس بالذات[١٠٣].

(100) Ostrogorsky: op.cit. p. 261.

(101) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 80.

(102) Ostrogorsky: op.cit. p. 260,

أنظر أيضا عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبى ص ٣٣.

(103) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 81.

وأول خطر خارجى واجه هذا الإمبراطور هو خطر الروس، بعد أن اتحدت قبائلهم وبدأت دولتهم تشكل خطورة على بيزنطة، خاصة وأنها تشترك معها فى الحدود وإذا كانت الامبراطورية البيزنطية قد اكتوت قبل ذلك بنار البلغار الذين دأبوا على مهاجمتها وشن الحرب عليها فى البلقان على عهد الأباطرة السابقين، فإن عهد زمسكيس قد شهد بداية دولة الروس الناشئة التى بدأت تفرض نفسها على الأحداث(١٠٤). فقبل ذلك بقرون كانت بعض القبائل التى تشكلت منها دولة الروس قد مرحت فى همجية وبدائية فى المنطقة المجاورة لنهرى الدنيبر والدانوب فى عزلة تامة بين مستنقعات وأحراش وغابات تلك المنطقة، دون أن يسمع العالم عنهم شيئا (١٠٥)ا. غير أن هذه القبائل المبعثرة الضاربة فى المناطق المجاورة لحدود بيزنطة، مالبثت أن عرفت الوحدة بعد تفرق وبدأت تنتهج سياسة الفتح والغزو على حساب جيرانها، وخاصة بعد أن نزل أرض الروس قبل عهد زمسكيس بنحو قرن من الزمان فريق من الڤيكنج الشماليين من السويد(١٠٦)، حين أوغل هؤلاء الڤيكنج شرقا إلى أعماق روسيا، واحتكوا بالسلاف هناك، فأطلق عليهم السلاف اسم روس أى الحمر(١٠٧)، ويبدو أن انهيار قوة الآفار فى القرن التاسع الميلادى هو الذى فتح الطريق أمام هؤلاء الڤيكنج للوصول إلى حوض نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود وتأسيس دولة روسية فى شرق أوربا(١٠٨)، ومن هذا الحدث يبدأ تاريخ

---

(104) Schlumberger: op.cit. I, P 38.
Hussey : Op. Cit. I. PP. 38 - 39.

(105) Rambaud : Histoire de La Russie, PP. 39-45.
Obolensky : Byzantine Commonwealth, PP. 181 - 2

(106) Trevelyan : Hist. of England. Part I, P. 75

(107) Camb. Med. Hist. V. 3, P. 327.

(108) Ostrogorsky: op.cit. p. 102.

روسيا المدون أى أن السويديين هم الذين وضعوا أسس الدولة الروسية[١٠٩]، فقد نجح هؤلاء فى إخضاع القبائل السلاڤية القاطنة فى مناطق الغابات الكبرى، وجعلوا منها دولة موحدة اتخذت لها عاصمة فى كييف على نهر الدنيبر، ومالبثت هذه الدوقية الجديدة أن قويت وكبرت، فشق الروس – الذين يجرى فى عروقهم دم الڤيكنج – طريقهم فى نهر الدنيبر إلى البحر الأسود وراحو يوالون الإغارات على حدود الدولة البيزنطية[١١٠].

وعلى الرغم من أن الروس مثلوا عنصر قلاقل لبيزنطة اعتبارا من النصف الثانى للقرن التاسع الميلادى، أى قبل عهد زمسكيس بنحو قرن من الزمان، بل انهم أغاروا على العاصمة البيزنطية نفسها مرات وكرروا إغاراتهم فى النصف الأول من القرن العاشر على أراضى الدولة البيزنطية[١١١]، إلا أن البيزنطيين لم يعطوهم كثير اهتمام ربما لأن الروس فى ذلك الوقت كانت تنقصهم القوة لإحداث أضرار بالغة للامبراطورية، فلم يحفل بهم البيزنطيون كثيرا وإن خرجت السفن البيزنطية لردهم مرات، وتصدى لهم الجيش البيزنطى أكثر من مرة وأجبرهم على الارتداد[١١٢].

ولقد لجأت بيزنطة إلى كسر حدة هذه العناصر المندفعة، وأبرمت معهم صلحا كفلت فيه لهم امتيازات كثيرة، خاصة وأنهم أظهروا ميولا تجارية بحكم أوضاعهم الجديدة بعد هجرات الڤيكنج إلى المنطقة[١١٣]، فمنحت تجارتهم براءات عديدة وأعطت تجارهم كثيرا من الامتيازات، واستخدمت

---

(109) Haskine : The Normans in European Hist. P. 30,

محمد الشيخ : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ص ٣٠٦ – ٣٠٧.

(110) Obolensky: op.cit. pp. 182 - 3.

(111) Vasiliev : The Second russian attack, P. 224.

(112) Vasiliev : Hist . of The Byzantine Empire, P.323.

(113) Ostrogorsky: op.cit. p . 229.

الكثير منهم فى جيوشها وأساطيلها، وقد اشتهروا بشدة المراس والعنف فى الحرب[١١٤]، وقدمت إحدى الأميرات الروسيات إلى البلاط البيزنطى وهى الأميرة أولجا Olga قرب منتصف القرن العاشر فاستقبلت استقبالا حافلا، وتمتعت بعطف السلطات البيزنطية، وحسن معاملتهم وخصها الامبراطور قسطنطين السابع بكريم رعايته وعنايته، واعتنقت المسيحية الأرثوذكسية سنة ٩٥٧م[١١٥]، وعادت إلى روسيا فبشرت بالمسيحية فيها ونقلت إلى روسيا ما أعجبت به من الحضارة البيزنطية، ولم يمض وقت طويل حتى نفذت المسيحية وتيارات المدنية من القسطنطينية إلى هذا الشعب[١١٦]، ولهذا فقد أطمأنت بيزنطة نوعا ما واعتقدت أن روسيا لم تعد سوى دولة دائرة فى فلك الامبراطورية إن لم يكن سياسيا فلا أقل من أن يكون ذلك حضاريا ودينيا.

وكنا قد أشرنا من قبل إلى أن الإمبراطور نقفور فوقاس كان قد استعان بملك الروس سفياتوسلاف للهجوم على البلغار، وأغراه بقتالهم[١١٧]، فارتكب نقفور بذلك حماقة كبرى عندما أيقظ الدب الروسى[١١٨]؛ إذ وجدت هذه الدعوة قبولا وترحيبا من قبل الملك الروسى الذى كان يتطلع إلى مد حدوده والتوسع على حساب جيرانه، فقام الروس بغزو بلغاريا[١١٩]، من الجهة الشمالية عن طريق نهر الدنيبر بجيش قيل أنه بلغ نحو ستين ألف مقاتل، وتمكن الروس من إحراز النصر على بلغاريا والقضاء تماما على

---

(١١٤) فشر: المرجع السابق ص ١١٥ - ١١٦،

Hussey : Op. Cit., I. P. 38.

(115) Ostrogorsky: op.cit. p. 251.

Hussey : Op. Cit. P. 39.

(١١٦) فشر: المرجع السابق ص ١١٥ .

Hussey : Op. Cit., . P. 38.

(117) Runciman : A hist . of the first Bulgarian Empire. P. 303.

(١١٨) سيد الناصرى: الروم ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

جيشها، وأعقب ذلك وفاة الملك البلغارى، ثم اغتيل نقفور فوقاس فى ديسمبر سنة ٩٦٩م، فجاء ذلك عاملا هاما فى تطور الأحداث على عهد الامبراطور حنا زمسكيس[١٢٠]. فقد صادفت عملية الاستيلاء على معظم بلغاريا هوى فى نفس سفياتوسلاف، فعبر بجيشه الكبير البلقان وظهر فى سهول تراقيا ومقدونيا، ولم يشأ أن يجعل حروبه ضد البلغار هدية لبيزنطة، وإنما بدأ يعمل لحسابه الخاص[١٢١] بل أمدته الظروف الجديدة بعد اغتيال نقفور بفرصة مواتية للزحف فى أراضى بيزنطة نفسها وتحقيق ماعجز البلغار عن تحقيقه قبل ذلك[١٢٢]، فتوغل فى البلقان واحتل مدينة فيليب Philippolis العريقة على الحدود بين تراقيا ومقدونيا، ووضع الروس أيديهم على مناجم الذهب فيها.[١٢٣] وبدا أن الخطر الروسى أكبر مما توقعت بيزنطة بل إنه أصبح الخطر الأكبر الذى يواجه الامبراطور الجديد.

وبينما كان زمسكيس فى أشد الأوقات حرجا كان سفياتوسلاف ينساب بجيشه فى سهل تراقيا سالكا الطريق المؤدية إلى القسطنطينية، وترامت الأنباء بذلك إلى العاصمة فى مارس سنة ٩٧٠م، فحاول زمسكيس أن يثنى الروس عن عزمهم فى غزو القسطنطينية ويحصل على سلام مع سفياتوسلاف، فعرض عليه أن يدفع له المبلغ الذى كان نقفور قد تعهد بدفعه لهم نظير هجومهم على البلغار[١٢٤]، إلا أن سفياتوسلاف بعث إلى زمسكيس يخيره بين الحرب وبين ترك الأملاك البيزنطية كلها فى أوربا والانسحاب إلى آسيا[١٢٥]، فلم يكن أمام زمسكيس إلا مواجهة الموقف والاستعداد للحرب،

(120) Runciman : Op. Cit., P. 205.

(121) Ostrogorsky: op.cit. p. 259.

(122) Ibid . P. 262, Vasiliev : Op. Cit., P. 319.

(١٢٣) سيد الناصرى : الروم ص ٢٣٤.

(١٢٤) عمر كمال توفيق : المرجع السابق ص ٤٢.

(125) Schlumberger: op.cit. I, P. 41.

فاستدعى بعض فرقه من آسيا وحشد ما استطاع حشده من فرق، وبعث بمقدمات هذا الجيش تحت قيادة اثنين من أمهر قادته إلى البلقان هما براداس سكليروس وبطرس فوقاس(١٢٦).

وفى نفس الوقت جد - سفياتوسلاف فى عقد بعض التحالفات ضد البيزنطيين مع المجريين والبجناك، وأخذ يلوح للبلغار بإمكان منحهم الحكم الذاتى وبعض الامتيازات حتى لايثيروا المشاكل فى وجهه وهو يتأهب للحرب(١٢٧)، وانساب الروس فى شمال تراقيا فوصلت طلائعهم فعلا إلى أدرنة على مقربة من القسطنطينية، فعاثوا الفساد فى كل مامروا به، وأحدثوا الخراب بكل ماصادفهم، ثم بدأت أرتالهم تتقدم ناحية العاصمة البيزنطية فى ربيع سنة ٩٧٠م(١٢٨). وفى نفس الوقت وصل برداس سكليروس قرب أدرنة عى رأس اثنا عشر ألف مقاتل من خيرة جند الامبراطورية، اختارهم زمسكيس بعناية لهذه المهمة، ومالبث القائد البيزنطى أن استخدم مع الروس أسلوبا فيه كثير من الدهاء للإيقاع بهم، إذ أعد لهم بعض الكمائن وسد عليهم المسالك ثم أخذ يتراجع أمامهم كلما تقدموا واجتذبتهم قوة تظاهرت بالانهزام، فازاد الروس طمعا وابتلعوا الطعم البيزنطى ولم يلزموا الحذر(١٢٩)، فلما أصبحوا فى متناول الكمائن البيزنطية وفى الوقت المحدد انقضت عليهم القوات البيزنطية فأعملت فيهم السيوف وأنزلت بهم هزيمة ساحقة عند قرية تقع فى منتصف الطريق بين أدرنة والقسطنطينية وتكبد الروس خسائر فادحة

---

(126) Ostrogorsky: op.cit. p. 262.
Camb. Med. Hist. V. 4, P. 240.

(127) Schlumberger: op.cit.1, PP.50 - 51.

(128) Ostrogorsky: op.cit. p. 262.
Diehl, Marçias: Op. Cit., P. 472.

(129) Schlumberger: op.cit., I, P .52.

فى الرجال والعتاد واضطروا إلى الانسحاب إلى بلغاريا فى حالة سيئة ليعيدوا تنظيم قواتهم ومعاودة الحرب(١٣٠)

وما أن فرغ حنا زمسكيس من مشاغله(١٣١)، حتى بدأ فى إعداد الحملة الكبرى لحرب الروس والاجهاز عليهم، واستخلاص بلغاريا من قبضتهم لاسيما وقد عادوا فى سنة ٩٧٢م للانسياب فى البلقان وراحوا يعيثون فسادا فى مدن تراقيا ومقدونيا، على حين كان يجرى إعداد الحملة البيزنطية تحت قيادة زمسكيس نفسه إذ جهز أسطولاً كبيراً توجه فى البحر الأسود ليكون قريباً من مسرح العمليات وليحمل المؤن والاسلحة والعتاد(١٣٢)، وخرج الامبراطور فى ربيع ذلك العام على رأس جيشه ووصل إلى أدرنه التى اتخذها مقرا لقيادته لفترة ثم تقدم نحو عاصمة البلغار برسلاء (برسلاف)، حيث عسكر جانب كبير من جيش الروس، وهناك جرت معركة كبيرة فى ابريل سنة ٩٧٢م، حلت فيها الهزيمة بالروس ولحقت بهم خسائر فادحة فى الأرواح، ووقع فى يد زمسكيس عدد كبير من الأسرى من بينهم الملك البلغارى المعزول، الذى نودى به حاكماً على البلغار، ويبدو أن زمسكيس هدف من وراء ذلك أن ينفض البلغار عن سفياتوسلاف وأن يحمدوا لبيزنطة بعثها لمملكتهم من جديد(١٣٣)

ومالبثت عاصمة البلغار أن وقعت فى يد زمسكيس على حين تقدم

(130) Ostrogorsky: op.cit. p 262.
Schlumberger: op.cit.. P. 56.

(١٣١) شغل زمسكيس فى سنة ٩٧١ باخماد ثورة بردس فوقاس ابن أخى الامبراطور السابق فاضطر الى سحب بردس سكليروس من سهل تراقيا للاشتراك فى اخماد هذه الثورة فى ربيع سنة ٩٧١، ونجح فى النهاية فى اخمادها أنظر يحيى بن سعيد التاريخ ص ١٣٧

(132) Schlumberger: op.cit. I, P 77

(133) Ostrogorsky op.cit p 262

الامبراطور شمالاً لملاقاة الجانب الآخر من الجيش الروسي تحت قيادة الملك نفسه، وكانت أحواله قد ساءت بعد كارثة برسلاء، وانفض من حوله البلغار الذين أقام الإمبراطور ملكهم المعزول، وبرغم ذلك رفض سفيا توسلاف عروض الإمبراطور لعقد الصلح حقنا للدماء على قاعدة الجلاء التام والإذعان مع التنازل عن بلغاريا واعتقد أن بإمكانه توجيه ضربة قوية للبيزنطيين مهما كلفه الأمر ومهما كان الثمن، وتحصن في مدينة سيلسترا (العاصمة الثانية للبلغار) على نهر الدانوب وحشد فيها بقيه قواته وقوى استحكاماتها(١٣٤).

وصل الامبراطور حنا زمسكيس إلى أسوار المدينة، فألقى الحصار عليها، ووصل الأسطول البيزنطي الذى انساب في نهر الدانوب حاملاً السلاح والمؤن والعتاد، وأكمل حصار المدينة من جهه النهر، ومنع الروس من الاتصال بالناحية الأخرى أو اتخاذ النهر منفذاً للهرب(١٣٥)، وبدأ الاشتباك بين الجانبين، وأظهر الروس بسالة نادرة، وحاولوا اختراق الحصار البيزنطي المفروض عليهم، إلا أن حاجتهم للمؤن وانهيار الروح المعنوية جعل تلك المقاومة تتداعى في النهاية فهلك عدد كبير من جندهم، ولم ينج سفيا توسلاف نفسه إلا بصعوبة كبيرة بعد أن أصابته الجراح، وغنم البيزنطيون عتادهم وأسلحتهم وكثيراً من متاعهم(١٣٦).

لم يعد أمام سفيا توسلاف إلا أن يطلب الصلح من الإمبراطور، فعرض الجلاء عن بلغاريا وتعهد بإطلاق سراح من معه من الأسرى، والتمس أن يكون الروس أصدقاء لبيزنطة، وأن تعتبرهم الإمبراطورية من الأمم الحليفة، وتعهد الا يغير الروس على حدود الامبراطورية، بل يقدمون المعونة لها اذا

---

(134) Ibid P 262

(135) Schlumberger L'Epopée. I P 147

(136) Ostrogorsky op.cit p 262

طلبت ذلك، وأن ينوبوا عنها فى رد أى مغير على حدودها[١٣٧]، كل ذلك مقابل أن يسمح الإمبراطور له بالعودة هو ومن بقى من جنده إلى بلادهم، وأن يمدهم بكمية من المؤن تكفيهم لذلك، فقبل زمسكيس هذه المقترحات، وعقد الصلح بين الطرفين[١٣٨]؛ فتخلصت بيزنطة من خطر داهم كاد يعصف بها ويقضى على كل ما حققته على مدى تاريخها الطويل، لأن فكرة الاستيلاء على العاصمة البيزنطية والعرش البيزنطى التى راودت الملك البلغارى من قبل كانت قد استبدت بهذا الملك الروسى، ولاسبيل إلى المقارنة بين المملكتين، فقد كان الروس فى مرحلة بداوة ولديهم من النوايا العدوانية ما يكفى لازعاج بيزنطة وينذرها بشر مستطير أكثر مما هددها من جهه البلغار[١٣٩].

ولقد أشار المؤرخ شلومبرجيه إلى ذلك بقوله أن من حسن حظ بيزنطة أن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية وحيازة التاج الامبراطورى، التى استبدت بسفيا توسلاف قد صادفت فترة نشطت فيها القوة البيزنطية وتجدد جيشها وجلس على عرشها رجل من أعظم الأباطرة وأكثرهم خبره بفنون الحرب وأمهرهم من الناحية السياسية هو الامبراطور حنازمسكيس[١٤٠]. فلو حدث هذا الخطر الروسى على بيزنطة فى فترة أخرى فلربما غدا من الصعوبة بمكان التكهن بمصير الامبراطورية البيزنطية ومستقبلها فى ظل هذا الخطر الداهم.

ثم ما لبث زمسكيس أن أعاد النظر فى موقفه من بلغاريا وملكها الذى

---

(137) Ibid. P. 262.

(138) Schlumberger: L'Epopée, I. P. 150.

(139) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 240.

Ostrogorsky: op.cit. p. 262.

(140) Schlumberger: Op. Cit., I, P. 46.

نصبه خلال الصراع مع الروس، واستقر رأيه على عزله مرة أخرى وحيازة بلغاريا لتصبح إحدى المقاطعات البيزنطية بعد أن حمل الملك المخلوع أسيراً إلى القسطنطينية، وأدخل بلغاريا أو بمعنى أصح الجانب الأعظم منها (بلغاريا الشرقية) فى حظيرة بيزنطة ففقد هذا الجانب من بلغاريا استقلاله السياسى والدينى الذى تمتع به البلغار فترة طويلة[١٤١]، بينما ظلت بلغاريا الغربية بيد أسرة بلغارية مدة تقترب من نصف قرن آخر من الزمان[١٤٢].

أما عن حروب زمسكيس مع المسلمين، فلقد أزمع مواصلة جهود بيزنطة ضد مسلمى الشرق ، خاصة وقد بيت المسلمون النية على الانتقام من بيزنطة لما لحقهم على أيدى نقفور فوقاس سنة ٩٦٩م من هزائم فى شمال الشام[١٤٣]، هذا فضلاً عن أن الأوضاع قد تغيرت فى بلاد الشام منذ ديسمبر سنة ٩٦٩م، حين سير جوهر الصقلى قائده جعفر بن فلاح إلى الشام، فاستولى على دمشق وحكم هناك لفترة وجيزة باسم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، وسير جيشاً لمهاجمة أنطاكية التابعة للبيزنطيين سنة ٩٧١ (٣٦٠هـ)، ولم يمنعه عنها سوى هجوم القرامطة عليه فى دمشق، وانتهى الأمر بأن أوقع به القرامطة وحلفاؤهم من الإخشيديين والعباسيين الهزيمة عند أسوار دمشق ووضعوا حدا لمشروعاته وحياته معا[١٤٤].

وبعد أن أمن زمسكيس جانب الروس والبلغار ، وسكنت الأحوال داخل

---

(141) Ostrogorsky: op.cit. p. 262.

(142) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 240,

العرينى : الدولة البيزنطية ص ٥٣٧.

(143) Schlumberger: Op. Cit. I, P. 219,

العرينى : الدولة البيزنطية ص ٥٣٧.

(١٤٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٥٢ – ٤٥٣.

يحى بن سعيد : التاريخ ص ١٣٨ – ١٣٩

البلاد بعد القضاء على فتنة برادس فوقاس، تهيأت له الفرصة لمواصلة حروب بيزنطة فى الشرق[١٤٥]، ومهد لحملاته على بلاد الشام بمحاولة إضعاف قوى المسلمين العسكرية بحرمانهم من الحصول على المواد الخام من الحديد والأخشاب اللازمة لصناعة السفن وبعض أنواع الأسلحة كالدروع والتروس والسيوف والرماح، وهى التى كان يحملها إليهم التجار الإيطاليون خاصة من البندقية، فتدخل زمسكيس لايقاف هذه التجارة وطلب من البنادقه الكف عن حمل هذه السلع إلى المسلمين فى الشرق، وهدد بإحراق السفن التى تحمل هذه المتاجر الى المسلمين[١٤٦]، فرضخ التجار البنادقه ودوق البندقية لهذا المطلب وأوقفوا حمل هذه السلع إلى الشرق، على الرغم مما كانوا يجنونه من المكاسب من هذه التجارة بالذات[١٤٧].

ما لبث زمسكيس أن أمر قادته فى الشرق بالتمهيد لمشروعاته ببعض الإغارات فى إقليم أعالى الفرات سنة ٩٧٢م حتى بلغ البيزنطيون نصيبين حيث سبوا وأحرقوا وخربوا البلاد، وفعلوا مثل ذلك بديار بكر، وفى العام التالى أوغلوا فى إقليم الجزيرة، ولم يوقف تقدمهم إلا ماحل بهم من هزيمة على يد القوات الحمدانية سنة ٩٧٣م التى أسرت القائد البيزنطى وبعض جنده (رمضان سنة ٣٦٢هـ)[١٤٨]. وأحدث هذا الانتصار دوياً كبيراً فى الأوساط الاسلامية، فتشجع الحمدانيون واستردوا كل ما فتحه البيزنطيون من

(145) Lemerle : Op. Cit. PP. 88 - 9.

(146) Schlumberger: Op. Cit., I, PP. 239 - 40.

(147) Ibid. P. 240.

(١٤٨) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٣٩،
مسكوية : تجارب الأمم ج ٢ ص ٣٠٣، ص ٣١٢،
ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٦٢٧ (سنة ٣٦٢)،
أبو الفدا: المختصر فى اخبار البشر ج ٢ ص ٥١٠، ص ٥١٤.
Ostrogorsky: op.cit. p. 263.

البلاد فى أطراف العراق، لكن لازالت حدود بيزنطه تمتد إلى قيليقيا وإنطاكية والثغور الشامية، فضلاً عن أن حلب لازالت تدين بالولاء لبيزنطة منذ سنة ٩٦٩م منذ عهد نقفور فوقاس(١٤٩).

زاد إصرار زمسكيس على الانتقام من المسلمين، لاسيما وقد بدأت قوة إسلامية أخرى تفرض نفسها فى بلاد الشام، وأعنى بها الخلافة الفاطمية التى استطاعت أن تهزم القرامطة وتؤكد سيطرتها فى جنوب الشام، ثم تواصل العمل للفوز بشمال الشام أيضا(١٥٠)، وفى نفس الوقت بدأت تسيطر أيضا على زمسكيس حماسة دينية ذهب بعض المؤرخين إلى أنها روح الحروب الصليبية، حين استبدت به فكرة الاستيلاء على بيت المقدس من المسلمين وتحطيم الخلافة العباسية نهائياً، وإضافة أملاكها إلى إمبراطوريته(١٥١)، ولم يكن هذا الخاطر جديداً بل تشبع بهذه الروح الإمبراطور الراحل نقفور فوقاس، وإن لم تسعفه الظروف لتحقيق أهدافه.

ولقد قام زمسكيس بحملتين فى الشرق: الأولى منهما على الجزيرة سنة ٩٧٤م ، ويبدو أنه أراد بها أن يوغل فى العراق للقضاء على الخلافة العباسية منتهزا فرصة ضعف القوى الإسلامية فى الشرق خاصة الحمدانيين فى كل من الموصل وحلب، على حين اشتهر الخليفة العباسى المطيع بالضعف والتخاذل وخضع لأمير الأمراء بختيار(١٥٢)، فتقدم زمسكيس وعبر الفرات فاستولى فى صيف سنة ٩٧٤م على آمد دون مقاومة تذكر، ونهب ميافارقين

---

(149) Schlumberger: Op. Cit. I, P. 219.

(١٥٠) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٦٨ ، ص ١٧٣ - ١٧٤.

محمد الشيخ : الامارات العربية ص ١٧٣.

(151) Ostrogorsky: op.cit. pp. 263 - 4.

(١٥٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٧٦ - ١٧٧.

مسكوية : تجارب الأمم ج ٢ ص ٨٦ - ٨٧.

وأحراقها بعد أن استولى على غنائم وفيرة واستباح نصيبين بعد أن فر سكانها، وأقام بهذه المدينة طوال فترة المفاوضات مع أبى تغلب بن حمدان أمير الموصل، الذى اضطر إلى عقد صلح معه تعهد بموجبه بدفع مبلغ من المال كل سنة[١٥٣]، وكان فى نية زمسكيس المسير إلى بغداد للاستيلاء عليها موقناً أن ضعف الخليفة العباسى واضطراب أحوال العباسيين كفيل بضمان نجاحه، غير أنه ما لبث أن ارتد بعساكره ناحية الشمال دون أن يتقدم إلى بغداد ربما لنقص المؤن والمجاعة والجفاف ووقوع مساحات شاسعة من الرمال بينه وبين هدفه، كل ذلك جعله يوقف المشروع ويعود أدراجه الى القسطنطينية فى الوقت الذى تغيرت فيه الأمور فى بغداد[١٥٤].

وانتهت حملة زمسكيس الأولى على الجزيرة دون أن تحقق أهدافها اللهم إلا إذا كان ما حققته فى بعض نواحى الجزيرة من نصر جعل الموصل الحمدانية تقبل دفع الجزية السنوية ويقل خطرها على أملاك بيزنطة فى الأطراف وتصبح إمارة حاجزة مثلما فعل البيزنطيون من قبل بحلب[١٥٥].

اضطر زمسكيس للقيام بحملته الثانية على بلاد الشام سنة ٩٧٥م، لاسيما بعد أن نجح الفاطميون فى الاستيلاء على دمشق سنة ٩٧٤م (٣٦٣هـ)، وأخذوا فى تصفية الوجود البيزنطى فى بلاد الشام، فطردوا الحامية البيزنطية من بيروت وهزموا القوات البيزنطية قرب طرابلس ففتحوا

---

(153) Canard : Op. Cit. P. 247.

Camb. Med. Hist. V 4, P. 161,

يحى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٠.

(154) Schlumberger: Op. Cit. I, P. 280.

يحى بن سعيد : نفس المرجع ص ١٣٩ - ١٤٠،

Camb. Med. Hist. V. 4, P. 147.

(155) Canard : Op. Cit., P. 247.

الطريق الى أنطاكية[١٥٦]. ولهذا نهض الامبراطور فى ربيع سنة ٩٧٥م من القسطنطينية متخذاً طريقه فى هذه المرة إلى أنطاكية مباشرة، وانحدر منها جنوباً على طريق نهر العاصى حتى وصل إلى حمص فقاتلها حتى قبل أهلها دفع الجزية، واقتحم بعلبك وخربها، وأسر جماعة من أهلها، ثم توجه الى دمشق فقبل أهلها دفع مبلغ كبير من المال، ثم استولى على بانياس وواصل مسيره نحو طبرية، فاستولى عليها وأقام عليها حاكماً بيزنطياً ، ثم تقدم إلى عكا ثم سار إلى قيسارية دون مقاومة تذكر، وكان فى نيته الوصول إلى بيت المقدس[١٥٧]، ومن الأمور التى كان لها أثر هام فى سير الأحداث ومساعدة البيزنطيين فى هذه الحملة انضمام بعض شيوخ القبائل العربية فى شمال الشام بعشائرهم إلى معسكر الإمبراطور وعملوا فى خدمته كعناصر محالفة، فكان لهم أثر هام فى تطور الأحداث لما كان لهم من خبرة بشئون المسلمين فى الشام[١٥٨].

على أن الفاطميين أخذوا يتراجعون أمام زمسكيس للتمركز فى المواضع الحصينة على الساحل، ريثما تصل الامدادات والنجدات بطريق البحر، ولهذا فقد عول زمسكيس على القضاء على تلك القوات قبل المضى إلى بيت المقدس حتى لايتعرض للهجوم من الخلف، وحتى يؤمن طريق مواصلاته، وتطلب الأمر العودة الى الشمال لتحقيق هذا الهدف، قبل المضى إلى المدينة المقدسة[١٥٩]، وفعلاً سار الى بيروت فاستولى عليها وأسر أميرها وحمله الى بيزنطة ثم توجه إلى طرابلس، وأخذ فى قتالها إلا أن حصانة هذه المدينة كفلت لها السلامة ولم يستطيع الامبراطور أن ينال منها، فعبر عن ضيقه

---

(١٥٦) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٣٩.

(157) Lemerle : Op. Cit. P. 89,
Ostrogorsky: op.cit. p. 306.

(١٥٨) وسام فرج : دراسات ص ٣٠٠.

(159) Schlumberger: Op. Cit. I, P. 306,
العرينى: الدولة البيزنطية ص ٥٥٤.

بإتلاف مزارعها وأرباضها، وواصل سيره شمالاً، فاستولى على جبلة، وبذلك يكون قد أخضع الساحل كله من الرملة حتى أطراف إمارة أنطاكية، ثم استولى على بعض الحصون والقلاع الداخلية، وعاد إلى أنطاكية فى سبتمبر سنة ٩٧٥م، حيث قرر العودة الى العاصمة(١٦٠).

ولم يكد زمسكيس يصل إلى القسطنطينية حتى دهمه الموت وذلك فى يناير سنة ٩٧٦م وأحدث هذا الموت المفاجئ ردود أفعال كثيرة، واختلف الناس فى سبب وفاته فقيل أنه مات مسموماً بفعل أحد وزرائه المفصولين من الخدمة بأمر منه(١٦١). وقيل أيضا أنه أصيب بمرض التيفوس أدى وفاته فجأة بعد أن أجهد نفسه كثيراً فى حملته الأخيرة(١٦٢)، ومهما كانت الأسباب فقد انتهى بوفاته عهد هام ومرحلة من أهم مراحل التاريخ البيزنطى، أتيح لبيزنطة أن تحقق مجداً لم تبلغه من قبل وأن تمد سلطتها إلى أبعد مما كان لها منذ زمن بعيد.

هذا عن علاقة زمسكيس بمسلمى الشرق، أما عن موقفه من المسلمين فى صقلية وجنوب إيطاليا، فتشير الدلائل الى أن الهدوء والسلام ساد هناك فى الشطر الأول من عهد هذا الإمبراطور، نظراً لمحافظة الفاطميين على ما عقدوه من صلح مع البيزنطيين فى الوقت الذى شغل فيه الفاطميون بمشروعات أهم وأعظم وأعنى بها فتح مصر ومد نفوذهم فى بلاد الشام(١٦٣)، ومحاولة القضاء على نفوذ الخلافة العباسية السنية فى تلك

---

(160) Ostrogorsky: op.cit. pp. 263 - 4.

يحيى بن سعيد: التاريخ ص ١٤٥ - ١٤٦.

(١٦١) سيد الناصرى : الروم ص ٣٣٦.

(162) Schlumberger: Op. Cit. I, P. 314.

Camb. Med. Hist. V. 4, P. 82.

(١٦٣) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ١٦٨، ص ١٧٣ - ١٧٤.

البلادوالفوز بزعامة العالم الاسلامى كله ابتداء من سنة ٩٦٩م، حين توجه جوهر الصقلى لفتح مصر وحين انتقل مركز الخلافة الفاطمية إلى مصر سنة ٩٧٢م، بانتقال المعز اليها واتخاذه القاهرة الناشئة عاصمة جديدة للدولة[١٦٤]. غير أن الاشتباكات التى جرى بعضها فى بلاد الشام بين الفاطميين والبيزنطيين انعكست آثارها على أملاك بيزنطة فى جنوب إيطاليا، فتعرضت هذه الجهات لإغارات أمير صقلية سنة ٩٧٤م لاسيما كالبريا حيث غنم المسلمون وسبوا واستولوا على كثير من الغنائم وعادت الجهات التابعة لبيزنطة تتعرض لخطر المسلمين سنة ٩٧٥م (٣٦٦هـ) كرد فعل لنشاط الامبراطور فى الشرق[١٦٥].

أما عن سياسة زمسكيس الداخلية، فعلى الرغم من أنه بدأ زحفه إلى العرش بالإشتراك فى جريمة كبيرة حين اغتال الامبراطور السابق، إلا أنه حاول التكفير عن هذا الجرم، بإظهار كثير من التقوى والورع والعطف على الطوائف الدينية والرهبان[١٦٦] الذين أجزل لهم العطاء ومنحهم الهدايا والأعطيات، واهتم بحل مشاكلهم وما كان يظهر بينهم من خلافات، فقد تدخل لفض النزاع الذى نشب بين رهبان دير لورا (آتوس) وبين مقدم الدير، وأجرى التحقيق بمعرفته شخصيا[١٦٧]، وانتهى الأمر بوضع بعض القواعد التى تتبعها إدارة الدير واهتم زمسكيس أيضاً بإنعاش الحياة الديرية وتوسيع

(١٦٤) محمد الشيخ : تاريخ مصر الاسلامية ص ١٤٦ – ١٤٩.

(١٦٥) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٤٩٠ –٤٩١،

أبو الفدا : المختصر ج ٢ ص ٥٢٤،

Schlumberger: Op. Cit., I, P. 212.

العرينى : المرجع السابق ص ٥٤١.

(166) Camb. Med. Hist. V. 4, P. 80.

(167) Ibid. P. 81.

قاعدتها يعكس ما حدث على عهد نقفور[١٦٨].

كما اهتم زمسكيس بإنعاش الحياة الاقتصادية فى البلاد، فعلى الرغم من حروبه المتصلة والنفقات التى تكبدها فى إعداد جيوشه وحملاته، فلم تحدث ضائقة مالية فى الدولة أو تنهك هذه النفقات الكثيرة ميزانيتها، لأنه يبدو أن زمسكيس استمد جانباً كبيراً من هذه النفقات مما كان يفرضه على الأمراء الداخلين فى طاعته من أموال، فضلاً من أنه عوض كثيراً من هذه النفقات من المغانم والأسلاب التى كان يحوزها فى حملاته خاصة فى بلاد الشام وأطراف العراق[١٦٩].

على أن زمسكيس حاز محبه الناس فى بيزنطة ما لم يحظ به غيره من الأباطرة بسبب انتصاراته الباهرة على نهر الدانوب، وفى الشرق ضد المسلمين، وبفضل ما اتخذه من تدابير داخلية سليمة وصالحة أدت إلى إنتعاش الحياة الاقتصادية والمادية للامبراطورية برغم حروبه المستمرة ونفقاتها الكثيرة [١٧٠]، وعلى الرغم من ذلك فقد واجه مصاعب كبيرة فى بداية حكمه لعل أهمها ثورة برادس فوقاس - أبن أخى الأمبراطور الراحل نفقور الثانى - فى الوقت الذى كان يتأهب فيه لحرب الروس سنة ٩٧١م، فشكل ذلك خطورة بالغة على الإمبراطور زمسكيس، لاسيما وقد تأججت هذه الثورة فى آسيا الصغرى وفى ثيم قبادوقيا بالذات[١٧١]. فغدا لزاما على زمسكيس التريث فى حملته ضد الروس واستدعى أكفأ قادته - برادس سكليروس - من تراقيا لإرساله إلى

---

(168) Ibid. p.81.

(169) Canard: op.cit. p. 247,

يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٤٠.

(١٧٠) العريني: المرجع السابق ص ٥٢١.

(171) Camb. Med. Hist. V.4, p. 81.

آسيا لإخضاع تلك الثورة، وزاد من خطورة هذه الحركة أن دخل برداس فوقاس قيصرية حاضرة قبادوقيا حيث أعلن نفسه إمبراطورا وأخذ يباشر سلطته من أقاليمها[١٧٢] . ثم غادر برداس فوقاس قيصرية متوجها على رأس قواته إلى القسطنطينية، دون أن يستجيب لطلب الامبراطور بالإذعان وطرح الخلاف والحصول منه على أمان له ولمن معه من الاتباع، فلم يتخاذل زمسكيس أو تهن عزيمته، وإنما بدأ يواجه الخطر ويتخذ من الخطوات مايكفل له القضاء على هذه الثورة، فبادر بالقبض على بعض أتباع الثائر وأنصاره وقبض على بعض أقاربه وصفى أملاكهم وصادر أموالهم وأمر بالتنكيل بهم[١٧٣] ، ثم سير زمسكيس أكفأ قادته وهو برداس سلكيروس لحرب هذا الثائر، فاجتاز هذا البسفور فى طريقه إلى آسيا حيث التقى بقوات الثائر عند ضورليوم فحاصره ثم ضيق عليه الخناق حتى اضطره إلى الهرب إلى قيليقيا فطارده حتى أجبره على الاستسلام مقابل تأمين حياته، وأرغم فى النهاية على دخول الدير ولبس مسوح الرهبان[١٧٤] ، لتنتهى هذه الثورة التى هددت زمسكيس فى مستهل حكمه. والواقع أن القضاء على تلك الثورة كان فاتحة خير زمسكيس الذى مالبث أن اندفع فى فتوحه فى أوربا ثم فى آسيا محققا انتصارات باهرة ومعيداً لبيزنطة جانبا كبيرا من مجدها السالف وعزها المفقود.

(172) Ibid. p. 81.

(173) Schlumberger: op.cit.I, pp. 64-7.

(174) Ibid. p. 75.

باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥)م

يميل بعض كبار المؤرخين إلى تشبيه فترة وصاية نقفور فوقاس (الثانى) وحنا زمسكيس على البيت المقدونى ووارثا هذا البيت، وهى الوصاية التى كادت تنتهى بسلب هذا البيت أحقيته فى الحكم وشرعيته فى الاستمرار، بما حدث فى الغرب الأوربى من وصاية رؤساء البلاط على البيت الميروفنجى التى انتهت فعلا بسلب البيت الأخير أحقيته فى الحكم وخلع وارثه الشرعى من السلطة وبروز أسرة جديدة هى الأسرة الكارولنجية[١٧٥].

وكان زمسكيس قد التزم مثلما فعل نقفور فوقاس من قبل بالمحافظة على حقوق الوريثين الشرعيين باسيل وقنسطنطين، ولدى رومانوس الثانى، وأعلن نفسه قيما عليهما لذا فقد انتهى إليهما - وفقا لمبدأ الوراثة - التاج الامبراطورى، لاسيما وأن زمسكيس لم ينجب وريثا يستطيع أن يلى العرش من بعده، وتم تنصيب الأميرين باسيل وقنسطنطين فى العرش على أن يشتركا معا فى حكم الدولة[١٧٦].

وعلى الرغم من اختلاف كل منهما عن الآخر اختلافا بينا فى الميول والطباع واختلاف نظرة كل منهما للوظيفة الإمبراطورية، إلا أنهما استطاعا القيام بالمهمة خير قيام، ونجحا فى تسيير دفة الحكم باقتدار وحكمة، فبينما اشتهر باسيل - لاسيما بعد اعتلائه العرش - بالكره لحياة الدعة والرفاهية والمجون والعزوف عن العلوم والآداب وحب المغامرة والمخاطرة والتعلق بالحرب

---

(175) Ostrogorsky: op.cit. p. 264.

Schlumberger: op.cit. pp. 327 - 8,

العرينى : المرجع السابق، ص ٥٦٧.

(176) Cmab. Med. Hist. V.4, p.83.

والقتال وعلو الهمة والطموح[١٧٧]، نجد أن قنسطنطين كان على النقيض من ذلك؛ إذ كان كارها لمسئوليات الحكم والسلطة، عازفا عن العظمة والسلطان، محبا لحياة الدعة والهدوء، مغرما بالعلوم والفنون؛ ولهذا فقد باشر السلطة دون أن يدرى عن الوظيفة الامبراطورية شيئا أو يعى شيئا من أعبائها[١٧٨]، فتولى تسيير الأمور نيابة عنه باسيل الذى يفوقه مقدرة وكفاءة، وبينما ظل باسيل عزبا عازفا عن الزواج حتى نهاية حياته[١٧٩]، تزوج قنسطنطين وأنجب ثلاث بنات هن: إيدوسيا وزوى وثيودورا[١٨٠].

لم يكد الامبراطور الشاب، باسيل الثانى يقبض على زمام السلطة، إلا وواجهته بعض الفتن والثورات[١٨١]، وأمل البعض من كبار رجال الدولة الاستحواذ على السلطة، وبادر القائد برداس سكليروس صهر زمسكيس وأبرز القادة فى عهده والذى خدم الامبراطورية على عهد زمسكيس خدمات جليلة بتفجير ثورة عارمة، لأنه كان يأمل أن يلى العرش بعد وفاة صهره أو على الأقل أن يفرض وصايته على الأميرين الصغيرين، فلما لم يستطع أعلنها ثورة عارمة واستمرت ثورته نحو أربع سنوات ٩٧٦ - ٩٨٠م خاصة وأنه كان قد

---

(177) Psellus: Chronographia, pp. 12-28.
Schlumberger: op.cit. pp. 330-2.

(178) Camb. Med. Hist. V.4, pp. 83-4.

(١٧٩) تشير المؤرخة Hussey الى أن سبب عزوف باسيل عن الزواج هو ماتعرض له فى طفولته وصباه من جو فاسد وبغيض ومؤمرات دنيئة قد جعلته يتشكك فى كل شيء ولذلك عزف عن الزواج. انظر.
Hussey: op.cit. p.32.

(180) Schlumberger: op.cit. I, pp. 339-40.

(181) Ostrogorsky: op.cit. p. 270.

أعد نفسه جيدا لتحقيق مطامعه حتى قبل وفاه مسكيس[١٨٢]، ثم ثار مره ثانية بعد سنوات وانتهت ثورته هده المرة سلميا فى أكتوبر سنة ٩٨٩م[١٨٣].

ويبدو أن ماتعرض له باسيل الثانى فى طفولته وصباه ومطلع شبابه من أحداث، وماشهده من تكالب على السلطة وتآمر بعيض من أجلها، فضلا عن اندلاع الثورة التى فجرها برداس سكليروس كان له أثر فى تكوين شخصيه باسيل الثانى من ناحية وشحذ همته من ناحية أخرى[١٨٤]، فلقد مال باسيل إلى الانطواء والشك فيمن حوله، والنظر للأمور نظرة حذر وريبة، وفى نفس الوقت أدى تصارع الآخرين من حوله على السلطة إلى تحفيزه على بذل الجهد وإظهار الهمة والنشاط للاحتفاظ بملك آبائه وأجداده، واستمرار البيت المقدونى فى حكم الامبراطورية[١٨٥].

ولعل ذلك كله كان له ضلع فيما أظهره باسيل الثانى من همة فى سياسته الخارجية، إذ بدأ سلسلة طويلة من الحروب فى أوروبا وفى آسيا، أظهر فيها قدرا كبيرا من العنف والقسوة، ربما ليحقق انتصارات يجارى بها أسلافه العظام أمثال نقفور فوقاس وحنازمسكيس[١٨٦]، ويمحو بها ما أحدثته انتصاراتهما الباهرة من آثار فى أذهان الناس فضلا عما أثارته أيضا انتصارات

---

(182) Psellus: op.cit. pp 13-19

Camb. Med. Hist V 4. p. 84.

(١٨٣) وسام عبد العزيز فرج دراسات ص ٣١٢

(184) Hussey op.cit p. 32 Ostrogorsky op.cit p.270.

(185) Psellus. op.cit. p 19

(186) Ostrogorsky op.cit p 270.

كبار القادة العسكريين لاسيما برداس سكليروس وبرداس فوقاس وغيرهما من القادة فى وجدان الشعب، لكن يبدو أن باسيل بالغ كثيرا فى عنفه وقسوته مما جعله يختلف إلى حد ما عن سلفيه وجعل المعاصرين يلصقون به تسميات هى أقرب إلى الذم منها إلى الإطراء، وإن حقق باسيل انتصارات تفوق بها على سلفيه العظيمين[١٨٧].

وتأتى علاقات بيزنطة بالروس على عهد هذا الامبراطور فى مقدمة سياسته الخارجية، فقد آل الحكم فى دولة الروس بعد مقتل سفياتوسلاف سنة ٩٧٣م إلى ابنه فلاديمير بعد فترة صراع بين خلفاء الملك الراحل[١٨٨]، وعلى الرغم مما كان يشعر به الروس من مرارة بسبب الأحداث السابقة والحروب مع بيزنطة، إلا أن المؤرخين يؤكدون على قيام تحالف بين بيزنطة على عهد باسيل الثانى والروس على عهد فلاديمير ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لدولة الروس[١٨٩]، فقد طلب الامبراطور باسيل الثانى من الروس أن يقدموا له بعض الفرق العسكرية ليستعين بها فى حربه مع البلغار، فتحمس هؤلاء وأرسلوا له ستة آلاف جندى سنويا استفاد بهم الإمبراطور فى حروبه واستخدم بعضهم فى حرسه الامبراطورى، لأنهم عرفوا بشدة المراس والقوة والجلد، ولهذا نشأ تحالف بين الجانبين أفاد كثيرا دولة الروس الناشئة[١٩٠].

وفى نفس الوقت أخذت المسيحية الأرثوذكسية تنتشر انتشارا حثيثا فى روسيا، وبدأ نوع من التقارب بين الدولتين جاء لصالح الدولتين دون شك،

---

(187) Schulumberger: op.cit. p. I, p.412.

(188) Camb. Med. Hist. V.4, p.208

(189) Schlumberger, op.cit. I, p. 712.

(190) Ostrogorsky: op.cit. p.269

وأفادت الروسيا من تقاربها مع بيزنطة من الناحية الحضارية، إذ أخذت تعب من معين الحضارة البيزنطية وتحتذى حذو بيزنطة فى الفنون والعمارة والآداب، وتقلدها فى الأخذ بأسباب الترف والبذخ وحياة الرفاهية حتى تحولت كييف عاصمة الروس حينئذ إلى مدينة تضاهى القسطنطينية نفسها(١٩١)، وبلغ من شدة إعجاب الروس بحضارة بيزنطة أن طمع الملك فلاديمير نفسه فى الزواج من أميرة بيزنطية، ووافق باسيل الثانى على أن يزوجه من أخته آن، إلا أن هذه الأميرة فيما يبدو رفضت الزواج من فلاديمير وهو الروسى المتخلف عنها مدنية وحضارة(١٩٢)، لكن فلاديمير فى الواقع كان يبغى توثيق العلاقات مع بيزنطة والتقرب إليها للإفادة من حضارتها من ناحية، وضمان أمنه وسلامته من جهتها من ناحية أخرى، على أن هذا الحادث مر دون أن يترك أثرا يذكر فى العلاقات بين الجانبين(١٩٣)، واستمر ورود العدد المقرر من الجند الروس إلى بيزنطة ومضى فلاديمير فى تأسيس الدولة الروسية الحديثة حتى ليعد المؤسس الأول لتلك الدولة الحديثة.

ويدخل ضمن أحداث هذه الفترة أيضا العلاقات مع البلغار، فالمعروف أن بلغاريا الشرقية، كانت قد خضعت تماما لبيزنطة منذ حروب زمسكيس سنة ٩٧٠م مع الروس، على حين ظلت بلغاريا الغربية تحت حكم ملوكها مستقلة لمدة تقرب من نصف قرن من الزمان، وآلت زمن باسيل الثانى إلى الملك صمويل(١٩٤) (٩٨٠ - ١٠١٤م)، واشتهر هذا الملك بالصلابة والبسالة والنشاط الوافر، لذا أعاد بناء دولة البلغار وأعاد إليها البطريرقية التى أزالها زمسكيس، وبدأ فى محاولة الإفادة من الاضطراب والقلاقل التى اجتاحت

---

(191) Ibid. P. 269.

(192) Schlumberger, op.cit. I, p. 770.

(193) Ostrogorsky: op.cit. p.269.

(194) Camb. Med. Hist. V.4, p.240.

بيزنطة عقب وفاة زمسكيس للتخلص من السيادة البيزنطية وفرض سلطانه على كل بلغاريا[١٩٥].

بدأ صمويل فى التوسع جهة الجنوب، فاجتاح البلغار سهل تساليا ومقدونيا ودمروهما، كما غزوا الجزء الجنوبى من بلاد اليونان، فدمروا شبه جزيرة المورة[١٩٦]، وانتصروا على الحاميات اليزنطية فى البلقان، الأمر الذى دفع الامبراطور باسيل الثانى إلى القيام بأولى الحملات التى قادها بنفسه[١٩٧] لاسترداد الأراضى التى استولى عليها صمويل بين جبال البلقان ونهر الدانوب ووضع حد لأطماع الملك البلغارى خاصة وقد اعتد باسيل الثانى بنفسه كثيرا وبما تميز به من صفات حربية وثقة فى النصر على خصومه على حد قول المؤرخ القديم بسيليوس[١٩٨].

سار باسيل فى صيف سنة ٩٨٦م إلى بلغاريا بهدف تدمير قوة ملكها، وحشد فى هذه الحملة قوات ضخمة، واستعان بالأمير الروسى فلاديمير الذى أمده بقوات كبيرة[١٩٩]. وعلى الرغم من كل ذلك فقد أخفق الإمبراطور فى تحقيق هدفه، بل نجح صمويل فى نصب الكمائن لجيش الإمبراطور، الذى فك الحصار عن أهم مدن البلقان (صوفيا الحالية). فانقض البلغار على مؤخرة جيشه وفتكوا بكثير من جنودها عند أبواب تراجان[٢٠٠]،

---

(195) Ostrogorsky: op.cit. p.267 - 8.

(196) Camb. Med. Hist. V.4, pp. 239 - 40.

(197) Hussey : Op. Cit., P. 91

(198) Psellus: op.cit. pp. 26-7,

العرينى : المرجع السابق ص ٦٢٨ - ٦٢٩ .

(199) Schlumberger, op.cit. I, p. 661.

(200) Ibid. P. 667.

وارتفعت روح البلغار المعنوية والقومية فخسرت بيزنطة تلك البلاد، التى سبق أن استولى عليها زمسكيس وعاد الامبراطور إلى القسطنطينية مهموما، ولعل ذلك له دخل فى روح الانتقام التى استبدت به فيما بعد وميزت حروبه ضد البلغار فى السنوات التالية(٢٠١).

ولقد اتبع باسيل الثانى بعد ذلك وسائل العنف والقسوة فى حروبه ضد البلغار حتى سمى فى التاريخ باسم «قاتل البلغار» أو «ذابح البلغار»(٢٠٢) The Bulgar slayer فقد اندلعت الحرب بين الجانبين بعد موقعة أبواب تراجان لمدة عشر سنوات استطاع خلالها الملك البلغارى أن يستولى على دوراززو وينقض على بلاد الصرب، التابعة لبيزنطة بل حاولت جيوشه الوصول إلى بحر إيجه وحاولوا إلقاء الحصار على سالونيك أيضا(٢٠٣)، وهى المدينة ذات الأهمية البالغة للبيزنطيين، وتوغلوا حتى وصلوا إلى مدينة كورنثا. ولكن كفة البيزنطيين بدأت ترجح ابتداء من سنة ٩٩٦م، إذ ألحقت بيزنطة بالقوات البلغارية هزيمة ساحقة وهى عائدة من جنوب بلاد اليونان متجهة شمالا فأعملت فيها السيوف وقتلت أعدادا هائلة من البلغار، واستولت على كثير من المغانم والأسرى(٢٠٤)، وفى نفس الوقت طهرت بلاد اليونان والبلوبونيز من البلغار وحمت هذه الجهات من أخطارهم، وجاء هذا النصر انتقاما لما حدث عند أبواب تراجان من هزيمة للجيش البيزنطى(٢٠٥).

---

(201) Camb. Med. Hist. V.4, pp. 239 - 40.

(202) Hussey : Op. Cit., P. 38.

(٢٠٣) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧١.

(204) Lemerle : Op. Cit., P. 91.

Camb. Med. Hist. V.4, p . 241.

(٢٠٥) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٨.

أعطى هذا النصر لباسيل تفوقا على البلغار فواصل الحرب، وأرغم البلغار على الجلاء عن دورازو سنة ١٠٠٠م، وعن مقدونيا سنة ١٠٠٧ م(٢٠٦)، حتى تقلص ملك صمويل على بلاده القديمة (بلغاريا الغربية) فى وسط البلقان، إلا أنه استمر فى المقاومة فترة أخرى لاسيما وقد تعلم من أعدائه البيزنطيين فن التحصن وإدارة الحرب الدفاعية فاستمرت مقاومته حتى سنة ١٠١٤م(٢٠٧)، حين وقع الجيش البلغارى فى يد الامبراطور باسيل الذى أنزل به هزيمة شديدة، ووقع فى يده كثير من الأسرى، ودفعه إمعانه فى الانتقام والتشفى إلى أن يفقأ عيون الأسرى إلا واحدا فى كل مائة أسير حتى يقود زملاءه إلى بلادهم(٢٠٨)، وعندما وصل هؤلاء الأسرى البائسين إلى صمويل، وكان قد مل طول الحرب، وأحدثت به ضربات باسيل آثارا شديدة، ورأى منظر أولئك الأسرى البائسين استبد به الحزن، ومالبث أن توفى فى سبتمبر سنة ١٠١٤م ومضى حزينا يائسا(٢٠٩)، واستحق باسيل الثانى أن يطلق عليه لقب: سفاح البلغار Bulgaroctonos، وهو اللقب الذى سبق منحه لقنسطنطين الخامس الأيسورى(٢١٠).

وهكذا واصل صمويل حروبه ضد بيزنطة مدة تقرب من ثلث قرن من الزمان أنهك فيها الامبراطورية واستنفد قدرا كبيرا من مواردها، وشتت قواها وترك العرش من بعده لابنه جبرائيل Gabriel الذى لم يستطع أن يمنع باسيل الثانى من مواصلة الحرب ضد البلغار فسقطت معظم بلغاريا فى قبضة باسيل

---

(206) Schlumberger, op.cit. II, p. 146.

(207) Camb. Med. Hist. V.4, p. 241.

(208) Schlumberger, op.cit. II, p. 339.

(209) Ostrogorsky: op.cit. p.275.

(٢١٠) سيد الناصرى : الروم ص ٣٤١.

الثانى اذ استولى على عاصمة بلغاريا البلقانية مدينة أوكريدا Ochrida، وذلك سنة ١٠١٦م[٢١١]، وكانت آخر قلعة حصينة من قلاع المملكة البلغارية، ودخلها الامبراطور سنة ١٠١٨م وعزف هذه المرة عن ارتكاب المذابح البشرية الرهيبة التى أحدثها من قبل فى البلغار فانطوت معاملته لهم هذه المرة على جانب من اللين والعطف[٢١٢]، وما لبث أن بدأ فى إصلاح أحوال البلاد، فأقام بها الحاميات، وأصلح الطرق الرومانية القديمة وأصلح ماخربته الحروب، ولذلك استمرت الحياة الثقافية والفنية فى بلغاريا فى الازدهار على الرغم من فقدان البلاد استقلالها[٢١٣]، كما حاول باسيل اخضاع القبائل السلافية التى غدت مصدر خطر ومتاعب للإدارة البيزنطية فى تلك المناطق، وعاد باسيل إلى عاصمته مصطحبا أفراد البيت المالك البلغارى[٢١٤].

وترتب على انتصار باسيل الثانى على البلغار أن امتدت الحدود البيزنطية حتى اتصلت بمملكة المجر فى هنغاريا، وامتدت تلك الحدود من بلغراد حتى مصب نهر الدانوب، واحتفظت بيزنطة بهذا الخط مدة تقرب من قرنين من الزمان حينما اندلعت ثورة بلغاريا الكبرى ضد الامبراطور اسحق الثانى سنة ١١٨٦م، وبدأت الأمور تتبدل عما درجت عليه من قبل منذ أيام باسيل الثانى[٢١٥].

---

(211) Camb. Med. Hist. V.4, p. 242.

(212) Ibid. P. 242.

(٢١٣) سيد الناصرى : المرجع السابق ص ٣٤٢.

(214) Ostrogorsky: op.cit. p.275.

Jenkins : Byzantium, P. 327.

(215) Hussey : Op. Cit., P. 65.

Camb. Med. Hist. V.4, p. 241.

وإذا كان باسيل الثانى قد نجح فى سياسته الخارجية إزاء كل من الروس والبلغار فلم يكن نجاحه إزاء المسلمين بأقل من ذلك، وإن اقتصرت جهوده على تثبيت النفوذ البيزنطى فى الجهات التى أخضعها كل من نقفور فوقاس وحنازمسكيس، وكانت الأوضاع قد تغيرت فى بلاد الشام منذ وفاة زمسكيس سنة ٩٧٦م، فقد توفى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله فى نفس السنة التى توفى فيها زمسكيس(٢١٦)، واستعاد سعد الدولة بن سيف الدولة الحمدانى إمارته بحلب، واستقرت له الأمور بها منذ سنة ٩٨١م فاعتقد أن بوسعه التحلل من دفع ماكانت تدفعه حلب من جزية سنوية لبيزنطة، غير أن الامبراطور باسيل الثانى أجبره على الإذعان والعودة إلى دفعها وأرسل جيوشه لتثبيت النفوذ البيزنطى فى شمال الشام فى الفترة مابين سنتى ٩٨١، ٩٨٦م، ولترقب أيضا محاولات الفاطميين على عهد الخليفة العزيز لابتلاع شمال الشام بالإضافة إلى مابيدهم من جنوبه ووسطه(٢١٧)، وعلى الرغم من قيام الجيش البيزنطى الذى أرسل إلى شمال الشام سنة ٩٨١م باسترداد بعض القلاع والمواضع التى استولى عليها الفاطميون وإعادة الحاميات البيزنطية إليها، إلا أن ذلك لم يمنع الإمبراطور باسيل الثانى من محاولة الصلح مع الخليفة العزيز بالله، فأرسل سفارة من أجل ذلك فأجابه العزيز إلى الصلح بشروط خاصة سنة ٩٨٧م، ويبدو أن باسيل هدف من عقد هذا الصلح التفرغ

---

(٢١٦) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧ (نشر آمدروز)

ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص ١٧٢،

Canard : Op. Cit. P. 849.

(٢١٧) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٦١ – ١٦٥.

ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص ١٧٤،

Canard : Op. Cit. P. 855,

Ostrogorsky: op.cit. p.266.

لمشاغله فى البلقان[٢١٨]

غير أن الوضع مالبث أن تغير فى بلاد الشام، وتطلب الأمر تدخل الامبراطور باسيل الثانى، فلقد خططت الخلافة الفاطمية سياستها على أساس مد سلطانها ونفوذها فى تلك البلاد، ونشر المذهب الشيعى ولو اصطدمت من أجل ذلك بالقوى الأخرى المتنازعة على ملكية تلك البلاد، إذ خضعت حلب لسلطان الحمدانيين، فى الوقت الذى لازالت بيزنطة تسيطر فيه على أنطاكية، وترتبط بحلب بصلح يضمن لها بعض الحقوق وتحصيل الجزية من حاكمها[٢١٩]، وهناك أيضا الخلافة العباسية التى حرصت على مناوأة الفاطميين فى بلاد الشام والتصدى لمخططاتهم، يضاف إلى ذلك الأمراء الطامعون فى تأسيس إمارات مستقلة، فضلا عن القبائل والعشائر العربية، فى شمال الشام وجنوبه مثل «بنوكلاب» القيسيين و«بنو كلب» و«بنوطىء» القحطانيين[٢٢٠].

مالبثت حلب أن تعرضت لخطر الفاطميين والتمس أميرها سعيد الدولة الحمدانى الذى خلف والده سعد الدولة، المساعدة من الإمبراطور البيزنطى، خاصة بعد أن ألقى الفاطميون الحصار على حلب ثلاث مرات فى الفترة بين سنتى ٩٩١، ٩٩٤م[٢٢١]، فكتب الإمبراطور باسيل إلى حاكم انطاكية

---

(218) Schlumberger, op.cit. I, p. 667.

(219) Canard : Op. Cit., P. 855.

Ostrogorsky: op.cit. p.266.

(٢٢٠) ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص ١٧٧.

محمد الشيخ : الامارات العربية فى بلاد الشام ص ١٥٣.

(٢٢١) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٧٤.

ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٦٣.

البيزنطى بأمره بمساعدة حلب، إلا أن الجيش الفاطمى بقيادة منجوتكين نجح فى إلحاق الهزيمة بالقوات البيزنطية عند مخاضة نهر العاصى سنة ٩٩٤م[٢٢٢]، الأمر الذى زاد الموقف تعقيدا، وعاد الحلبيون يلحون على الإمبراطور باسيل بالخروج للمساعدة وخوفوه من خطر الفاطميين « أنه متى أخذت حلب أخذت أنطاكية، ومتى أخذت أنطاكية أخذت القسطنطينية»، ولهذا استقر رأى باسيل على القدوم بنفسه إلى بلاد الشام[٢٢٣].

زحف الإمبراطور باسيل الثانى فعلا سنة ٩٩٥م (٣٨٥هـ) إلى شمال الشام وأجبر الفاطميين على الارتداد عن حلب، واستولى فى هذه الحملة على بعض المدن والقلاع التابعة لهم مثل شيزر وحمص[٢٢٤]، وحاول غزو طرابلس لكنه فشل فى ذلك لما اشتهر به أهلها من شدة المراس فى قتال البيزنطيين، فاكتفى باسيل بالاستيلاء على حصن أنطرسوس وعمره، ثم توجه إلى أنطاكية، ومنها عاد الى القسطنطينية[٢٢٥].

وإذا كانت الأمور قد هدأت قليلا بين البيزنطيين والمسلمين فى الشرق فذلك لأن الخليفة العزيز بالله الفاطمى، مالبث أن توفى فى أكتوبر سنة ٩٩٦م (رمضان ٣٨٦هـ)، وكان قد تأهب للجهاد ضد البيزنطيين[٢٢٦]،

---

(٢٢٢) ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص١٩٠.

أبو المحاسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٠ ،

Schlumberger, op.cit. II, p. 86.

(223) Camb. Med. Hist. V.4, p. 250.

(٢٢٤) ابن القلانسى : ذيل ص ٤٣،

Ostrogorsky: op.cit. p.273.

(225) Camb. Med. Hist. V.4, p. 250.

(٢٢٦) ابن القلانسى : ذيل ص ٤٤،

Schlumberger, op.cit. II, p. 104.

العرينى :الدولة البيزنطية ص ٦٧١

واضطربت الأحوال فى بلاد الشام فى السنوات الأولى لحكم الخليفة الحاكم بأمر الله، ولكن الحاميات الفاطمية فى بلاد الشام نجحت فى إنزال هزيمة كبيرة بالقوات البيزنطية عند أفامية[٢٢٧]، حيث جرى قتل كثير من جند البيزنطيين، وأسر جماعة منهم، ولقى دوق أنطاكية نفسه مصرعه فى تلك المعركة، ولهذا فقد عقد باسيل العزم على القيام بحملته الثانية على سورية سنة ٩٩٩م[٢٢٨].

وصل باسيل إلى الشام سنة ٩٩٩م، واتخذ طريق نهر العاصى إلى شيزر فضيق الخناق عليها حتى اضطر أهلها إلى التسليم، وكان الفاطميون قد استردوها بعد عودة باسيل فى المرة الأولى، ثم بدأ باسيل فى الاستيلاء على بعض الحصون الواقعة بشمال الشام، وقام بأعمال التخريب والهدم والقتل الجماعى، وإحداث الخراب والدمار بتلك الجهات، ثم توجه بعد ذلك إلى طرابلس، وهى المدينة الحصينة التى سلمت فى كل مرة من السقوط[٢٢٩]، فقام بحفر خندق حول معسكره وأخذ فى شن هجوم كاسح عليها دون جدوى، بل إن بعض فرقه تعرضت للهزيمة فى أواخر عام ٩٩٩م، عند حصنها فاضطر باسيل إلى العودة إلى أنطاكية[٢٣٠]، ثم دارت مفاوضات بين الفاطميين والبيزنطيين عقدت على أثرها هدنة فى صيف سنة ١٠٠١م، وكان أمدها عشر سنوات ووضعت هذه المعاهدة أسس سلام حقيقى بين الجانبين امتد سنوات طويلة[٢٣١]، ولم تحدث أى مصادمات بين باسيل

(٢٢٧) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٢.

ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ٨٥.

(228) Schlumberger, op.cit. II, pp. 150 - 1.

(229) Ostrogorsky: op.cit. p.273.

(٢٣٠) يحيى بن سعيد : التاريخ ص ١٨٤.

(٢٣١) ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص١٩٢،

ابن الأثير : الكامل ج٩ ص ١٢٠-١٢١.

والدولة الفاطمية منذ توقيع هذه المعاهدة وحتى وفاته(٢٣٢)، تفرغ خلالها باسيل لحروبه ضد البلغار.

أما بالنسبة لعلاقة الامبراطورية البيزنطية بأرمينيا، فالمعروف أن أرمينيا كانت تدين بنوع من التبعية لبيزنطة قبل ذلك فلم يكن هناك سبب قوى يجعل باسيل الثانى يبذل جهودا كبيرة لتأكيد هذه السيادة(٢٣٣). فالواقع أن نجاح باسيل فى حروبه فى الغرب ضد البلغار وماحازه من النجاح الجزئى فى سياسته فى الشرق جعله يهتم كثيرا بجعل السيادة البيزنطية على أرمينيا سيادة فعلية لتأمين حدود الإمبراطورية من هذه الجهة لاسيما بعد ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث وقتذاك(٢٣٤)، وكان أن لجأ ملوك أرمينيا إلى الإمبراطور باسيل الثانى يلتمسون منه وضع بلادهم تحت سلطة الدولة البيزنطية مباشرة، وذلك فى سنة ١٠٢١م، ١٠٢٢م فلم يسع باسيل إلا أن يستجيب لهذا الطلب بغية تأكيد السيطرة البيزنطية فى تلك الجهات، فقام بسلسلة من حملات فى أرمينيا مد بها الحدود البيزنطية فى بعض أقاليم أرمينيا ليجعل من تلك الولاية حاجزا وسدا منيعا بين بيزنطة والمسلمين القادمين من المشرق(٢٣٥).

غير أن باسيل اضطر إلى القيام بحروب ضد أجزاء من أرمينيا نجح من خلالها فى تحطيم كثير من قوة أرمينيا، وبذلك هدم ركنا ركينا من أركان الدفاع عن حدوده فى الوقت الذى لم يقم بإصلاح مااستولى عليه أو إعادة ترتيب نظم الدفاع فى الجهات التى أكد السيادة البيزنطية فيها بحيث تصمد

---

(٢٣٢) سيد الناصرى : الروم ص ٣٤٣.

(233) Ostrogorsky: op.cit. p 160.

(234) Camb. Med. Hist. V.4, pp. 162 - 4.

(235) Schlumberger, op.cit. II, pp. 493 - 9.

للمد الإسلامى المتجمع فى الأفق البعيد(٢٣٦)، ولعل ذلك ماجعل معظم المؤرخين المحدثين يتساءل ما إذا كان باسيل الثانى قد أفاد من الحملات التى شنها فى أرمينيا أم خسر، والإجابة على ذلك سوف تأتى فى السنوات التالية لوفاة باسيل حين بدأ السلاجقة يدهمون تلك الجهات ويهددون قلب الامبراطورية البيزنطية نفسها(٢٣٧).

أما عن سياسة باسيل الثانى فى إيطاليا، فالمعروف أيضا أنه لازال لبيزنطة وجود فى بعض جهات إيطاليا لاسيما فى الجنوب، وقد تعرض هذا الوجود لخطرين عظيمين أوشكا أحيانا على القضاء على مالبيزنطة من نفوذ فى إيطاليا، وأعنى بهما الامبراطورية الرومانية الغربية، وقوة المسلمين فى بعض جهات إيطاليا فى الجنوب وفى صقلية(٢٣٨)، ولقد أزمع باسيل الثانى على القيام بحملة على إيطاليا عله يستطيع أن يوقف المد الإسلامى، ويستأصله فى جنوب إيطاليا وصقلية، إلا أن مشاغله الكثيرة حالت دون تنفيذ هذا المخطط، لكنه نجح إلى حد ما فى حفظ ماله فى تلك البلاد مستغلا انشغال الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب بالدفاع عن أملاكها أمام هجمات العرب من ناحية، ومانجم عن صغر سن امبراطورها أوتو الثالث خليفة أوتو الثانى وقلة تجاربه من ناحية أخرى(٢٣٩) فضلا عن انشغال هذه الإمبراطورية بالنزاع مع كنيسة روما من ناحية ثالثة.

---

(236) Ibid. P. 495.

(237) Camb. Med. Hist. V.4, pp. 164 - 5.
Schlumberger, op.cit. II, p . 500.

(238) Ibid. P. 247.

(239) Ibid. P. 232.

على أن جنوب إيطاليا مالبث أن تعرض لخطر جديد لايقل عن الأخطار السابقة وأعنى به خطر النورمان الذين بدأوا يفرضون أنفسهم منذ أواخر القرن العاشر الميلادى وأوائل القرن الحادى عشر ، فلقد أقام النورمان لهم دوقية فى نورمانديا فى فرنسا منذ أوائل القرن العاشر[٢٤٠]، ثم مالبثوا أن أخذوا فى التوسع، ووصل بعض المغامرين منهم إلى إيطاليا للعمل كجند مرتزقة فى خدمة أى أمير يدفع لهم الأموال، ولم يكن النورمان فى أول الأمر خطرا على بيزنطة التى كانت تستخدمهم فى جيوشها، ولكنهم بمرور الوقت أصبحوا خطرا على النفوذ البيزنطى حين أخذت أعدادهم فى التزايد[٢٤١]. وإذا كان باسيل الثانى لم يتمكن من تنفيذ كل أهدافه فى إيطاليا، إلا أنه نجح فى الحيلولة بين الإمبراطورية الغربية وبين تحقيق أطماعها الواسعة فى إيطاليا، كما نجح فى إحداث تغييرات هامة فى نظم الحكم بها كان لها ضلع فى حفظ نفوذ بيزنطة فى تلك الجهات[٢٤٢].

هذا عن باسيل الثانى المحارب والفاتح الذى ترسم خطى سلفيه العظيمين ، أما عن باسيل الحاكم البيزنطى، فقد اختلف عن ذلك كثيرا، إذ تحول باسيل بعد اعتلائه العرش إلى حاكم مستبد شديد العناد والصرامة، واتصف أسلوبه فى الحكم بالحزم والشدة وان مال إلى الشك وعدم الثقة فيمن حوله، وكان للثورات التى اندلعت فى بداية عهده أثر كبير فى كراهيته للطبقة

---

(240) Keen : Op. Cit. P. 25.
Cantor : Med. Hist. P. 254.
Haskins : The Normans in European Hist . P. 28.

(241) Ostrogorsky: op.cit. p . 239.
Hearder, Waley : Op. Cit. PP. 37-8.

(242) Schlumberger, op.cit. II, pp . 50 - 51.

الأرستقراطية(٢٤٣)، دون أن يعنى ذلك قربه من الطبقات الدنيا وجمهرة الشعب، بل جاءت كراهيته للطبقة الأرستقراطية رد فعل لأحاسيسه الخاصة وشعوره الذاتى بالمرارة قبلها، وليس من عطف على الجماهير أو محاولة للتقرب من الطبقات الدنيا، على الرغم من أن ذلك كان يمكن أن يجعله موضع حب هذه الجماهير، إلا أنه لم يسع إلى ذلك(٢٤٤)، وكل ما كان يعنيه هو أن يلزم الناس حدود الطاعة والولاء، وإظهار الاحترام والتقدير لسلطة الإمبراطور لتزداد قوة الدولة، وتصبح قادرة على التغلب على أعدائها، وفى هذا الإطار لم يعبأ باسيل الثانى كثيرا بمراسم البلاط أو نظمه، ولم يهتم كثيرا بالتقاليد السالفة، وإنما جاء أسلوب حكمه أقرب إلى أسلوب المحارب المتصوف(٢٤٥).

وكان القرن العاشر قد شهد نمو نفوذ الطبقة الاقطاعية واتساع الاراضى التى تمتلكها هذه الطبقة، وأدى ازدياد عبء الضرائب على الفلاحين الأحرار واختلال أحوال البلاد والافتقار الى الأمن، أن تخلص كثير من الملاك من أراضيهم والدخول فى خدمة الاقطاعيين فزاد ذلك من سطوة هؤلاء حتى غدوا خطرا على إقطاعيات الدولة ذاتها(٢٤٦)، فشهد القرن العاشر الميلادى صدور كثير من القوانين والقرارات التى تهدف إلى الحد من نفوذ هذه الطبقة من بينها مرسومات رومانوس ليكابينوس (الأول) سنة ٩٢٢م، وسنة ٩٣٤م(٢٤٧).

---

(243) Ostrogorsky: op.cit. p . 270.

(244) Camb. Med. Hist. V.4, p. 96.

(245) Schlumberger, op.cit. I, p . 580.

(246) Lemerle : Op. Cit. PP. 92-3.

(247) Ostrogorsky: op.cit. pp . 242 - 3.

ويبدو أن هذه التشريعات لم تثمر، فحين اعتلى نقفور فوقاس العرش اعتمد في حكمه على الطبقة الإقطاعية، واستند إلى الفئة الأرستقراطية، وألغى كافة التشريعات الموجهة ضد الاقطاعيين، وأدى ذلك إلى إعادة نفوذ هذه الطبقة، وتهديد كيان الدولة وأجبر باسيل الثانى على محاولة التصدى لهذه الطبقة من جديد(٢٤٨)، حتى اعتبر ذلك آخر محاولة رسمية للحد من الاتجاهات اللامركزية فى الإمبراطورية. فقد طلب باسيل الثانى فى مرسوم اصدره سنة ٩٩٦م إعادة كافة الأراضى التى استولوا عليها بعد سنة ٩٣٤م، على أن يحتفظوا بما فى أيديهم من أراضى آلت إليهم قبل ذلك التاريخ، وأجبرهم على دفع ماقدر من ضرائب على الفلاحين(٢٤٩)، فقد اعتبرهم مسئولين عن دفع الضرائب المتأخرة على الفلاحين والتى عجز الفلاحون عن دفعها، وفى هذا الإطار أيضا حاول باسيل الثانى أن يوقف نمو أملاك الكنيسة على حساب أملاك الفلاحين، وإن لم تستمر هذه السياسة طويلا، لأن الأباطرة الذين جاءوا فى نهاية هذه الأسرة حاولوا التوفيق بين مصالحهم ومصالح هذه الطبقة الإقطاعية(٢٥٠).

ويعتقد بعض المؤرخين أن باسيل الثانى قد أظهر حماسة لتشجيع الفنون فى عصره على الرغم من كثرة مشاغله وحروبه التى استمرت طوال عصره، وعلى الرغم أيضا من صرامته وشدته وعزوفه عن حياة اللهو والترف، وإذا جارينا هؤلاء المؤرخين فيما ذهبوا إليه، نرى عهده أثرى بالأعمال الفنية خاصة فن التصوير وفن الطلاء على الحوائط وعلى قطع النسيج(٢٥١)، ويدل

---

(248) Lemerle : Op. Cit. P. 93.

(249) Camb. Med. Hist. V.4, p. 93.

Ostrogorsky: op.cit. p p. 169 - 72.

(250) Camb. Med. Hist. V.4, pp. 75-6.

(٢٥١) سيد الناصرى الروم ص ٣٤٤.

على ذلك نسخة مزخرفة من «مزامير داود» محفوظة في إحدى كنائس فينيسيا (البندقية)، فضلا عن اهتمام باسيل بنشر الفنون البيزنطية فى البلاد التى أخضعها أو البلاد التى ارتبطت بالصداقة مع بيزنطة بالإضافة إلى ماحدث من تأثير وتأثر بالفن الإسلامى الإيرانى، على أثر اتصال بيزنطة بالشرق، خاصة بعد ضم أرمينيا وبعض أجزاء من القوقاز، وكذلك وصلت فنون بيزنطة إلى إيطاليا فى عصره[٢٥٢]، فكأن بيزنطة استخدمت فنونها لتربط عالمها برباط حضارى وتثريه ثراء عضيما بجانب هام من حضارتها.

وتوفى باسيل الثانى فى النهاية سنة ١٠٢٥م، وهو فى سن الثامنة والستين بعد أن حكم فترة طويلة – أضاف فيها للتاريخ البيزنطى أمجادا كثيرة وحقق لبيزنطة انتصارات باهرة فى الغرب وفى الشرق فلم يأت بعد باسيل الثانى إمبراطور له ماكان لهذا الامبراطور من المقدرة والكفاية والمهارة فى الشئون السياسية والعسكرية، بل تعاقب على حكم الدولة بعده عدد من الأباطرة الضعاف أخذت بيزنطة تفقد فى عهدهم ماحازته من ولايات بنفس السرعة التى حازتها بها فى عهد هذا الامبراطور العظيم[٢٥٣].

بيزنطة بعد باسيل الثانى وإلى نهاية الأسرة المقدونية (١٠٢٥ – ١٠٥٧)م:

تميزت الفترة التى تلت وفاة باسيل الثانى سنة ١٠٢٥م بالضعف والاضمحلال الذى ران على الدولة داخليا وخارجيا، فقد ركنت بيزنطة فى سياستها الخارجية على ماحازته من هيبة ومكانة فى العصر السابق، فى الوقت الذى ميز السياسة الداخلية التفكك والتداعى بعد أن تهيأت الفرصة أمام

---

(٢٥٢) سيد الناصرى : الروم ص ٣٤٤.

(٢٥٣) العرينى : المرجع السابق ص ٧١٥.

الطامعين والباحثين عن الجاه والسلطان، فلم يجر الحفاظ على أملاك الدولة التى حازتها بالجهد والعرق وبذل الدماء، ولم يجر تدعيم هذه الولايات بل انهار النظام السياسى بما فى ذلك الناحية العسكرية ونظم الدفاع، وتداعت السلطة الإمبراطورية تداعيا خطيرا[٢٥٤]، وضعفت سلطة الامبراطور عن كبح جماح الأرستقراطية الإقطاعية حتى أصبحت السلطة ذاتها أداة فى يد هذه الطبقة، وبرز فريقان فى هذه الطبقة فريق الأرستقراطية العسكرية خاصة فى الأقاليم وفريق الأرستقراطية المدنية فى العاصمة، وانحصر الصراع بين هذين الفريقين حول الفوز بالحكم وأصبح ذلك من سمات المرحلة الباقية من عمر الأسرة المقدونية[٢٥٥].

قنسطنطين الثامن (١٠٢٥-١٠٢٨م)

اعتلى قنسطنطين الثامن العرش بعد وفاة أخيه باسيل الثانى، بعد أن ظل قسيما له فى الحكم نحو نصف قرن من الزمان، حجبه خلالها باسيل بأعماله العظيمة وانتصاراته الباهرة. ويبدو أن قنسطنطين رضى عن طيب خاطر بهذا الحجب وفضل أن يحيا فى الظل هذه الفترة الطويلة لملائمة ذلك مع طباعه وخلقه وحياته العابثة التى كان يحياها، وانصرافه إلى جواريه ومغانيه ومباذله، فلما تولى الحكم وقد تقدمت به السن لم يكن يدرى من أمره شيئا[٢٥٦]، خاصة وقد قرب طبقة جديدة من الموظفين وأخذ يعتمد عليهم فى تسيير دفة الحكم، وكانوا من رفاق السوء ومن زملاء اللهو والعبث وممن يفتقرون مثله للخبرة والدراية، وليس لديهم رغبة فى تحمل المسئولية بعد أن طرد أكفأ

(254) Ostrogorsky: op.cit. p . 288.

(255) Camb. Med. Hist. V.4, p. 318.

(256) Ostrogorsky: op.cit. p . 284.

الموظفين الذين عملوا فى خدمة باسيل الثانى[٢٥٧].

انعكس ذلك على السياسة الخارجية للإمبراطورية، فقد أدى حرص موظفى البلاط الجدد وندماء الامبراطور ورفاقه على ممارسة السلطة، والهيمنة على شئون الحكم إلى كراهية القادة العسكريين والخوف من أن يتطلع بعضهم إلى العرش، فحرصوا على عدم تهيئة الفرصة أمامهم لتحقيق انتصارات عسكرية قد تغرى بعضهم بالتطلع للعرش وتغيير الأوضاع السائدة[٢٥٨]، فآثروا شراء السلم من الأعداء ودفع الإتاوات لهم بدلا من محاربتهم والإشتباك معهم فى معارك قد تتمخض عن قائد أو أكثر يطمع فى الوثوب إلى العرش ولهذا تداعى النفوذ البيزنطى وتقلصت الهيبة البيزنطية لدى جيرانها وأعدائها[٢٥٩].

وزاد من سوء الأحوال إسراف قنسطنطين فى اللهو والعبث حتى أهرق الأموال التى ادخرها باسيل الثانى والأموال التى جمعها هو من الضرائب والمكوس، فلما احتاج إلى أموال أخرى لصرفها على متعه ومباذلة غالى كثيرا فى تقدير الضرائب على الناس وأظهر قسوة فى جبايتها، بل إنه طالب الناس بدفع ماسبق أن سامحهم عنه باسيل الثانى[٢٦٠]، فشكلت السنوات الثلاث التى حكمها هذا الإمبراطور العابث محنة حقيقية لأهل البلاد، ولولا أن مصر وكانت قوة كبرى فى ذلك الوقت، قد عقدت صلحا مع الإمبراطورية البيزنطية على عهد الخليفة الفاطمى الظاهر، لمثلت هذه مشكلة كبرى أمام هذا الإمبراطور الذى وافق بمقتضى هذا الصلح على أن يخطب باسم الخليفة

---

(257) Ibid . P. 284.

(258) Camb. Med. Hist. V.4, p. 319.

(259) Ibid . P. 319.

(260) Schlumberger, op.cit. III, p . 22.

الظاهر فى جميع المساجد الواقعة تحت سلطة البيزنطيين وتجديد عمارة جامع القسطنطينية، وفى مقابل ذلك قبل الخليفة الظاهر إعادة بناء كنيسة القيامة فى بيت المقدس التى دمرها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠٩م، كما أجاز لمن أجبر على اعتناق الإسلام فى عهد الحاكم العودة إلى المسيحية إذا رغب(٢٦١).

زوى ورومانوس الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤م).

لم تتح الحياة التى عاشها قسطنطين الثامن من الفرصة له لمواجهة مشكلة وراثة العرش فى الوقت الذى لم يكن قد أنجب فيه أحدا من الذكور، بل لم تتح له هذه الحياة فرصة الاهتمام بتربية أبنتيه زوى وثيودورا أو العناية باختيار زوج لابنته زوى(٢٦٢)، فجاوزت هذه الأميرة سن الأربعين حين كان والدها على فراش الموت، بل إنها قضت سنوات شبابها فى اللهو والعبث وحياة الفجور فى البلاط البيزنطى، وتنبه قسطنطين الثامن إلى تلك المشكلة وهو يعانى آلام الموت، فقام باختيار زوج لابنته زوى Zoe هو الأمير رومانوس أرجيروس Argyrus (الفضى) الذى عرف برومانوس الثالث(٢٦٣)، لكن السلطة فى بيزنطة تحولت منذ ذلك الوقت إلى النساء وظلت على مدى نحو ثلاثين سنة فى يد نساء وملوك ضعاف مستهترين تسببوا فى جلب خراب على الدولة وفى زيادة ضعفها واضمحلالها، على أن قسطنطين الثامن مالبث أن توفى بعد ذلك الزواج ببضعة أيام فاعتلى العرش البيزنطى ابنتاه زوى

---

(261) Camb. Med. Hist. V.4, p. 256.

(262) Ostrogorsky: op.cit. p . 284.

(263) Ibid . P. 284.

Camb. Med. Hist. V.4, p. 98,

سيد الناصرى : الروم ص ٣٤٧.

وثيودورا وزوج ابنته زوى وهو رومانوس الثالث أرجيروس(٢٦٤)

اتصف رومانوس الثالث بشدة الغرور والغطرسة، فاعتقد أنه يستطيع أن يؤسس أسرة حاكمة جديدة فى بيزنطة، إذا حقق انتصارات باهرة على أعداء الدولة فى الشرق وفى الغرب، فبدأ فى إثارة المشاكل مع جيران الدولة جلبت عليها كارثة مروعة وعرضتها لهزائم متتالية، وفشل رومانوس فى قهر خصومه وتحقيق مجد عسكرى يساعده على تأسيس أسرة حاكمة فى بيزنطة ولم يرده إلى صوابه سوى ماحل به من هزيمة ساحقة فى بلاد الشام(٢٦٥)، فقد استثارت جيوش أنطاكية المسلمين فى شمال الشام فنجح حاكم حلب فى إلحاق هزيمة ساحقة بأنطاكية، وحين سارع إليها رومانوس على رأس قواته لمحو العار الذى لحق بالبيزنطيين وكسب مجد عسكرى كلفه تهوره، وقلة خبرته وقصور تدبيره هزيمة أشد وأنكى من سابقتها بالقرب من حلب سنة ١٠٣٠م، وترتب على ذلك أن تعرضت بيزنطة لمحنة حقيقية خلال عصر هذا الامبراطور(٢٦٦).

ونظرا لأن رومانوس الثالث كان ينتسب إلى الطبقة الأرستقراطية ولحرصه على أن يوفر الرخاء لهذه الطبقة، قام بإلغاء ماكان الأغنياء يؤدونه عن الفقراء من ضرائب بالتضامن وصار للأغنياء حق التوسع فى امتلاك الأراضى، فترتب على ذلك أن بدأت الملكيات الصغيرة الحرة فى الاختفاء(٢٦٧)، وابتلع كبار الملاك أراضى الفلاحين والجند، وبذلك بدأت الأسس التى أقامت عليها

---

(264) Schlumberger, op.cit. III, p 56.
Hussey : Op. Cit., P. 32.

(٢٦٥) العرينى : الدولة البيزنطية ص ٧٢٥. ، ابن العديم : زبدة الحلب ج١ ص ٢٤١..

(266) Ostrogorsky: op.cit. p . 285.
Grousset ; L'Empire du Levant, P. 127,
Camb. Med. Hist. V. 4, P. 98.

(267) Ostrogorsky: op.cit. pp. 286 - 7.

بيزنطة نهضتها منذ زمن فى التداعى، وأخذت القوة العسكرية تضمحل وتضاءلت الموارد الاقتصادية وضرب القسطنطينية زلزال عنيف خرب شطرا كبيرا منها[٢٦٨] . ونزلت بآسيا الصغرى كوارث اقتصادية بشعة وتفشى فيها الفقر وانتشرت المجاعات والأوبئة وبدأت الحياة فى القسطنطينية تصبح عسيرة شاقة طوال السنوات الست التى حكمها هذا الأمير البيزنطى[٢٦٩]، وزاد من سوء الأحوال ماحدث من قيام نزاع بين رومانوس الثالث وزوجته زوى، التى بالغ فى إهمالها وضيق عليها وضن عليها بالمال رغم حاجتها الملحة له لمواصلة حياتها اللاهية، ولهذا مالبثت زوى أن تعلقت بحب شاب وسيم يدعى ميخائيل البافلاجونى، فى الوقت الذى أخذت تدبر فيه للخلاص من رومانوس، فلم يمض وقت طويل حتى اغتيل رومانوس الثالث فى أبريل سنة ١٠٣٤م ونودى فى الليلة التالية مباشرة بميخائيل إمبراطوراً بعد أن تزوج زوى واعتلى العرش باسم ميخائيل الرابع[٢٧٠] .

لم يكن ميخائيل البافلاجونى قد تجاوز الثامنة والعشرين حين اعتلى عرش الإمبراطورية وحين صار زوجا لزوى العجوز، وعلى الرغم من أنه كان ينحدر من أسرة وضيعة، وكان ساذجا وأميا فضلا عن أنه كان يتعرض لنوبات من الصرع هى التى أودت به فى النهاية، إلا أنه كان شديد الحرص على مصلحة الدولة شديد الاهتمام بالدفاع عن الإمبراطورية وحفظ أراضيها،[٢٧١] على حين وكل لأخيه الطواشى حنا إدارة شئون الحكم، فنجح فى هذه المهمة

---

(٢٦٨) سيد الناصرى: الروم ص ٣٤٨.

(269) Ostrogorsky: op.cit. p. 287.

(270) Schlumberger: op.cit.III , p. 165.

(271) Hussey: op.cit. p. 33,

Camb. Med. Hist V.4, p. 102, p.104.

نجاحا تاما نظرا لطول خبرته فى إدارة سائر فروع الحكومة لاسيما الإدارة المالية العامة، فقد عمل حنا هذا فى البلاط قبل اعتلاء ميخائيل الرابع العرش واكتسب خبرة فى إدارة الحكومة[٢٧٢].

لم يمض زمن طويل على اعتلاء ميخائيل العرش حتى تغيرت نظرته لزوجته زوى، فأساء معاملتها وقيد حريتها، بعد أن ساورته الشكوك فى سوء أغراضها وخشى أن يتعرض للمصير الذى تعرض له رومانوس الثالث، فاستسلمت زوى لهذه الظروف الجديدة، ورضيت أن تعيش حياتها وسط هذه القيود وفى دور الحريم رغم منافاة هذه القيود لطبيعتها المنطلقة اللاهية[٢٧٣]، وفى نفس الوقت أدرك ميخائيل الرابع فظاعة الجريمة التى ارتكبها مع زوى فى حق رومانوس الثالث، فأظهر الندم والتمس التوبة وراح يكفر عن آثامه بأعمال البر والتقوى وإقامة العمائر الدينية، وتأسيس الملاجىء والمؤسسات الاجتماعية لرعاية الضعفاء والمعوزين، كما أظهر مسحة من الزهد والتنسك ومصادقة الرهبان ورجال الدين وعمل الخير تكفيرا عما اقترفه من خطايا خاصة وقد اشتدت به نوبات الصرع وخشى أن تؤدى به فى النهاية[٢٧٤].

وفى الوقت الذى انصرف فيه ميخائيل الرابع إلى أعمال البر والتقوى نهض أخوه حنا بعبء تصريف شئون الدولة والتمكين للأسرة فى السلطة، ففرض أعباء مالية جديدة واتبع أساليب القهر والعنت فى انتزاع الضرائب، وأمعن فى إثراء أسرته والتمكين لها بحيازة الأراضى والسلطان[٢٧٥]، لكنه مالبث أن أدرك خطورة وضعه ووضع أسرته وقد اشتدت نوبات المرض

(272) Schlumberger: op.cit. III, p.150.

(273) Ibid. p.172.

(274) Camb. Med. Hist. V.4, p.102.

(275) Schlumberger: op.cit. III, p.150.
Ostrogorsky: op.cit. p.287.

بالإمبراطور وخشى أن يتوفى فتتعرض الأسرة للانتقام(٢٧٦)، ولهذا فقد استقر رأيه سنة ١٠٤١م على إجراء حاسم فألح على أخيه الإمبراطور بأن يتخذ له قسيما فى الحكم شابا فى مقتبل العمر وهو ابن اختهم ويدعى ميخائيل ايضا، وفى نفس الوقت نجح فى إقناع الإمبراطورة زوى أن تتخذه وزوجها ولدا، فلم تمانع فى ذلك وجرى الاحتفال بذلك ونودى بميخائيل الخامس قسيما فى الحكم وولدا للزوجين ميخائيل وزوى، ولم يمض وقت طويل حتى قضى الامبراطور ميخائيل الرابع نحبه فى أحد الأديرة فى أوائل سنة ١٠٤١م(٢٧٧).

زوى وميخائيل الخامس (١٠٤١-١٠٤٢)م:

لم يكن ميخائيل الخامس هذا سوى شابا تافها حقيرا فاسدا، غلبت عليه وضاعه أصله واشتد نكرانه للجميل حتى مع خاله حنا الذى رفعه مقاما عليا وتسبب فى وصوله إلى العرش، إذ لم يكد يلى العرش حتى أمر بنفى خاله حنا إلى دير بعيد بإيعاز من أحد أخواله الآخرين الحاقدين على حنا، وكان ذلك بداية للكارثة التى جلبها هذا الشاب المتهور على الأسرة البافلاجونية التى خطط حنا لاستمرارها فى الحكم(٢٧٨)، ولم يقتصر نكران ميخائيل الخامس للمعروف بالنسبة لخاله حنا وإنما تعدى ذلك إلى الإمبراطورة زوى سليلة الأباطرة والوارثة الشرعية للعرش فى نظر الشعب والرعايا؛ إذ أخذ يضيق عليها ثم تجرأ فاتهمها بدس السم له وقام بمحاكمتها محاكمة صورية وأمر بحلق

(276) Camb. Med. Hist V.4, p.103.

(277) Ibid. p.104.

(278) Ostrogorsky: op.cit. p. 288.

شعرها ونفيها إلى أحد الأديرة، فكان ذلك نهاية لعهده البغيض فى القسطنطينية[٢٧٩].

فلم يكد يشيع خبر نفى الإمبراطورة زوى حتى اندلعت ثورة عارمة فى القسطنطينية ضد حكم هذا الامبراطور الطاغية وضيع الأصل، فعلى الرغم مما عرفه الناس عن زوى من المباذل والمساوىء، إلا أنها كانت فى نظر الشعب الوارثة الشرعية للعرش هى وأختها الأصغر منها ثيودورا، وأنهما من سلالة الأباطرة المقدونيين العظام ولازالتا خليقتين بتبوأ المكانة الرفيعة فى الإمبراطورية[٢٨٠]. ولهذا فقد اشتدت الثورة فى ابريل سنة ١٠٤٢م قبل مضى عام واحد على اعتلاء ذلك الشاب الأهوج العرش، ونادى الناس بسقوط ميخائيل الخامس وحياة الامبراطورية زوى وعبروا عن رغبتهم فى إعادتها إلى الكرسى الإمبراطورى[٢٨١].

وعلى الرغم من أن ميخائيل الخامس سارع عند اشتداد الثورة باحضار زوى والتظاهر بالنزول على رغبة الجماهير، إلا أن الشعب اندفع فى ثورته وأحاط بالقصر ووقعت كثير من حوادث السلب والنهب، واتجهوا إلى الأخت الأخرى ثيودورا التى كانت معتكفة فى أحد الأديرة فأتوا بها، فلم يسع الامبراطور ميخائيل الخامس وخاله قنسطنطين الذى زين له ما أقدم عليه - إلا أن يفرا من القصر ويلوذا بمذبح إحدى الكنائس، ومع هذا لم يتركهما الشعب إذ اندفع خلفهما وأجبرا على ترك مذبح الكنيسة حيث جرى سمل أعينهما فى ابريل من نفس العام، وانتهى بذلك عهد هذا الامبراطور الفاسد[٢٨٢].

---

(279) Camb. Med. Hist. V.4, p.106.

(280) Ibid. p.106.

(281) Ostrogorsky: op.cit. p. 289.

(282) Camb. Med. Hist V.4, p.107.

زوى وثيودورا وقسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢-١٠٥٥م)

انتهت ثورة إبريل سنة ١٠٤٢م إلى رفع الأختين إلى العرش وهما الوارثتين الشرعيتين للحكم، وكان لابد أن يتم زواج إحداهما حتى تكتمل الشرعية وتظل الوراثة فى البيت المقدونى، وإذ رفضت ثيودورا الزواج اتجه الرأى إلى زوى التى لم تمانع فى الزواج للمرة الثالثة، وكانت قد تجاوزت الستين من عمرها، وتم زواجها من رجل يدعى قسطنطين مونوماخوس Constantine Monomachus، وتوج هذا الرجل عقب الزواج مباشرة باسم قسطنطين التاسع(٢٨٣)، وأضحت السلطة فى يد أمرأتين ورجل واستمر هذا الوضع الغريب حتى سنة ١٠٥٥م، أى مايقرب من ثلاث عشرة سنة(٢٨٤).

وينتمى قسطنطين إلى أسرة من أعرق الأسرات البيزنطية، وكان قد لقى حظوة فى البلاط البيزنطى وتوثقت قبل ذلك العلاقة بينه وبين زوى، لكنه بمجرد اعتلائه العرش بدأ يحيا حياة صاخبة، إذ كان سكيرا فاسقا محبا لحياة الترف والدعة مبالغا فى مظاهر العظمة والأبهة، فبدأ يتخذ العشيقات ويغدق عليهن ويقربهن إليه ويحيا وسطهن حياة كلها فسق وفجور(٢٨٥). ويبدو أن تقدم زوى فى السن جعلها لاتقسو على زوجها ولاتحاول مضايقته بل رضيت أن يستقدم إليه فى القصر أقرب عشيقاته إلى قلبه وقبلت زوى أن تحيا تلك العشيقة فى القصر إلى جانبها وإلى جانب أختها ثيودورا فى الوقت الذى انصرف فيه قسطنطين إلى حياته اللاهية، وأصبح الحكم فى يد رجل وثلاثة نساء بدلا من اثنتين، وتسبب ذلك الوضع الغريب فى اندلاع بعض الثورات

---

(283) Ostrogorsky: op.cit. 289.

(284) Camb. Med. Hist. V.4, p.108.

(285) Ostrogorsky: op.cit. p.289.

لاسيما فى آسيا الصغرى بغية القضاء على ذلك الوضع دون جدوى، وراح الأربعة الكبار ينصرفون من ناحية أخرى إلى جمع الثروات واستنزاف أموال الدولة[٢٨٦].

وعلى الرغم من الثورات التى اندلعت فى هذا العهد لعل أهمها ثورة جورج مانياكيس سنة ١٠٤٣م[٢٨٧]، إلا أن هذا العهد شهد حدثا بالغ الأهمية كان له أثر فى التاريخ البيزنطى من ناحية وتاريخ العلاقات بين العالمين الإغريقى واللاتينى من ناحية أخرى، بل كان له أثر فى تاريخ المسيحية كلها بوجه خاص، وأعنى به القطعية الدينية الكبرى سنة ١٠٥٤م بين الكنيستين الشرقية والغربية. وقد وقع هذا الانشقاق الدينى قبل نهاية حكم قنسطنطين التاسع، حقيقة جعلت الأحداث السابقة هذا الإنشقاق أمرا قريب الوقوع ومهدت له وأرهصت بحدوثه[٢٨٨]، وحقيقة كان الشرق والغرب كل منهما قد اتخذ طريقا مختلفا فى تطوره وعانى العالم المسيحى قرون طويلة من شر التمزق والاختلاف، إلا أن الشقاق الدينى والقطيعة التى حدثت قرب منصف القرن الحادى عشر الميلادى جاءت لتؤكد هذا الاختلاف وتكرسه وتجعل كل يوقن بأنه ليس ثمة أمل فى الاحتفاظ بكنيسة عالمية واحدة[٢٨٩].

---

(286) Camb. Med. Hist V.4, p.109.
(287) Ostrogorsky: op.cit. p.294.
Hussey: op.cit. p.44.
(288) Camb Med. Hist. V.4, pp. 257 - 9.
Vasiliev: op.cit. p.334.
(289) Ostrogorsky: op.cit. p.297.
Camb. Med. Hist V.4, P.259.

ولقد تسبب بطريرق القسطنطينية ميخائيل كريولاريوس Cerularius فى حدوث هذا الانشقاق الدينى والقطعية الدينية، فقد كان ينتمى إلى أسرة من النبلاء شغل أفرادها وظائف حكومية، واستقرت منذ زمن طويل فى القسطنطينية، ويصفه المؤرخون بأنه كان متين الخلق شديد الطموح كما اتصف بالصلابة والعناد وأحب الزعامة والسيطرة، ولاعتزازه بنفسه لم يرض بأن تكون الزعامة الدينية لكنيسة روما، وبيت النية على استئناف النضال ضدها بعد أن جرت مهادنتها منذ القرن التاسع الميلادى(٢٩٠).

وفى نفس الوقت كان على كرسى البابوية فى روما البابا ليو التاسع، وهو أحد رجال الدين المشهورين ممن أنجبتهم حركة الإصلاح الكلونية(٢٩١)، الذى رغب فى إحياء السلطة البابوية واشتهر بالحرص على إصلاح الكنيسة والحرص على أن تكون لها السيادة العالمية(٢٩٢)، ولكن مع ذلك أدرك بطريرق القسطنطينية كريولاريوس أن البابوية كانت تمر بمرحلة ضعف بعد أن أصبح الإمبراطور الغربى له سلطة عزل البابوات وتعيينهم، ومانجم عن ذلك من الاستخفاف بالبابوية، فانتهز كريولاريوس الفرصة وأعلن أن البابوية أصبحت أداة فى يد النورمان فى جنوب إيطاليا وأنه نظرا لأن البابوية تعمل على إزالة سيادة بيزنطة عن جنوب إيطاليا بممالأتها النورمان ومساعدتهم على تحقيق أطماعهم على حساب النفوذ البيزنطى، فقد أصبحت كنيسة بيزنطة مستقلة

---

(290) Ostrogorsky: op.cit. p.297.
Camb. Med. Hist. V.4, p. 265,

العرينى: الدولة البيزنطية ص ٧٦٠.

(291) Vasiliev: op.cit. p. 338.

(292) Ostrogorsky: op.cit. p.297.

بشئونها[٢٩٣]، وأردف ذلك بإرسال خطاب سنة ١٠٥٣م إلى أحد أساقفته يهاجم فيه البابوية وينتقد تقاليدها ويؤكد حرصه على استقلال الكنيسة الشرقية عنها استقلالا تاما، فذهب إلى أن اتباع تقاليد روما وكنيستها فيه كفر ومخالفة لتعاليم المسيحية الأولى[٢٩٤].

وحيث أن أمر انفصال الكنيسة الشرقية عن بابوية روما يعتبر تحد صريح لنظرية عالمية البابوية وسيادتها على باقى الكنائس المسيحية، تلك النظرة التى آمنت بها البابوية والتى نادى بها الكلونيون، فقد بادر ليو من جانبه بإرسال خطاب إلى القسطنطينية يؤكد فيه أحقية روما وكنيستها فى السيادة على الكنيسة الشرقية، واحتوى على بحث تحليلى عن سيادة المقر الرسولى فى روما، وأشارت هذه الرسالة إلى منحة قسطنطين التى جعلت فى يد أسقف روما السلطتين الروحية والزمنية، ثم أردف ذلك بإرسال ثلاثة مندوبين من لدنه إلى القسطنطينية اختارهم من كبار مستشاريه، فوصل هؤلاء إلى العاصمة البيزنطية فى نهاية أبريل سنة ١٠٥٤م[٢٩٥].

اعتبر هؤلاء الرجال أنفسهم محكمين وقضاة مكلفين بتسوية مشكلة كبيرة، فأخذوا يجادلون خصومهم فى صلابة وعنف ثم انتهزوا فرصة تجمع عدد كبير من الناس فى كنيسة القديسة صوفيا، وراحوا يحرضون الجمهور على مناواة البطريرق، ثم وضعوا على مذبح الكنيسة قرار الحرمان ضد البطريرق وأنصاره[٢٩٦]. ورد كريولاريوس على ذلك بعقد مجمع دينى

(293) Camb. Med. Hist. V.4, p. 266.

(294) Ostrogorsky: op.cit. p.297.

(295) Camb. Med. Hist. v.4, p. 269.

Vasiliev: op.cit. pp. 338 - 9.

(296) Camb. Med. Hist. V.4, p.272.

بالقسطنطينية فى يوليو سنة ١٠٥٤م شهده ممثلوا الكنائس اليونانية وتقرر فيه «قطع المندوبين البابويين وكل من يتصل بهم من الناس» من رحمة الكنيسة[٢٩٧].

وعلى هذا النحو وقعت القطيعة الدينية والانشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية وازدادت سلطة البطريرق فى بلاد الصقالبة وفى الكنائس الشرقية فى بيت المقدس وأنطاكية والاسكندرية[٢٩٨]، على الرغم من أن هذا الانقسام قد حطم الحياة السياسية للإمبراطورية البيزنطية، فى الوقت الذى بدت فيه بيزنطة فى حاجة ماسة إلى مساعدة الغرب الأوربى خاصة بعد أن أخذ الأتراك السلاجقة يهددون أملاكها فى المنطقة الشرقية، كما ترتب على هذه القطيعة أن ضاع جنوب إيطاليا من بيزنطة، فقد اتجه البابا إلى الاتفاق مع النورمان سنة ١٠٥٩م وقرر البابا الاعتراف بزعيم النورمان روبرت جويسكارد أميرا على أبوليا وكالبريا والإمارات اللمباردية فى إيطاليا مقابل اعتراف جويسكارد بسيادة البابا[٢٩٩].

نهاية البيت المقدونى

ذكرنا أن أمور الدولة البيزنطية صارت فى الفترة الأخيرة إلى الأربعة: زوى وثيودورا وقنسطنطين التاسع وعشيقته، ثم مالبثت هذه الحبيبة أن توفيت سنة ١٠٤٤، بينما انصرفت زوى فى سنوات حياتها الأخيرة إلى هواية جديدة هى صنع العطور واستنباط أنواع جديدة منها حتى توفيت سنة ١٠٥٠م، على

---

(297) Vasiliev: op.cit. p. 339.

(298) Ibid. p. 339,

العرينى: المرجع السابق، ص ٧٦٧ – ٧٦٨.

(299) Camb. Med. Hist. V.4, p. 273.

حين انقطعت ثيودورا للعبادة والصلاة والتنسك كعادتها[٣٠٠]. وبعد وفاة زوى أصبحت ثيودورا صاحبة الحق الشرعى فى المنصب الإمبراطورى، غير أن قسطنطين التاسع لم يشأ أن يعترف لها بذلك بل استمر يحكم باسمه فقط، بل إنه تمادى فى ذلك وأمر بإخراج ثيودورا من القصر الإمبراطورى، إلا أنه مالبث أن مرض وتوفى فى أوائل سنة ١٠٥٥م، وانتقلت الأمور كلها إلى ثيودورا وهى فى السبعين من عمرها فكانت آخر من بقى من سلالة الأسرة المقدونية إذ انقرض بوفاتها البيت العريق[٣٠١].

ولم يستمر حكم ثيودورا أكثر من ثمانى عشرة شهرا، لكنها مع ذلك أظهرت صلابة وشدة وفرضت وجودها ووطدت سلطانها بمساعدة مجموعة الطواشى، وحينما أصابها مرض الموت دعا رجال القصر إلى عقد مجلس للنظر فى اختيار خلف لها يتولى الحكم، فتقرر أن يلى الحكم ميخائيل السادس[٣٠٢]، وكان متقدما فى السن سهل الانقياد لم يحكم سوى سنة واحدة (١٠٥٦-١٠٥٧م) ظهر خلالها مدى خضوعه للحزب المدنى ورجال البلاط، ولهذا حاولت البيوت الإقطاعية الكبيرة أن تقضى على سلطة رجال البلاط خلال الأشهر التى حكمها هذا الامبراطور الضعيف، ونجح أحد رجال تلك الأسر من أسرة كومنين ويدعى اسحق كومنين أن يحصل على ولاء الأسر الإقطاعية وأن يفجر ثورة سنة ١٠٥٧م[٣٠٣].

ولقد حاول الامبراطور ميخائيل السادس أن يخمد تلك الثورة بما بذله من

(300) Ostrogorsky: op.cit. pp. 289 - 90.

(301) Ibid. p. 298.

(302) Camb. Med. Hist. V.4, p.116.

(303) Ibid. p.320.

الوعود والعهود لرجال تلك الثورة دون جدوى، بل إن هذه الثورة امتدت إلى العاصمة نفسها فاندلعت الثورة فيها شديدة ونادى الناس بخلع الإمبراطور الضعيف، وانتهى الأمر فعلا بعزل هذا الامبراطور وتنصيب اسحق كومنين على العرش الامبراطورى ليبدأ فصل جديد فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية(٣٠٤).

(304) Ibid. p. 321.

الفصل السابع

اسرة دوقاس [١٠٥٩-١٠٨١م]

تعتبر الفترة الممتدة من سنة ١٠٢٥ إلى سنة ١٠٥٧م أى منذ وفاة باسيل الثانى وحتى انتهاء البيت المقدونى، فترة عصيبة فى تاريخ الدولة البيزنطية، تقلب خلالها عدد كبير من الأباطرة الضعاف على العرش، وأضحت السلطة أحيانا فى أيدى النساء وخيم على الإمبراطورية جو التآمر والتطاحن على السلطة وتقهقرت بيزنطة فى كل الميادين، وران عليها ضعف وإضمحلال.

فلما انقرض البيت المقدونى بوفاة الإمبراطورة ثيودورا إزداد ضعف الامبراطورية البيزنطية واضمحلت أحوالها على مدى نحو ربع قرن من الزمان حتى سنة ١٠٨١م واستمر تقهقر الإمبراطورية واضطربت أحوالها حتى غدت هذه الفترة من أكثر فترات التاريخ البيزنطى ضعفا وأدت فى النهاية إلى استنجاد بيزنطة بالغرب الأوربى الذى نهض بعد ذلك بالحركة الصليبية قرب أواخر القرن الحادى عشر الميلادى.

ولعل أهم مايميز هذه الفترة هو الصراع بين حزب البلاط (حزب الحكومة المركزية البيروقراطية) وبين حزب النبلاء من كبار الملاك المؤيد بتعضيد الجيش والقادة العسكريين أو كما يسميهما مؤرخ محدث حزب أرباب القلم وحزب أرباب السيف، أو الحزب البيروقراطى الحاكم والحزب الإقطاعى العسكرى[١]، أو بعبارة أخرى النزاع الذى نشب بين الأقاليم بما فيها من الطبقة الإقطاعية وبين العاصمة التى تضم الحكومة المركزية[٢]، ولعله من الواضح أن الحقبة الأخيرة من عهد الأسرة المقدونية تميزت بانتقال مقاليد

---

(١) سيد الناصرى: الروم ص ٣٥٧.

(2) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 283.

السلطة ووظائف الدولة ومسئولياتها إلى أيدى فئة من المغامرين ومن المقربين إلى الأباطرة وعشيقات الأباطرة، الأمر الذى ترتب عليه إبعاد الأسرات الإقطاعية الكبرى صاحبة المصالح الواسعة فى الدولة، فما أن انقرض البيت المقدونى حتى نشب الصراع عنيفا بين حزب البلاط وحزب الأسرات الإقطاعية مدعما بتأييد الجيش[٣].

ولقد ترتب على إقصاء الأسرات الإقطاعية عن السلطة أن اضمحل الجيش وازداد ضعفا، نظرا لما كانت تمده به الأسرات الإقطاعية فى الأقاليم من خيرة أبنائها، فلما أقصيت تلك الأسرات أنقطع مورد هام من موارد إمداد الجيش بخيرة الجند والقادة، واستمرت حالة الجيش فى التدهور، ولسد هذا النقص لجأ الحزب البيروقراطى إلى ضم الجند المرتزقة من كافة القوميات التى لاولاء لها إلا لرواتبها، فضلا عن أن بعض هؤلاء الجنود المرتزقة كان ينتمى إلى مذاهب دينية طالما اضطهدتها الدولة، وكان البعض الآخر من قوميات تحمل فى نفسها غلا لبيزنطة وتتمنى زوالها[٤]. وإذا لم تكن الإمبراطورية قد تعرضت فى الربع الثانى من القرن الحادى عشر لأخطار خارجية خطيرة أو هجمات مؤثرة، فإن ذلك كان من شأنه ألا يكشف حالة الجيش الحقيقية ويؤخر تداعى حزب البلاط المهيمن على شئون الدولة[٥].

ولقد تمسك حزب البلاط والحكومة المركزية طوال تلك الفترة بواجهة براقة قوامها الحفاظ على السلطة الإمبراطورية فى سلالة البيت المقدونى، غير أنه بوفاة الإمبراطورة ثيودورا تداعت تلك الواجهة البراقة وانكشف حزب

---

(3) Camb. Med. Hist. v. 4, p. 321 .
Vasiliev: Op. Cit. pp. 351-2.

(٤) سيد الناصرى: الروم ص ٣٥٩.

(5) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 293.

الحكومة المركزية أمام تحفز وترقب الحزب الآخر، فلم يستطع الإمبراطور ميخائيل السادس الذى خلف ثيودورا على العرش أن يبقى أكثر من عام فخلفه اسحق كومنين Isaac Commenus(٦)، زعيم حزب البيوت الإقطاعية وقادة الجيش، الذى اعتلى العرش سنة ١٠٥٧م محطما بذلك نظرية الحزب الآخر بعد أن سقط السند الشرعى الذى ارتكز عليه فترة من الوقت، وبذلك كان النصر فى النهاية للأقاليم على العاصمة(٧).

إسحق كومنين (١٠٥٧-١٠٥٩م) :

إذا جاز لنا القول بأن أولى سمات ذلك العهد هو انتصار الحزب الإقطاعى على حزب البلاط والحكومة المركزية أى حزب أرباب السيف على أرباب القلم، فإن من سمات هذه الفترة أيضا أن الإمبراطورية البيزنطية قد تعرضت للتهديد فى كافة الجبهات العسكرية، ففى الغرب بدأ النورمان فى الضغط عليها والنفاذ إلى أملاكها، وفى الشمال عاثت القبائل المتبربرة، وترتب على كل ذلك أن فقدت الإمبراطورية بعض أراضيها وأقاليمها وتداعت السلطة البيزنطية فى أجزاء دانت طويلا للإمبراطورية(٨).

ولقد علل أحد المؤرخين المحدثين عزوف الشعب البيزنطى عن الحروب والنضال من أجل عظمة الإمبراطورية باتجاههم نحو الثقافة والفن والدين والإغراق فيها معتقدين أن فن الحرب فن قد يجيده أى شعب وقد يتفوق فيه الأشرس والأقل حضارة، لكن الفكر والثقافة ميدان لايدخله أو يتفوق فيه سوى الشعوب العظيمة، ومن ثم لم يعودوا يهتمون بالجيش وتركوه يتناقص

(6) Diehl, Marcias : Le mond oriental, p. 553.
(7) Ibid: p. 553,
Vasilev; The byzantine Empire, pp. 351-2.
(8) Ibid. p. 335.

وأهملوا القلاع والحصون التى كانت تحمى الحدود حتى تصدعت وانهارت ولم يخطر ببال أحد أن السلاجقة قادمون[٩].

ولى الإمبراطور إسحق كومنين العرش (١٠٥٧-١٠٥٩م)، وهو ينتمى إلى أسرة أرستقراطية تملك ضياعا شاسعة فى آسيا الصغرى، وكان من رجال الجيش أى من أرباب السيف، كما كان عالى الهمة صادق النية فى إصلاح أحوال البلاد، طمح إلى إعادة تنظيم الحكومة وإستئصال الفساد من البلاد، واتصف فى مشروعاته هذه بالحماسة البالغة الأمر الذى دفعه إلى التسرع فى تحقيق أهدافه، وعدم الحرص على الاتزان والتعقل فى أعماله فأدى ذلك إلى تعثره وعدم توفيقه فيما هدف إليه، بعد أن اصطدم بالحزب المدنى من جهة وبالكنيسة من جهة أخرى[١٠].

وعلى عهد هذا الإمبراطور تقدم النورمان إلى جنوب إيطاليا وصقلية وجاء ذلك أمرا بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ بيزنطة لأن هؤلاء النورمان لم يلبثوا - بعد التمكين لأنفسهم بتلك الجهات - أن حاولوا الاستيلاء على القسطنطينية نفسها فى الفترة بين سنتى ١٠٨١ و ١٠٨٥م تحت قيادة روبرت جويسكارد وابنه بوهيموند[١١]، كذلك اشترك النورمان فى الحركة الصليبية وكانت لهم مواقفهم الخاصة مع بيزنطة[١٢]، وعلى عهده أيضا اجتاح الأتراك السلاجقة أراضى الإمبراطورية فى آسيا الصغرى وخاض إسحق كومنين حروبا ضدهم هناك بهدف الحد من تلك الإغارات السلجوقية[١٣]، وفى الأقاليم الشمالية تحرك المجريون على عهد إسحق كومنين أيضا[١٤]، وهكذا تفاقمت الأخطار الخارجية فى ذلك العهد.

---

(٩) سيد الناصرى: الروم ص ٣٥٩.

(10) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 299.
(11) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 181.
(12) Hussey; Op. Cit. p. 54.
(13) Grousset: Histoire de L' Armenie, p. 609.
(14) Baldwin: The Crusades, I, p. 185.

العرينى : المرجع السابق ص ٨٨٧-٨٨٨.

غير أن الأخطر من ذلك ما وقع من شقاق بين إسحق كومنين والبطريرق الشهير كريولاريوس وهو الشخصية الهامة فى تاريخ كنيسة القسطنطينية والرجل الذى حرص على استقلال كنيسة بيزنطة عن كنيسة روما، وكان قد لعب دورا هاماً فى اعتلاء إسحق كومنين العرش وكافأه الإمبراطور على ذلك بأن أعطاه حق تعيين رجال الدين فى كنيسة القديسة صوفيا بالقسطنطينية متنازلا بذلك عن حق من حقوق الإمبراطور الهامة، بل تعهد بألا يتدخل فى أمور الكنيسة[١٥]، فأدى هذا التنازل إلى تمتع البطريرق بالاستقلال المدنى عن الإمبراطور فى إدارة الكنيسة، غير أن ذلك لم يرض طموح البطريرق الذى طمع فى توحيد السلطتين المدنية والروحية وجمعهما فى يده أى أنه فيما يبدو رغب فى الفوز إلى جانب منصبه الروحى بمنصب الإمبراطور، فبدأ بالتدخل فى شئون الدولة وتطاول على الإمبراطور[١٦]، وحيث أن إسحق كومنين لم يكن ليطيق صبرا على ذلك البطريرق بعد أن وضحت مطامعه وبانت أغراضه وإتخذ من تأييد الرعاع وسائر العامة دعما له ووسيلة لتحقيق أهدافه، فقد قرر إسحق كومنين النضال ضد البطريرق، وربما أراد إسحق أن يحسن علاقاته مع كنيسة روما والتى لم يكن يرضيها إلا ذهاب كريولاريوس[١٧]، فتقرر القبض على البطريرق، لكن الحرس لم يجرؤ على ذلك داخل القسطنطينية نظرا للدعامة القوية التى يستند إليها البطريرق ولشعبيته الكبيرة فى العاصمة[١٨]، ولم يتمكن الحرس من القبض عليه إلا حين غادر البطريرق العاصمة فى نوفمبر سنة ١٠٥٨ لزيارة أحد الأديرة، حيث حمل إلى المنفى، وهناك جرت محاولات مستميته لإرغامه على التنازل عن منصبه دون جدوى، ولهذا تحتم

---

(15) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 300.
(16) Camb. Med. Hist. v. 4, p. 323.
Diehl. Marçias : Op. Cit. p. 555.
(١٧) سيد الباصرى: الروم ص ٣٦٨.
(18) Camb. Med. Hist. v. 4, p. 323.

على الإمبراطور أن يعقد مجمعا دينيا لإصدار قرار العزل، فاجتمع هذا المجمع في بلدة صغيرة وأعدت بنود الاتهام ضد كريولاريوس وهى الخروج عن الدين، الاستبداد، القتل، تدنيس الأماكن المقدسة وارتكاب الفاحشة، وتكفى بعض هذه التهم لعزله من منصبه، غير أن الرجل مالبث أن توفى وهو فى طريقه للمثول أمام المجمع الدينى فتخلص الإمبراطور بذلك من أشد خصومه عداء وأقواهم مراسا[١٩].

وعلى الرغم من ذلك لم يصف الجو لإسحق كومنين بعد وفاة كريولاريوس، لإن الناس فى العاصمة أظهروا ولاء شديدا للبطريرق المتوفى، الأمر الذى أنذر بشر مستطير وأرهص باندلاع ثورة فى العاصمة مما اضطر الإمبراطور إلى إظهار الندم على موقفه من البطريرق الراحل والسير إلى قبره حيث أخذ ينتحب تأثرا واعترافا بما بدر منه وراح يلتمس الصفح والعفو، ثم مالبث أن أمر بنقل جثمانه ليدفن فى العاصمة وسط مظاهر الإكبار والتبجيل فى محاولة لمنع الثورة فى القسطنطينية[٢٠].

ولم تكن تلك هى كل مشاكل الإمبراطور الجديد بعد وفاة البطريرق، إذ أن سياسته الداخلية وإسراعه فى تنفيذها مالبثت أن أغضبت كبار رجال الجيش والعسكريين، فعلى الرغم من أنه وصل إلى العرش بتأييد من أولئك القادة، إلا أنه حرص على حرمانهم من الوظائف الكبرى فى الدولة وفى إدارة البلاد، فضلا عن أنه لجأ إلى التقشف حتى يتحصل على الأموال التى تمكنه من إصلاح الجيش، واهتم بجباية الضرائب وألغى منح الأراضى التى أقطعها الأباطرة السابقون لأفراد معينين وصادر ممتلكات الأديرة[٢١]، فأثارت هذه

---

(19) I· ıd. p. 323.
(20) Dıehl, Marçias : Op. Cit. p. 555.
(21) Baldwin: Op. Cit. I, p. 198.

الإجراءات العناصر القوية وأغضبت كثيرا من الفئات، فوقع الصدام عنيفا بينه وبين الراغبين فى الإصلاح وتغيير هذه الأوضاع(٢٢).

وعلى أثر مرض ألم بالإمبراطور فى سنة ١٠٥٩م، إستقر رأى إسحق على التنحى عن العرش والاعتكاف فى أحد الأديرة ولبس مسوح الرهبان عملا بنصيحة بسيللوس، وتشير الدلائل إلى أن هذا التنحى لم يكن المرض السبب الوحيد له، وإنما فشل الإمبراطور فى تنفيذ مشاريعه الإصلاحية هو الذى دفعه إلى التنازل عن العرش والانزواء فى تلك الحياة الهادئة(٢٣)،ولعل خير دليل على ذلك أنه لم يحرص على ترك العرش لأخيه حنا كومنين كى يجنبه متاعب الحكم وصعابه، بل اختار أحد أصدقائه ليخلفه على العرش، هذا فضلا عن شعور إسحق كومنين بإشتداد سخط الناس عليه بعد وفاة كريولاريوس وكراهية الأرستقراطية البيروقراطية والشعب والكنيسة له وإزدياد الأحوال سوءا. فلما استبد به اليأس اختار صديقه قسطنطين دوقاس(٢٤) ليخلفه فى الحكم ولجأ هو إلى الدير يغرق فيه آلامه وقنوطه وخيبة أمله، وفى ذلك تصوير لمدى تحالف زعماء الأرستقراطية المدنية والكنيسة للتخلص من إسحق كومنين(٢٥).

أسرة دوقاس (١٠٥٩-١٠٨١م) :

أدى تنحى إسحق كومنين عن العرش إلى بروز أسرة جديدة لم يستمر عهدها فتره طويلة بل جاء حكمها امتداد لفترة الضعف والاضمحلال الذى

---

(22) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 299.
(23) Psellus: Chronographia, pp. 245-52.
Camb. Med. Hist. v. 4, p. 324.
(24) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 301.
(25) Psellus: Op. Cit. p. 250.
Camb. Med. Hist. v. 4, p. 324.

ران عل الإمبراطورية منذ وفاة باسيل الثانى، ولم تستطع هذه الأسرة أن تقدم لبيزنطة شيئاً أو تغير من أوضاعها كثيرا فظلت أحوال الإمبراطورية تسير فى نفس الاتجاه على الرغم من أن الأخطار الخارجية بدأت تلوح فى الأفق والأعداء يهددونها من كل جانب.

قسطنطين العاشر دوقاس (١٠٥٩-١٠٦٧م) :

إذا كان بيت كومنين يمثل الأرستقراطية العسكرية، بآسيا الصغرى، فإن بيت دوقاس يمثل الأرستقراطية المدنية بالعاصمة[٢٦]، فقد كان قسطنطين دوقاس نقيب رجال المال والأعمال فى العاصمة وعلى اتصال برجال الدين ولهذا كان فى تفكيره أقرب إلى الحزب البيروقراطى منه إلى حزب المؤسسة العسكرية التى لم يكن يشعر نحوها بأى ود وبادلته هذه الموسسة نفس الشعور[٢٧]، ويشير المؤرخون إلى أن ترشيح هذا الإمبراطور كان بتدبير من المؤرخ الفيلسوف بسيللوس، إذ كان صديقه وصار ملازما له ومستشارا ومؤدبا لابنه وولى عهده والذى يسدى له النصح فى كل شئ[٢٨].

وعلى الرغم من أن قسطنطين العاشر دوقاس كان ينتمى إلى أسرة اشتهرت بحبها للجندية، وظهر فيها قادة ورجال جيش من الطراز الأول، فإنه لم يمل كثيرا لحياة الجندية ولم يظهر حماسا للجيش خاصة وأنه ولى بتأثير الحزب المدنى، ولم يكن للأرستقراطية العسكرية فضل فى ولايته، ولهذا لم يظهر اهتماما بالجيش ولم يعول كثيرا عليه فى سياسته، فأدى ذلك إلى ضعف الإمبراطورية وتداعى قوتها فى الميدان الخارجى، لأنه اقتنع فيما يبدو بأن

---

(26) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 302.

(٢٧) سيد الناصرى: الروم ص ٣٦٩.

(28) Psellus: Op. Cit. pp. 249-51.

شراء السلم من الأعداء أقل كلفة من إعداد العساكر لحربهم على حد قول مؤرخ محدث(٢٩).

ويبدو أن قنسطنطين العاشر خشى من إزدياد نفوذ الحزب العسكرى وطموح القادة العسكريين وتطلعهم إلى السلطة من ناحية، فى الوقت الذى أفلست فيه خزائن الدولة بسبب ازدياد نفقات الإدارة الحكومية والإكثار من الموظفين والسخاء فى الهبات للكنيسة تقربا منها وإلتماسا لرضاها من ناحية أخرى، على الرغم من أن الأخطار أطلت برأسها من كل ناحية تهدد كيان الإمبراطورية مع أفتقارها لجيش قوى يحمى حدودها ويذود عنها(٣٠)،ولم تفلح سياسة الإمبراطور لإثراء خزائن الدولة وإنعاش أحوالها بما لجأ إليه من بيع الوظائف فى الإدارة المالية واتباع الشدة فى جباية الضرائب، بل إزدادت الأحوال سوءا وتوالى تداعى قوتها(٣١).

توفى قنسطنطين العاشر دوقاس فى مايو سنة ١٠٦٧م، فانتقل السلطان إلى أيدى زوجته إيدوسيا وصيه على أبنائها الصغار يعاونها نفر من أقارب الإمبراطور الراحل ومعاونوه خاصة المؤرخ والفيلسوف العظيم بسيللوس، فى الوقت الذى اشتدت فيه المعارضة لإهمال السياسة العسكرية وإضعاف الجيش، نظرا لإشتداد الكوارث على أطراف البلاد، وأصبحت الدولة فى حاجة ماسة لقيام حكومة عسكرية يوكل إليها التصدى للأخطار لهذا أقدمت الإمبراطورة إيدوسيا على الزواج من القائد رومانوس ديوجينس (الرابع) من زعماء قبادوقيا

---

(29) Baldwin: Op. Cit. I, p. 199.
Diehl, Marçias : Op. Cit. p. 557.

العرينى : المرجع السابق ص ٨٣٠.

(30) Camb. Med. Hist. v. 4, p. 424.
Ostrogorsky : Op. Cit. p. 302.

(31) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 302.

ومن القادة العسكريين المشهود لهم، فجرت المناداة به إمبراطورا فى يناير سنة ١٠٦٨م[٣٢].

رومانوس الرابع (ديوجينس) ١٠٦٨-١٠٧١م وميخائيل السابع دوقاس:

فى الوقت الذى جرى فيه إهمال الجيش وإضعافه، كانت أطراف الدولة البيزنطية تشهد أحداثا خطيرة توشك أن تجهز على نفوذها فى تلك الجهات، فقد كانت دولة الأتراك السلاجقة آخذه فى القوة والمنعة طامعة فى مد نفوذها على أقاليم الإمبراطورية فى الشرق، وأخذت صورة بلاد الشام وآسيا الصغرى تتغير خاصة منذ سنة ١٠٦٣م عند إعتلاء السلطان ألب أرسلان السلطة فى الدولة السلجوقية، فقد حرص هذا السلطان على مد نفوذه على العراق وبلاد الشام ومحاولة النفاذ فى آسيا الصغرى لطرد البيزنطيين من مراكزهم فيها[٣٣].

ولقد جاء تتويج رومانوس الرابع استجابة لحاجة البلاد، فقد اشتهر بأنه قائد مجرب وجندى باسل، وتجلت مقدرته العسكرية فى الحروب ضد المجريين فى جبهة الدانوب، فكان دعامة من دعامات الحزب العسكرى[٣٤]، وعلى الرغم مما حيك ضده من مؤامرات فى البلاط، وماحدث من خطط خفية ضده، إلا أنه لم يتوان عن حشد جيوشه والمبادرة بملاقاة السلاجقة وبذل جهودا مضنية فى إعداد جيوشه ومدها بالجند المرتزقة من الغز والنورمان والفرنج والمجريين[٣٥]، وعلى الرغم من كل ماصادفه من مشاكل فقد

---

(32) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 304.

(٣٣) البندارى: تواريخ آل سلجوق ص ١٠، ابن القلانسى : ذيل ص ٩٩،
Grousset: Hist. de l'Armenie. p. 627,
Camb. Med. Hist. v. 4, pp. 324-5.

(34) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 304.

(35) Ibid. p. 304.

نجحت الحملة التى جردها سنة ١٠٦٨م ضد أمير حلب محمود بن نصر المرداسى، فاستولى على بعض حصون إمارة حلب ودمرها، إلا أنه اضطر إلى الانسحاب على إثر ما ورد إليه من أنباء توغل التركمان فى عمق بلاده وقرب حدود أرمينيا(٣٦). وإن لم يكن أثره فى التصدى للأتراك حاسما(٣٧)، وفى العام التالى (١٠٦٩م) قام بحملته الثانية فى بلاد الشام فاستولى على منبج بالقرب من حلب وخربها وطرد سكانها وأسر بعضا منهم، ثم سار إلى إعزاز ففعل بها نفس الشئ، ولكنه اضطر أيضا للعودة بسبب نقص المؤن وتفشى الأمراض فى جيشة(٣٨).

غير أن الحملة الثالثة لرومانوس الرابع انتهت بهزيمة ساحقة فى مدينة مانزكرت بأرمينيا بالقرب من بحيرة وان حين حل الدمار بالجيش البيزنطى بقيادة الإمبراطور نفسه على الرغم من تفوق جيشه فى العدد على الجيوش السلجوقية التى قادها ألب أرسلان، وذلك سنة ١٠٧١م حيث وقع الإمبراطور أسيرا فى أيدى السلاجقة(٣٩)، واضطر رومانوس الرابع وهو فى أسر السلاجقة إلى عقد صلح مهين قبل بموجبه أن يدفع الفدية عن نفسه وتعهد بدفع جزية سنوية للسلاجقة وأن يطلق سراح الأسرى الأتراك، وتعهد كذلك أن يقدم المساعدة العسكرية للسلاجقة عند طلبهم، ويبدو أن هذا الصلح المهين ومن قبله الهزيمة المنكرة فى مانزكرت جعلت المعارضة فى العاصمة البيزنطية تقوى وتطالب بعزل رومانوس الرابع، فانتهى الأمر فعلا باعتلاء الإمبراطورة العرش مع

---

(٣٦) سيد الناصرى: الروم ص ٣٧٢-٣٧٣.

(37) Bréhier: Vie et Mort de Byzance, p. 280.

(٣٨) ابن الأثير: الكامل ج ٨ ص ١٠٧، ابن الوردى: تاريخه ج ١ ص ٣٧٣.
الناصرى: الروم ص ٣٧٣.

(39) Hussey; Op. Cit. p. 50,
Ostrogorsky : Op. Cit. p. 304.

ابنها ميخائيل السابع دوقاس، ثم مالبث هذا أن انفرد بالسلطة، وأنزلت الإمبراطورة الدير فى أكتوبر سنة ١٠٧١م[٤٠]، وفى نفس الوقت فشل رومانوس الرابع بعد إطلاق سراحه فى التصدى للحزب المناوئ وللمعارضة فى العاصمة، واندلعت حرب أهلية أدت فى النهاية إلى استسلام رومانوس وتنحيته عن السلطة وعلى الرغم من ذلك جرى سمل عينيه ثم مالبث أن توفى فى العام التالى (١٠٧٢م) حزينا بائسا[٤١].

أصبح الحزب المدنى هو الذى يسيطر على شئون الحكم عند ولاية ميخائيل السابع دوقاس، وعلى الرغم من أن هذا الإمبراطور كان تلميذا لبسيللوس المؤرخ والفيلسوف الشهير[٤٢] وتلقى أرفع العلوم الأدبية ودرس الشعر والخطابة والفلسفة، وتدرب على إدارة الحكومة، إلا أن عهده جاء بداية التفكك التام للحكومة ومثل بداية محنة حقيقية لبيزنطة، إذ غص بالفتن والثورات وتأثر بكارثة مانزكرت التى قضت على الروح المعنوية لبيزنطة وادخلتها فى عصر فوضى واضمحلال، فى الوقت الذى أفاد فيه السلاجقة من أثر هذه الكارثة فى التوسع على حساب بيزنطة فى محاولة للاستيلاء على أملاكها فى آسيا الصغرى[٤٣].

ووسط تلك الفوضى نادى أكثر من شخص بنفسه إمبراطورا، واندلعت الحروب الأهلية فى الأقاليم الأوربية وفى آسيا الصغرى على حد سواء، وتقدم ألكسيوس كومنين سنة ١٠٨١م ليلى السلطة، بعد أن قضى على

(40) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 305.
(41) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 305.
Oman: The Byzantine Empire, pp. 253-4.
(42) Psellus: Op. Cit. p. 249.
Ostrogorsky : Op. Cit. p. 301.
(43) Camb. Med. Hist. v. 4, p. 327.

بعض الثوار، وعلى الرغم من أن السلاجقة انتهزوا الفرصة لتوطيد سلطانهم فى آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين فقد اتبع كل من حزب البلاط والأسر الإقطاعية سياسة جلبت الخراب على الدولة وأضعفت الجيش وجرت وراء مصالح ذاتية غير حافلة بالمصالح العامة[٤٤].

واقترن ذلك بظهور خطر عظيم أيضا هدد الإمبراطورية فى القرن الحادى عشر وأعنى به خطر النورمان، فقد استولى النورمان على مدينة بارى Bari وراح زعماء النورمان من أسرة هوتڤيل Hauteville لاسيما روبرت جويسكارد Guiscard يغيرون على أقاليم الدولة البيزنطية فى البلقان، ويفكرون فى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، وتعرضت الإمبراطورية لكثير من المتاعب من هذه الناحية[٤٥]، وفى نفس الوقت نهضت ممالك أخرى فى الناحية الشمالية الغربية تبغى الاستقلال عن بيزنطة، لاسيما الكرواتيين والبلغار والصرب، ولقيت محاولاتهم تأييدا من البابوية التى أرادت مضايقة بيزنطة بعد حادثة الإنفصال الشهيرة سنة ١٠٥٤م. إذ اعتبرت بيزنطة خارجة عن رحمتها معادية، ولم تأل البابوية جهدا فى تتويج بعض ملوك تلك الأجناس كملوك مستقلين عن بيزنطة مضايقة لبيزنطة ونكاية فيها، وتشجع كثير من شعوب المنطقة لطرح طاعة الإمبراطورية البيزنطية والانسلاخ عن سيادتها، بعد أن تداعت الإمبراطورية وإضمحل نفوذها[٤٦].

---

(44) Ostrogorsky : Op. Cit. p. 305.
(45) Camb. Med. Hist. v. 5, p. 175.
(46) Baldwin: Op. Cit. I, p. 182.
Schlumberger: Op. Cit. p. II, p. 566.

الفصل الثامن

أسرة كومنين [١٠٨١ - ١١٨٥م]

اتسمت الفترة الأخيرة من حكم أسرة دوقاس بالاضطراب والفوضى، بعد أن تعدد الثوار، وازدادت المطامع فى السلطة وتداعت الحكومة، واتسع نفوذ الحزب المدنى، وسلك سياسة مناهضة للأسر الإقطاعية، وضعف الجيش وتناقص عدد جنده وبدأت مرحلة حرجة فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية[١]. ووسط هذه الأحداث تولى أحد أفراد أسرة كومنين العرش لينتشل الامبراطورية مما وقعت فيه من الفوضى ويضعها على طريق جديد فيه بعض العزة والمنعة، وأعنى به الامبراطور ألكسيوس الأول كومنين، وكان ابنا لحنا كومنين الذى أبعده إسحق كومنين سنة ١٠٥٩م عن ولاية العرش وعهد به لأحد أصدقائه تجنبا لأخطار هذا المنصب ونأيا بأخيه عن متاعب السلطة.

ألكسيوس كومنين (١٠٨١-١١١٨م):

يبدو أن الأسرة الكومنينية لم تكن راضية عما فعله عميدها إسحق كومنين من نقل الحكم إلى شخص آخر قبل ذلك بأكثر من عشرين عاما، لاسيما وأن من ولى السلطة خلال تلك الفترة لم يكن على مستوى المسئولية، أو من القوة بحيث يكفل للبلاد الأمن والطمأنينة والسلام، بل على عكس ذلك غرقت البلاد فى خضم الفوضى والاضطراب[٢]. ولقد ظلت الأسرة فيما يبدو تتحين الفرص لاستعادة العرش حتى نجح ألكسيوس كومنين فى الوصول

(1) Ostrogorsky: op.cit. p. 315.

(2) Vasiliev : Op. Cit., P. 335

Baldwin : Op. Cit., I. P. 198

Diehl, Marçias : Op. Cit, P. 557.

Camb. Med. Hist. V. 4, P. 327.

فعلا إلى السلطة بعد سلسلة طويلة من الحروب الداخلية، ووسط المؤامرات والدسائس والفتن والثورات، وساعده على الوصول إلى الحكم ماحدث من نهوضه بكثير من الأعباء والخدمات الحربية التى كانت فى صالح الدولة دون جدال(٣).

وتشير الدلائل إلى أن ألكسيوس كومنين كان بعيد النظر، ناضجا حريصا على أن تجتاز الإمبراطورية تحت لوائه فترة الضعف والاضمحلال إلى عهد جديد، كما يبدو أيضا أنه تفهم مشاكل الإمبراطورية قبل أن يعتلى العرش وتوصل إلى حلول لها(٤). فبدأ سلسلة إصلاحات عظيمة، لاسيما فى الجهاز الكنسى وما يتعلق برجال الدين، وبدأ فى إصلاح أمر الجيش والبحرية، لكن لم يكن بوسعه أن يبدأ سياسة حربية فى الخارج ناجحة فى ذلك الوقت، فلقد مر الجيش بمحنة حقيقية منذ أواخر عهد الأسرة المقدونية، وعلى عهد أسرة دوقاس، فقد فيها جانبا كبيرا من ترابطه وحماسته لتنفيذ مشاريع الدولة العسكرية، وضم الجند المأجورين، وأصبح بحاجة إلى فترة ليست قصيرة حتى يمكن الاعتماد عليه فى تحقيق أهداف الدولة(٥). ويبدو أن ذلك كان له ضلع فيما لجأ إليه ألكسيوس من سياسة الاستنجاد ببعض الدول ضد أعدائه، سواء ضد النورمان أو ضد السلاجقة، فضلا عن محاولة بث الفرقة وتوسيع شقة الخلاف بين أعدائه والدول المجاورة، وقد وفق فى ذلك إلى حد ما، قبل أن تتهيأ الفرصة للدولة لاستخدام قواتها الاستخدام المرجو(٦).

---

(3) Ostrogorsky: op.cit. PP. 308 - 9.

(4) Ibid. P. 316.

Diehl, Marçias : Op. Cit, P. 564.

(5) Diehl, Marçias : Op. Cit, P. 557.

(6) Ostrogorsky: op.cit. PP. 317.

أما عن سياسة ألكسيوس كومنين الخارجية، فعلى الرغم من تفاقم مشاكل الدولة فى الداخل والخارج فقد كانت أولى المشاكل الخارجية التى واجهت ألكسيوس فى بداية عهده مشكلة النورمان، فبعد أن تطرق النورمان إلى جنوب إيطاليا وأقاموا لهم حكما ثابتا فيه واستولوا على مدينة بارى Bari سنة ١٠٧١م، بدأوا يفكرون فى مهاجمة البلقان، بل فكر روبرت جويسكارد فى غزو القسطنطينية نفسها، ولم ينجح مشروع إرضائه بمصاهرة البيت الحاكم تماما، فراح يتحين الفرصة لغزو الامبراطورية، حتى بدأ وكأنه يعيش من أجل تحقيق هذا الحلم[٧]، وفى سنة ١٠٨١م عبر روبرت جويسكارد البحر الأدرياتى لتنفيذ مشروعاته وتحقيق مطامعه على حساب الامبراطورية البيزنطية فاستولى على مدن كورفو ودورازو وبدأ يستعد لإستكمال مشروعاته[٨].

لم يكن ألكسيوس كومنين فى ذلك الوقت فى وضع يمكنه من التصدى لخطر النورمان وإبعادهم عن دولته، إذ لم يكن قد بدأ فى تنظيم جيوشه أو أساطيله أو حشد فرق تكفى لرد المغيرين من النورمان ولهذا فقد سلك طريق الإيقاع بين أعدائه واستخدم المكر والحيلة فى التخلص منهم جميعا[٩]، ولم يتردد ألكسيوس فى عقد صلح مع سلطان سلاجقة الروم القريبين منه فى آسيا الصغرى تأمينا لنفسه من هذه الجهة، بعد أن أخذت الدولة السلجوقية تتحول منذ ذلك الوقت إلى وحدات سياسية إقليمية يلى

---

(٧) سيد الناصرى : الروم ص ٣٨٤.

(8) The Alexiad of Anna Comnena, P. 124 (trans. by E.R.A. Sewter 1969).

Ostrogorsky: op.cit. P . 317.

Camb. Med. Hist. V. 4, P. 323.

(9) Ibid. P. 350.

أمرها مسئول يتبع السلطان السلجوقى الأعظم ملكشاه فى المشرق وبغداد[١٠]، وفى نفس الوقت رحب سلاجقة الروم بآسيا الصغرى بعقد الصلح مع ألكسيوس، حتى يتفرغوا لتثبيت دعائم دولتهم الناشئة ومد نفوذهم إلى أبعد مايمكن على حساب جيرانهم، ولقد أفاد ألكسيوس كثيرا من هذا الصلح للتفرغ لبقية مشاكله فى الغرب[١١].

بدأ ألكسيوس سياسته ضد النورمان بإغراء أعداد كبيرة من النورمان المقيمين فى العاصمة البيزنطية، وبعض من دخل فى الجندية البيزنطية بالاتجاه نحو ممتلكات النورمان بجنوب إيطاليا والأراضى التابعة للنورمان، لإشاعة الفوضى والاضطراب فيها، حتى يضطر روبرت جويسكارد للتخلى عن أطماعه فى البلقان وسحب جيوشه للدفاع عن أملاكه فى جنوب إيطاليا[١٢]. وفى نفس الوقت كاتب ألكسيوس البابا جريجورى السابع محاولا الظفر بتأييده ضد النورمان[١٣]، لكن هذا البابا أصم أذنيه من نداءات ألكسيوس ولم يبد اهتماما بما أثاره البيزنطيون ربما لتعارض ذلك مع سياسه البابوية تجاه النورمان فى جنوب إيطاليا[١٤]. غير أن ألكسيوس لم ييأس بل إتجه إلى الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة للفوز بمناصرته ضد النورمان[١٥]، هادفا فى أغلب الظن إلى استثارة حماسة الامبراطور للقيام بحملة ضد النورمان فى جنوب إيطاليا ليشغل النورمان عن مواصلة مشروعاتهم ضد دولته وتوسعاتهم فى البلقان من جهة، ومن جهة

---

(10) Browne : Account of a rare manuscript, P. 850.

(11) Ostrogorsky: op.cit. P . 316.

(12) The Alexiad of Anna Comnena, PP. 135-40.

(13) Ibid. P. 126.

(14) Haskins : The normans in European Hist. PP. 202 - 3

(15) Ostrogorsky: op.cit. P . 317.

أخرى هادفا إلى مد الامبراطور هنرى الرابع بفرصة لتحقيق أمله فى عالمية الإمبراطورية الرومانية وسمو الامبراطور على كافة القوى الروحية والعلمانية، الأمر الذى ترتب عليه قيام النزاع المعروف بين الامبراطورية والبابوية، وبعبارة أخرى حاول ألكسيوس كومنين إشباع رغبة هنرى الرابع فى تحقيق الأمل الذى راوده ورواد الأباطرة الغربيين فى تحقيق عالمية إمبراطوريتهم(١٦). وبالإضافة إلى هذه الاتصالات اتجه الكسيوس كومنين إلى مفاوضة البندقية لاستخدام أسطولها فى حروبه ضد النورمان.

وكان البنادقة لا يقلون عن الروم قلقا فيما يختص بمشروعات روبرت جويسكارد وولده بوهيموند التوسعية فى البحر الأدرياتى، وفى نفس الوقت أرادوا استغلال ذلك للحصول على امتيازات تجارية من حكومة القسطنطينية، وفعلا حصلوا على كثير من هذه الامتيازات التى فاقت أحيانا امتيازات التجار البيزنطيين أنفسهم(١٧)، فجرى فى سنة ١٠٨٢م عقد معاهدة بين الطرفين، وهكذا لجأ ألكسيوس كومنين إلى كل السبل التى تمكنه من التغلب على أولى المشاكل التى واجهته(١٨).

وعلى الرغم من كل ذلك فقد نشبت الحرب بين البيزنطيين والنورمان سنة ١٠٨١م والتقى الأسطول البيزنطى والأسطول النورمانى، إلا أن البحرية البيزنطية لم يكن بوسعها الصمود فحلت بها الهزيمة، كما حلت الهزيمة أيضا بالجيوش البرية البيزنطية تحت قيادة الامبراطور نفسه وفتح الطريق أمام النورمان إلى دورازو وبدأوا فى اجتياح المنطقة الواقعة على الساحل

---

(16) The Alexiad. PP. 61-66.
Hussey: op.cit. pp. 51 - 55.

(١٧) سيد الناصرى : الروم ص ٣٩٣.

(18) Ostrogorsky: op.cit. P . 317.

الأدرياتي[١٩]. غير أن روبرت جويسكارد آثر الارتداد إلى إيطاليا نظرا لما أثاره أنصار الامبراطور البيزنطي من فتن واضطرابات هناك، لكن النورمان استمروا في تقدمهم ونجحوا تحت قيادة بوهيموند ابن روبرت جويسكارد في إحراز نصر ثان على البيزنطيين هناك بل توغلوا من الجهات الساحلية تجاه الشرق حتى بلغوا مدينة لاريسا Lariss[٢٠].

وظل الخطر النورماني يهدد الامبراطورية حتى وفاة روبرت جويسكارد سنة ١٠٨٥م حيث دأب النورمان على التقدم في أملاك البيزنطيين بصفة مستمرة، وإذا كان الخطر النورماني قد زال بصفة مؤقتة بوفاة عدو الامبراطورية البيزنطية الأول جويسكارد فإن هذا الخطر لم يلبث أن أطل برأسه من جديد في شخص ابنه بوهيموند[٢١]، الذى شارك في الحروب الصليبية، وكان من أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى قرب أواخر القرن الحادى عشر، وبرزت أطماعه في أنطاكية التى كان البيزنطيون يعتبرونها جزءا من أملاكهم في شمال الشام، وفاز بوهيموند بهذه المدينة في النهاية ليضع حلقة جديدة من حلقات العداء بين النورمان والبيزنطيين[٢٢].

وعلى الرغم من ذلك فإنه يمكننا القول أن ألكسيوس كومنين نجح إلى حد ما في سياسته ضد النورمان، وتصدى لهم سواء بالحرب أو بالسياسة، وأجبرهم على التخلى عن كثير من مشروعاتهم ضد دولته، ومن غير شك عد ذلك أمرا بالغ الأهمية إذا وضعنا في اعتبارنا قوة النورمان وطموحاتهم، لاسيما بعد أن فازوا بجنوب إيطاليا ثم تطرقوا إلى صقلية، وأقاموا فيهما دولة

(19) Ostrogorsky: op.cit. p. 317.

(20) The Alexiad. P. 167.

(21) Ostrogorsky: op.cit. p. 317.

(22) The Alexiad. P. 325.

ثابتة البنيان، وكانوا قبل ذلك قد جعلوا من نورمانديا فى فرنسا مركزا لإمبراطورية عظيمة ضمت بعد ذلك انجلترا واتسع نفوذها فى العصور الوسطى اتساعا كبيرا(٢٣).

أما عن سياسة ألكسيوس كومنين تجاه السلاجقة، فينبغى أن نسرع إلى القول أنه إذا كان ألكسيوس قد نجح فى سياسته ضد النورمان وغيرهم من أعداء الدولة فى الأجزاء الغربية من الدولة، فقد فشلت علاقته بالسلاجقة شرقا فى مجموعها ولم يصادفها التوفيق ذلك أنه على الرغم من انقسام دولة السلاجقة إلى وحدات سياسية كثيرة على رأس كل منها حاكم يتبع السلطان الأعظم ملكشاه فى الشرق، إلا أنها ظلت دولة قوية مؤثرة فى مجريات الأمور فى المناطق المتاخمة لأملاك بيزنطة(٢٤)، لاسيما وقد نهضت دولة سلاجقة الروم كإحدى فروع الدولة السلجوقية بمسئولياتها تجاه تثبيت دعائم الحكم السلجوقى فى آسيا الصغرى على حساب البيزنطيين وغيرهم فى تلك الجهات، وعرفت هذه الدولة أو الفرع السلجوقى بسلاجقة الروم، وتولى أمرهم على عهد الإمبراطور ألكسيوس كومنين السلطان سليمان بن قتلمش(٢٥)، الذى تطلع إلى توسيع أملاكه فى آسيا الصغرى وشمال الشام نفسها، وظل فى صراع مع غيره من حكام المنطقة سواء من العرب أو الترك واشتد الصراع حول مدينة أنطاكية وانتهى الأمر بمقتل سليمان بن قتلمش سنة ١٠٨٧م(٢٦) لتنقسم دولته فى آسيا الصغرى بين أبنائه وكبار قادته، ثم مالبث السلطان ملكشاه أن قدم إلى الشام ليقوم بتوزيع الإقطاعات الكبيرة على

---

(23) Haskines : Op. Cit., P. 3, P. 52.

(24) Browne : Op. Cit., P. 850.

(25) Ostrogorsky: op.cit. p. 316.

(٢٦) ابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ص ٩٦-٩٧.

ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٣٧.

كبار قادته والمقربين إليه وقام باصطحاب قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش معه إلى المشرق، ثم مالبث أن أطلق سراح هذا الأمير السلجوقى ليعود إلى ملك والده فى آسيا الصغرى، ويلعب دورا بارزا فى تثبيت دعائم حكم الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى، حتى ابتلعت دولة سلاجقة الروم معظم آسيا الصغرى، فيما عدا بعض سواحلها[٢٧]، ولم تثمر سياسة الإمبراطور ألكسيوس كومنين الرامية إلى ضرب زعماء السلاجقة بعضهم ببعض واتباع أسلوب الخداع والدبلوماسية فى الإيقاع بين أعدائه فى آسيا الصغرى، ولهذا ظلت الكلمة العليا فى تلك الجهات للسلاجقة، ولم تستطع بيزنطة أن تستعيد ممتلكاتها فى آسيا الصغرى على عهد هذا الامبراطور باستثناء قليل من القلاع والأراضى المحدودة[٢٨]، بل إن بيزنطة واجهت عداء الأتراك السلاجقة من ناحية والبشناق فى البلقان وفى الدانوب الأدنى من ناحية أخرى، وفى سنة ١٠٩٠ - ١٠٩١م تحالف البشناق (البجناك) مع الأمير التركى حاكم أزمير وهاجموا القسطنطينية برا وبحرا، ومثل هذا الهجوم خطورة حقيقية على بيزنطة[٢٩].

وإذا كانت بيزنطة قد أفادت من قدوم جحافل الصليبيين فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى لتتخلص من الخطر السلجوقى الجاثم على صدرها والمهدد لها فى عقر دارها، وتقلل كثيرا من خطورة هذا الغزو، فإن وفاة السلطان العظيم ملكشاه سنة ١٠٩٢م وهو فى عنفوان الشباب جاء عاملا جديدا فى إضعاف قوة السلاجقة وإقلال خطورتهم على الدولة البيزنطية[٣٠].

---

(27) Ostrogorsky: op.cit. p. 316.
Hussey: op.cit. p. 53.

(28) The Alexiad. PP. 286 - 91.

(٢٩) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٠٤.

فلقد نجت بيزنطة من مصيرها المحتوم على أيدى السلاجقة فى أواخر القرن الحادى عشر مستفيدين من تقدم الجيوش الصليبية فى طريقها إلى بلاد الشام لاستعادة الأراضى المقدسة من المسلمين ومستفيدة أيضا مماحدث فى جوف الدولة السلجوقية نفسها بعد وفاة ملكشاه، إذ مالبث الصراع أن اندلع بين ملوك السلاجقة وبين أمرائهم وحملت حروب الوراثة لعرش الدولة السلجوقية، بعض زعماء هذا البيت إلى قلب الدولة فى صراع من أجل الفوز بالسلطة السلجوقية فى العاصمة[٣١]، وكان ذلك فى صالح الامبراطورية البيزنطية دون جدال لأنه خلصها من عدو خطير تطلع إلى القضاء عليها قضاء تاما وإسقاط القسطنطينية والفوز بإرثها فى العالم فى ذلك الوقت.

ويميل بعض المؤرخين إلى اعتبار الحروب الصليبية التى برزت منذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى عاملا هاما فى تأخير القضاء على الدولة البيزنطية، الذى كان يمكن أن يحدث فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر على أيدى السلاجقة[٣٢]، فتأخر ذلك إلى قرب منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، حين سقطت القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م، لكن يمكن إضافة عامل آخر هو تغير الظروف فى داخل الدولة السلجوقية، بعد أن اجتازت بوفاة ملكشاه ١٠٩٢م مرحلة التوسع وبدأت مرحلة جديدة فى عصرها وبدأ نفوذها فى التقلص وأخذت فى

(30) Browne: op. cit. PP. 601 - 602.

(٣١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٦٦ -١٦٧.

الفارقى : تاريخه ص ٢٣٦ (تحقيق بدوى عبد اللطيف).

ابن القلانسى : ذيل ص ١٢٦.

البندارى : تواريخ آل سلجوق ص ٨٥.

(٣٢) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢١١،

Hussey: op.cit. p. 56.

الاضمحلال البطيء وودعت عهد الفتح والتوسع والانتشار إلى عهد آخر فى تاريخها فى ذلك الوقت[٣٣].

أما عن موقف ألكسيوس كومنين من الحملة الصليبية الأولى، فقد كان مثار آراء وأفكار ونظريات كثيرة، وأول مايواجهنا فى هذا الموضوع من قضايا هو موضوع استنجاد الإمبراطورية البيزنطية بالغرب الأوربى والبابوية ضد السلاجقة فى الشرق، ونستهل الحديث عن هذه القضية بالقول أن موضوع استنجاد الإمبراطور ألكسيوس كومنين بملوك الغرب الأوربى والبابوية والرسائل التى قيل أن الأمبراطور قد بعث بها إلى أولئك الملوك وإلى البابا يستحثهم على توجيه الجيوش إلى الشرق لمحاربة المسلمين فى حاجة إلى مزيد من الدراسة، والتأكيد[٣٤]، فقد تشكك كثير من الباحثين فى رسالة قيل أن ألكسيوس كومنين أرسلها إلى صديقه روبرت الأول كونت فلاندرز يستحثه فيها على تقديم المساعدة لبيزنطة قبل أن تسقط القسطنطينية فى أيدى الأتراك وأدعى فيها أن الاتراك يقتلون المسيحيين ويرتكبون المحرمات كلها[٣٥]، والواقع أن مثل هذه الرسائل فى حاجة إلى مزيد من التأكيد فقد تعددت الآراء فى ذلك وذهب البعض إلى أن ذلك لم يكن حقيقيا، وأكد نظريته بأن خطر السلاجقة فى آسيا الصغرى لم يكن بالنسبة للإمبراطور مقلقا فى ذلك الوقت بعد أن ضعف سلاجقة الروم وانقسمت دولتهم، وبعد وفاة ملكشاه سنة ١٠٩٢م، فلم يكن من المنطقى أن يستنجد ألكسيوس بالغرب الأوربى ضد خطر زال تقريبا أو فى طريقة إلى الزوال، ولم يعد مقلقا البتة[٣٦]، كما أكد هؤلاء

---

(٣٣) مقدمة كتاب راحه الصدور وآية السرور للراوندى نشر إقبال ص ٧.

(٣٤) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢١٢.

(٣٥) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٠٥.

(٣٦) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢١٢ - ٢١٣.

رأيهم هذا بأنه إذا كان ألكسيوس قد كتب إلى الملوك وإلى البابا فعلا، فإن ذلك لم يكن أمرا غريبا لأنه سبق أن استنجد بهم ضد النورمان، وضد بعض أعداء دولته في جبهة البلقان، وإذا كان قد استنجد بهم ضد السلاجقة فلا يعد ذلك أمرا على جانب كبير من الخطورة أو الأهمية، إذ لم يكن لغرب أوربا أن يلبى هذا الطلب لولا ماحدث من تغيرات فى ظروف أقطاره ولولا ما استجد من أمور جعل قادته يفكرون فعلا فى إنفاذ الجيوش إلى الشرق(٣٧).

والأمر الذى لاخلاف عليه أن الامبراطور ميخائيل السابع كان قد بعث إلى البابا جوريجورى السابع، عقب هزيمة البيزنطيين فى مانزكرت سنة ١٠٧١م يستنجد بالبابوية ضد السلاجقة ، ووجد البابا فى ذلك فرصة مواتية لإعادة الوحدة الدينية إلى أوربا، وإدخال كنيسة القسطنطينية تحت سلطة كنيسة روما الكاثوليكية، وإنهاء عهد الانفصال الدينى الذى حدث منذ سنة ١٠٥٤م(٣٨)، بل إن هذا البابا الشهير فكر فى إعداد حملة كبيرة إلى الشرق يتولى هو قيادتها، وأخذ فعلا يدعو إلى هذه الحملة، وكاتب ملوك الغرب وأمراءه لتلبية دعوة الدولة البيزنطية، ونجدتها ضد المسلمين فى الشرق، غير أن الظروف لم تكن مواتية حينذاك لإنفاذ هذه الحملة لاسيما وقد اندلع الصراع بين البابوية والامبراطورية حول مسألة التقليد العلمانى، وانصرفت الامبراطورية الغربية والبابوية كل إلى تأكيد سموها وقوتها بالنسبة للأخرى(٣٩). وهكذا لم يقدر لغرب أوربا أن يخرج هذا المشروع إلى حيز التنفيذ وقتذاك فى الوقت

---

(37) Ostrogorsky: op.cit. p. 320.
Hussey: op.cit. p. 53.

(38) Ostrogorsky: op.cit. p. 305.
Hussey: op.cit. p. 53.

(39) Camb. Med. Hist. V.5, p. 78, PP. 146 - 7.

الذى أخذ فيه الخطر السلجوقى يتضاءل بالنسبة لبيزنطة، وفى الوقت الذى نجح فيه ألكسيوس كومنين إلى حد ما فى حصر ذلك الخطر، وتقليل آثاره على دولته بالسياسة التى لجأ إليها والتى أسلفنا الإشارة إليها من قبل(٤٠).

هذا وينبغى أن نشير أيضا إلى أن موضوع استنجاد ألكسيوس كومنين ببعض ملوك الغرب الأوربى وبالبابوية، لم يكن يحمل فى طياته أية إشارات إلى مشروع صليبى أو تحريض ضد المسلمين فى الأراضى المقدسة، فمن البديهى أن هذا لم يكن يمثل مصلحة ملحة لبيزنطة أو مسألة تمس كيانها أو منافعها الذاتية، لأن ألكسيوس كان يخاف من اللاتين أكثر من خوفه من السلاجقة، فقد كان يدرك أطماعهم فى أراضى وممتلكات القسطنطينية(٤١). فإذا سلمنا بأن ثمة استغاثة حدثت من قبل هذا الإمبراطور إلى البابا وملوك الغرب، فيجب أن نحصرها فى نطاقها ولانحملها مالم يكن الإمبراطور يقصده، وينبغى أن نعتبرها استغاثة عادية ضد أعداء هددوا مصالح البيزنطيين سبق للإمبراطورية وألكسيوس نفسه أن أرسل مثلها ضد أعداء هددوا مصالح بيزنطة فى البلقان (٤٢). ولكن طلبه فى هذه المرة وفى سنة ١٠٩٥م أوضح أنه يريد هذه المساعدة فى شكل قوات موالية له وعلى درجة كبيرة من التدريب، وربما لهذا السبب لقى طلبه بعض الاهتمام(٤٣).

حقيقة أسرف ممثلو المدرسة القديمة فى تحميل هذه الاستغاثة كثيرا من النتائج التى ترتبت على غزو الصليبيين للشرق، وذهبوا إلى القول بأن هذه

---

(40) The Alexiad. P. 275.

(٤١) الناصرى : الروم ص ٣٨٩.

(42) Ostrogorsky: op.cit. p. 317

(٤٣) الناصرى : نفسه ص ٣٩٦.

الاستغاثة أدت إلى قيام الحركة الصليبية، لأنها جعلت البابا أوربان الثانى يدعو إلى حملة صليبية منذ أواخر سنة ١٠٩٥م، وجعل منبره فى مجمع كليرمونت الدينى حينذاك أداة للدعوة للحركة الصليبية، وألهب بحماسته وروعة بيانه حماسة الناس فى غرب أوربا، فانخرط كثير من الأمراء والنبلاء في سلك الحملة الصليبية الأولى، وشاركوا فى الجيوش المنفذة إلى الشرق(٤٤)، إلا أنه يجب أن نعى أن ذلك لم يكن بسبب استنجاد الإمبراطورية أو بسبب رسائل ألكسيوس بقدر ما كان استجابة لعوامل كثيرة ألحت على البابوية والمجتمع الغربى لإنفاذ ذلك الجيش لمحاربة المسلمين واستعادة الأراضى المقدسة منهم(٤٥). والحقيقة أن البابا أوربان الثانى وجد فى استغاثة ألكسيوس كومنين فرصة لتحقيق أهداف البابوية وسياستها الخارجية، وحل كثير من مشاكلها وكسب معركة من معاركها ضد القوى العلمانية والروحية فى أوربا فى أواخر القرن الحادى عشر، ولهذا فقد بشر بالحركة الصليبية فى مجمع كليرمونت سنة ١٠٩٥م، ودعا إلى إنفاذ جيش لمحاربة المسلمين فى الشرق مضمنا أفكاره مانزل بالمسيحيين البيزنطيين على أيدى الأتراك السلاجقة وماكانت تدعيه البابوية من تعرض الحجاج المسيحيين لبعض المتاعب فى طريقهم إلى الأراضى المقدسة(٤٦).

أما الأمر الثانى الذى يجابهنا فى هذا الموضوع فهو موقف الامبراطور ألكسيوس كومنين من أهداف الحملة الصليبية الأولى وقادتها، فلاشك أنه لم يشارك الصليبيين آمالهم فى الاستيلاء على الأراضى المقدسة وإخضاعها وربطها بالغرب الأوربى، لأن تلك قضية لم تعد تهم بيزنطة منذ أربعة قرون خلت

---

(44) Camb. Med. Hist. V.4, P . 410.

(45) Ostrogorsky: op.cit. P. 320.
Hussey: op.cit. p.53.

(46) Camb. Med. Hist. V.4, p. 410.

وغدت ذات أهمية ثانوية[٤٧]، ولهذا لم يشغل ألكسيوس باله كثيرا بأهداف الصليبيين وآمالهم، وغاية الأمر أنه حاول مساعدتهم وإرشادهم إلى الطريق وتقديم بعض العون العسكرى كيما يستعيدوا له البلاد التى سبق أن استولى عليها السلاجقة فى آسيا الصغرى وفى أقصى شمال الشام[٤٨]، على حين أن الصليبيين من جانبهم لم يشاركوا الامبراطور أغراضه أو يقتنعوا بأهدافه ولم يضعوا مصالحه ومصالح دولته نصب أعينهم طالما كانت لهم أهدافهم الخاصة وأغراضهم الذاتية التى قد تتعارض أحيانا مع مصالح الامبراطورية وأهداف الامبراطور[٤٩].

ويبدو أن الامبراطور البيزنطى أحس من جانبه باختلاف الاتجاهين، وتضارب مصالحه مع مصالح الصليبيين، ولهذا حرص على أن ينتزع من قادتهم يمين الولاء والطاعة[٥٠]، قبل أن يسمح لهم بالعبور إلى آسيا الصغرى، وأن يتعهدوا بإعادة كل ما استولى عليه السلاجقة من أراضى الامبراطورية البيزنطية[٥١]. والحقيقة أن مسلك الامبراطور تجاه الصليبيين فى ذلك الوقت بررته مجموعة ملابسات جعلت هذا الامبراطور يتخوف من نوايا الصليبيين ومن أهدافهم القريبة والبعيدة، بل أيقن أنه لولا حاجة الصليبيين إلى عون الامبراطورية ومساعدتها للوصول إلى الأراضى المقدسة لم يكونوا يحفلون بمصالح الامبراطورية أو يلتزمون برد أملاكها، ولهذا جد فى محاولة انتزاع يمين الولاء والطاعة من زعمائهم قبل أن يتركوا القسطنطينية فى

---

(٤٧) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٠٩.

(48) Camb. Med. Hist. V.4, p. 334.

(49) Ibid. P. 334.

(50) The Alexiad. P. 322.

(51) Runciman : A Hist. of the crusades, I. PP. 170 - 1

طريقهم إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام[٥٢].

وكان الصليبيون قد أتوا فى طريقهم إلى القسطنطينية من الأعمال فى الأراضى البيزنطية ما كان كفيلا بجعل الامبراطور يتخوف منهم ويعمل ألف حساب لأهدافهم ومطامعهم ومدى مايمكن أن يسببوه له من متاعب، فقد عاث الصليبيون فى البلاد البيزنطية فسادا وأنزلوا بالقرى والمدن الآمنة فى البلقان شر أنواع التنكيل والتعسف، فقتلوا الآمنين وسلبوا المتاع وغنموا ونهبوا ما قدروا على حمله وأحرقوا وأتلفوا القرى والضياع والمدن وارتكبوا كثيرا من الفظائع ضد إخوانهم المسيحيين من سكان تلك البلاد[٥٣].

وإذا أضفنا إلى ذلك أن تلك الجيوش الجرارة قد ضمت كثيرا من الشعوب والأجناس وعلى رأسها النورمان أعداء الامبراطورية البيزنطية وأصحاب المطامع الواسعة في أملاكها والذين صرفوا جانبا كبيرا من همتهم لمحاربتها فى البلقان وجنوب إيطاليا وتقويض دعائم نفوذها فى تلك الجهات، لاسيما وقد تزعم بوهيموند بن روبرت جويسكارد جيشا من الصليبيين وقدم إلى العاصمة البيزنطية كزعيم صليبى، بل أحد القادة الصليبيين البارزين[٥٤]، أمكننا بذلك فهم حقيقة المسلك الذى اتخذه ألكسيوس من هذه الجيوش الصليبية، وعرفنا لم حرص الامبراطور على انتزاع يمين الطاعة والولاء من القادة الصليبيين، ولم تخوف منهم وشك فى نواياهم[٥٥].

(52) Grousset : Hist. des croisades, I. PP. 27-8.

(53) The Alexiad. P. 311.

Runciman : Op. Cit., P. 157 .

(54) Ostrogorsky: op.cit. p. 317

(55) Camb. Med. Hist. V.4, p. 334.

ومن ناحية أخرى لم يكن ألكسيوس كومنين يتوقع أن تصل كل تلك الجيوش الجرارة من الغرب الأوربى، فإذا كان قد طلب بعض المساعدة من الغرب لمجابهة السلاجقة، فإنه لم يكن يتوقع أن تصل كل تلك الأعداد الهائلة ترفع شعار المسيحية وتبغى التوجه إلى الشام لإقامة حكم لها هناك على حساب سكانها، فبينما كان أقصى أمل لألكسيوس أن يصل بعض الجند المرتزقة لدفع الأخطار التى تتعرض لها الامبراطورية[٥٦]، إذا به يرى جيوشا هائلة وفرقا متعاظمة تأتى مقتحمة أراضيه محدثة الخراب والدمار فى البلاد التى اجتازتها إلى القسطنطينية، فكان لابد وأن يتشكك فى نوايا قادة تلك الجيوش وأهدافهم القريبة والبعيدة، لأنه اعتقد أن غرض أولئك اللاتين هو خلعه عن العرش البيزنطى والاستيلاء على دولته[٥٧].

وليس هناك شك أيضا أن العداء القديم بين البيزنطيين الأرثوذكس واللاتين الكاثوليك قد أخذ يتجدد خلال هذه الحملة، وهو العداء الذى ترجع جذوره إلى القرن الرابع الميلادى، حين هجر الأباطرة روما إلى الشرق، وحين بنى قسطنطين عاصمته الجديدة القسطنطينية لتحل محل روما وتعلو عليها وتبزها[٥٨]، هذا بالإضافة إلى الاختلافات اللغوية والمذهبية والحضارية بين اللاتين والاغريق، التى ألقت بظلها على العلاقات بين الجانبين، وأضافت إلى عوامل الفرقه والشقاق بينهما، فبوصول الصليبيين إلى العاصمة البيزنطية فى خريف سنة ١٠٩٦ م أخذت عوامل البغضاء والشحناء تثور بين الطرفين، وأخذت تتفاقم لتحدد مسلك الامبراطور ألكسيوس تجاه أولئك

(56) Ostrogorsky: op.cit. p. 305.

(57) The Alexiad. P. 329.

(٥٨) جيبون : اضمحلال الامبراطورية ج ١ ص ٥٠٥،
Baynes & Moss : Byzantium. P. 53.

الصليبيين[٥٩].

ونتيجة لكل تلك العوامل كيف الامبراطور سياسته تجاه الصليبيين، فرأى أن يتخذ منهم أداة لتحقيق مصالحه واسترداد أملاكه الضائعة، وفى نفس الوقت لم يجد غضاضة فى الموافقة على مايقومون به من أجل مصالحهم الخاصة وأهدافهم، مادامت لاتمس مصالح دولته أو تتعارض معها، وفى سبيل تحقيق أهدافه لجأ الامبراطور إلى التودد إلى زعمائهم والاغداق عليهم بالمنح والعطايا والأموال، رغبة فى استمالتهم وجعلهم أداة طيعة فى يده لتنفيذ أغراضه واسترداد أملاكه حتى أنطاكية فى شمال الشام، التى كانت تمثل أهمية خاصة فى أملاك بيزنطة فى تلك الجهات[٦٠].

وفى بداية صيف سنة ١٠٩٧م، كانت الجيوش الصليبية قد بدأت تتكامل، وفى نفس الوقت نجح الامبراطور ألكسيوس فى عقد اتفاق بينه وبين زعماء الحملة الصليبية الأولى على أن تقدم الامبراطورية للصليبيين المساعدة وتمدهم بالمؤن والعتاد وتزودهم بفرقة عسكرية للمعاونة وتمدهم أيضا ببعض المرشدين الذين يقودونهم عبر مسالك ودروب آسيا الصغرى إلى بلاد الشام فى مقابل أن يؤدى قادة الحملة يمين الولاء والإخلاص للإمبراطور، وأن يتعهدوا بإعادة البلاد التى يتم فتحها إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية[٦١]. وتشير كثير من الراويات إلى أن الامبراطور نجح فى استخلاص ذلك اليمين من كافة زعماء الحملة باستثناء ريموند أوف تولوز، الذى امتنع عن ذلك لأنه يتعارض مع آماله الواسعة فى بلاد الشام وفى أنطاكية بصفة خاصة التى تبتغى بيزنطة

---

(59) Runciman : Op. Cit., P. 170 .

(60) The Alexiad. P. 329.

(61) Ostrogorsky: op.cit. p. 322.

استردادها[٦٢]. فقد أدى ذلك اليمين كل من جود فرى أوف بوايون وأخيه بلدوين البولونى، وبوهيموند النورمانى وابن أخته تنكرد، وأعلن بوهيموند إخلاصه ونواياه الطيبة تجاه الامبراطور، وأدى يمين الولاء أيضا كل من روبرت أمير نورماندیا وستيفن أمير بلوا وشارتر[٦٣].

وما لبث الصليبيون أن عبروا إلى آسيا الصغرى ترافقهم فرقة من الجيش البيزنطى ومجموعة من الأدلاء والمرشدين، وسرعان ماحاصروا مدينة نيقية عاصمة السلاجقة وحين استسلمت المدينة، قاموا بتسليمها لممثلى الامبراطور ألكسيوس[٦٤]، وتقدم الصليبيون إلى داخل آسيا الصغرى، وكلما سقطت فى أيديهم مدينة بادروا بتسليمها لممثلى الإمبراطور، غير أنه ما لبثت أطماعهم أن أخذت فى الظهور، فكلما قاربوا بلاد الشام تكشفت اتجاهات الحملة الصليبية وأطماع قادتها التى بدت تتعارض مع مصالح الامبراطورية البيزنطية، فعندما استولى الصليبيون على مدينة طرسوس رفضوا تسليمها لممثلى الامبراطور غير حافلين بما قطعوه على أنفسهم من عهود ووعود، وأخذت مصالحهم الخاصة تبرز فى هذا الدور بروزا ملحوظا[٦٥]. وتكشفت مطامع الصليبيين الحقيقية عند مدينة أنطاكية ودب الخلاف بينهم وبين البيزنطيين، وعلى أثره انسحبت الفرقة البيزنطية تاركة الصليبيين يعملون منفردين، على حين أخذ الخلاف يستشرى بينهم أنفسهم[٦٦]، وتعلل بوهيموند النورمانى

---

(62) Ibid. P. 322.

Grousset : Hist. des croisades, I. PP. 25-6, Runciman : Op. Cit., I P. 163 .

(63) Ostrogorsky: op.cit. p. 322.

(64) Bréhier : Vie et mort de Byzance, P. 312

(65) Ostrogorsky: op.cit. p. 323.

(66) The Alexiad. P. 352.

بعدم مبادرة الامبراطور ألكسيوس بنجدة الصليبيين فى أنطاكية حين تعرضوا لمحاصرة الجيوش الإسلامية، واشتدت وطأة الحصار عليهم، حتى كادوا يهلكون داخل المدينة، لولا الحرب اليائسة التى خاضوها ضد المسلمين، والتى كانت بداية انتصاراتهم فى بلاد الشام، أقول أن بوهيموند النورمانى صاحب الأطماع الواسعة فى أنطاكية بالذات تعلل بتقاعس الامبراطور عن نجدتهم، وعارض تسليم المدينة لبيزنطة، على الرغم من ظهور اتجاه المعارضة ضده، وتطلع ريموند للفوز بالمدينة(٦٧). بل إن بوهيموند لم يكتف بحيازة المدينة بل أشاع أن البيزنطيين قد خانوا الصليبيين واقترح على البابا غزو القسطنطينية ذاتها(٦٨). وعلى الرغم من أن الامبراطور أرسل إلى الصليبيين يعلمهم أنه قادم على رأس قواته لمساعدتهم فى الاستيلاء على بيت المقدس بشرط أن يسلموا له مدينة أنطاكية التى كانت تعتبر هامة بالنسبة للبيزنطيين، والتى كانت داخله فى حوزة ملكهم إلى وقت قريب، لكن الصليبيين فى الواقع لم يحفلوا بذلك، ومضوا فى طريقهم دون أن يعيروا الامبراطور أى اهتمام(٦٩).

والواقع أن الصليبيين لم يكونوا فى هذا الدور بحاجة ماسة إلى خدمات الامبراطور ألكسيوس، فقد نظروا إلى مصالحهم الذاتية ولم يعودوا راغبين فى القيام بدور مخلب القط كيما يعيدوا إلى الامبراطورية أملاكها، بل كثرت الانتقادات الموجهة للامبراطور وسياسته تجاههم، واختلفت الآراء بين مؤيد ومعارض لمسلك الصليبيين تجاه الامبراطور(٧٠)، ولكن الأمر الذى يؤكد عدم

---

(67) Grousset : Hist. des croisades, I. PP. 108 - 116.

(٦٨) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢١٢،

Hussey: op.cit. p.54.

(69) Ostrogorsky: op.cit. p. 323.

(70) Camb . Med. Hist. V.4, pp. 294 - 5.

اهتمام الصليبيين حينئذ بالامبراطور أن الأحوال قد أخذت إلى حد كبير تتحول فى صالحهم والأمور تستتب لهم فى بلاد الشام وأطراف العراق، بعد أن نجح بلدوين البولونى فى تأسيس أول إمارة لاتينية فى الرها فى أقصى شمال العراق، وبعد أن أرسى بوهيموند النورمانى دعائم إمارته فى أنطاكية، وأخذت الجيوش الصليبية تستعد للزحف إلى بيت المقدس(٧١).

ومن الغريب أن الرجل الذى رفض فى البداية أن يؤدى يمين الولاء والإخلاص للإمبراطور ألكسيوس بالصورة التى كان يبتغيها الامبراطور، والذى كان يطمع فى زعامة الصليبيين والوقوف فى وجه بوهيموند بصفة خاصة، وهو الأمير ريموند دى سانت جيل (الصنجيلى) كونت تولوز ومركيز بروڤانس، هو الشخص الوحيد الذى أخذ يدافع عن الامبراطور ومصالح الامبراطورية ويدعو إلى التمسك بما قطعه الصليبيون على أنفسهم للامبراطور من وعود. ويبدو أن سبب ذلك لم يكن إلا لأنه خرج صفر اليدين من أنطاكية، بعد أن فاز بها بوهيموند، ولم ينل فى البداية ماناله غيره من القادة، مع طموحه ورغبته فى تكوين إمارة خاصة به(٧٢)، كما يبدو أن ريموند أمل بدفاعه عن مصالح الامبراطورية فى أن ينال بمساعدة الامبراطور مالم ينله فى ظل دفاعه عن مصالح الصليبيين، فقد اعتبر رد أنطاكية إلى الامبراطور البيزنطى وخروجها من أيدى الصليبيين أحسن من أن يفوز بها بوهيموند، غريمه ومنافسه العتيد، ولهذا أظهر ريموند امتعاضا لدخول المدينة فى حوزة بوهيموند، وظل يعارض ذلك حتى بعد أن شرع فى تأسيس إمارة لنفسه(٧٣).

---

(71) Runciman : Op. Cit., P. 250.

(٧٢) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢١٨،

Grousset : Hist. des croisades, I. P . 116.

(٧٣) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ٢١٨، Runciman : Op. Cit., P. 258

غير أن الامبراطور ألكسيوس كومنين امتعض كثيرا لنقض الصليبيين عهودهم وعدم التزامهم بما قطعوه على أنفسهم من وعود، ولكنه لم يكن فى وضع يسمح له بالزحف إلى بلاد الشام لمحاسبة الصليبيين وردهم إلى الصواب، وبدأت مرحلة قلقة فى العلاقات بين الجانبين، وأخذت الخلافات تطفو إلى السطح من جديد وعلى رأسها الخلاف المذهبى بين اللاتين الكاثوليك والبيزنطيين الأرثوذكس، وهى التى طوتها قبل ذلك فترة من التعاون بين الجانبين وحجبها حرص الطرفين على تحقيق الأهداف المرجوة من الحملة الصليبية(٧٤). وبينما الشكوك تتعاظم بين الطرفين وسوء الطوية يظهر، وصلت إلى القسطنطينية حملة صليبية جديدة سنة ١١٠٠م، بعد أن اجتازت أراضى الدولة البيزنطية محدثة كثيرا من الخراب والدمار فيما مرت به من مدن وقرى(٧٥)، وحاول ألكسيوس كومنين أن يتبع مع زعماء هذه الحملة الجديدة نفس الأسلوب الذى اتبعه مع زعماء الحملة الأولى، وأن يحصل منهم على يمين الولاء والإخلاص، مقابل مدهم بالمؤن والعتاد وإرشادهم إلى بلاد الشام عبر آسيا الصغرى، إلا أن زعماء هذه الحملة رفضوا الانصياع لطلبات الامبراطور، ولم يحفلوا كثيرا بما أبداه من مساعدة لهم، بل بادروا بالخروج إلى آسيا الصغرى غير مكترثين بالسلاجقة بعد أن شاع فى الغرب الأوربى وبولغ فى حجم الانتصارات التى أحرزها الصليبيون فى الحملة الأولى على السلاجقة(٧٦). وحينما اخترقت الحملة الجديدة أراضى تابعة للسلاجقة تعرضت لهجوم شديد أدى إلى كارثة بالنسبة لهذه الحملة الجديدة ولم ينج من جندها إلا القليل؛ وعلى أثر ذلك ازدادت الكراهية للإمبراطور

(74) Grousset :Op. Vit., I. P . 114.

(75) Runciman : Op. Cit.II, PP 18 - 19 .

(76) Grousset :Op. Cit., I. PP . 324 - 5.

والبيزنطيين لدى الصليبيين وشاع بينهم أن الإمبراطور هو الذى دبر هذه المأساة للصليبيين، أو على الأقل لم يحاول أن يتداركها أو يظهر حرصا على تجنب هذه الكارثة، وأخذت العلاقات تزداد سوءا وتشكك الصليبيون منذئذ فى نوايا ألكسيوس، وأخذت العلاقات تتدهور تدهورا كبيرا بين الجانبين(٧٧).

والحقيقة أنه لم تكن الامبراطور يد فيما نزل بتلك الحملة من كوارث، بل على عكس ذلك، لو أخذ صليبيو تلك الحملة بمشورة الإمبراطور، وتجنبوا الأراضى التابعة للسلاجقة وسلكوا ما أشار به الامبراطور عليهم من طرق لربما تجنبوا ذلك المصير المؤلم، ولربما وصلوا إلى إخوانهم فى بلاد الشام سالمين(٧٨). وليس هناك شك فى أن سلاجقة الروم كانوا قد أفاقوا من ذهولهم بعد الحملة الصليبية الأولى، وما أحدثته لهم من متاعب وتأكدوا أن الخطر الصليبى أكبر مما توقعوا، وينبغى مجابهته بشئ من الاستعداد وحسن التخطيط كما أيقنوا أنها حروباً حاسمة إما الفناء وإما البقاء، ومن ثم أخذت حروبهم تزداد شراسة منذ ذلك الوقت(٧٩)، وصادفت حملة سنة ١١٠٠م قمة الغليان السلجوقى فى آسيا الصغرى، وذروة الرغبة فى الأخذ بالثأر من الجيوش الصليبية، ولهذا انتهت تلك الحملة إلى ما انتهت إليه من مصير(٨٠)، ولم يكن للبيزنطيين يد فى ذلك، على الرغم مما ثار حولهم من أقاويل لم تكن ترقى إلى الحسم أو القطع، وإنما هى ردود أفعال ومجرد إشاعات لم يكن لها ما يؤكدها أو يقطع بها.

وعلى أثر ازدياد الهوة بين ألكسيوس والصليبيين، واتساع الفرقة بين الجانبين وجد ألكسيوس نفسه مضطرا إلى إعلان عدائه للصليبيين وإظهار

---

(77) Runciman : Op. Cit.II, P. 29 .

(78) Grousset :Op. Cit. I. P . 325.

(79) Ostrogorsky: op.cit. p. 325.

(80) Runciman : Op. Cit. II, P. 29 .

متعاضه من مسلكهم، تجاهه وما أثاروه من اتهامات سرت فى الغرب الأوربى ووجدت من يتقبلها ويصدقها(٨١)، وكان أن بعث الامبراطور بجيوشه وأساطيله للاستيلاء على المدن التى حازها الصليبيون والتى رفضوا إعادتها إلى بيزنطة بحكم أنها كانت من أملاكها، وتنفيذا لما سبق الاتفاق عليه بينه وبين قادة الحملة الصليبية الأولى، ولم تلبث الجيوش البيزنطية أن استولت على أدنه وطرسوس وبعض المدن والقلاع التى أدخلها النورمان ضمن إمارتهم فى أنطاكية واعتبروها فى نطاق هذه الإمارة فى شمال الشام(٨٢). ولم يجد بوهيموند النورمانى بدأ من الإسراع بالعودة إلى أوربا لاستثارة حماسة الغرب الأوربى والدعوة لحملة صليبية جديدة لمحاربة الامبراطور البيزنطى، وليس محاربة المسلمين فى الشرق(٨٣).

ومن الغريب حقا أن يعود بوهيموند النورمانى على رأس جيش كبير لمحاربة الامبراطورية البيزنطية فى البلقان، وذلك فى سنة ١١٠٧م معيدا بذلك إلى الأذهان أحداث الحرب بين النورمان والبيزنطيين سنة ١٠٨١م، غير أن البيزنطيين كانوا فى وضع يسمح لهم بمجابهة النورمان والتصدى لأطماعهم، إذ كان من السهل على الامبراطور ألكسيوس فى هذه المرة أن يعرى أهداف بوهيموند عن ردائها الزائف وأن يكف عن أطماعه(٨٤)، بل ويتصدى له

---

(81) Grousset :Op. Cit. I. P . 47.

(82) Ostrogorsky: op.cit. p. 325.

(83) Hussey: op.cit. p.54.

Ostrogorsky: op.cit. p. 324.

حسين ربيع : المرجع السابق ص ٢١٢.

(٨٤) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٢١.

Hussey: op.cit. p.54.

بالقوة المسلحة بعد أن ألبس هذا الصراع ثوبا آخر غير ثياب الحرب الدينية وخرج عن نطاق ذلك إلى نزاع بين البيزنطيين والنورمان، أو بمعنى أدق حلقة جديدة فى الصراع القديم بين البيزنطيين والنورمان منذ عهد روبرت جويسكارد، ونجح الإمبراطور ألكسيوس فى إفساد خطة بوهيموند فى إثارة الغرب الأوربى ضد الامبراطورية البيزنطية(٨٥)، بل استطاع أن يلحق به هزيمة عند دورازو سنة ١١٠٨م، وأرغمه على قبول صلح مهين أقر فيه بسيادة بيزنطة على أنطاكية، ووعد بأن يصبح فصلا للامبراطور البيزنطى وتعهد كذلك بإعادة الأراضى التى كانت تابعة لبيزنطة، وحلت هذه المعاهدة محل يمين الولاء الذى أقسمه بوهيموند من قبل سنة ١٠٩٧(٨٦).

وهكذا قبل بوهيموند مصالحة بيزنطة وأقر بالتبعية لها تبعية مطلقة على أن يتسلم أنطاكية كإقطاع من الامبراطور، وذلك فى معاهدة جديدة عقدت بين الامبراطور وبين بوهيموند جاءت نصرا لسياسة الامبراطور الخارجية، ولو أنه كان نصرا زائفا لأن تلك التبعية لم تكن فى يوم تبعية حقيقية فلم يحافظ النورمان يوما على وعودهم، وكثيرا ما نكثوا العهد ولم يحكمهم فى علاقاتهم مع بيزنطة سوى مصالحهم الخاصة(٨٧). ولعل أكبر دليل على ذلك أنه بمجرد وفاة بوهيموند وانتقال الإمارة إلى ابن أخته تنكرد رفض هذا تنفيذ شروط الاتفاقية مع الامبراطور أو الالتزام بحدود التبعية التى أقر بها بوهيموند من قبل، فى الوقت الذى لم تسمح الظروف لألكسيوس أن يتخذ طريقه إلى أنطاكية لتأديب أميرها النورمانى الطارح لطاعة بيزنطة، على الرغم من أن أنطاكية كانت الشغل الشاغل للامبراطور طوال الفترة السابقة(٨٨). وظلت هذه المشكلة قائمة على عهد من خلف ألكسيوس فى الحكم من بيت

(85) Grousset :Op. Cit. I. P . 418.

(٨٦) حسنين ربيع : المرجع السابق ص٢١٣.

(87) Runciman : Op. Cit. II. P. 51 .

[illegible] من أواخر القرن الثاني عشر الميلادي.

وإذا حاولنا تقييم [illegible] الكسيوس تجاه الصليبيين، وحكمنا عليها بعد ا[illegible] النجاح أو الفشل، جاز لنا القول إنه على الرغم من أن الامبراطورية لم تستطع أن [illegible] الرخاء السياسي والاستقلال الأمثل أو الاستقلال الذي كانت [illegible] أو أن [illegible] في الاستحواذ على أنطاكية بالمدن التي كانت تمثل [illegible] [illegible] من أملاك بيزنطة في شمال الشام[٨٩]، إلا أن المحصلة ترجع للامبراطور الكسيوس في اتباع سياسة ممتازة تجاه الصليبيين حفظت لهذا الامبراطور دولته من أطماع قادة لم يكن منهم شخصا يثق في بعضهم، أو يضمن [illegible] أو [illegible] [illegible]، كما أن الفضل لهذا الامبراطور في استغلال ذلك الزحف الصليبي، وبأقل التكاليف في تقليم أظفار سلاجقة الروم واسترداد كثير مما كانوا قد سلبوه من بيزنطة في آسيا الصغرى[٩٠]. ولسنا نشك في أنه لولا [illegible] الحملة الصليبية الأولى وما أحدثته من آثار على دولة سلاجقة الروم بآسيا الصغرى [illegible] من العسكرية بمكان التي [illegible] الأملاك البيزنطية القريبة من [illegible] السلاجقة، إن لم تكن القسطنطينية نفسها، فالفضل لهذا الامبراطور في اتباع سياسة على جانب كبير من الدهاء جنبته أولا الأخطار المترتبة على زحف الصليبيين إلى أسوار عاصمته من ناحية، ومكنته من ناحية أخرى من استرداد بعض أملاكه في آسيا الصغرى، والتطلع إلى بسط نفوذه في أنطاكية نفسها في شمال الشام[٩١].

وليس أدل على ذلك من أن الامبراطور ألكسيوس الذي أسهم كثيرا عن

(٨٩) [illegible] تجارب الأمم ج ٢ ص ٢٥٢
[illegible] . تاريخ ص ١٣٣ - ١٤٣
ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٥٦٦ - ٥٦٧.

(90) Bréhier Op. Cit. P. 312

(91) The Alexiad P. 323

الدخول فى معارك عسكرية كبيرة مع السلاجقة بآسيا الصغرى عاد بعد الحملة الصليبية الأولى ليجنى ثمار ما أحدثته تلك الحملة من شرخ عميق فى دولة السلاجقة، وبدأ اعتبارا من سنة ١١١٤م حتى نهاية حكمه فى القيام بحملات ضد أولئك السلاجقة وشن الحروب ضدهم، منتهزا فرصة الاضطراب الذى ألم بهذه الدولة على أثر تقدم الصليبيين ومجبرا أولئك السلاجقة من جديد على الالتزام بسياسة الدفاع[٩٢]. كما أنه لايخالجنا شك فى أنه لولا تقدم الصليبيين فى بلاد الشرق الأدنى، واتجاه كافة القوى الإسلامية لمحاربتهم أوصد تيارهم أو محاولة اقتلاع إماراتهم لتفرغ المسلمون - كما كانت الحال من قبل - لحرب بيزنطة وشن الحروب الضارية عليها[٩٣]، وحيث أن تلك الامبراطورية كانت تعانى آلام الموت البطئ، منذ النصف الثانى للقرن الحادى عشر الأمر الذى أنذر بشر مستطير بالنسبة لها وكان يمكن أن ينتهى إلى زوالها، فقد تسبب الصليبيون بطريق غير مباشر فى جذب انتباه المسلمين وتوجيه قوتهم إلى الكيان الصليبى نائين بذلك عن بيزنطة مقدمين فرصة جديدة لاستمرارها فى الوجود ولفترة أخرى، بعد أن أشرفت على التداعى، وحول انتباه المسلمين بعيدا عن حلمهم القديم وهو فتح القسطنطينية، وخفف ضغطهم عليها وأعطاها فسحة من الوقت لالتقاط الأنفاس[٩٤].

هذا وعلى الرغم من أن الامبراطور ألكسيوس قد صرف جانبا عظيما من جهوده للتعامل مع الصليبيين ومع السلاجقة بآسيا الصغرى، والتصدى قبل ذلك للنورمان، إلا أنه حاول أيضا أن يدلى بدلوه فى الصراع القائم فى الغرب

---

(92) Ibid. P. 372.

(٩٣) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٢٢.

(٩٤) سيد الناصرى : الروم ص ٤٠٢.

بين البابوية والامبراطورية[٩٥]، ربما لمحاولة إحياء النفوذ البيزنطى فى إيطاليا، وكان أن أرسل الامبراطور ألكسيوس إلى البابا يعرض عليه تعهده بإزالة الخلاف الدينى بين كنيستى القسطنطينية وروما، وهو الخلاف الذى أدى إلى القطيعة بينهما قرب منتصف القرن الحادى عشر سنة ١٠٥٤م[٩٦] ، وأن تمد البابوية سلطانها الروحى على العالم المسيحى غربا وشرقا مقابل أن توافق البابوية على أن يصبح الامبراطور ألكسيوس امبراطورا عالميا على الشرق والغرب جميعا، لتبعث الامبراطورية الرومانية القديمة من جديد، وفى ذلك إغراء للبابوية التى جدت فى مناهضة إمبراطور الغرب[٩٧]. وعلى الرغم من بريق هذه الدعوة، ومن أنها ربما حازت القبول لدى البابا الذى كان يهمه إنهاء القطيعة بين كنيسة بيزنطة وكنيسة روما، واستعادة الزعامة الروحية فى العالم المسيحى شرقا وغربا، إلا أن هذه الفكرة لم تخرج إلى حيز التنفيذ، وظل بيت كومنين يتطلع إلى تحقيق هذا الأمل فى الوقت الذى لم تساعد أوضاع العالم حينئذ على تقبل هذا الأمر، لاسيما وأن بيزنطة برغم إفاقتها المؤقتة لم تكن من القوة بمكان ولم تكن فى وضع يمكن لها أن تتزعم العالم المسيحى من خلاله فى ذلك الوقت [٩٨].

وفى ميدان الإصلاح الداخلى بذل ألكسيوس جهودا صادقة لإصلاح أحوال الامبراطورية فى الداخل، إذ قضى على الفتن الداخلية وأصلح الإدارة الحكومية، كما أصلح الجهاز المالى والإدارى، وأشرف على ممتلكات الكنيسة وأوقافها بهدف استغلالها على الوجه الأكمل، والاستفادة من أموالها فى

(95) Ostrogorsky: op.cit. pp. 320 - 1.

(96) Vasiliev : Op. Cit., P. 339.

(97) Camb. Med. Hist. V.5 , p. 63, p. 69, p. 78.

(98) Ostrogorsky: op.cit. p. 333.

الانفاق على الجيش والأسطول، ودعم الفن والثقافة حتى تستمر حركة الإبداع والتفوق الحضارى للامبراطورية(٩٩). وأخيرا توفى ألكسيوس سنة ١١١٨م، بعد أن أدى خدمات جليلة للامبراطورية، وأعاد إليها جانبا لابأس من هيبتها، وترك العرش لمن أتى بعده من أباطرة هذه الأسرة ممهدا قويا، ولعل الظروف قد أصبحت أكثر ملاءمة لأبناء هذا البيت بعد ألكسيوس لتحقيق استمرار هذه الإفاقة ووضع بيزنطة على طريق القوة والمنعة وانجاز جانب كبير من أهدافها فى الشرق وفى الغرب على حد سواء(١٠٠).

حنا الثانى كومنين (١١١٨ - ١١٤٣م):

كان ألكسيوس كومنين قد نجح فى إرساء دعائم دولته والتمهيد لأبنائه وورثته لاعتلاء عرش الامبراطورية فى يسر، ولهذا فقد اعتلى العرش بعد وفاته ابنه حنا الثانى كومنين دون مصاعب وساعده على ذلك ما اشتهر به من صفات طيبة وما تمتع به من سجايا أهلته للقيام بدوره فى تسيير دفة الحكم بنجاح، بل إنه كان واحداً من أكفأ أباطرة الروم، كما كان مثابرا وسياسيا قديرا بعيد النظر(١٠١)، والحقيقة أن حنا كومنين كان من أبرز الأباطرة الذين تولوا عرش الإمبراطورية على مدى تاريخها الطويل، وكان من أعظم الشخصيات التى حكمت بيزنطة على امتداد تاريخها الطويل. فقد اشتهر بذكائه وفطنته وبسمو أخلاقه وتعدد مواهبه، ولما عرف عنه من الطيبة ودماثة الخلق اشتهر بين معاصريه بحنا الطيب(١٠٢)، وبالإضافة إلى ذلك كان جريئا شجاعا مقداما لم يتوان عن قيادة جيوشه لتحقيق أهداف الامبراطورية وإعلاء

---

(٩٩) سيد الناصرى : نفسه ص ٣٩٤.

(100) The Alexiad. PP. 73 -103, Ostrogorsky: op.cit. p. 334.

(١٠١) سيد الناصرى : نفسه ص ٤٠٣

(102) E. R. A. Sewter : Introdction of the Alexiad, P. 13.

شأنها في الداخل والخارج، ومحاولة استعادة أملاكها المفقودة(١٠٣).

وعلى الرغم من كل ذلك فلم يسلم هذا الامبراطور الطيب من المؤامرات والدسائس في بداية عهده، والتي تهدف إلى الفوز بالسلطة والوصول إلى العرش الامبراطوري، والغريب أن من قام بهذه المؤامرات لم يخرج عن أفراد أسرته، بل عن أخته آنا كومنينا التي اشتهرت بأنها كاتبة سيرة والدها ألكسيوس كومنين والتأريخ لعهده في كتابها الألكسياد(١٠٤). إذ يبدو أن هذه السيدة التي كانت متزوجة من أحد أمراء البيزنطيين كانت تطمع في أن تلي العرش الامبراطوري هي وزوجها، وكانت آمالها واسعة في أن تخلف والدها ألكسيوس، كما يبدو أن والدها كان قد أعطاها بعض الاهتمام في حياته وخصها بجانب كبير من عطفه(١٠٥)، الأمر الذي جعلها تعتقد أنها أولى بعرش هذا الوالد الذي فضلها في حياته عن أخيها وخصها برعايته وكريم عطفه، بل إن حنا نفسه توجس خيفة من طموح هذه الأخت في الفترة الأخيرة من حياة والده، وسرعان ما تكشف له صدق ظنونه حين أخذت هذه الأخت تتآمر مع زوجها للإطاحة بحنا والفوز بالعرش، وذلك في السنة التالية لولاية حنا (١١١٩م)(١٠٦)، بل إن الرغبة التي استبدت بهذه السيدة في سبيل الوصول إلى العرش جعلتها تخطط للتخلص من أخيها بالقتل والفوز بالسلطة، أي ارتكاب أبشع جريمة يمكن أن يرتكبها إنسان في حق أخيه(١٠٧).

---

(103) Ostrogorsky: op.cit. p. 335.

(104) Sewter : Op. Cit. P. 13,

(١٠٥) رنسمان : الحضارة البيزنطية ص ١٥٣، ص ٢٨٥.

(106) Sewter : Op. Cit. P. 13,

سيد الناصرى : نفسه ص ٤٠٣

(107) Sewter : Op. Cit. P. 13,

ومن الغريب أن الشخص الذى أطلع حنا كومنين على تفاصيل تلك المؤامرة الدنيئة كان زوج تلك السيدة، التى خططت آنا للوصول معه إلى العرش. وكان حنا كومنين رحيما بالمتآمرين، فلم يشأ أن ينكل بهم كما هى عادة الأباطرة فى مثل هذه الأحوال، بل أظهر جانبا كبيرا من التسامح والرحمة، واكتفى بالقبض عليهم ومصادرة أملاكهم، ورفض فى نفس الوقت أن يدخل أخته أحد الأديرة لتقضى بقية عمرها، بل تركها وشأنها، فاختارت طائعة الأنزواء عن الحياة العامة[١٠٨]، بعد أن فشلت فى تحقيق مطامعها وتلطخت سمعتها واسودت صفحتها، فابتعدت عن الناس وآثرت أن تفرغ كل هواجسها فى الكتاب الذى ألفته فى هذه الفترة من حياتها عن سيرة والدها ألكسيوس كومنين، وهو الكتاب الذى عرف باسم الألكسياد - كما سبق أن أشرنا - والذى عد مصدرا هاما من المصادر البيزنطية التى أطلعتنا على جانب كبير من حياة ألكسيوس، وفترة حكمه فى بيزنطة[١٠٩] من شاهدة عيان بل من شخصية لها من القرابة والنفوذ مايجعلها وثيقة الصلة بالأحداث قريبة منها، ويجعل لكتابها أهمية عظيمة بالنسبة لتلك المرحلة الهامة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت آنا كومنينا كما أشار المؤرخون من «أبرز النماذج بين المؤرخين البيزنطيين»[١١٠].

واتبع حنا كومنين أيضا سياسه معتدلة فى تعامله مع معاونيه والقائمين على خدمته، واشتهر بذكاء وفطنة، فى اختيار الرجال الذين يعاونونه فى تسيير دفة الحكم، فاكتظ بلاطه بالمستشارين والنصحاء وأرباب الخبرة والمحنكين من

---

(108) Ibid. P. 13.

(109) The Alexiad. PP. 73 - 103.

(110) Baynes and Moss : Byzantium, P. 232.

السياسيين والإداريين الذين أخلصوا له المشورة والنصيحة(١١١)، وقدموا له خدمات جليلة لحسن سيرته فيهم وطيبته وعدله فيهم فنظموا شئون الدولة بتفان وإخلاص(١١٢)، فأتاح له ذلك التفرغ للعناية بجيش الامبراطورية وفرقها العسكرية، فاهتم كثيرا بإعداد جيوشه والإشراف على تدريبها وتجهيزها بالسلاح، فبدأت الدولة تقوى عسكريا واستعادت القوات البيزنطية جانبا كبيرا من هيبتها لتواجه مشاكل الإمبراطورية الخارجية(١١٣).

وكان من الطبيعي أن تكون سياسة حنا كومنين الخارجية امتدادا للسياسة التى بدأها والده ألكسيوس، ومن الطبيعى أيضا أن يسير حنا فى معالجة مشاكل الامبراطورية الخارجية على نفس النهج الذى سار عليه والده من قبل فى معالجتها، وأن يستوحى الحلول لمجابهتها من واقع تجربة والده، ذلك لأن ألكسيوس كان بحق عظيما فى سياسته الخارجية التى جنبت الامبراطورية كثيرا من الكوارث على رأسها التعامل مع الجيوش الصليبية الجرارة التى زحفت نحو الشرق، ولم يكن يهمها كثيراً أن تحارب المسلمين وحدهم بل والبيزنطيين أيضا لتحقق أهدافها ولو على حساب بيزنطة وحساب امبراطورها ألكسيوس(١١٤). وحينما أخذت العلاقات بين البيزنطيين والصليبيين تزداد سوءاً، كان رد الفعل عند ألكسيوس طبيعيا واقعيا يضع مصالح الدولة فى مكانها الصحيح، بصرف النظر عما يمكن أن يؤدى إليه ذلك من صراع مع الصليبيين، كما أنه فى تصديه للسلاجقة كان أكثر حكمة، ولم يشأ أن يصعد الصراع بالشكل الذى يمكن أن يحدث كارثة فى بيزنطة، وإنما كان

---

(١١١) سيد الناصرى : الروم ص ٤٠٣

(112) Ostrogorsky: op.cit. p. 335.

(113) Ibid. P. 335.

(114) The Alexiad. P. 329 .

تصرفه رد فعل لما كان يقوم به السلاجقة بعد إفاقتهم منذ مستهل القرن الثانى عشر(١١٥).

وليس من شك فى أن حنا كومنين قد دلل على فهمه العميق لأبعاد السياسة الخارجية التى سلكها والده ألكسيوس والتزم بالسير على نهجها، واضعاً نصب عينيه مصالح الامبراطورية وتحقيق أهدافها، كما أن خلفاء حنا أيضا التزموا بمثل ذلك فى تعاملهم مع القوى المحيطة سواء فى الجانب الإسلامى أو الجانب الصليبى، أو غير ذلك من القوى، آخذين بعين الاعتبار الظروف التى استجدت والتغيرات التى حدثت فى مسرح الأحداث فى المنطقة بسبب تطور أوضاع الصليبيين بالشرق وتطور أوضاع السلاجقة من ناحية أخرى أيضا(١١٦).

وأولى مشاكل حنا كومنين الخارجية هى مشكلة أنطاكية، والمعروف أن ألكسيوس كومنين كان قد عقد اتفاقية مع بوهيموند سنة ١١٠٨م استعاد بها المدينة إلى حظيرة الامبراطورية البيزنطية، حين قبل بوهيموند أن يحصل على تلك المدينة كإقطاع من الامبراطورية(١١٧). حقيقة كانت تلك التبعية إسمية إلى حد بعيد، الأمر الذى جعل تنكرد لايحفل كثيرا بها ولايقيم وزنا كبيرا لتلك المعاهدة التى عقدها خاله بوهيموند، إلا أن ألكسيوس كان يتشبث بتلك الاتفاقية ويعتبرها أداة لتحقيق أهداف الامبراطورية وشرعية ملكيتها لهذه المدينة الهامة(١١٨)، ولقد جد حنا كومنين هو الآخر فى تأكيد سيادة بيزنطة على أنطاكية، وظل نحو ثمانية عشر عاما يفاوض خلفاء بوهيموند للوصول

(115) Browne : Op. Cit. P. 850.

(116) Ostrogorsky: op.cit. pp. 335 - 6.
Grousset :Op. Cit. II. P . 84.

(117) Runciman : Op. Cit. II, P. 51 .

(118) Ibid. P. 51.

إلى نتائج حاسمة ترضى بيزنطة من هذه الجهه، وتتمشى مع سياستها تجاه هذه المدينة، محاولا تجنب الحرب أو سفك الدماء، واضطر أمراء أنطاكية فعلا إلى الاعتراف بتبعيتهم لبيزنطة سنة ١١٣٧م، على أثر قيام حنا باتخاذ سياسة مرنة تجاه الإمارات اللاتينية الأخرى للوصول إلى أهدافه، بل إن جيوش الامبراطورية لم تتوان عن الزحف إلى شمال الشام فى مظاهرات عسكرية لإرغام المناوئين على الإقرار بالأمر الواقع وبأحقية الامبراطورية فى تلك المدينة بالذات(١١٩).

وارتبط بهذه المشكلة أيضا مشكلة سلاجقة الروم، الذين سيطروا على أجزاء كثيرة فى آسيا الصغرى، وهددوا طرق الامبراطورية إلى بلاد الشام وأنطاكية التى جدت بيزنطة فى استعادة السيادة عليها. وحيث أن السلاجقة كانوا يحيون إفاقة عظيمة منذ أوائل القرن الثانى عشر بحكم رغبتهم فى حماية دولتهم من خطر الصليبيين، فقد كان أمر الحرب معهم مسألة تنطوى على جانب كبير من الخطورة، لاسيما وقد تزايدت قوتهم وهددوا أملاك بيزنطة فى آسيا الصغرى(١٢٠)، وأصبحوا خطراً على شمال الشام ذاته والمناطق القريبة من أنطاكية. غير أن حنا كومنين لم يتهاون فى معالجة هذه المشكلة لحاجته الماسة لتأمين طريقه إلى أنطاكية وشمال الشام ومنذ سنة ١١٣٠م نجح حنا كومنين فى تأمين ذلك الطريق مستخدما كل ثقله فى ذلك، ونجح نجاحا جزئيا فى سياسته تجاه السلاجقة منتهزا فرصة الخلافات التى كانت تثور بين السلاجقة أنفسهم وبينهم وبين سلاجقة الشام أحيانا فى غيبة سلطان عظيم يمكن أن يوحد صفوف دويلات السلاجقة ويجمع شملها ويصلح من شأنها(١٢١). وإذا كانت مشكلة أنطاكية قد ادخلت حنا كومنين فى

---

(119) Ostrogorsky: op.cit. p. 336.

Bréhier : Vie et Mort de byzance, P. 324.

(120) Ostrogorsky: op.cit. p. 336.

(121) Bréhier : Vie et Mort de byzance, P. 323.

مفاوضات شاقة مع خلفاء بوهيموند، الأمر الذى ساعد على حلها لحاجة الإمارات اللاتينية فى بلاد الشام لمساعدة البيزنطيين، سيما وقد أخذت الجبهة الإسلامية المتحدة تتدعم بمحاولات عماد الدين زنكى السيطرة على شمال العراق وشمال الشام معا، والتصدى للخطر الصليبى فى المنطقة(١٢٢)، فإن مشكلة السلاجقة كانت دون شك أشد خطورة لتضارب مصالح هؤلاء مع مصالح بيزنطة التى أخذت تعمل منذ فترة على طردهم من الجهات التى اخلوها فى آسيا الصغرى، وراحوا يترقبون الفرصة لاستعادة سيطرتهم على الجهات التى نزل بها أولئك السلاجقة(١٢٣).

وبجانب مشكلة أنطاكية والسلاجقة، كان على حنا كومنين أن يواجه مشكلة البنادقة والبندقية، وأن يخوض صراعا مسلحا لتغيير أوضاع اقتصادية تهم بلاده. ذلك أن البنادقة كانوا يتمتعون ببعض الامتيازات التجارية الخاصة فى موانى الدولة البيزنطية، وكانت البندقية قد استغلت الحروب الصليبية لمد نفوذها إلى البلاد الشامية والساحل الشامى(١٢٤)، بعد أن عملت على نقل الجيوش الصليبية إلى الشرق ونقل المؤن والسلاح لهم ومساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانى الإسلامية أو حماية تلك الموانى التى سقطت فى أيدى الصليبيين من هجمات المسلمين والمساهمة فى رد المسلمين عنها، وحازت البندقية بذلك قوة عظيمة نظرا للامتيازات التجارية المتعاظمة التى حصلت عليها نظير كل ذلك، فتحولت فى القرن الثانى عشر إلى أكبر قوة بحرية تجارية فى شرق البحر المتوسط(١٢٥).

---

(122) Ibid. P. 324.

(123) Grousset :Op. Cit. II. P . 85.

(124) Runciman : Op. Cit. II. P. 294 .

Heyd : Hist. de Commerce, I, PP. 148 - 51.

Grousset :Op .Cit. II, P . 803.

(125) Heyd ; Op. cit., I, PP. 149 - 51.

وكان ألكسيوس كومنين قد اضطر فى مرحلة من مراحل صراعه مع النورمان إلى منح البندقية بعض الامتيازات التجارية فى موانى دولته، نظير المساعدة التى قدمتها البندقية للامبراطورية ضد النورمان، واشتراك أساطيل البندقية فى التصدى لمحاولات روبرت جويسكارد ضد سواحل الامبراطورية البيزنطية(١٢٦)، وكان من الطبيعى أن يحاول البنادقة تجديد الاتفاقات التجارية التى تمنح البنادقة الامتيازات التى تمتعوا بها على عهد ألكسيوس فى قلب المدن البيزنطية على الرغم أن مجرد الامتيازات التجارية التى حصلوا عليها على عهد ألكسيوس قد أنزلت بالغ الضرر بالتجار البيزنطيين وتعارضت مع مصالح بيزنطة وسياستها المالية والضريبة من ناحية أخرى(١٢٧). ولهذا فقد فكر حنا كومنين فى إعادة النظر فى الامتيازات الممنوحة لهذه الفئة من التجار بل إنه، ما لبث أن قرر عدم تجديد الاتفاقات التى منح بمقتضاها البنادقه تلك الامتيازات أي إلغاء المعاهدة التى عقدها ألكسيوس مع البنادقة(١٢٨)، وشجعه على ذلك ماحدث من تداعى الدولة النورمانية وقلة خطرها على دولته بعد أن أخذت تمر بفترة دقيقة فى تاريخها بما لايجعلها قادرة على القيام بأى عمل عدائى ضد بيزنطة ومصالح بيزنطة(١٢٩).

غير أن البندقية لم تكن لتغض الطرف، عما فعله حنا كومنين، وعن إلحاقه الضرر بمصالحها الاقتصادية، وهى المدينة التى حاربت وقاتلت لتضمن لنفسها تلك الامتيازات من قبل، ولهذا فقد لجأت إلى السلاح، وما لبثت أن بعثت بأسطولها الحربى إلى مدخل البحر الأدرياتى حيث استولى على جزيرة

(126) Ostrogorsky: op.cit. p. 317.

(127) Ibid. P. 325.

(١٢٨) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢١٥.

(129) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 335.

خيوس سنة ١١٢٢م، كما بدأ فى سلسلة إغارات شديدة على جزر رودس وساموس ولسبوس، الأمر الذى اضطر معه حنا كومنين إلى اللجوء إلى المفاوضات والموافقة على تجديد الاتفاقات المبرمة مع البندقية، والتى كان ألكسيوس قد عقدها معها سنة ١٠٨٢م، وضمن للبنادقة الامتيازات التى سبق منحها لهم فى موانى الامبراطورية البيزنطية وذلك سنة ١١٢٦م[١٣٠]، وإن منحت بيزنطة أيضا بعض الامتيازات التجارية المحدودة لبعض المدن الإيطالية الأخرى مثل بيزا وجنوة فى محاولة لضرب المدن الإيطالية بعضها ببعض، غير أن ما منحه حنا كومنين للبندقية لم يكن يقارن بما منح لغيرها[١٣١]. ويبدو أن حنا كومنين لم يكن أمامه سوى ذلك، بعد أن تحولت البندقية إلى قوة بحرية هائلة فى شرق البحر المتوسط وجابت أساطيلها البحرية جهات هذا البحر وفرضت هيبتها البحرية على القوى المجاورة، وأكبر دليل على ذلك الدور الذى لعبته البندقية فى مساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانى الشامية، وحماية ماسقط فى أيدى اللاتين[١٣٢].

وإذا لم يكن حنا كومنين قد وفق فى سياسته تجاه البندقية، واضطر للرضوخ أمام مصالح هذه المدينة، واضطر إلى التراجع عن موقفه، وأجبر على الدخول فى مفاوضات مع البنادقة انتهت سنة ١١٢٦م بتجديد اتفاقية سنة ١٠٨٢م[١٣٣]، فإن سياسته الحربية فى البلقان تجاه المجريين قد أصابها التوفيق، فترتبت على حملاته فى البلقان وحوض نهر الدانوب أن امتدت

---

(130) Ibid. P. 335.

(١٣١) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢١٥.

(132) Grousset : Op. Cit., II, P. 803. Runciman : Op. Cit., II, P. 249.

(١٣٣) سيد الناصرى : الروم ص ٤٠٥.

السيادة البيزنطية إلى جهات لم تكن تابعة لها من قبل[١٣٤]، ذلك أن المجريين سلكوا على عهد حنا كومنين سياسة حربية عدائية، أعادت إلى الأذهان الدور الذى لعبه البلغار من قبل، وتجرأ المجريون فتوغلوا فى البلقان حتى بلغوا مدينة صوفيا سنة ١١٢٨م، ولم يكن أمام حنا إلا أن يقوم بتأديب ذلك الشعب المشاغب، فقاد جيوشه فى البلقان، واستطاع أن يلحق الهزائم بالمجريين، حتى وصلت السلطة البيزنطية إلى أبعد ماوصلت إليه على عهد أسلافه فى حوض نهر الدانوب الأوسط[١٣٥].

أما عن سياسة حنا كومنين تجاه غرب أوروبا، فلقد عاد إلى استخدام أسلوب الدهاء للتفريق بين أعداء بلاده وضرب خصومة بعضهم بالبعض الآخر، وهى السياسة التى لجأ اليها سلفه الامبراطور ألكسيوس، فلقد واجه حنا كومنين العداء من قبل الدولة النورمانية فى إيطاليا، فضلا عما كان يكنه نورمان أنطاكية من العداء له ولو بطريقة غير ظاهرة[١٣٦]، فى الوقت الذى أخذ يزداد فيه اهتمام الامبراطورية الرومانية المقدسة فى الغرب بمسألة جنوب إيطاليا رغبة فى ضم هذا الجزء إلى أملاك الامبراطورية الغربية ومد نفوذ الأباطرة الغربيين فى تلك الجهات لتشمل إمبراطوريتهم ماكانت تشمله الامبراطورية الرومانية القديمة. وفى نفس الوقت ربطت علاقات الود والتحالف بين النورمان هناك وبين جمهورية بيزا الإيطالية، وكان على حنا كومنين أن يواجه كل هذه الاتجاهات فى السياسة المعقدة فى الغرب فى الوقت الذى تشابكت فيه مصالح هذه القوى ومصالح نورمان أنطاكية، الذين كان لابد

(134) Ostrogorsky: op.cit. p. 335.

(135) Hussey : Op. cit. P. 58.

Ostrogorsky: op.cit. p. 335.

(136) Bréhier : op. cit., P. 324.

لحنا كومنين أن يحصل منهم على اعتراف بالتبعية للإمبراطورية البيزنطية[١٣٧] .

بدأ حنا كومنين سياسته فى الغرب بأن أغرى لوثر إمبراطور الغرب بمساعدته ضد نورمان جنوب إيطاليا وصقلية، بعد أن بيت الملك روجر الثانى ملك صقلية النورمانى النية لإلحاق الضرر بمصالح الامبراطورية البيزنطية، كما نجح حنا كومنين فى إغراء لوثر بغزو جنوب إيطاليا بهدف شغل النورمان هناك وإضعاف دولتهم وإلهائهم عن التفرغ لمحاربة بيزنطة والعمل على مضايقتها وإلحاق الضرر بمصالحها[١٣٨] وليس من شك فى أن حنا كومنين قد أفاد من ذلك فتقدم بجيوشه نحو أنطاكية سنة ١١٣٧م - كماسبق أن أشرنا - حيث أجبر حكام تلك المدينة على الاعتراف بالتبعية للإمبراطورية منتهزا فرصة انشغال نورمان صقلية وجنوب ايطاليا بأمورهم عن مساعدة وتأييد نورمان أنطاكية فى ذلك الوقت فنجح حنا فى تحقيق أهدافه بهذه الوسيلة، القائمة على ضرب أعدائه بعضهم ببعض واستخدام الدبلوماسية والدهاء لتنفيذ أغراضه، كذلك أفلح كومنين فى ضرب التحالف الذى ربط بين النورمان وبين جمهورية بيزا الإيطالية مستهدفا فى حقيقة الأمر حل مشكلة أنطاكية التى اهتم بأمرها كثيرا ونجح فى ذلك إلى حد بعيد[١٣٩]

واضطر حنا كومنين لتجديد الحلف مع الإمبراطورية الغربية على عهد

---

(137) Ibid. P 324

(138) Ostrogorsky Op. Cit. P 337

(139) Bréhier op cit.. P 324

Ostrogorsky Op. Cit. P 337

إمبراطورها الجديد كونراد الثالث[١٤٠]، وقطع شوطا آخر فى مشكلة أنطاكية وخطا خطوة أخرى فى تأكيد أن أنطاكية وماحولها ليس إلا إقليما بيزنطيا، فضمن شروط الاتفاقية مع أمراء أنطاكية أنه يتعهد بمساعدتهم للاستيلاء على بعض المدن الكبيرة فى بلاد الشام من أيدى المسلمين، فإذا أسفر ذلك عن سقوط إحدى المدن الكبرى مثل حلب أو حمص أو حماة، وتصبح تلك المدن أو إحداها صالحة لإقامة إمارة صليبية، يحق للإمبراطور حينئذ أن يسترجع أنطاكية التى عدت إذن بيزنطية[١٤١]، أى أن الامبراطورية لم تسلم بوجود الصليبيين بها إلا لأنه ليس ثمة حل غير ذلك، فإذا تغيرت الظروف، وأصبح بإمكان الصليبيين الإنتقال إلى مدينة أخرى فلا يصح أن تظل أنطاكية فى أيدى الصليبيين، حتى لو اعترفت بالسيادة البيزنطية[١٤٢].

وهكذا دلل حنا كومنين على أنه يفرق بشدة بين ماهو صليبى وماينبغى أن يكون بيزنطيا، وتلك نظرة سبقه إليها والده ألكسيوس، فليس ثمة مصلحة تملى علية أن يغض الطرف عن المدينة التى تعترف بالسيادة البيزنطية، إذا كان فى مقدوره الفوز بها فعلا، وليذهب الصليبيون إلى أى مكان آخر[١٤٣]، فهذا شيء لايهم الإمبراطور من قريب أو بعيد. وكان حنا كومنين يخطط سنة ١١٤٢م للقيام بآخر فصل فى تاريخ تبعية أنطاكية للصليبيين، وإعادتها

---

(140) Hussey : Op. cit. P. 58.

ويلاحظ أن كونراد الثالث واجه بعض المشاكل فى الداخل مثلما صادف استخفافاً واستهانة من البابوية لضعفه وتردده. أنظر :

Camb . Med. Hist. V. 5. PP. 358 - 59.

(141) Grousset : Op. Cit. II, PP. 94 - 7

Runciman : Op. Cit. II, P. 313.

(142) Smail : Crusading Warfare, P. 33.

(143) Grousset : Op. Cit. II, P. 97.

بقضها وقضيضها للامبراطورية البيزنطية حين وافاه الأجل فى العام التالى (١١٤٣م) تاركا هذه المشكلة لخلفه لوضع حل لها يرضى به البيزنطيون ويقر به الامبراطور عينا[١٤٤].

مانويل الأول كومنين (١١٤٣-١١٨٠م)

اعتلى عرش الامبراطورية البيزنطية بعد حنا كومنين أصغر أبنائه، مانويل كومنين وهو – على حد قول المؤرخ نورمان بينز Baynes– شخصية تغرى الباحث بدراستها وتفهمها أكثر من أى شخصية أخرى فى هذه الأسرة؛ إذ كان شجاعا إلى حد التهور ولاهوتيا ماهرا، كما كان شديد العناية بمظهره واسع الكرم حريصا على الاستمتاع بالحياة آخذا بأطراف الأدب. وكان على الجملة مزاجا غريبا وجامعا بين صفات الفروسية الغربية وبين العقلية البيزنطية التقليدية، وربما كان آخر الحكام العظام الذين تربعوا على العرش الامبراطورى[١٤٥].

وعلى الرغم من أن العلاقات بين بيزنطة والدول اللاتينية والشعوب الغربية لم تكن من قبل تتسم بالمودة أو الصفاء، نظرا للاختلافات الحضارية واللغوية والمذهبية، ولما تأصل فى الغرب الأوربى من فكرة أن بيزنطة هى التى تفسد على الصليبيين حملاتهم فى الشرق وتقف حجر عثرة فى سبيل إنجازهم لمهامهم وتحقيق أهدافهم[١٤٦]، أقول على الرغم من ذلك إلا أن مانويل كومنين هذا كان شديد الإعجاب بالنظم والنماذج الغربية، التى أخذت بيزنطة تعرفها من خلال تجربة الحروب الصليبية ومرور الجيوش الصليبية

---

(144) Smail : op. cit. P. 33.

(145) Camb . Med. Hist. V. 4. PP. 372 - 8.

(146) Runciman : Op. Cit., II, P. 29.

بأراضيها فى طريقهم إلى الشرق، وأبدى مانويل كومنين رغبة جامحة فى تقليد تلك النماذج لاسيما الاقطاعية التى كانت قد سرت فى الكيان الأوربى فى الغرب فى ذلك الوقت، والتى حمل الصليبيون نظمها إلى إماراتهم فى الشرق عبر بيزنطة(١٤٧). كما كان شديد الولع بنظام الفروسية فى أوربا فى ذلك الوقت وعشق مبارزاتها، فأدخل هذا النظام فى بلاط القسطنطينية(١٤٨)، وأدى إعجاب مانويل كومنين بالنماذج الأوربية الى فتحه باب بيزنطة أمام أجناس الغرب اللاتينى فاستقدم منهم الكثيرين من مختلف الجنسيات من الفرنسيين والانجليز والايطاليين والنورمان واستخدم هؤلاء فى الوظائف الهامة فى دولته وأقام لجالياتهم ولجاليات الجمهوريات الايطالية التجارية الفنادق، واهتم كثيرا بالإنفتاح على تجارب الغرب اللاتينى. وهكذا وضع مانويل كومنين أمام دولته تجارب جديدة وافتتح حركة تهدف إلى تقليد النماذج الإقطاعية الأوربية(١٤٩)، فسرت فى عهده موجة تقليد للسلوك الأوربى بين شباب الروم من أبناء الطبقات الراقية(١٥٠).

وليس من شك فى أنه خلال عصر الحروب الصليبية - عادت بيزنطة - إلى الاتصال المباشر بالغرب الأوربى، فقد قاربت هذه الحروب بين عالمين عاجزين عن التفاهم بل ظلا كذلك فترة طويلة فكانت النتيجة النهائية أن زادت حدة الضغائن وأسباب الكراهية بينهما، وأطلعت أهل الغرب على مدى غنى الدولة البيزنطية، وعلى الميادين التجارية الفسيحة التى تضمها، فأثارت نيران الطمع والحقد فى نفوس أهل الغرب(١٥١)، فلما جاء مانويل

(147) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 337.

(١٤٨) سيد الناصرى : الروم ص ٤٠٩.

(149) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 337.

(١٥٠) الناصرى : نفسه ص ٤٠٩.

(151) Runciman : Op. Cit. I, P. 170.

كومنين وفتح باب بيزنطة على مصراعيه لكثير من أجناس الغرب، أسهم بذلك فى إثارة المطامع القديمة لديهم وأطلعهم فى نفس الوقت على كثير من أحوال دولته فجلب فى النهاية كارثة على بيزنطة، ان لم تحدث فى عهده فإنها لم تتأخر كثيرا بعد رحيله(١٥٢).

كانت أولى المشاكل التى واجهت الامبراطور مانويل – فى سياسته الخارجية – هى مشكلة أنطاكية، إذ يبدو أن أمراء هذه المدينة الصليبيين لم يقروا بالتبعية لبيزنطة إلا مرغمين، وكلما سنحت الفرصة أمامهم للتنصل من هذه التبعية لم يترددوا فى انتهازها، ولقد اضطر الامبراطور مانويل إلى استخدام القوة لإجبار أمراء أنطاكية على الخضوع، فعلى أثر حملة عسكرية بيزنطية عادت أنطاكية إلى حدود الطاعة والولاء سنة ١١٤٥م، ونجح مانويل كومنين فى وضع حد لعصيان تلك الإمارة، وإنهاء تلك المشكلة ولو مؤقتا(١٥٣).

أما عن موقف مانويل كومنين من سلاجقة الروم الذين مثلوا للامبراطورية مشكلة مستعصية على الحل، لاسيما وقد أفاقوا بعد الضربات التى تلقوها على أيدى الصليبيين فى الحملة الصليبية الأولى، وراحوا يسببون متاعب شديدة لبيزنطة فى آسيا الصغرى، بعد أن أقاموا لهم دولة عاصمتها قونية، فقد كان حظ هذا الامبراطور أحسن من سلفه فى سياسته تجاههم نظرا لانشغالهم عن دولته بالحروب الضارية التى استعرت بينهم وبين دولة تركمانية أخرى أسسها آل الدانشمند فى الشمال من شبه جزيرة آسيا الصغرى(١٥٤)، فاستنفدت الحروب مع هذه الدولة جانبا كبيرا من جهود وقوة سلاجقة الروم،

---

(152) Chalandon : Les Comnénes, II, PP. 200-6.

(153) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 338.

(154) Cahen : Turkish invasion, P. 164.

فبدأت ضرباتهم تخف تدريجيا عن بيزنطة، فضلا عما لجأ اليه مانويل كومنين من إذكاء نار الفرقة بينهم وبين أعدائهم – آل الدانشمند – وتوسيع هوة الخلاف بين الجانبين لشغل أعدائه من ناحية وإضعافهم جميعا من ناحية أخرى، ونجحت هذه السياسة أيما نجاح وترتب عليها قلة خطر السلاجقة على بيزنطة فى آسيا الصغرى[١٥٥].

أما بالنسبة لموقف مانويل كومنين من الحملة الصليبية – التى بدأت تتقدم من الغرب الأوربى سنة ١١٤٦م، فقد حكمته اعتبارات كثيرة، وترتبت على مسلك الجانبين خلال تلك الحملة، نتائج بالغة الأهمية، فليس هناك شك فى أن الحملة الصليبية تقدمت إلى الشرق وسط اتهامات كثيرة لبيزنطة بأنها تسعى دائما لوضع العراقيل فى وجه الصليبيين وإحداث الفشل لجهودهم، وفى غمرة هذه الاتهامات، وصل الشق الألمانى من الحملة الصليبية الثانية إلى أراضى الدولة البيزنطية[١٥٦]. فالمعروف أن تلك الحملة تشكلت من جيشين، قاد الجيش الفرنسى منهما الملك لويس السابع ملك فرنسا، وقاد الإمبراطور كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا الجيش الألمانى، وتقدم الامبراطور مانويل كومنين يعرض استعداده للسماح للصليبيين بعبور أراضى دولته وإمدادهم بالزاد والعتاد بشرط تعهدهم بالولاء له من ناحية وتسليمه مايستولون عليه من مواقع فى آسيا الصغرى من ناحية أخرى[١٥٧]. إلا أن ذلك أثار غضب إمبراطور ألمانيا وملك فرنسا، فلم يرض كل منهما أن يصبح تابعا من أتباع الامبراطور البيزنطى، ومن ثم فقد توترت العلاقات بين قادة هذه الحملة والامبراطور مانويل منذ البداية، وزاد من سوء الفهم إقدام الامبراطور البيزنطى على عقد

---

(١٥٥) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ٢٣١.

(156) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 339.

(157) Ibid. P. 339.

صلح مع سلطان قونية السلجوقى، مسعود بن قلج أرسلان، حين تخوف من نوايا الألمان[١٥٨].

ونظرا لهذا الجو المشحون بين البيزنطيين والألمان بادر الإمبراطور كونراد الثالث بعبور البسفور إلى آسيا الصغرى، ثم شرع فى الزحف شرقا فى آسيا الصغرى، ثم مالبث أن وصل إلى نيقية فى منتصف أكتوبر سنة ١١٤٧م، وبدلا من أن يتخذ الطريق الساحلى لجنوب آسيا الصغرى حتى يحتمى بالقلاع والمدن البيزنطية العديدة الواقعة على ذلك الشاطىء، اختار فى تسرع أن يشق طريقه فى جوف البلاد إلى قونية عبر أراضى السلاجقة للقضاء عليهم[١٥٩]، ومن سوء حظ الألمان ان اختلفوا مع دليلهم البيزنطى فتخلى هذا عنهم، مما عرضهم لأسوأ النتائج، فلم يكد الألمان يقتربون من إسكى شهر (قونية) حتى دهمهم السلاجقة فى ٢٦ اكتوبر سنة ١١٤٧م، فأعملوا فيهم السيف قتلا وأسرا ولم ينج كونراد الثالث نفسه إلا بصعوبة بالغة؛ إذ ارتد بفلول جيشه نحو نيقية وغنم السلاجقة متاعهم وعددهم وكثيرا من الغنائم، ووصل فى النهاية كونراد الثالث ومن بقى من جيشه إلى مدينة نيقية حيث التقى بالملك لويس السابع ملك فرنسا[١٦٠].

أما الفرنسيون فعلى الرغم من أنهم صدموا - عند وصولهم الى القسطنطينية - بنبأ عقد الامبراطور البيزنطى الصلح المنفرد مع سلطان السلاجقة واعتبروا ذلك خيانة فى حق الحركة الصليبية كلها وفى حق الحملة الثانية بصفة خاصة، كما أن العلاقات بينهم وبين البيزنطيين لم تكن

---

(158) Runciman : Op. Cit. I, P. 266.

(١٥٩) سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج٢ ص ٦٢٥.

(١٦٠) سعيد عاشور : نفسه ج ٢ ص ٦٢٥.

أحسن حالا من علاقات الألمان بالبيزنطيين حتى أن بيزنطة منعت عنهم المؤن والزاد بمجرد عبورهم البسفور إلى آسيا الصغرى[١٦١]، على الرغم من كل ذلك، إلا أن لويس السابع قبل أن يحلف الأمراء المشتركون معه فى الحملة يمين الولاء والتبعية للامبراطور البيزنطى ويتعهدون برد كل مايفتحونه من أراضى فى آسيا للامبراطورية، لأنه حتما أدرك أهمية محالفة بيزنطة والحفاظ ولو شكليا على علاقات الود معها ضمانا لتحقيق أهداف الحملة[١٦٢].

وعلى الرغم من أن الملك لويس السابع قد قرر أن يتخذ الطريق الساحلى بعيدا عن أراضى سلطنه سلاجقة الروم، ووصل فى طريقه إلى مدينة أنطاليا الواقعة على الشاطىء الجنوبى لآسيا الصغرى، وكانت تابعة لبيزنطة فى يناير سنة ١١٤٨م، حيث قرر أن يسلك طريق البحر إلى ميناء السويدية وأنطاكية، إلا أنه أخذ أيضا يلقى باللوم على البيزنطيين لعدم تعاونهم مع الحملة، لاسيما تقاعسها فى نقل جنود الحملة الفرنسية إلى أراضى الشام[١٦٣]، هذا فى الوقت الذى رافق فيه الامبراطور كونراد الثالث الحملة بفلول جيشه لبعض الوقت قبل أن يعود إلى القسطنطينية لاشتداد المرض عليه وإحساسه المتزايد بالمهانة والذلة بعد تعرضه للهزيمة وضياع معظم جيشه، ولم يكن أقل حنقا على البيزنطيين من زملائه الفرنسيين[١٦٤]. وليس من العدل – كما يقول أحد المؤرخين المحدثين – أن يتهم مانويل كومنين بأنه السبب فى فشل هذه الحملة الصليبية، لأن فشلها يرجع لأسباب كثيرة : منها افتقار الصليبيين للنظام وحسن التخطيط، فضلا عن حدوث نزاع بين قادتها واستمرار هذا

(161) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 339.
(162) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 339.
(163) Runciman : Op. Cit. II, PP. 272 - 3.
(164) Grousset : Op. Cit. II, P. 243.

النزاع، وعدم حصافة قادتها فى اختيار الطريق المأمون إلى بلاد الشام، بالإضافة إلى عدم اختيار الهدف الصحيح الذى توجه إليه جهود صليبى هذه الحملة، لكل هذه الأسباب فشلت الحملة ولم يكن لبيزنطة دور فى هذا الفشل(١٦٥).

وإذا كان مسلك مانويل كومنين تجاه الحملة الصليبية الثانية قد تسبب فى ازدياد كراهية اللاتين للامبراطورية البيزنطية وهى الكراهية التى تستند – كما سبق أن أشرنا – إلى جذور فى الماضى تختص بالحضارة والتراث والخلاف الدينى والمذهبى، فإن هذا المسلك أيضا قد جلب عليه خطراً آخر إذ حاول روجر ملك صقلية انتهاز الفرصة واستغلال كراهية الغرب المتزايدة للبيزنطيين للقيام بغزو الأراضى البيزنطية القريبة من شاطىء الأدرياتى(١٦٦)، إلا أن مانويل كومنين حاول أن يجدد التحالف مع الإمبراطورية الألمانية، وإمبراطورها كونراد الثالث ضد النورمان فى صقلية(١٦٧). غير أن الظروف حينئذ كانت مختلفة، إذ توفى الامبراطور كونراد الثالث سنة ١١٥٢م، وخلفه الامبراطور فردريك بربروسا الذى سلك سياسة مغايرة وراودته فكرة مد النفوذ الألمانى إلى جنوب إيطاليا، ولهذا لم ينظر بعين الارتياح إلى محاولات بيزنطة التشبث بجنوب إيطاليا، واتخذ موقفا من بيزنطة بعيدا عن التحالف والصداقة أو التفاهم، ولهذا بدأ العداء البيزنطى للامبراطورية الغربية يظهر ويقوى(١٦٨). غير أن مانويل كومنين استعاض عن هذا التحالف، الذى أراد استغلاله ضد ملك صقلية النورمانى، بتحالفه مع البندقية التى أقلقها تزايد قوة النورمان فى صقلية

---

(١٦٥) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٢٢.

(166) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 340.

(167) Hussey : Op. cit. PP. 59 - 60.

(١٦٨) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ٢٣٢.

وجنوب إيطاليا، فقدمت البندقية المساعدات الحربية لبيزنطة لتسترد جزيرة كورفو، التى استولى عليها روجر، وذلك مقابل مزيد من الامتيازات التجارية فى مدن الدولة البيزنطية، ورد روجر على ذلك بعقد تحالف مع الملك الفرنسى لويس السابع بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، وماشاع من أن لبيزنطة يد فى هذا الفشل وأخذ الطرفان يعدان لحملة صليبية جديدة ضد بيزنطة ذاتها(١٦٩)، فى الوقت الذى بدأت فيه بيزنطة تتباعد عن الامبراطورية الغربية بعد وفاة كونراد الثالث وولاية فردريك بربروسا، لاسيما وأن الامبراطور مانويل كومنين قد تطلع إلى إحياء فكرة الامبراطورية الواحدة بعثا لعهد الامبراطورية الرومانية القديمة، بحيث يصبح هو رأس تلك الامبراطورية وعاهلها، وتبلورت فى ذهنه تلك الفكرة وألح عليه هذا الحلم وبدأ فى التصرف بمقتضى ذلك اعتبارا من سنة ١١٥٧م، ولهذا أضافت هذه الفكرة عاملا جديدا لسوء العلاقات بينه وبين الامبراطورية الغربية، التى لاشك لم يكن يسعدها هذا الخاطر ولم تكن تقر هذه الفكرة مع طموح امبراطورها الجديد فردريك الأول بربروسا(١٧٠).

ومثلما انفرط عقد التحالف بين مانويل كومنين والامبراطورية الغربية حاول وليم الأول ملك صقلية الجديد الذى خلف روجر الثانى، أن يكسر التحالف البيزنطى البندقى ، فراح يخوف البندقية من ازدياد نفوذ بيزنطة فى إيطاليا، فقلقت البندقية من ذلك ورأت أن تحكم أية قوة فى شاطىء الأدرياتى يحول دون إبحار سفنها فى هذا البحر، ولهذا خرجت البندقية من تحالفها مع

---

(١٦٩) حسنين ربيع : دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٢٣.
(170) Ostrogorsky : Op. Cit. PP. 340 - 1.
Hussey : Op. Cit. P. 60.

بيزنطة، وحصلت على امتيازات تجارية فى صقلية، وعقدت تحالفاً جديدا مع وليم[١٧١]. وفى نفس الوقت نشأت حلقة جديدة فى الصراع بين الامبراطورية الغربية والبابوية على عهد البابا اسكندر الثالث، أى بدأ الدور الثانى فى ذلك النزاع، وبادر مانويل كومنين إلى مصالحة البابا والتودد إليه ليضمه إلى جانبه فى صراعه ضد الامبراطورية الغربية، منتهزا فرصة تحمس البابا لكل مايقوى موقفه فى مواجهة الامبراطورية[١٧٢]، وفى الوقت ذاته كان مانويل كومنين يؤمل فى هذا التحالف الجديد كعامل هام لبعث الامبراطورية الواحدة وتحقيق آماله فى رئاستها وهى الفكرة التى آمن بها وعاش لتحقيقها والتى تكسب كثيرا بانضمام البابا إليها. غير أن الفكرة التى سيطرت على مانويل كومنين، وراودت أحلامه وتشبث بها، لم تكن سوى حلما من أحلام الماضى البعيد[١٧٣]، ولم يفده تحالفه مع البابوية فى شىء، أو يدفع بهذه القضية قدما إلى الأمام، كما لم يؤد تحالف مانويل مع الدولة النورمانية فى صقلية – وهى السياسة التى اضطر إليها لتقوية المحور الذى ارتكز عليه فى عدائه للامبراطورية الغربية – لم يؤد إلى نتيجة حاسمة فى هذا الشأن، بل إنه عول أيضا على تقوية نفوذه فى إيطاليا ببذل الأموال والمساعدات الاقتصادية لمدن إيطاليا فى نضالها مع الامبراطور فردريك بربروسا، إلا أن كل ذلك لم يفده فى شىء، ولم يحقق هدفه الذى سعى إليه[١٧٤].

ولعل أبلغ دليل على الفشل الذى أصاب سياسة مانويل كومنين، فى هذا الاتجاه ماحدث من اتفاق الصلح الذى عقد بين البابا اسكندر الثالث

---

(١٧١) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٢٤

(172) Camb . Med. Hist. V. 5. P. 390, P 420.

(١٧٣) حوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٣٣.

(174) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 340 .

والامبراطور فردريك الأول بربروسا سنة ١١٧٧م، الذى عرف بصلح البندقية، وهى الهدنة التى انتهت بموجبها الحلقة الثانية من حلقات الصراع أو الدور الثانى من أدوار الصراع بين البابوية والامبراطورية، ولهذا فقد جاء ذلك الصلح لطمة عنيفة لمانويل كومنين الذى مال خلال ذلك الصراع إلى جانب البابوية والمدن الإيطالية فى نضالها ضد الامبراطورية الغربية(١٧٥).

وعلى الرغم من أن مانويل كومنين لم ينجح فى تحقيق الفكرة التى سيطرت عليه وهى إحياء الامبراطورية الواحدة ورئاستها ، نظرا لموقف الدولة النورمانية من التحالف الذى سعى إليه الامبراطور البيزنطى معها، وعدم جديتها فى صداقة هذا الامبراطور ومساعدته لتحقيق أهدافه، إلا أن اتخاذ مانويل طريق الدبلوماسية خلال كل ذلك واهتمامه بإقامة محور يرتكز عليه فى سياسته الخارجية قد أبعده لفترة طويلة عن اللجوء للحرب أو استخدام القوة، وأتاح له فرصة طيبة للتفرغ لمشاكل أخرى وأخطار أخرى كان لابد وأن يتصدى لها لوضع حد لشرورها(١٧٦). وبعبارة أخرى إن ما اتبعه مانويل كومنين من وسائل لتحقيق سياسته فى بعث الامبراطورية الواحدة، قد منحه فرصة طيبة لتوجيه قواه العسكرية لأخطار أخرى ربما كانت فى حاجة إلى الالتفات لخطورتها على الامبراطورية.

وليس من شك فى أن مانويل كومنين قد أصبح لديه الوقت والفرصة للتدخل فى شئون الإمارات اللاتينية فى الشام، خاصة بعد أن فشلت الحملة الصليبية الثانية ولم تحقق أهدافها فى إعادة مدينة الرها إلى أيدى الصليبيين، إذ نجح عماد الدين زنكى فى استعادتها سنة ١١٤٤، بل إن خروج تلك

(175) Camb . Med. Hist. V. 5. P. 448.

(176) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 341 .

الحملة إلى بلاد الشام كان على أثر سقوط الرها فى أيدى المسلمين تحت قيادة رائد من رواد الجهاد المقدس ضد الصليبيين هو عماد الدين زنكى[١٧٧]، فلما فشلت الحملة فى تحقيق أى من أهدافها، وعادت إلى الغرب الأوربى بخفى حنين، بدأت آمال الصليبيين فى بلاد الشام تتعلق بالامبراطور البيزنطى مانويل كومنين، وعولوا عليه فى مساعدتهم وحماية كيانهم فى بلاد الشام، بل رحبوا بتدخله فى شئونهم دون معارضة[١٧٨].

والحقيقة أن الكيان الصليبى ببلاد الشام، الممثل حينئذ ، فى مملكة بيت المقدس الصليبية، وإمارتى أنطاكية وطرابلس، كان قد أخذ يترنح يوشك أن يتداعى أمام حركة الإفاقة الإسلامية فى المنطقة منذ عهد عماد الدين زنكى وابنه نور الدين محمود، الذى صارت إليه حلب ودمشق، وبدأ يرسى دعائم الجبهة الإسلامية المتحدة[١٧٩]، ولهذا فقد أحس الصليبيون بالخطر وأرجفوا بالنهاية، لاسيما وأن محاولات غرب أوربا لنجدتهم لم تؤت ثمارها، بعد أن فشلت أكبر دولتين من دول الغرب الأوربى فى الحملة الصليبية الثانية. إذ انتهت الحملة الألمانية إلى كارثة مروعة بآسيا الصغرى، قبل أن تصل إلى بلاد الشام، على حين لم تؤد جهود الحملة الفرنسية تحت قيادة لويس السابع إلى تغيير فى أوضاع الإمارات الصليبية أو إضعاف جبهة المسلمين التى كانت آخذة فى القوة يوما بعد يوم[١٨٠].

---

(١٧٧) ابن القلانسى : ذيل ص ٢٨٠، ابن العديم : زبدة الحلب ج٢ ص ٢٧٩.

Smail : op. cit P. 51.

(178) Grousset : Op. Cit. II, P. 271.

Runciman : Op. Cit. II, P. 291.

Ostrogorsky : Op. Cit. P. 343 .

(١٧٩) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ٦٩.

(180) Runciman : Op. Cit. II, P. 291.

وإذا كانت القوى الصليبية فى بلاد الشام قد أخذت تتطلع إلى الامبراطور مانويل كومنين باعتباره الملجأ الأخير والحصن القوى بالنسبة لها، فإن هذا الامبراطور لم يكن فى حقيقة الأمر يهمه أكثر من أنطاكية، فضلا عن الأراضى التى سبق أن خضعت للامبراطورية فى أقصى شمال الشام وأطراف بلاد الرافدين[١٨١]، وغيرها مما لم تتوان الامبراطورية بصفة مستمرة عن تأكيد تبعيتها لبيزنطة، وأنها كانت ضمن أملاكها وخاضعة لها يوما، وإذا كان الصليبيون قد رحبوا بتدخل مانويل فى شئونهم إلا أن أنطاكية قد أخذت تشهد عهدا جديدا فى تاريخها بعد وفاة أميرها، ووصول رينو دى شاتيون (أرناط) إلى السلطة فيها بزواجه من ابنه أمير أنطاكية ريموند دى بواتيه سنة ١١٥٧م[١٨٢] . وريتودى شاتيون مغامر فرنسى وصل فى أعقاب حملة لويس السابع، وبقى فى بلاد الشام بعد رحيل لويس السابع وتزوج ابنه ريموند دى بواتيه فآلت إليه الإمارة، ولهذا لم ينظر إلى الامبراطور البيزنطى نفس النظرة التى نظر بها أمراء الصليبيين، لعلمه بأطماع الامبراطورية فى أنطاكية بالذات، ومع ذلك فقد كان ترحيب الملك الصليبى بلدوين الثالث بالإمبراطور كافيا ليقوم هذا على رأس حملة لمساعدة الصليبيين فى بلاد الشام والتصدى لنور الدين محمود بن زنكى، وفى نفس الوقت لتحديد موقف أنطاكية وحل مشكلتها[١٨٣] . وزحف مانويل فعلا إلى الشرق؛ فنزل بقيليقية سنة ١١٥٨م، فاضطر رينو دى شاتيون (أرناط)، الذى كان زوجا لورثيه الإمارة، أمام خوفه من نور الدين محمود إلى المسير إلى قيليقيا لمقابلة مانويل كومنين فى مقر قيادته فى المصيصة، ملتمسا العفو والغفران طالبا الصفح من

---

(181) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 342

(182) Grousset Op. Cit. II, P 329

(183) Grousset Op. Cit. II, P. 407

الامبراطور، مقرا بأحقية بيزنطة فى إمارة أنطاكية(١٨٤) معترفا بحق الامبراطور فى تعيين أسقف كنيسة أنطاكية. ومالبث الملك بلدوين الثالث ملك بيت المقدس أن وفد هو الآخر، على الامبراطور مانويل لتقديم فروض الطاعة والولاء، وتوالى وفود أمراء الصليبيين لإعلان خضوعهم، فتعهد مانويل بتقديم المساعدات لهم ضد المسلمين(١٨٥)، ثم انحدر مانويل إلى بلاد الشام فوصلها فى أوائل سنة ١١٥٩م، فانحاز إليه كل من الملك بلدوين الثالث ولم يسع رينو دى شاتيون إلا أن يفتح أبواب انطاكية للإمبراطور، وبدأ الجميع يستعدون لحرب نور الدين محمود(١٨٦).

غير أن الامبراطور مانويل كومنين لم يكن يقصد فى أغلب الظن، إلا إلى إظهار قوته أمام الصليبيين، وبسط نفوذه ولو الإسمى على أنطاكية، فقد اكتفى بالدخول فى مفاوضات مع نور الدين محمود حول إطلاق سراح الأسرى الصليبيين الذين بلغ عددهم لدى نور الدين مابين ستة وعشرة آلاف رجل، وعندما وافق نور الدين على ذلك حقنا للدماء أوقف مانويل كومنين الحملة فورا(١٨٧)، ضد حلب والرها التى يقال أنه خطط لإعادتها إلى الجانب الصليبى. وهكذا باءت خطة التحالف بين الصليبيين والبيزنطيين ضد نور الدين بالفشل الذريع، وبدأ تفكير الصليبيين يتجه إلى الاعتماد على أنفسهم وعلى نجدات أوربى فى الوقوف فى وجه المسلمين ونور الدين محمود بصفة خاصة(١٨٨).

---

(١٨٤) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٢٦ - ٢٢٧

(١٨٥) سيد الناصرى : الروم ص ٤١٥

(186) Ostrogorsky : Op Cit. PP. 343 - 45

(187) Runciman . Op. Cit. II, P. 355.

Grousset Op. Cit. II, P. 420

(188) Cahen Le Syrie du Nord, P 241

Baldwin The latin States under baldwin III, P 545.

وتشير الدلائل إلى أن الامبراطور مانويل كومنين لم يكن يقصد بحملته هذه إلا إلى حل مشكلة أنطاكية والفوز بتبعيتها له وهى أقصى غايات الأباطرة فى بيزنطة، كما تشير الدلائل إلى أنه لم يكن متحمسا للقضاء على قوة نور الدين محمود، ربما لاتخاذه أداة للحد من أطماع الصليبيين وجعله وسيلة للضغط عليهم، إذا فكروا فى نبذ تحالفهم مع بيزنطة أو طرح طاعة أنطاكية للإمبراطورية البيزنطية[١٨٩]، أى أن مانويل لجأ إلى ماكان يلجأ إليه أسلافه من استخدام الدبلوماسية والسياسة، لتحقيق أغراضه دون أن يحفل بمصالح القوى اللاتينية فى بلاد الشام، طالما أن ذلك يتعارض مع مصالح دولته، وبعبارة أخرى لم يخرج مانويل على رأس جيشه سنة ١١٥٩م، من أجل مصالح اللاتين وإنما من أجل مصالح دولته فى أنطاكية فقط[١٩٠]، والدليل على ذلك أنه لم ينشط لإسقاط حلب ولم يتجه إلى الرها التى استنجد به الصليبيون لاستعادتها، ولم يحاول القضاء على شوكة نور الدين محمود، وإنما أظهر قوته أمام كافة القوى الموجودة فى الشام وحقق أغراضه فى أنطاكية، وانسحب عائدا إلى عاصمته.

على أن الصليبيين لازالوا طامعين فى تأييد ومساعدة مانويل كومنين والدليل على ذلك محافظة المملكة الصليبية فى بيت المقدس على صداقتها لهذا الامبراطور ورغبتها فى الإفادة من هذه الصداقة[١٩١]، فحينما اعتلى عرشها الملك عمورى الأول وتطلع هذا الملك إلى الاستيلاء على مصر فى

---

(189) Runciman : Op. Cit. II, P. 355.

(١٩٠) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٣٦.

(191) Grousset : Op. Cit. II, P. 577.

زحمة التنافس بين شاور وضرغام وزيرى الخلافة الفاطمية، وفى غمرة الضعف الذى ران على تلك الخلافة فى أواخر أيامها، وحتى لاينجح نور الدين محمود فى الاستيلاء عليها، فيضع المملكة الصليبية بين شقى الرحا فى الشام ومصر، وإذ فشل عمورى الأول فى تنفيذ أغراضه والفوز بمصر لنشاط نور الدين، وإرساله الجيوش للدفاع عنها، والحيلولة بين عمورى وبينها نجد هذا الملك الصليبى يلجأ للاستعانة بالدولة البيزنطية(١٩٢)، لاسيما وقد نجح نور الدين فى النهاية فى الفوز بمصر، وأصبح صلاح الدين صاحب الأمر فيها، ولم يتردد الامبراطور مانويل كومنين من إجابة الملك الصليبى إلى طلبه، إذ تم الاتفاق على تجهيز حملة مشتركة صليبية بيزنطية للاستيلاء على مصر من يد نور الدين محمود(١٩٣).

اتجه الأسطول البيزنطى فعلا إلى عكا ى سنة ١١٦٩م، ثم اتجه صوب دمياط فى الوقت الذى زحف فيه الصليبيون برا فى أكتوبر من عسقلان إلى الفرما ثم إلى دمياط وعسكروا بالقرب منها على حين لم يستطع الأسطول دخول الميناء بسبب السلاسل الحديدية الممتدة بعرض الميناء لتمنع دخول سفن الأعداء(١٩٤)، فأرسل صلاح الدين يستنجد بنور الدين الذى أمده بالجيوش العظيمة فى إثر بعضها، فواصل صلاح الدين إرسال الإمدادات والنجدات إلى دمياط، وأمدها بالذخائر والسلاح والمؤن لتصمد أمام هجوم الصليبيين(١٩٥)، وفى الوقت الذى طال فيه حصار الصليبيين لدمياط برزت المقاومة الباسلة لأهلها ضد سفن البيزنطيين وأخذ الأسطول البيزنطى يعانى قلة

---

(192) Ibid . P. 577.

(193) Runciman : Op. Cit. II, P. 391.

(١٩٤) ابن الأثير : التاريخ الباهر ص ١٤٣.

(١٩٥) ابن واصل : مفرج الكروب ج١ ص ١٨١.

أبو شامة : الروضتين ص ١٨٠ - ١٨١.

المؤن والزاد، وتشكك البيزنطيون فى الصليبيين والعكس بالعكس، واشتدت ضربات نور الدين محمود ضد ممتلكات عمورى فى الشام، فاضطر الصليبيون الى رفع الحصار عن المدينة والعودة خائبين الى فلسطين(١٩٦)، على حين انسحبت السفن البيزنطية من أمام المدينة، وشاء سوء حظها أن تشتد عليها الرياح، ويصادفها جو غير ملائم فى وقت ضعف فيه جنودها وبحارتها من شدة الجوع وقلة الزاد، فغرقت أعداد كبيرة منها، وتقاذفتها الأمواج، ورمت بجثث بحارتها على الشواطىء، وانتهت الحملة البيزنطية الصليبية بالفشل الذريع، وثبتت أقدام صلاح الدين فى مصر(١٩٧).

ويبدو أن مانويل كومنين كان فى حاجة بعد ذلك للقيام بعمل يحقق به بعض الانتصارات على المسلمين، لاسيما بعد فشل حملته البحرية ضد مصر، فقد التفت إلى سلاجقة الروم بآسيا الصغرى، وحاول أن يلجأ الى القوة فى إدارة النضال معهم، ونبذ الأسلوب السياسى الذى لجأ إليه أباطرة الأسرة الكومنينية لفترة مع أعدائهم ومن بينهم سلاجقة الروم. كما يبدو أن مانويل كومنين اعتقد فى ذلك الوقت أن ضعف سلاجقة الروم المستمر سوف يمنحه فرصة مواتية لتحقيق أهداف الإمبراطورية فى آسيا الصغرى واستعادة أملاكها منهم(١٩٨). غير أن تصدى السلاجقة بقيادة السلطان قلج أرسلان سلطان قونية، الذى وجد التأييد والمعاونة من إمبراطور الغرب فردريك بربروسا، قلب خطط مانويل كومنين رأسا على عقب، فلم يسع مانويل إلا إعلان الحرب الضارية على ذلك السلطان السلجوقى، ونجح فى ضم بعض المناوئين للسلطان السلجوقى من المسلمين إلى جانبه، بعد أن أشعل نار الوقيعة

(196) Runciman : Op. Cit. II, P. 387.

(١٩٧) أبو شامة : الروضتين ص ١٨٠ – ١٨١.

(198) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 347 .
Camb . Med. Hist. V. 4. P P. 372 - 8.

بين هذا السلطان فى قونية وأمراء أنقرة فى الشمال وآل الدانشمند فى قبادوقيا فى الشرق[١٩٩]، ثم التقى بالسلاجقة سنة ١١٧٦م فى أواسط آسيا الصغرى، غير أنه تعرض لهزيمة ساحقة، لم يستطع الامبراطور إلا أن يشبهها بالكارثة التى حلت ببيزنطة فى مانزكرت سنة ١٠٧١م، إذ أنها أدت إلى ضياع هيبة بيزنطة وهيبة الأسرة الكومنينية نفسها، وترتب عليها عجز الامبراطورية عن استرجاع أملاكها فى آسيا الصغرى، وكبح جماح سلاجقة الروم فيها.[٢٠٠] وجاء مسلك مانويل كومنين مع قلج أرسلان، سلطان قونية، غريبا فى ذلك الوقت، خاصة وقد زار هذا السلطان القسطنطينية قبل تلك الحرب بنحو خمسة عشر عاما، ونزل ضيفا على الامبراطور، واستقبل بحفاوة بالغة، وامتدت إقامته نحو ثلاثة أشهر عقد فى نهايتها معاهدة صداقة ومودة مع مانويل كومنين، ورغم ذلك انقلب عليه مانويل وأعلن عليه الحرب[٢٠١].

ولقد ترتب على انتصار السلاجقة سنة ١١٧٦م نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لأوضاع المنطقة، والعلاقات الاسلامية من جهة والبيزنطية والصليبية من جهة أخرى، فإذا كانت قوة السلاجقة قد أخذت فى التدهور فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر، فإن ما أحرزته سلطنة سلاجقة الروم من نصر حاسم على بيزنطة سنة ١١٧٦م، قد أوقف تيار المد البيزنطى ريثما تتقدم الجبهة الاسلامية المتحدة فى بلاد الشام ومصر وأطراف العراق، لتنهض بدورها كاملا فى مواجهة القوى المعادية[٢٠٢]، فقد أملى السلطان السلجوقى المنتصر شروطه على الامبراطور المهزوم وهذه الشروط هى: هدم وإزالة جميع الحصون والقلاع الحربية فى آسيا الصغرى، والتنازل عن ادعاءاته فى أراضى

---

(١٩٩) سيد الناصرى : الروم ص ٤١٨.

(200) Camb . Med. Hist. V. 4. P. 347.

(٢٠١) سيد الناصرى : نفسه ص ٤١٩.

(٢٠٢) جوزيف نسيم يوسف : المرجع السابق ص ٢٣٧.

السلاجقة، وعلى أثر هذا الانتصار بدأت جحافل التركمان تتدفق من منابع الأنهار الآسيوية متجهة نحو مصباتها فى بحر إيجة(٢٠٣). وبعبارة أخرى فإنه إذا كان قد قدر أن ينتصر البيزنطيون على قوات السلاجقة فى ذلك الوقت، فلربما استمر التقدم البيزنطى فى آسيا الصغرى ليصبح عقبة أمام إرساء قواعد الجبهة الإسلامية المتحدة، التى جد صلاح الدين فى دعمها، وكانت بصدد القيام بدورها فى تشكيل العلاقات الاسلامية الصليبية أو العلاقات الاسلامية المسيحية بصفة عامة(٢٠٤). وهكذا أدى سلاجقة الروم برغم معاناتهم آلام الموت البطىء - فى ذلك الوقت - ورغم تداعيهم خدمة جليلة للكيان الاسلامى بانتصارهم على قوة بيزنطة واضاعة هيبتها لتحجيم دورها، وإلزامها بالعودة إلى سياسة الدفاع، مع مافى ذلك من إعطاء فرصة للجبهة الإسلامية النامية.

ولم يستطع الامبراطور فردريك بربروسا، أن يمنع نفسه من إظهار الشماتة فى غريمه الإمبراطور مانويل كومنين، إذ انتهز فرصة ماحل بالأخير من هزيمة، وأرسل اليه يسخر منه ومن أحلامه القديمة ومشروعه العقيم بإحياء الامبراطورية الواحدة، ويذكره بأن ذلك لم يكن إلا إقرارا منه بأن الامبراطورية قائمة فعلا تمارس دورها فى الغرب الأوربى(٢٠٥)، والواقع أن الانتصار الذى أحرزه السلاجقة على بيزنطة فى مستهل الربع الأخير من القرن الثانى عشر، جاء نصرا مؤزرا للامبراطورية الغربية وفردريك الأول بربروسا نفسه، لأنها

---

(٢٠٣) حسنين ربيع : دراسات ص ٢٣١..

سيد الناصرى : الروم ص ٤٢٠.

(٢٠٤) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ٢٣٧.

(205) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 347 .

Hussey : Op. Cit. P. 62.

(206) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 347 .

قضت على دعاوى بيزنطة فى السيادة العالمية وفى حقها فى إقامة سلطة إمبراطورية واحدة فى العالم[٢٠٦]. وإذا كان مانويل كومنين قد حاول أن يرد على فردريك بربروسا، بتشجيع القوى الثائرة ضده فى إيطاليا، بإمدادها بالمال اللازم والمساعدة المادية والمعنوية، إلا أن ذلك لم يؤد إلى نتيجة حاسمة فى صراعه مع الامبراطور الغربى، وظل مانويل يقدم مساعداته للمدن الإيطالية، وكافة القوى المعادية والمناوئة لفردريك فى الغرب حتى توفى مانويل سنة ١١٨٠م[٢٠٧]، بعد أن تسبب فى ضياع هيبة بيزنطة وهيبة الأسرة الكومنينية التى أخذت فى طريق الزوال بعد ذلك بسنوات قليلة، خاصة بعد أن أدت حروب مانويل الكثيرة إلى زيادة نفوذ الإقطاعيين حتى أصبحوا دويلات داخل الدولة، وأضعفوا السلطة المركزية فى الوقت الذى تردت فيه الأحوال الاقتصادية[٢٠٨]، لكثرة الضرائب لتمويل الحروب بالإضافة إلى أن مالجأ اليه مانويل من طرد التجار البنادقة دون ترتيب سابق أحدث هزة اقتصادية فى السوق التجارية، وأدى إلى انهيار مفاجىء فى الاقتصاد البيزنطى، وأخيرا توفى مانويل كومنين كسير الفؤاد يائسا، تاركا إمبراطورية تعانى من التدهور والضعف والافلاس بسبب سياسته الخرقاء وأحلامه الواهمة[٢٠٩].

الكسيوس الثانى (١١٨٠-١١٨٣م):

يحيل بعض المؤرخين إلى تشبيه الامبراطور مانويل كومنين بالامبراطور جستنيان – العاهل البيزنطى الكبير فى القرن السادس الميلادى – الذى تطلع إلى إعادة الامبراطورية الرومانية وبعثها بعد طول رقاد، والذى اندفع فى حملات عسكرية يبغى إسباغ هيبة الامبراطورية على أملاكها وإعطائها مسحة من القوة والجاه، ومثلما ترك جستنيان الامبراطورية البيزنطية ضعيفة مفلسة، خوت على عروشها وأفرغت خزائنها ولم تحقق أهدافها، ترك أيضا مانويل

(٢٠٧) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ٢٣٨.

(٢٠٨) حسنين ربيع : دراسات ص ٢٣١..

(٢٠٩) سيد الناصرى : الروم ص ٤٢١.

كومنين الإمبراطورية ضعيفة متهالكة، فقيرة، بعد أن استنفد جانبا كبيرا من قوتها وهيبتها وأنهك اقتصادها فى مشروعاته الحربية التى لم يصادفها التوفيق[٢١٠].

وليس من شك فى أن الامبراطورية كانت بحاجة إلى فترة لالتقاط الأنفاس بعد وفاة مانويل كومنين، كما كانت بحاجة ماسة إلى إمبراطور يستطيع أن يقيلها من عثرتها وينهضها من كبوتها، ولكن ذلك لم يتحقق لسوء حظ بيزنطة ولسوء حظ الأسرة الكومنينية أيضا، بل استمرت الامبراطورية فى طريق الانحدار، وضعف البيت الحاكم نفسه وأخذ ينحدر هو الآخر الى طريق الزوال. فقد كان مانويل كومنين قد تزوج فى أخريات أيامه من امرأة أنطاكية تدعى مارى[٢١١]، حتى يضع حلا لمشكلة أنطاكية، ويضمن ولاءها واستمرار هذا الولاء على عهد خلفائه، وترك مانويل عند وفاته ابنا صغيرا لم يكن قد جاوز الثانية عشرة من عمره هو ألكسيوس الثانى كومنين، وترتب على ذلك قيام أمه مارى بالوصاية عليه فى الفترة بين سنتى ١١٨٠-١١٨٢م، فأصبحت الوالدة صاحبة النفوذ الفعلى فى البلاد[٢١٢].

وكانت مارى هذه سليلة البيت الصليبى النورمانى، الذى أسس إمارة أنطاكية، تزوجها مانويل فى أخريات أيامه لحل المشكلة، كما استقدم إليه بالعاصمة أعدادا كبيرة من اللاتين من أنطاكية، واستخدمهم فى الوظائف الهامة فى الدولة؛ ولهذا فقد حرصت مارى على استمرار اللاتين فى أداء مهامهم بالبلاد فى الوقت الذى تسابق فيه موظفو البلاط وكبار رجال الدولة فى كسب ودها لأنها أصبحت صاحبة الحل والعقد فى الامبراطورية[٢١٣]،

(٢١٠) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ٢٣٨.

Hussey : Op. Cit. P. 63.

(211) Chalandon : Comnenes, II, P. 523.

Grousset : Op. Cit. II, PP. 469 - 70.

(212) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 350 .

(٢١٣) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ٢٣٩.

غير أنها مالبثت أن انحدرت فى سلوكها الاجتماعى وعلاقاتها الخاصة، واهتمت كثيرا بمظهرها وأزيائها، وأقامت علاقات غرامية برجال فى البلاط واتخذت لنفسها عشيقا تركت له تدبير أمور الدولة(٢١٤)، وأتت من الأعمال ما أنذر بشر مستطير، لاسيما وقد نظر إليها الناس فى بيزنطة باعتبارها أجنبية عنهم، حرصت على تشجيع ورود اللاتين من الغرب الأوربى واستخدام الأجانب فى وظائف الدولة، وإحاطة نفسها بأعداد من الغرباء(٢١٥).

ولقد أمد هذا الجو المضطرب والعلاقات الفاسدة المتآمرين والطامعين فى السلطة بفرصة مواتية للعمل، فبدأ الساخطون والغاضبون والطامعون يبرزون من مكامنهم للقيام بدورهم فى هذه الظروف، فأشاعوا أن الوصية لن تلبث أن تتخلص من ابنها الامبراطور القاصر وتعلن ولاية حبيبها العرش، ثم جرى تدبير مؤامرة هدفها اغتيال حبيب الامبراطورة، إلا أنها اكتشفت فاندلعت الحرب السافرة بين مارى وأعوانها وبين الحزب المناوئ فى الوقت الذى خسرت فيه هذه الوصية عطف الشعب واحترامه، ونظر إليها الناس باعتبارها فاسدة لعوب وباعتبارها أجنبية غريبة عن البيت الكومنينى، ولم ينظر إليها بعين العطف نظرا لمحاولاتها الدائبة إحلال اللاتين والأجانب فى الوظائف الهامة محل البيزنطيين(٢١٦)، بل اعتبروا أمر الخلاص منها واجبا قوميا، ولهذا فقد كان عام ١١٨٣م هاما بالنسبة لمستقبل هذه الأسرة بعد أن أصبحت الحرب سافرة بين حزبين فى الدولة كل يبغى أن يفوز بالتركة فى الوقت الذى قصرت فيه همة الإمبراطور القائم لصغر سنة من ناحية، وتحكم والدته فى أمره من ناحية

---

(٢١٤) حسين ربيع : المرجع السابق ص ٢٣٢.

(٢١٥) جوزيف نسيم يوسف : نفسه ص ٢٣٩،

Hussey : Op. Cit. P. 64.

(216) Ostrogorsky : Op. Cit. PP. 351 - 2.

أخرى، فاندلعت الثورة فى العاصمة وجرى الهجوم على اللاتين وعلى ممتلكاتهم فى المدينة[٢١٧]، حتى ذهب البعض إلى أن أحداث سنة ١١٧١م، حين جرى القبض على جميع البنادقة فى أنحاء الدولة البيزنطية، وكذلك أحداث سنة ١١٨٢م، التى هاجم فيها الشعب البيزنطى اللاتين، واعتدوا على أملاكهم كانت من أسباب الغزو اللاتينى للقسطنطينية سنة ١٢٠٤م[٢١٨]. وفى نفس الوقت كان أحد أفراد البيت الكومنينى ويدعى أندرونيقوس كومنين يرقب الأحداث على البعد، ويتأهب للفوز بالعرش البيزنطى وما أن ساءت الأحوال، وبدأ الميزان يميل فى غير صالح الامبراطوريه الوصية حتى تقدم هذا الرجل ليضع حداً للجو الفاسد فى العاصمة البيزنطية ويعتلى العرش الامبراطورى سنة ١١٨٣م[٢١٩].

أندرونيقوس الأول كومنين (١١٨٣ - ١١٨٥م):

كان أندرونيقوس Andronicus أحد أفراد البيت الكومنينى الطموحين، اتصف بالذكاء والفطنة وفصاحة اللسان والعلم كمعظم أفراد هذه الأسرة الحاكمة، بل إنه تطلع إلى القيام بدور يفوق ماقدمه مانويل كومنين نفسه ويتفوق به عليه، ولذلك حاول أن يفوز بالعرش على عهد مانويل، إلا أنه لم يوفق وأمر الامبراطور بنفيه إلى أحد الثغور النائية الواقعة على ساحل البحر الأسود. غير أن هذا الرجل ظل يراقب الأحداث، ويتطلع إلى العودة إلى العاصمة للقيام بدوره كاملا فيها[٢٢٠]، فلما ساءت الأحوال فى العاصمة

---

(٢١٧) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٣٢.
سيد الناصرى : الروم ص ٤٢٢.

(٢١٨) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٣٢.

(219) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 352 .

(220) Ibid. P. 351.

على أثر سلوك الامبراطورة الأنطاكية نظر اليه الناس باعتبار الرجل القادر على انتشال الامبراطورية من الفوضى والاضطراب، والقادر على إنهاضها من كبوتها، وفعلا انتهى الأمر باعتلائه العرش سنة ١١٨٣م لكنه لم يشأ أن يعلن انفراده بالسلطة، بل اكتفى بإعلان نفسه شريكا للامبراطور الصغير ألكسيوس الثانى، بعد أن تخلص من الإمبراطورة الوصية بالقتل ونكل بحزبها الأجنبى من اللاتين فى العاصمة، وبدا كما لو كان الله قد هيأه لانتشال البلاد مما ضربت فيه من الفوضى والاضمحلال(٢٢١).

غير أن أندرونيقوس اضطر إلى القيام بحركة تهدف إلى تصفية المناوئين له والتخلص من كافة أعدائه دفعة واحدة، حتى يصفو له الجو ويثبت أقدامه فى الحكم، فقام بكثير من الاغتيالات لكبار رجال الدولة وأفراد الأسرة الكومنينية نفسها وتخلص فى النهاية من الإمبراطور الصغير(٢٢٢) ، فى سلسلة من المذابح البشرية التى راح ضحيتها عدد كبير من رجال الدولة، وأفراد البيت الحاكم، الأمر الذى اعتقد معه بصفاء الجو له وثبات أقدامه فى السلطة، لكنه كان مسرفا فى التفاؤل، فقد خاب ظنه وجرت الأمور بغير ماكان يحب ويهوى. فمن الأخطاء الجسيمة التى وقع فيها أندرونيقوس إعلانه الحرب على الطبقة الإقطاعية، التى كان لها الفضل فى اعتلائه العرش، إذ بادر بإصدار بعض القوانين الصارمة التى تهدف إلى التضييق على هذه الطبقة والحد من نفوذها وإضعاف شأنها، ولهذا بدأت تلك الأسر الإقطاعية تتحول عنه بعد أن عمها السخط والنفور من الامبراطور الجديد، الذى أملت فيه كثيرا وساعدته للوصول إلى السلطة(٢٢٣). وفى نفس الوقت أمر بزيادة

---

(221) Hussey : Op. Cit. P. 63.

(222) Ibid. PP. 63 - 4.

(223) Ostrogorsky : Op. Cit. PP. 352 - 3 .

الرواتب للموظفين، ربما ليقلل من انتشار الرشوة بين الموظفين، وخفف الأعباء الضرائبية وتشدد فى معاملة جامعى الضرائب[٢٢٤] ، فى محاولة لإصلاح الإدارة، ولكنه أظهر قصر نظر وجهل فى معالجة هذه المشكلة، إذ لم يلجأ إلى تهدئة الأمور مع الأسر الإقطاعية أو محاولة كسب الوقت معها ريثما تتحسن ظروفه وإنما راح يصعد النزاع معها فبادر بالقبض على أحد أفراد أسرة أنجيلوس الإقطاعية ويدعى إسحق أنجيلوس، بعد سلسلة من الاتهامات والاغتيالات التى أغرقت البلاد فى الفوضى وجلبت على الدولة كثيرا من الكوارث[٢٢٥] .

ويذكر المؤرخون أن أندرونيقوس سعى لكسب ود صلاح الدين، أقوى حاكم مسلم فى عصره، وربما دفعه إلى ذلك ما أظهره النورمان فى صقلية من عداء لبيزنطة فضلا عن حكام قونية السلاجقة، الذين أزعجوا البيزنطيين وهددوا مصالح بيزنطة من ناحية وتطلعوا إلى مد نفوذهم فى شمال الشام من ناحية أخرى، بالإضافة إلى ما أظهرته جزيرة قبرص من نوايا فى ميراث الصليبيين ومناوأة بيزنطة، وكلها مخاطر أقلقت أيضا صلاح الدين، فاقترح الامبراطور البيزنطى أندرونيقوس عقد تحالف مع صلاح الدين سنة ١١٨٥م، ولكن تطور الأحداث فى بيزنطة لم يكتب لهذا التحالف الخروج إلى حيز التنفيذ[٢٢٦] .

وفي نفس الوقت حاول أندرونيقوس التصالح مع البنادقة، وعمل على التقرب من البابا، حتى يتدخل لوقف الخطر النورمانى، مقابل التلويح لـه بوحدة الكنيستين أو منح الكنيسة الكاثوليكية بعض الحقوق الامتيازات[٢٢٧]، ولكن النكبات بدأت تنهال على رأس هذا الإمبراطور،

---

(٢٢٤) حسنين ربيع : المرجع السابق ص ٢٣٣.

(225) Hussey : Op. Cit. P. 64.

(٢٢٦) حسنين ربيع : نفسه ص ٢٣٥.

(٢٢٧) سيد الناصرى : الروم ص ٤٢٥.

فأعلن حاكم قبرص انفصاله عن بيزنطة، ففقدت الامبراطورية مصدرا ماليا وتجاريا هاما، فضلا عن الخسارة الاستراتيجية لأن قبرص كانت القاعدة البحرية لأسطول الروم فى شرق البحر المتوسط[٢٢٨]، كما هاجم النورمان ميناء ديراخيوم واستولوا عليه، وأصبح الطريق مفتوحا أمامهم للوصول إلى سالونيك، التى مالبثوا أن استولوا عليها فى صيف سنة ١١٨٥م، فأحدثوا بها مذبحة بشرية رهيبة ضد سكانها الأرثوذكس، وفى نفس الوقت تسبب القبض على إسحق أنجيلوس فى اندلاع ثورة فى الأقاليم ضد أندرونيقوس، وهى الثورة التى راح ضحيتها هذا الامبراطور والبيت الكومنينى نفسه سنة ١١٨٥م، لتعتلى أسرة جديدة الحكم، ويتولى إمبراطور جديد عرش الدولة، واضعا أسس حكم جديد وأسرة حاكمة جديدة هى أسرة أنجيلوس[٢٢٩].

ويتضح مما سبق أن الفترة الممتدة بين سنتى ١١٨٠ – ١١٨٥م، كانت فترة عصيبة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية، فبدلا من أن تتهيأ الظروف خلالها لاعتلاء إمبراطور راشد يستطيع تسيير دفة الحكم بنجاح فى تلك الفترة الحرجة، وقعت الامبراطورية فى خضم الفوضى والاضطراب، وبرزت الفتن والمؤامرات، ووثب على العرش طامع فيه متطلع إليه منذ أيام مانويل كومنين، لم يستطع أن يهدئ الأمور ويبدأ عهداً جديداً فى البلاد، وإنما فجر صراعا رهيبا بين الطبقات وقاد البلاد نحو الهاوية هذا فى الوقت الذى أدى فيه استخدام مانويل كومنين اللاتين فى دولته بأعداد كبيرة لحرصه وإعجابه بالنماذج الغربية ولرغبته فى بعث الامبراطورية الواحدة التى يتزعمها الامبراطور البيزنطى، قد أدى إلى إطلاع اللاتين على نقاط ضعف بيزنطة ومدى مايمكن أن يجنى من ورائها، كما جعل الغرب الأوربى يترقب الفرصة المواتية لهدم تلك الامبراطورية والفوز بإرثها فى العالم فى ذلك الوقت.

---

(٢٢٨) الناصرى: نفسه ص ٤٢٥ – ٤٢٦.

(229) Ostrogorsky : Op. Cit. P. 356 .

Hussey : Op. Cit. PP. 63 - 64.

الفصل التاسع

اسرة انجيلوس [١١٨٥ - ١٢٠٤م]

على الرغم من أن العرش البيزنطى قد انتقل إلى أسرة جديدة، هى أسرة أنجيلوس، إلا أن الأمور لم تتحسن فى بيزنطة، بل كانت الدولة فى طريقها إلى الزوال فعلا، ولم يطرأ تغير يذكر على أحوالها يمكن أن تهرب به من مصيرها المحتوم، ذلك أن الفتن التى ميزت الفترة الأخيرة من عصر تلك الأسرة المنصرمة (الأسرة الكومنينية)، استمرت تميز عهد الأسرة الجديدة[١]. فقد ترتب على ثورة الأقاليم والأسرات الإقطاعية أن اعتلى اسحق انجيلوس العرش باسم اسحق الثانى (١١٨٥ - ١١٩٥م)، ولكن فترة حكم هذا الإمبراطور جاءت سلسلة من الكوارث على بيزنطة أدت إلى زيادة ضعفها، بل بدأت أملاكها فى الانسلاخ عنها، وبدأت نزعة انفصالية تميز اتجاهات القائمين على أملاكها، كان لها نتائج بالغة الأهمية دون جدال[٢].

كان أحد أفراد البيت الكومنينى قد أعلن استقلاله بجزيرة قبرص، التى ظلت لفترة طويلة تابعة لحكم بيزنطة، واستمرت الجزيرة على اتجاهها الانفصالى حتى سنة ١١٩١م، حين قدم إليها الملك ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا فى الحملة الصليبية الثالثة، فاحتل الجزيرة فى ذلك العام[٣]، وانقطعت الصلة منذ ذلك الوقت بين الجزيرة وبين الدولة البيزنطية، نهائيا، وأخذ تاريخ الجزيرة منذئذ يتصل بتاريخ الحركة الصليبية، ولعبت جزيرة قبرص دوراً بارزاً فى تاريخ الحروب الصليبية منذ ذلك الوقت حتى انتهاء الحركة

---

(1) Hussey: op.cit. p.64.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا ج١ ص ٦٤٠.

(3) Grousset: op.cit. III, pp. 45-6.

الصليبية فى الشرق(٤).

وإذا كانت جزيرة قبرص قد انفصلت عن بيزنطة، ودخلت فى عهد جديد من تاريخها، فلقد عانت بيزنطة أيضا وسط ضعفها واضمحلالها حركة انسلاخ أخرى فى شبه جزيرة البلقان من قبل الدول البلقانية التابعة لها مثل بلغاريا وصربيا اللتين أعلنتا استقلالهما عن أى تبعية لبيزنطة سواء كانت تبعية إسمية أو فعلية(٥). وتشير الدلائل إلى أن الامبراطور الألمانى فردريك بربروسا هو الذى كان يشجع البلغار على طرح طاعة البيزنطيين والاستقلال عنها وبناء دولة لهم فى البلقان(٦)، كما استقل الصرب وأسسوا لهم دولة أيضا هناك، فى الوقت الذى لم يكن بوسع بيزنطة أن ترسل الجيوش إلى بلغاريا وصربيا، أو تجند الجند، أو تحاول استعادة نفوذها فى تلك الدويلات، ووسط هذا الضعف الذى انتاب بيزنطة، تحرك التجار الإيطاليون فى الداخل، وتلاعبوا بالاقتصاد البيزنطى وتحكموا فيه، بعد أن ازدادت امتيازاتهم وزاد نفوذهم وجشعهم فى القسطنطينية. وهكذا عانت الدولة نتائج الضعف والفتن والاضمحلال الذى ران عليها فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى(٧).

ومن سوء حظ بيزنطة أيضا أن تتقدم الحملة الصليبية الثالثة، بعد أن نجح صلاح الدين الأيوبى فى استعادة بيت المقدس من الصليبيين، وصفى كثيرا

---

(٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ، ص ٨٨٨،

Hussey: op.cit. p.66.

(5) Camb. Med. Hist. V.4, pp. 518 -19.

(٦) الناصرى: الروم ص ٤٢٧.

(7)Ostrogorsky: op.cit. p. 360.

Grousset: op.cit. III, pp. 47-9.

من الوجود الصليبى فى بلاد الشام وفلسطين والموانى الساحلية هناك، وكان ضمن الحملة الثالثة الامبراطور فردريك بربروسا نفسه، عدو الامبراطورية البيزنطية القديم، الذى سلك فى طريقه إلى بلاد الشام، أراضى بيزنطة فى آسيا الصغرى، دون موافقة الامبراطور البيزنطى، ورغم إرادته، وعبر الإمبراطور الغربى عن حنقه على بيزنطة بإحداث الخراب والدمار فى أراضيها ومدنها والجهات التى مر بها، حتى جاءت هجماته عليها أعنف مما تعرضت له تلك الممتلكات من أى من الجيوش الصليبية أو السلجوقية الغازية[٨]. ولم يشأ إسحق أنجيلوس أن يقف مكتوف الأيدى، بل أخذ فى مقاومة اللاتين من ناحية، وقام بعقد صلح مع صلاح الدين الأيوبى لعمل محور يناهض أطماع الغرب فى الشرق، بل إن هذا الصلح فى الواقع كان امتدادا للتحالف الذى جرى بين أندرونيقوس من قبل وصلاح الدين، بل غدا تحالف إسحق أنجيلوس وصلاح الدين كما يقول – أحد المؤرخين المحدثين – حجر الزاوية فى سياسة بيزنطة الخارجية فيما بين سنتى ١١٨٥ و ١١٩٢م، فقد اعتمدت بيزنطة على قوة صلاح الدين فى مصر والشام للوقف فى وجه النورمان والمدن الإيطالية وإمبراطور ألمانيا والبابا فضلا عن الصليبيين[٩]. ويبدو أن اسحق أنجيلوس تحمس لهذا الوفاق أكثر من سلفه لأنه سمح بالدعاء للخليفة العباسى على منبر جامع القسطنطينية تعبيرا عن هذا الوئام البيزنطى الإسلامى، بل قيل أن اسحق أنجيلوس هو الذى حذر صلاح الدين من تقدم الحملة الصليبية الثالثة، إذ لم يكن يقلق باله انتصارات صلاح الدين بقدر ما كان يقلقه أطماع الصليبيين[١٠].

---

(8) Hussey: op.cit. pp. 65-6.

(٩) حسين ربيع. المرجع السابق ص ٢٣٩.

(١٠) حسين ربيع: نفسه ص ٢٤٢، الناصرى: الروم ص ٤٢٩.

ولقد ترتب على ذلك زيادة الكراهية لبيزنطة من قبل اللاتين، حتى لقد اقترح الإمبراطور فردريك بربروسا تحويل الحملة الصليبية الثالثة لمعاقبة البيزنطيين بدلا من حرب المسلمين فى الشرق[١١]، لكن وفاق بيزنطة مع المسلمين أدى إلى تشجيع اسحق أنجيلوس لتجميع جيوشه لطرد البلغار من تراقيا والصرب من مقدونيا، بل إنه هزم النورمان وأجبرهم على الجلاء عن سالونيك ودورازو، وأبعد خطرهم عن القسطنطينية، وذلك بلاشك أحد ثمار الوفاق مع الجبهة الإسلامية[١٢]. وعلى الرغم من ذلك أدى سوء حظ بيزنطة أن تضافرت العوامل على إضعافها، ودفعها دفعا فى طريق الزوال، بل لقد عانت الدولة من الفتن الداخلية أكثر مما عانت من محاولات أعدائها، الأمر الذى عجل بانهيارها، وجعلها فى مهب الرياح[١٣].

وكان اسحق أنجيلوس قد أمل كثيرا من تحالفه مع صلاح الدين، واعتقد أن بإمكانه لاسترداد قبرص واستعادة أملاك بيزنطة فى آسيا الصغرى، وفى الأراضى المقدسة فى فلسطين، لكن هذه الآمال كان مبالغ فيها، ولم يتحقق منها الكثير إذ لم تستفد بيزنطة كثيرا من هذا التحالف، بل إن ذلك أساء نوعا ما إلى سمعة الدولة البيزنطية، فاستغل الصليبيون ذلك وأثاروا الشعور العدائى ضد بيزنطة، فتحركت دعوات للبابا للحث على توجيه حملة صليبية ضد

---

(11) Hussey: op.cit. p.66.

(١٢) حسنين ربيع: المرجع السابق، ص ٢٤٢.
سيد الناصرى: الروم ص ٤٢٩.

(13) Hussey: op.cit. p. 65.

البيزنطيين، وبدأت الحملات الصليبية تتخذ الطريق البحرى إلى الشرق بسبب تحالف بيزنطة والمسلمين(١٤).

ولقد أدى فشل بيزنطة فى سياستها الخارجية إلى اندلاع ثورات وفتن داخلية فى الوقت الذى تربص فيه اعداؤها بها، وترقبوا الفرصة لهدمها والفوز بإرثها، فوسط تلاحق الأحداث وإنسلاخ أملاك الدولة عنها حين انفصل البلغار سنة ١١٨٦م عن بيزنطة بعد تبعيتهم التى استمرت أكثر من قرن ونصف من الزمان، منذ عهد باسيل الثانى سنة ١٠١٨م، نجحوا فى تأسيس المملكة البلغارية الثانية وطرحوا طاعة البيزنطيين، بل إن هذه المملكة، تحولت إلى قوة مناوئة للإمارة اللاتينية فى القسطنطينية بعد نجاح الحملة الصليبية الرابعة ضد بيزنطة(١٥)، وبالإضافة إلى انسلاخ أملاك بيزنطة عنها، تقدم الصليبيون فى أراضيها وازدادت كراهيتهم لها(١٦)، فعلى الرغم من المعاهدة التى عقدها البيزنطيون مع الإمبراطور الألمانى فردريك بربروسا قبل خروج هذا العاهل فى الحملة الثالثة، إلا أن اسحق أنجيلوس لم يكن يثق فى الامبراطور الألمانى، وربما لهذا سعى البيزنطيون للتحالف مع كل من صلاح الدين وسلطان قونية السلجوقى، ولما عبر الألمان البسفور إلى آسيا الصغرى وسط مظاهر الشك وعدم الأطمئنان من بيزنطة، سيطر على هذا الشق من الحملة الثالثة شعور العداء لإمبراطور القسطنطينية، لولا أن انتهى الأمر بغرق الامبراطور الألمانى فى أحد أنهار قيليقيا بآسيا الصغرى، وفشل هذا الشق من الحملة الثالثة، فتنفست بيزنطة الصعداء قليلا، غير أن ريتشارد قلب الأسد فاجأ بيزنطة بعد فشل الحملة الثالثة فى بلاد الشام بالاستيلاء على قبرص.

---

(١٤) حسنين ربيع: نفسه ص ٢٤١.

(١٥) حسنين ربيع: نفسه ص ٢٤٣.

(16) Hussey: op.cit. p.66.

فانتقلت قبرص من التبعية لبيزنطة إلى التبعية للاتين، ووسط مظاهر الإحباط وفشل السياسة الخارجية لبيزنطة[١٧]، برز أخ للامبراطور اسحق الثانى أنجيلوس ليستغل الموقف لصالحه، ويأمر بالقبض على أخيه اسحق وابنه سنة ١١٩٥م، ويعتلى عرش الدولة باسم الإمبراطور ألكسيوس الثالث[١٨]، بل إنه لم يكتف بالزج بأخيه فى السجن وخلعه من العرش، بل أمر أيضا بسمل عينيه، حتى لايتطلع بعد ذلك للعودة للحكم.

وانتهز هنرى السادس بن فردريك بربروسا الفرصة ليفرغ حصيلة هائلة من العداء لبيزنطة، ربما تراكمت آثارها منذ عهد والده، فاضطر الإمبراطور المغتصب للعرش البيزنطى (ألكسيوس الثالث) لشراء السلام من هنرى بدفع إتاوة كبيرة ،ومع ذلك لم يمنحه ذلك سلاما حقيقيا لأن هنرى السادس فكر فى قيادة حملة ضد بيزنطة سنة ١١٩٧م، لولا أن دهمه الموت فى نفس العام فتخلصت بيزنطة من عدو خطير[١٩]، وفى نفس الوقت نجح ابن الامبراطور المخلوع فى بيزنطة فى الفرار من السجن بعد سمل عينى والده، وهو الذى عرف بعدئذ باسم ألكسيوس الرابع، ووصل إلى أوربا حيث أخذ يستنجد بملوكها وأمرائها ضد عمه المغتصب، ويحاول تأليب الغرب الأوربى ضد الامبراطور الجديد «ألكسيوس الثالث»، الذى اغتصب العرش وارتكب فى سبيل ذلك أبشع الجرائم[٢٠].

---

(١٧) حسنين ربيع: دراسات ص ٢٤٦.

(18) Ostrogorsky: op.cit. p. 362.

(١٩) حسنين ربيع: نفسه ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

Hussey: op.cit. p.66.

(20) Ostrogorsky: op.cit. p. 369.

ولم يحدث تغيير كبير فى سياسة الإمبراطورية الخارجية، على عهد هذا الامبراطور المغتصب «ألكسيوس الثالث» الأنجيلى (١١٩٥-١٢٠٣م)، إلا أن سياسته الداخلية ساءت كثيرا، وعمت الفوضى فى سائر أنحاء الامبراطورية فى الوقت الذى تمكن فيه ابن أخيه المعزول من الفرار والاتجاه غربا لاستعداء زعماء وملوك الغرب الأوربى ضد عمه المغتصب[٢١]. فى الوقت الذى كانت فيه أقطار الغرب الأوربى قد حنقت على بيزنطة حنقا شديدا، وازدادت فيها كراهية البيزنطيين، لما شاع من مواقفهم تجاه الصليبيين، وماقيل من إفسادهم خطط الغرب الأوربى فى الشرق[٢٢]، خاصة بعد أن عادت الحملة الصليبية الثالثة إلى غرب أوربا دون أن تحقق أهدافها فى استعادة بيت المقدس إلى أيدى اللاتين، بعد أن ضمها صلاح الدين الى ملكه محدثا كارثة للكيان الصليبى كله ببلاد الشام[٢٣]، ازدادت كراهية الغرب لبيزنطة فى الوقت الذى تجمع جنود الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة فى البندقية، استعدادا للوصول إلى بلاد الشام أو مصر انتقاما لماحدث للصليبيين فى الشام على يد صلاح الدين، ومحاولة استعادة التوازن وإعادة ميزان القوى فى صالح الصليبيين من جديد فى المنطقة[٢٤].

ولما كان الصليبيون بحاجة ماسة إلى جهود البندقية والاستعانة بأساطيلها لنقلهم إلى الشرق، فقد أصبح للبندقية دور كبير فى الحملة الصليبية الجديدة على عهد الدوج الشهير إنريكو داندولو Enrico Dandolo، الذى يعد واحدا من أعظم حكام البندقية، على الرغم من أنه كان فى الثمانين من عمره،

---

(٢١) سيد الناصرى: الروم ص ٤٣٣.

(22) Hussey: op.cit. p. 66.

(23) Grousset: op.cit. II, pp. 809 - 19.

(24) Runciman: op.cit. III, pp. 115-16.

Hussey: op.cit. p.67.

فضلا عن أنه كان ضريرا، فقد وضع مصالح البندقية فوق كل اعتبار، ووزن الأمور بميزان الربح والخسارة[٢٥]، فرأت البندقية التى يهمها دائما مصالحها التجارية وتحقيق مطامعها فى الشرق أنها تعرضت لعداء بيزنطة، التى وقفت من مصالحها التجارية ومصالح رعاياها فى بيزنطة وأملاكها موقفا عدائيا وغير ودى، ولهذا مالت البندقية إلى توجيه تلك الحملة ضد الدولة البيزنطية لنجدة ألكسيوس الرابع وإنقاذ بيزنطة مما حل بها على يد الامبراطور المغتصب ألكسيوس الثالث ظاهريا وضم مدينة القسطنطينية إلى امبراطورية البندقية التجارية والسيطرة على تجارتها فعليا وحقيقيا[٢٦].

ويبدو أن سعى الإبن الهارب «ألكسيوس الرابع» للفوز بتأييد البندقية كان له الدور الحاسم فى تحول الحملة الصليبية الرابعة إلى القسطنطينية[٢٧]، فى الوقت الذى مال فيه الصليبيون إلى عقاب بيزنطة عن كل مافعلته تجاه الحركة الصليبية منذ قيامها فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، أى قبل ذلك بنحو قرن من الزمان، وهكذا بدأت الحملة الصليبية الرابعة تتحول إلى القسطنطينية بدلا من أن تصل إلى أهدافها الأصلية فى الشرق[٢٨].

فقد وصل وفد من زعماء الحملة الصليبية إلى مدينة البندقية للتفاوض لنقل الجنود والعتاد إلى الشرق وكان فى تخطيطهم الوصول إلى مصر، لكن دوج البندقية لم يشأ أن يفسد علاقته بالملك العادل الأيوبى فى مصر، وبفقد

---

(٢٥) سيد الناصرى: الروم ص ٤٣٧.

(٢٦) الناصرى: نفسه ص ٤٣٧.

(27) Bréhier: op.cit. p. 366.

(28) Camb. Med. Hist. V.5, p. 411.

Hussey: op.cit. p.67.

الامتيازات التجارية التى سمح له الأيوبيون فى مصر والشام بها[٢٩]، فأخذ الدوج يغالى فى شروطه لنقل الحملة الى الشرق، ثم أغرى الصليبيين بذهب القسطنطينية وثراء بيزنطة، فى الوقت الذى أسرف فيه أيضا ألكسيوس بن اسحق انجيلوس فى وعوده لزعماء الصليبيين، إذا ما أعيد لعرشه بالإضافة إلى الشعور العام الذى سيطر على الغرب الأوربى، تجاه بيزنطة فنجح داندولو فى النهاية فى تحويل الحملة الرابعة عن هدفها لتتجه صوب القسطنطينية[٣٠].

توجهت الحملة الصليبية الرابعة نحو القسطنطينية فعلا، وانتهى الأمر بالقضاء على الدولة البيزنطية رسميا، واقتطع الصليبيون أملاكها وأقاليمها، وصار الأمراء الصليبيون يسيطرون على أجزاء تلك الامبراطورية الزائلة، فيما عدا مناطق قليلة ظلت بأيدى بعض الأمراء البيزنطيين[٣١] فى نيقية وطرابيزون، أى صارت تلك الأجزاء تمثل أملاك الحكومة البيزنطية فى المنفى، وهى الأقاليم التى أنيط بها إعادة الدولة البائدة واستعادة نفوذها وبعثها إلى الحياة من جديد وإعادة الأوضاع إلى ماكانت عليه من قبل[٣٢].

لكن الصليبيين نجحوا من خلال الحملة الصليبية الرابعة فيما فشل فيه قادة الحملات الصليبية من قبل، إذ صارت تلك الإمبراطورية الزائلة، إحدى الإمارات اللاتينية تضاف إلى مابيد الصليبيين فى بلاد الشام، وظلوا بها أكثر من نصف قرن من الزمان ١٢٠٤ - ١٢٦١م)، غير حافلين بمحاولات

(29) Camb. Med. Hist. V.5, p. 329.
Grousset: op.cit. III, p. 171.
Runciman: op.cit. III, p.113.

(٣٠) سيد الناصرى: الروم ص ٤٣٩.

(31) Ostrogorsky: op.cit. p. 372 p. 378.

(32) Camb. Med. Hist. V.4, pp. 424 - 5.

الحكومة البيزنطية فى المنفى التى كانت تنشط أحيانا لتبعث بيزنطة من سباتها العميق دون جدوى، خلال ذلك الأمد الطويل[٣٣]. فقد عاشت هذه الإمارة اللاتينية أكثر من نصف قرن من الزمان على أنقاض الامبراطورية البيزنطية مستفيدة لاشك بما جرى من انفتاح بيزنطة على الغرب الأوربى منذ عهد مانويل كومنين ومحاولة أن تتشبث بموقفها على الرغم من محاولات البيزنطيين إحياء امبراطوريتهم وبعثها إلى الحياة من جديد[٣٤].

وإذا كانت بيزنطة قد بعثت فعلا من جديد واستمرت نحو قرنين من الزمان بعد هذه الأحداث أى إلى قرب منتصف القرن الخامس عشر الميلادى حتى قضى عليها الأتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣م، فإن كثيرا من المؤرخين لايعترف بالفترة البيزنطية بعد حكم اللاتين، بل يميل إلى اعتبار سنة ١٢٠٤م نهاية للتاريخ البيزنطى حين سقطت القسطنطينية فى أيدى اللاتين[٣٥]، ومن هؤلاء المؤرخين المؤرخ ذائع الصيت نورمان بينز Baynes، الذى أنهى كتابه عن الامبراطورية البيزنطية بالحديث عن استيلاء اللاتين على العاصمة البيزنطية سنة ١٢٠٤م باعتبار ذلك نهاية التاريخ البيزنطى، ويسوق المؤرخون حججهم على ذلك وعدم اعترافهم بالدولة البيزنطية فى الحقبة الأخيرة بعد حكم اللاتين بأن تلك الدولة تأثرت دون شك بمؤثرات جديدة وتعرضت لأحداث متلاحقة[٣٦]، وكان أثر الغرب الأوربى فيها بعيدا بعد سقوطها فى أيدى اللاتين ولم يعد تاريخها تاريخا بيزنطيا نقيا بعد زوال حكم اللاتين منها، فقد تركت تلك الفترة التى خضعت فيها للصليبيين بصماتها

---

(33) Ostrogorsky: op.cit. p. 376.

(34) Hussey: op.cit. p.70.

(٣٥) جوزيف نسيم يوسف: المرجع السابق ص ٢٤٧.

(36) Ostrogorsky: op.cit. p. 372 - 3, p. 377.

الواضحة على كل مظاهر الحياة والحضارة فى بيزنطة وخلفت آثارها الواضحة فى كل مناحى الحياة فى تلك الدولة بحيث تباعدت القسطنطينية عن عظمتها السالفة ومجدها القديم(٣٧)، ولم تعد فى حقيقة الأمر سوى ذكرى من ذكريات الماضى البعيد ومجرد ذكرى لعصور غابرة كتبت فى مؤلفات الكتاب والمؤرخين.

(37) Ibid. p. 377.
Hussey: op.cit. p.69.

أولا: المصادر والمراجع باللغة العربية:

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الجزرى) :

- الكامل فى التاريخ (ط بيروت ١٣٨٥/١٩٦٥هـ، ط مصر ١٣٤٨هـ)

- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل (تحقيق عبد القادر طليمات - القاهرة ١٩٦٣).

ابن الأزرق الفارقى:

- تاريخ الفارقى (تحقيق بدوى عبد اللطيف - القاهرة ١٩٥٩).

البلاذرى (أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر) :

- فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٩هـ/١٩٠١م، ونشر المنجد سنة ١٩٥٦).

البندارى (أبو الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى) :

- مختصر تواريخ آل سلجوق (تحقيق هوتسما - ليدن سنة ١٨٨٩م).

الراوندى (محمد بن على بن سليمان) :

- راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ آل سلجوق (نشر إقبال نقله إلى العربية د. الشواربى، وآخرون - القاهرة ١٩٦٠)

ابن خرداذبة (أبو القاسم عبيد الله) :

- المسالك والممالك (ليدن سنة ١٨٨٩م، وط١٩٦٧م).

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) :

- فتوح مصر والمغرب والأندلس (تحقيق عبد المنعم عامر - القاهرة ١٩٦١، وط ليدن سنة ١٩٢٠).

ابن العديم (عمر بن أحمد):

- زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٢ج (تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١، سنة ١٩٥٤).

الطبرى (محمد بن جرير):

- تاريخ الرسل والملوك (ط القاهرة ١٣٢٦هـ/١٣ جزء، ط ليدن ١٨٧٩ - ١٩٠١م).

أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا اسماعيل):

- المختصر فى أخبار البشر (ط القاهرة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م، ط دى سلان، ط استانبول ١١٨٦هـ).

المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى):

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (احسان عباس، بيروت ١٩٦٨).

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على):

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ٢ج (تحقيق محمد حلمى أحمد، القاهرة ١٩٧١، ط القاهرة ١٩٤٨م).

ابن القلانسى (أبو يعلى حمزة):

-ذيل تاريخ دمشق (تحقيق آمدروز سنة ١٩٠٨م).

الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب):

- كتاب الولاة والقضاة (روفن جست، ط بيروت ١٩٠٨م).

ابن تغرى بردى (المحاسن يوسف):

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (القاهرة سنة ١٩٢٩م).

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على):

- التنبيه والإشراف (طبعة بيروت، طبعة القاهرة ١٩٣٨).

- مروج الذهب ومعادن الجوهر (ط بيروت سنة ١٩٦٦، ط بولاق بالقاهرة).

مسكوية (أبو على احمد بن محمد):

- تجارب الأمم (نشر أمدروز، ط القاهرة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م).

ابن هشام:

- السيرة النبوية (تحقيق مصطفى السقا وآخرون وط القاهرة).

أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل):

- الروضتين فى أخبار الدولتين ٢ ج (القاهرة سنة ١٢٨٨).

ياقوت الحموى (شهاب الدين ابى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى):

- معجم البلدان (ط بيروت ١٩٦٧، وط مصر سنة ١٩٠٦).

يحيى بن سعيد الأنطاكى:

- التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق (نشر شيخو - بيروت سنة ١٩٠٩م).

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح):

- تاريخ اليعقوبى (نشر هوتسما - ليدن ١٨٨٣ جزءان).

•°•

ابراهيم أحمد العدوى (دكتور):

- الأمويون والبيزنطيون (القاهرة سنة ١٩٥٣).

- الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم (الطبعة الثانية سنة ١٩٥٨م).

ابراهيم على طرخان (دكتور):

- الحركة اللاأيقونية فى الدولة البيزنطية (مصر سنة ١٩٥٦).

إحسان عباس:

- العرب فى صقلية (القاهرة سنة ١٩٥٩م)

أحمد عبد الكريم سليمان (دكتور):

-.المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط (القاهرة سنة ١٩٨٢)

أرشيبالد لويس:

- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط (ترجمة أحمد محمد عيسى ومراجعة غربال - القاهرة سنة ١٩٦٠م).

أسد رستم:

-الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (بيروت ١٩٥٦)

إسمت غنيم (دكتورة):

- إمبراطورية جستنيان (الاسكندرية سنة ١٩٨٢م).

- الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية (الاسكندرية ١٩٨٣).

- زواج التحالف فى العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٨٦).

-العلاقات البيزنطية الألمانية أثناء الحملة الصليبية الثانية فى ضوء وثائق كيناموس (١٩٨٨م).

- الآثار (الاسكندرية ١٩٩١).

أومان (سير شارل) :

– الامبراطورية البيزنطية (ترجمة مصطفى طه بدر – القاهرة ١٩٥٣)

بينز (نورمان) :

– الإمبراطورية البيزنطية (ترجمة د. حسين مؤنس ومحمود زايد) .

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

– تاريخ الدولة البيزنطية ٢٨٤ – ١٤٥٣م (الاسكندرية ١٩٨٨) .

– الاسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٨٦) .

– دراسات فى تايخ العصور الوسطى الأوربية (الاسكندرية ١٩٨٣) .

جيبون:

– اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها:

ج١ ترجمة محمد على أبو درة (مراجعة نجيب هاشم) .

ج٢ ترجمة لويس اسكندر (مراجعة نجيب هاشم) .

ج٣ ترجمة محمد سليم سالم (مراجعة محمد على أبو درة) .

حسنين ربيع (دكتور) :

– دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة سنة ١٩٨٣)

ديفز (كارلس) :

– شارلمان (ترجمة د. السيد الباز العرينى – القاهرة ١٩٥٩) .

– أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة د. عبد الحميد حمدى – الاسكندرية ١٩٥٨)

رنسمان (ستيفن) :

– الحضارة البيزنطية (ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة زكى بدر)

رأفت عبد الحميد (دكتور) :

– الدولة والكنيسة (الجزء الأول – القاهرة ١٩٧٤، الجزء الثانى – القاهرة ١٩٨٠).

رستوفتزف:

– تاريخ الامبراطورية الرومانية (ترجمة د. زكى على) .

زبيدة محمد عطا (دكتورة) :

– المقاتل البيزنطى (المنيا سنة ١٩٨٢م)

– الحياة الاقتصادية فى مصر البيزنطية (القاهرة سنة ١٩٨٣م) .

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

– أوربا العصور الوسطى جزءان (القاهرة ١٩٦٦) .

– الحركة الصليبية جزءان (القاهرة ١٩٦٣) .

سيد أحمد الناصرى (دكتور) :

– الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربى (القاهرة سنة ١٩٩٣) .

السيد الباز العرينى (دكتور) :

–تاريخ الدولة البيزنطية (القاهرة سنة ١٩٦٥م) .

– تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (بيروت سنة ١٩٦٨م) .

– الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة سنة ١٩٦٣م)

السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

– تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس (بيروت ١٩٦٢م) .

– دراسات فى تاريخ العرب (العصر العباسى الأول ج ٣) .

شاكر مصطفى (دكتور):

- دولة بنى العباس ٢ ج (الكويت سنة ١٩٧٣)

صابر محمد دياب حسين (دكتور):

- أرمينية من الفتح الاسلامى إلى مستهل القرن الخامس الهجرى (القاهرة ١٩٧٨).

عبد الغنى محمود عبد المعطى (دكتور):

السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور الكسيوس كومنين (١٩٨٨)م

عبد القادر اليوسف (دكتور):

- الامبراطورية البيزنطية (بيروت ١٩٦٦م).

- العصور الوسطى الأوربية (بيروت ١٩٦٠م).

عمر كمال توفيق (دكتور):

- تاريخ الامبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ١٩٦٧م)

- مقدمات العدوان الصليبى على بلاد الشام (الاسكندرية ١٩٦٦م)

- الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة (الاسكندرية ١٩٥٩)

ڤازيلييف:

- العرب والروم (ترجمة محمد عبد الهادى شعيرة)

فايز نجيب إسكندر (دكتور):

- البيزنطيون والأتراك السلاجقة فى معركة ملاذكرد فى مصنف نقفور برينيوس (١٩٨٤).
- أرمينية بين البيزنطيين والخلفاء الراشدين فى ضوء كتابات المؤرخ الأرمنى جيوفوند ٦٣٢- ٦٦١م/١١-٤٠هـ (الاسكندرية ١٩٨٢).
- أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة ١٠٠٠- ١٠٧١م (الاسكندرية ١٩٨٣).

فشر:

- تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة زيادة والعرينى والعدوى) - جزءان.

كانتور (نورمان):

- التاريخ الوسيط (ترجمة د. قاسم عبده قاسم).

كرمب وجاكوب:

- تراث العصور الوسطى (مراجعة محمد بدران ود. زيادة - القاهرة ١٩٦٥م).

- ليفى بروفنسال:

- الاسلام فى المغرب والأندلس (ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمى ١٩٥٦).

محمد حمد مرسى الشيخ (دكتور):

- الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (الاسكندرية ١٩٧٢م).
- الإمارات العربية فى بلاد الشام فى القرنين ١١، ١٢م (الاسكندرية ١٩٨٠م).

- الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٧٥م).
- دولة الفرنجة وعلاقاتها بالمسلمين فى الأندلس حتى نهاية القرن ١٠م (الاسكندرية سنة ١٩٨٠م).
- تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربى حتى نهاية الدولة الفاطمية (الاسكندرية ١٩٩٠).
- تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٩٠م).
- سياسة الإمبراطور البيزنطى ثيوفيلوس تجاه الخلافة العباسية (مقالة سنة ١٩٧٩).

محمود سعيد عمران (دكتور):

- إدارة الامبراطورية البيزنطية للامبراطور قنسطنطين السابع • عرض وتحليل وتعليق (بيروت ١٩٨٠).

موس:

- ميلاد العصور الوسطى (ترجمة عبد العزيز جاويد ومراجعة العرينى).

وسام عبد العزيز فرج (دكتور):

- العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى (الاسكندرية ١٩٨١).
- دراسات فى تاريخ وحضارة الامبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ١٩٨٣).
- الزواج الرابع للامبراطور ليو السادس ٨٨٦ - ٩١٢م (الاسكندرية ١٩٩١).

ثانيا: المصادر والمراجع الأجنبية:

- The Alexiad of Anna Commena (trans by E.R.A. Sewter 1969).

Cedrenus:

Historiarum Conpendium, in P.G.T, 121 Col. 959 (Belgium), ed. Bekker, Bonn 1839.

Genesius:

Regna (ed. Lachmann, 1834).

Leo Grammaticus:

Chronogaphia, (Bonn 1842).

Leonis Diaconus:

Historia, Leber C.S.H.B. Bonn 1828.

Monachus:

Vitae Recentiorum imperatorum C.S.H.B. ed. Bekker Bonn 1838.

Procopius:

De bello Vandalico, English trans. by Dewing.

De bello Persico C.S.H.B. Vol. I, Bonn 1833.

Psellus Michael:

Chronographia (trans. from the Greek by Sewter).

Scylitzes:

Snoposis Historarum, ed. Boor Leipzig 1904.

Theophanes:

Chronographia, ed. de Boor, Leipzig 1883, ed. Bonn Chavanne.

Theophanes Continuatus:

Historia in C.S.H.B. , Bonn 1838.

Zonaras:

Epitome Historiarum, ed. Pender and Buttner - Wobst, Bonn 1841-97.

Baldwin. M W

The Crusades. vol 1. (Philadelphia 1955)

The Latin States under Baldwin III.

Baynes. N.H.

The Byzantine Empire (London 1926).

Constantine the Great and the christian Church (London 1929)

Bynes and Moss.

Byzantium (Oxford 1948)

Bell. H.L

Egypt from Alexander the great to the arbe Conquest (Oxford 1948).

Bréhier. L.

L'Eglise et L orient au Moyen âge les croisades (Paris 1928)

Vie et mort de Byzance (Paris 1947).

Brooke, E.

A History of Europe 911 1198 (London 1928).

Bryce. W C

Primitive Iceland (Oxford 1901).

The Holly Roman Empire (London 1904)

Browne. E.G.

Account of a rare, if not unique manuscript history of the Seljuqs. J.R.A.S. (July 1902

Bury. J.B

A History of the Later Roman Empire 2 Vols (London 1923).

A History of the eastern Roman Empire (London 1912)

A History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene 2 vols (London 1899

Burckhardt:

The Age of Constantine the great.

Butler, A.:

The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902).

Cahen, C.:

La Syrie du Nord à L'époque des Croisades (Paris 1940).

Cambridge Medieval History & Vol.s (Cambridge 1924).

Canard, M.:

Histoire de la Dynastie de Hamdanides de Jazira et de Syrie (Paris 1953).

Cantor, N.F.:

Medieval History (New York 1964).

The Medieval World 300-1300 (ed. by Cantor N.Y. 1968).

Chadwick, H.:

The early Church (London 1967).

Chalandon, F.:

Les comnénes, Etude sur L'empire byzantin au xle et aux X11e siecle 2 vols. (Paris 1900-1912).

Diehl, charles:

History of the Byzantine Empire (Princeton 1925- New York 1945).

L'Egypte Byzantine.

La legende de l'Empereur Theophile.

Diehl et Marcias:

Le monde oriental de 395 a 1081 (Paris 1936).

Histoire du Moyen Age (Paris 1936)

Dunlop:

History of the Jewish Khazars (Princeton 1954).

Finlay, G.:

History of the Byzantine Empire (London 1906).

Gesquest, A.:

L'Empire byzantin et la monarchie Franque (Paris 1888).

Gibbon :

The History of the Decline and the Fall of the Roman Empire 7 vol. (oxford 1929).

Gay, I.:

L'Italie meridionale et l'Empire Byzantin 867 - 1701 (Paris 1904).

Grousset, R.:

L'Empire du levant Paris 1946).

Histoire de l'Armenie (Parie 1947).

Histoire des Croisades et du Royaume de Jerusalem 3, T. (Paris 1936).

Halphen, L.:

Babare's des grandes invasions aux conquêtes Turques de X1 siecle (Paris 1926).

Hardy:

Studies in Roman History , 2 vols. (London 1910).

Christian Egypt.

Haskins, C.H.:

The Normans in european History (New York 1959).

Hearder and Waley:

A History of Italey.

Heyd, w.:

Histoire du commerce du levant au moyen age 2 vols. (Leipzig 1885, Reprint 1923).

Hill, G.H.:

A History of Cyprus 3 Vol. (Cambridege 1948).

Holme, W.G.:

The Age of Justinian and Theodora 2 vol. (London 1912).

Hussey, T.M.:

The Byzantine World. (London 1967).

Jones, A.H.M.:

The Greek City from Alexander to Justinian (Oxford 1940)

Kaegi, W.E.:

Byzantium and the Decline of rome (Princeton 1968).

Katz, S.:

The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe (New York 1955).

Keen, S.:

A History of Medieval Europe (London 1967).

La Monte:

The World of the Middle Ages (London 1966).

Laurent, J.:

Byzance et les Turcs Seljoucides dans l'Asie occidentale jusqu'en 1081 (Paris 1013-14).

Lemerle, P.:

Histoire des Byzance (Paris 1975).

Lewis, B.

The Arabs in History (London 1966).

Lewis, A.R.:

Naval Power and trade in the Mediterranean A.D. 500-1100 (Princeton 1954).

Lodge Sir R.:

The Close of the middle ages (London 1963).

Lot, F.:

The end of the Ancient World and the Begining of the middle ages (London 1966).

Maclagan, M.:

The city of Constantinople (New York 1968).

Marçias:

La Berberic Musulmane et L'orient au Moyen Ages (Paris 1946).

Martin, E.J. :

A history of the Inconoclastic Controversy (London 1930)

Oman Sir C.:

A History of the Art of War in the middle Ages 2 Vols. (London 1924) .

Story of the Byzantine Empire (New York 1892).

The Dark Ages 476 - 918 (London 1962).

Obolensky:

Byzantine Commonwealth Eastern Europe 500 - 1453 (London 1971).

Ostrogosrky, G.:

A History of the Byzantine States, trans. by Hussey (Oxford 1956).

Pirenne, H.:

Mohamed and Charlemagn (London 1968).

Rambaud, A.:

L'Empire grec au dixieme siecle (Paris 1870).

Runciman, S.:

Byzantine Civilization (London 1933).

The Emperor Romans Lecapenus and His Reign (Cambridge 1929).

History of the Crusades 3 Vols. (London . 1971).

A History of the First Bulgarian Empire (London 1930).

A History of the Art of War (London 1924).

Rice, C.T.:

The Byzantines (Londno 1962).

Schlumberger, G. :

Un Empereur Byzantin au dixieme siecle Nicephore Phocas (Paris 1890).

L'Epopée Byzantine à la Fin du dixieme siecle 3 vols. (Paris 1896-1905).

Smail:

Crusading Warfare (Cambridge 1976).

Stewart, C.:

Byzantine Legacy (London 1959).

Trevelyan:

History of England Part I (London 1959).

Vasiliev, A.:

The Byzantine Empire (Madison 1952).

Ware:

The Orthodox Chruch

Wiet, W.:

L'Egypte Arabe - Histoire de la Notion Egyptienne Iv (Paris 1937).

المحتوي

الفصل الثامن: